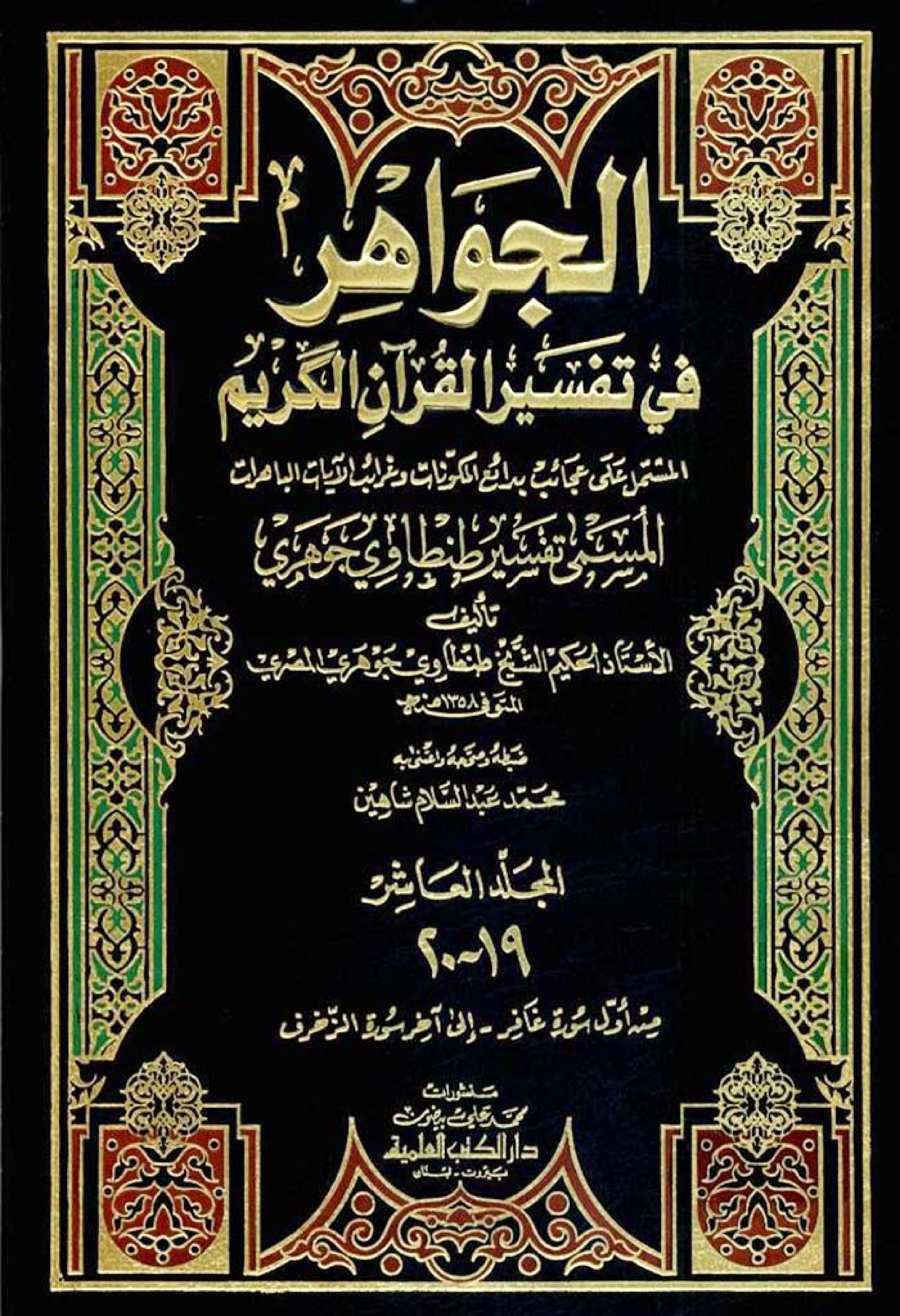


الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد العاشر
١٩-٢٠
من أول سورة غافر - إلى آخر سورة الزخرف
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

١٩ - ٢٠

المحتوى:

من أول سورة غافر - إلى آخر سورة الزخرف

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾[غافر: ٣]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة غافر

هي مكية إلا آيتي:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

فمدنيتان

آياتها ٨٥، نزلت بعد «الزمر»

يروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمثات، فقال: عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب. فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هذه الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم». اهـ.

هذه السورة أربعة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: غلب فيه وصف حملة العرش واتصال عالم الملائكة بعالم الإنسان إشراقاً وتعليماً وتنظيماً لمناسبة ما في آخر سورة «الزمر»، من أول السورة إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

القسم الثالث: الاعتبار بالأمم الماضية وتخصيص موسى بالذكر عليه السلام وبني إسرائيل والمؤمن من آل فرعون، من قوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[الآية: ٢١] إلى قوله: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

القسم الرابع: غلب فيه النظر في عجائب الحكمة الإلهية، من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾[الآية: ٥٦] إلى آخر السورة، فيرجع معظم أجزائها و مقصودها إلى العالم الروحي الأعلى فالأنبياء السابقين فعجائب العالم المحسوس.

القسم الأول: في تفسير البسملة

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والتوفيق ومعرفة بعض العجائب القرآنية والرحمات النورية والبهجات الحكمية والسعادة العقلية والجمال والبهاء والسرور والإبداع، أريتنا أن بين سورة «الزمر» و«المؤمن» المتعاقبتين مناسبة بديعة، ففي آخر الزمر أن الملائكة حافون من حول العرش، فهناك ذكر للعرش وملائكة حافون وتسبيح وتحميد، وهاهنا في سورة «المؤمن» ذكر الملائكة والعرش والتسبيح والتحميد، وهكذا ذكر العرش مرة أخرى فيها: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾[غافر: ١٥] وبين ما ذكر في آخر سورة «الزمر» وما ذكر في أوائل سورة «المؤمن» من العرش والملائكة والتسبيح والتحميد جاءت البسملة وفيها اسم الله واسم الرحمن الرحيم. هاهنا رحمة جاء ذكرها متخللاً ذكر العرش وما معه، وكما أن الرحمة العامة في البسملة في أول سورة «ص» كان اتجاهها إيقاظاً لصفة الإخلاص المذكور معناه في آخر سورة «الصافات» وفي أول سورة «ص»، هكذا هنا الرحمة العامة في البسملة متجهة إلى إفاضة العلم والحكمة وتعميم الهداية في نوع الإنسان. فإن أولئك الملائكة الحافين من حول العرش المسبحين بحمد ربهم يستغفرون للذين آمنوا، والله الذي أبدع العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، والرسل بينه وبين الأنبياء هم الملائكة.

واعلم أن عروش الملوك لا تقوم إلا على دعامتين: دعامة هي أبهة الملك وعظمته وترجع إلى القدرة والجاه، ودعامة هي العلم الذي به نظم ذلك الملك، والمملكة التي لا قوة فيها ولا نظام لها مفككة الأجزاء معطلة واهية ذاهبة، فكل عرش إنما يقوم على القدرة وعلى العلم. والقدرة تكون بالمال وبالرجال، والعلم يقوم بنظام الحياة الطبيعية والحياة السياسية. فله إذن في أرضنا أربع دعائم. وعرش الله عز وجل مشروح في آية الكرسي ومبناه فيها العلم والقدرة. فإذا كان الله سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يحيطون بشيء من علمه الخ؛ فذلك كله راجع للعلم، وكونه له ما في السماوات وما في الأرض ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فذلك راجع للقدرة. ولقد جاء ذكر العرش في آخر سورة «التوبة في الآية ١٢٩»: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وجاء في أول سورة «يونس الآية ٣»: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾، فالاستواء على العرش بالقدرة وتدبير الأمر بالعلم. وجاء في أول سورة «هود بعدها الآية ٧»: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، والمقام هناك واضح في معنى العرش الذي سقنا له الكلام هنا إن كل عرش لا يتم إلا بعلم وقدرة. وإذا كان العرش في آخر «التوبة» وفي أوائل سورة «يونس» و«هود» يذكرنا بأن الأمم الإسلامية تولت عروش أمم وقامت بحفظ بلادها. وتلك الأمم هي المذكورة في سورة «يونس» و«هود».

فتكرار العرش هناك في السور الثلاث وتخلل ذكر الرحمة في البسملة في أوائلها قد أعقبه أن ملك المسلمون تلك العروش في أرض مصر المشار إليها بقصة موسى وهارون فيها وأرض الجزيرة وما بين النهرين من بلاد الآشوريين والبابليين. فهذه كلها الآن بلاد إسلامية، وهذه البلاد مشار إليها بقصة

يونس إذ كان في نينوى وهي من تلك البلاد . وقد فصلت في سورة « هود » قصة نوح ، ولقد كانت سفينته هناك عند جبال « ارارات » وهذه في تلك الناحية التي قام فيها الكرد اليوم ، وهم يريدون الخروج من الدولة التركية . وهذه الجبال في بلاد العراق مما يلي بلاد الترك . ولا جرم أنها بلاد إسلامية إلى الآن . وهكذا فصلت قصة عاد وثمود وقصة إبراهيم ولوط ومدين وموسى . ولا جرم أن هذه البلاد كلها عربية وهي إسلامية اليوم . فلوط ببلاد الشام ، وهكذا إبراهيم وعاد وثمود في بلاد حضرموت وما يليها ، ومدين حوالي بحر القلزم وهو البحر الأحمر من جهات الشرق . فهذه العروش كلها أصبحت عروشاً إسلامية . هذا ما تقدم في سورة « التوبة » و« يونس » و« هود » . وهكذا هنا فإن العرش الذي ذكر في سورة « الزمر » وفي سورة « المؤمن » قد ذكرنا بالهداية العامة والملك كما تقدم . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى : ٥] ، فالملائكة الحافون من حول العرش لهم حالان : تنزيه الله عما لا يليق بجماله ، واستغفار لمن في الأرض . ومن طلب المغفرة لأحد أحب هدايته ، والملائكة هم الذين يلهمون الناس الخير ، وهم الذين يكونون سفراء بين الله وبين أنبيائه ، فهم ملقنون الوحي للأنبياء وهم ملهمو الخير للمؤمنين . وترى هذا الأمر واضحاً في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر : ٧] ، فذكر الرحمة وذكر العلم . ثم يقولون : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾[غافر : ٧] الخ .

وهذه الصفة العلمية هي إحدى الدعامتين اللتين تنقسمان إلى قسمين آخرين كما تقدم . وتكون هذه الأربعة الدعائم للعروش ، والدعامة الأخرى هي القدرة ولقد غلبت هنا في ذكر الأمم السابقة : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[غافر : ٢١] الخ . وفصل بعضهم في خلال قصة موسى إذ قال : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[غافر : ٣١] ، فهذه القصص مفصلة ومجملة ترجع للقصص التي في سورة « يونس » و« هود » بعد سورة « التوبة » ، وكلها ذات عروش والعروش قد أصبحت للمسلمين . ذكر العرش في « التوبة » وما بعدها وذكره في « الزمر » وسورة « المؤمن » للإشارة إلى ما وصفنا من أن هذه العروش في تلك البلاد لا تزال إلى الآن في أيدي المسلمين .

واعلم أن هذا إن لم نتبعه بنصائح للمسلمين لا يكون العلم به نافعاً ، فإنه إذا كان ذكر العرش في هاتين السورتين مشيراً إلى ذلك كما أشار في السور الثلاث السابقة وهي هود وما بعدها من غير عظة تلحقه وعمل يتبع العلم ؛ بقي المسلمون على ما هم عليه يفرحون بما يفتح عليهم من أسرار القرآن ، ولكنهم لا يحركون ساكناً ويتركون حبل الأمم على غاربها ، ونحن نقول أيها المسلمون : هذه العجائب ومعرفتها ليست تجزينا وحدها ، فالعلم إن لم يتبعه العمل لم يفد الناس . فإذا سمعت أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض فذلك تذكير لنا أن نبرع في أمرين : الأمر الأول : المعرفة العامة بالعلوم الطبيعية والرياضية حتى ندرك جمال الله وجلاله في السماوات والأرض بدراسة علوم جميع الأمم حولنا مع إضافة مباحثنا العقلية ، وبذلك وحده ندرك معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الشورى : ٥] ، فكيف يكون التنزيه بلا علم بالآثار التي أبدعها ،

وكيف يكون حمد على نعم نجهل تفصيلها ، فالحمد اللفظي عبادة والحمد الحقيقي علم ولا علم إلا بالدراسة ومعرفة الحقائق ، والعابد الجاهل قليل المنفعة ، والعالم هو الذي اتبع الأنبياء وقلد الملائكة المسبحين بحمد ربهم . الأمر الثاني : أن نكون نافعين للناس فلا تكون حياتنا وقفاً على العلم وحده ، لأن ثمرة العلم إفاضة الخير على الناس ، و الملائكة الحافون حول العرش كما أنهم يسبحون بحمد ربهم يفيضون الخير على أهل الأرض ، ولا جرم أن لنا ضمائر وعقولاً هي محل إفاضة الخير من الملائكة علينا ، فلنقم بالعلم ولنقم بالعمل والعالم كله متشابه متسق ، فليكن العلماء في الأمم الإسلامية بعدنا متحلين بجمال العالم بهذا الوجود تفصيلاً على قدر إمكانهم أولاً وليكونوا مفيضين على الناس من علومهم ، ويجب أن تكون علومهم شاملة لخيري الدنيا والآخرة حتى يتم حمدهم ، والحمد يكون على نعمة ، ونعمة الدنيا مشاهدة محسوسة . ومن جهل المحسوس جهل المعقول . ومن حمد بلا علم فحمده رياء وقول لفظي ضئيل . وإذا لم يقم العلماء في الإسلام بهذه الشرائط واستمر المسلمون على نومهم العميق وسلموا أعناقهم وخضعوا للجهلاء ممن لا يعقلون بدائع هذه الدنيا وحكم خالقها الحكيم فإن العروش المذكورة في سورة « المؤمن » المفصلة في سورة « يونس » و« هود » التي هي في أيدي المسلمين تميد ويملكها أمم غيرنا ، وهذا آخر إنذار في هذا التفسير للمسلمين .

الملائكة يسبحون ويعلمون الناس الخير وهم حافون حول العرش ، هكذا العلماء حافون حول عروش الأمم الإسلامية . إذا هم لم يقوموا بحق العروش من العلم الجم وإفاضة العلم على أمم الإسلام . وهذا العلم يليق لإقامة العروش وبقائها ، فإن هذه العروش ساقطة في أيدي الأمم الأخرى . ولقد سقطت عروش الأندلس التي كانت مفرقة عشرين دولة ولم يكن لهم من الدين ما يزعمهم ، والشعراء كان لهم بينهم القدح المعلى ، وقبل ذلك سقطت بغداد التي كان لها السلطان على هذه العروش المذكورة في « يونس » وما بعدها وهي سورة « المؤمن » . وإذا كان عرش الله وهو القائم على كل نفس بما كسبت تحفه الملائكة المسبحون المستغفرون لا يفارقونه فكيف يقوم عرش الإنسان الضعيف إلا بعلم وبإفاضة على الخاضعين للعرش .

ومن العجب أن في سورة « التوبة » ذكراً لما يوافق اسمها من أن الله تعالى تاب على النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار الخ ، وتاب على الثلاثة الذين خلفوا الخ ، فهناك توبة وهاهنا توبة وغفران للذنوب المذكورين في قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾[غافر : ٣] ، هاهنا ذكر للعقاب الشديد وذكر للمغفرة ، وما أنسب هذين بالعرش لأن المستوي على العرش يدبر الأمر ، ومن يدبر الأمر يعاقب تارة ويغفر أخرى ويتوب على من يشاء ، وهذا شديد المناسبة بالعرش ، ولذلك ذكر في آخر سورة « التوبة » . فالملك يناسبه ذلك غفران وتوبة تارة وعقوبة تارة أخرى ، وذلك يكون على مقتضى العلم . والعرش إنما يبنى على العلم وعلى القدرة ، ومظاهر هذين تسبيح الملائكة وحمدهم واستغفارهم وهم حافون حوله ، فعلمهم وإفاضتهم الخير على الناس مظاهر وآثار لما فوق ذلك من علم الله وقدرته اللتين بآثارهما أقيم العرش . فالله قادر عليم والملائكة استمدوا منه والمؤمنون لا سيما علماؤهم يستمدون من الملائكة .

وفي هذه السورة من المباحث أنواع:

(١) فجاج الأرض الواسعة وما فيها من حكم وعجائب في آية: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١].

(٢) والسماوات والأرض في آية: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

(٣) تفصيل النوع الأول في آية: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [غافر: ٦٤]، وهنا ذكر صورنا وحسنها.

(٤) تفصيل النوع الثالث في آية: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] ففي هذا تبيان نمو الإنسان حالاً بعد حال.

(٥) بيان الأنعام التي نركبها والتي نأكلها.

(٦) وختم السورة بما يلخص السورة كلها من أنه أرانا آياته كلها، ومن أن سيرنا في الأرض يعرفنا عاقبة الأمم الخ.

(٧) وفي السورة الالتجاء إلى الله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤].

(٨) وفيها أن الله ينصر رسله وتابعيهم: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] الخ، وفيها: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥].

(٩) وفيها تبيان أن الضعفاء يحتجون بأن المستكبرين أضلوهم، ويجيبهم المستكبرون، ويقع الجميع في العذاب.

(١٠) وذلك لأن المدار على الأنواع السبعة السابقة من النظر بالعقل في السماوات والأرض، وخلق الإنسان والأنعام. فإذا احتج إنسان بأن غيره أضله فحجته داحضة، لأنه يقال له: أين عقلك إذن؟ فلك أيها الضعيف عقل كما للمستكبر فكيف أئمته؟ ولماذا لم تسر في الأرض وتنظر العواقب؟.

أفليس من عجب أن يكون الله برحمته أنزل القرآن وعلم المسلمين فيه تربيتين: تربية لا ذكر للأسباب معها غالباً، وهي الصلوات وأنواع العبادات وهي التربية العملية، وتربية علمية وهي المباحث التي تكون بها الهداية، وهذه هي النظرية كالنظر في الأنفس والآفاق الخ، وهذه لا يغتفر فيها إهمال العقل، وبهذه يتحاج المستكبرون والضعفاء ويقع الجميع في العذاب، ولقد علمت أيها الذكي فيما نقلناه عن «كانت» الألماني في كتاب التربية: أن التربية العملية أولاً تكون بلا ذكر للأسباب، فإذا كبر الصبي علم الأسباب. وهنا في القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، فهذا أمر في نفسه مذموم. وهكذا في القتل جاء في سورة «المائدة»: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] الخ، وجاء في سورة «البقرة»: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

هذه في التربية العملية فهي اشتملت على ما لم يذكر معه سبب وعلى ما ذكر معه السبب، وهذا هو الذي قرره علماء التربية في عصرنا، فأما التربية العلمية فلا تصح إلا بالنظر العقلي، ولذلك لما تحاج أهل النار لم ينفع الضعفاء الاحتجاج بالذين استكبروا.

أيها المسلمون، إن القرآن مملوء حكمة وأنتم التاركون لها، وهذه الآيات فيها عجائب ولكن الله تعالى حرمها على النائمين الساهين اللاهين الذين لا يفكرون، فكم ذكر الله محاجة الكفار في النار في هذه السورة وفي سورة «سبأ» وفي سور كثيرة، كل ذلك ليوقظ شعور المسلمين الذين ناموا نوماً عميقاً فيفكروا بعقولهم. إني أنذر المسلمين بهذا التفسير. أنذرهم قبل فوات الفرصة. إن هذا الكتاب قد جاء بين عهدين كبيرين: عهد النوم العميق للأمم السابقة، وعهد اليقظة للأمم المستقبلة. وسيستقبل المسلمون أيام العلم والعمل بعد أن استدبروا أيام الجهل والكسل، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. كتب صباح يوم الخميس ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠. انتهى القسم الأول في تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني من السورة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف كلها في أول «آل عمران» وفي أوائل «العنكبوت» وما بعدها، ويختص الكلام على ﴿حمٓ﴾ هنا بأنها تشير إلى حمد سبق في آخر «الزمر» وحمد يأتي في هذه السورة، والحمدان صادران من الملائكة والمؤمنين، كما رأيت في آخر «الزمر» وكما سترى هنا عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الخ. فرجعت هذه الإشارة العجيبة إلى استكمال قوة العلم وإفاضته على المتعلمين، فإن الحمد وتمامه ليس يكون إلا باستكمال قوة العلم، وكيف يحمد الإنسان على نعمة يجهلها، وكما كانت ﴿الٓمٓ﴾ تشير في «العنكبوت» وما بعدها إلى تحقيق المباحث العنصرية والوقوف على حقائق هكذا هنا يراد بـ«الحاء» و«الميم» استكمال قوة العلم في جميع الفروع، إذ لا حمد كاملاً إلا بعد علم بالمحمود عليه، ولا تعليم بصدق إلا لمن استكمل العلم، وهذا هو الذي تشير له ﴿حمٓ﴾، ولذلك أردفها بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل المعلومات، وحمد العبد تابع لعلمه بما أبدعه الله تعالى، والله يحب من تخلق بأخلاقه والعلم منها ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ساتره ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ أي: التوبة ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، فالأول لمن آمن وأطاع، والثاني لمن كفر وعصى ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي السعة والغنى والفضل والنعم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فليقبل الإنسان بكليته عليه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي كلاً بما يستحق، وهذه الصفات جمعت بين الترغيب والترهيب لئلا ييأس الناس من الرحمة ولا يأمنوا مكر الله، فلما حقق أمر التنزيل سجل الكفر على المجادلين فيه بالباطل. فقد قيل: إن جدالاً في القرآن كفر، فأما الجدال لإيضاح الملتبس فهو مرغوب فيه فقال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، فلا يغررك إمهالهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فإنهم سيؤخذون قريباً كما أخذ من قبلهم ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزبوا على الرسل من بعد نوح كعاد وثمود ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليقتلوه أو ليأسروه ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لا حقيقة له ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليزيلوه به ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالهلاك جزاء لهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف كان عقابي إياهم، ألم يكن مستأصلاً مهلكاً وأنتم تمرون على ديارهم وترون آثارهم؟ وفيه معنى التعجب ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيده وقضاؤه بالعذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ لكفرهم ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدل

من كلمة « ربك »، ابتدأ الله السورة بصفات العزة والعلم والقدرة الواسعة، وبذكر الرحمة والعقاب، ثم أتبع ذلك بمن استوجبوا العقاب وأعقبهم بذكر من هم على النقيض من حالهم فهما على طرفي نقيض، كفار في أسفل دركات الشقاء، وحملة العرش في أعلى دركات العز والهناء فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ ﴾ أي: حاملو العرش والحافون حوله وهم الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجوداً، ولا معنى للحمل إلا الحفظ والتدبير وذلك يستلزم قربهم من ربهم ومكانتهم عنده وعلوهم على العالمين. ألا ترى أن كل من كان في الناس أغزر علماً وأحسن تدبيراً يكون أرقى منزلة، فهؤلاء ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ أي: يذكرونه بمجامع الثناء: (١) من صفات الجلال التي هي عبارة عن التسبيح أي التنزيه عن مقام المحدثين، ككونه لا أول له ولا آخر لبقائه، وأنه مخالف للحوادث في ذاته وصفاته وأفعاله. (٢) ومن صفات الإكرام كعلمه وقدرته وإرادته وكلامه، فالإشارة للأول بالتسبيح وللثاني بالتحميد. فالصفات الأولى كمال والثانية مشتملة على التكميل كالخلق والرزق والهبة والهداية وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ إنّما ذكر للدلالة على إظهار فضيلة الإيمان، وإلا فحمل العرش لا يكون إلا بكمال العلم، ولا كمال للعلم إلا بعد مبدأ الإيمان، و ذلك لأن المقام مقام إبراز أمة، وإبرازها إنّما يكون أولاً بالإيمان ثم يتبعه العلم، فلذلك قصر الكلام على ذلك فقال: ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: يسألون الله المغفرة لهم، ومعنى ذلك أنهم يحملونهم على التوبة ويلهمونهم ما يوجب المغفرة، إن هؤلاء الملائكة ممتعون بالقرب من ربهم فهم مدبرون للعالم نظاماً جسمياً وإرشاداً علمياً، فالوحي منهم للأنبياء بأمر ربهم، والإلهام منهم لذوي الفطر القابلة للخير، ولا يصدهم صادّ عن إلهام الخير لامرئ من الناس إلا إذا كانت فطرته تصده عن القبول منهم فيتولى الشياطين هدايته إلى طريقهم المؤدي إلى الفساد، ثم بين الاستغفار المذكور المعبر به عن إلهامهم بما يكون نتيجة له من حيث شمول الرحمة الإلهية العامة لهم والمغفرة وإدخالهم الجنة مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إذا صلحوا كصلاحهم، وهذا البيان هو قوله: يقولون: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾، فإن كل حيوان مثلاً قد ألهم ما به صلاحه الموافق له وفطر عليه، والإنسان بعدت طرقه ونحن نجد في هدايته إلى الصراط المستقيم بالإلهام والإرشاد، ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾ لاستعداد فطرهم لقبول الهداية من الرسول وخلفائه ومن الإلهامات التي نوجهها إليهم ﴿ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ واحفظهم عنه ﴿ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ ﴾ إياها ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ ﴾ عطف على « هم » من « أدخلهم »، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الملك الذي لا يغلب وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً خالياً عن الحكمة، ومن موجب حكمتك أن تدخل معهم من صلح من آلهم ليتم سرورهم وأن تتم وعدك الذي وعدت ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي: المعاصي في الدنيا ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ أي: النعيم الذي لا ينقطع في جوار مليك لا تصل العقول إلى كنه عظمته.

فصل: في ذكر نتائج الكفر

لما ذكر الله أحوال الكافرين في الدنيا، وبين موجبات الهداية والعناية المبذولة من حملة العرش وصفوف الملائكة بالإلهام مع تدبير الملك واهتمامهم بهداية الناس أتبعه بما هو النتيجة اللازمة لذلك، وهي أن هؤلاء يندمون حين يوضعون في الدركات التي هم أولى بها في جهنم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ﴾ يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرضت عليهم سيئاتهم وعاينوا العذاب، فيقال لهم: ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ ﴾ إياكم في الدنيا والآخرة ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ﴾ إماتتين ﴿ ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أي: أمتنا في الدنيا ثم أحييتنا في القبر للسؤال، ثم أمتنا في البرزخ وأحييتنا للبعث، لأن الإنسان عند الموت يخلع هذا الهيكل الجسمي وتبقى الروح بالجسم الأثيري اللطيف المماثل لأجسامنا الأرضية، فهذا موت وانتقال من حال إلى حال مغاير كل المغايرة، وهناك يرى الإنسان العجائب الكامنة في جسده الروحي، ويرى صور أعماله السابقة من سيئة بادية العار والشنار ظاهرة القذارة والحقارة فيلحقه منها خزي لا يطاق وعذاب روحي ونار جسمية ملازمة له ملازمة الظل للشبح والهواء للأجسام الأرضية، ومن حسنة تظهر مونقة بهجة متلألئة بهية تبهج من رآها كالكواكب الدرية تسر الناظرين، ثم إن هذه الحال البرزخية يحصل فيها انتقال وتغير، وربما ظهرت حال جديدة للأرواح تتبدل فيها تبدلاً عظيماً كالتبدل الذي حصل بموت الأجسام فيعتبر موتاً ثانياً، ثم يبعث الناس فتكون حياة ثانية، فإذن يكون هناك موتان بين الأول والثاني حياة برزخية، وبعد الثاني حياة يوم القيامة، وعلى ذلك تكون لنا أنواع ثلاثة من الحياة، لأن الحياة الدنيا لم تذكر في هذا المقام، وربما كانت تبدلات الإنسان في الحال البرزخية كثيرة جداً لسرعة أحوال الأرواح، فنبه على ذلك بذكر أعظم تبدل فيها فسماه موتاً، وإلا فالأنفس حية في الحياة الدنيا وبعد مفارقة الأجساد ويوم القيامة، وهذه الآية فيها رموز عجيبة سيظهرها المسلمون بقراءة علم الأرواح واستحضارها بعد مفارقتنا هذه الدنيا ورجوعنا إلى الحال البرزخية، لأنهم اليوم ونحن أحياء ليس عندهم من الوقت ما يتفرغون به لمثل هذه العلوم، وأمم الغرب اليوم تطاردهم وسيخلصون منها إن شاء الله قريباً، وبعد ذلك يقرؤون هذا التفسير وأمثاله قراءة أتم ويشرعون في المباحث العلمية، ويدخلون جنة علمية عالية في الدنيا ثم يتمتعون بروضات الجنات البرزخية ويلحقوننا إن شاء الله تعالى هناك جيلاً بعد جيل.

ولما كانت أحوال الأنفس البشرية وتقلباتها في البرزخ ويوم القيامة تكون قد أملت عليها دروساً عالية قاسية لظهور الحقائق لها تحملهم على الاعتراف وطلب الخروج من النار؛ أعقبه بقولهم: ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ﴾ من النار ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ طريق نسلكه فيجابون أن لا سبيل إلى الخروج ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ العذاب ﴿ بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ ﴾ غيره ﴿ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي: تصدقوا ذلك الشرك ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ﴾ الذي لا أعلى منه ﴿ ٱلْكَبِيرِ ﴾ الذي لا أكبر منه ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ عجائب مصنوعاته لتكملوا أنفسكم بمعرفتها ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ أي: المطر لأنه سببه، فعجائب المصنوعات لأمرين: ترقية العقول، وتربية الأجسام، والثاني

عام، والأول خاص، وهذا قوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتفكر فيرقي نفسه بهذه العجائب ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكير فيها، ولما كان فريق المنيبين هو الذي تتجه العناية لارتقائه في القرآن والحكمة وأردفه بما يناسبه فقال: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك الخفي والجلي ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصكم وشق عليهم هو ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: هو مرتفعة درجات كماله فوق المحسوس والمعقول، وهكذا مراتب مخلوقاته الجسمية رفيعات درجاتها طبقاً عن طبق وكذلك الروحية من صفوف النفوس الإنسانية والملائكة، فهؤلاء جميعاً درجات بعضها فوق بعض ارتفاعاً إلى أن تقف دونه العقول ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو أصل العالم فهو في قبضة قدرته، وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ خبر رابع لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾، يقول الله: إنه يرينا العجائب وهو مرتفع الدرجات ورافع درجات الخلق والعرش في قبضته ويلقي الوحي بأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: من يختاره للنبوة ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إذ تتلاقى فيه أهل السماء وأهل الأرض والعمال والأعمال ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم وظاهرون لا يسترهم شيء، وأعمالهم وسرائرهم مكشوفة لا يحجبها نفاق ولا رياء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ من أعمالهم وأحوالهم. وحينئذ تنطلق الحال بهذا السؤال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وإذن تجيب هي: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فهو وحده قهر الخلق بالموت وبالبعث وبالحشر، ولا جرم أن إلقاء الوحي بهذه المعاني على الأنبياء إنّما يكون لرفع درجات النفوس الأرضية ولحوقها بما هو أعلى منها، فإذا كان الله رفيعاً درجات كماله، رافعاً عالم الكواكب طبقات بعضها فوق بعض كما رأيته فيما مضى في هذه التفسير، ورافع درجات الأرواح والملائكة، فإنه في هذه النفوس الرفيعة والأرواح الشريفة يهيئ نفوساً أخرى لتلحق بها فيوحي بواسطة الملائكة إلى الأنبياء، والناس يستمعون الوحي فيرتفعون إلى درجات أرقى مما هم عليه، هذا هو الذي يقتضيه نظم الآية منسجماً عجيباً، ثم ذكر نتيجته فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ فلا يرى المرء إلا ما كوّنه في نفسه من عقيدة أو علم أوحال فيرى كل ذلك منقوشاً مصوراً في جسمه كما يحس الآن في هذه الحياة بذلك من حسد وعداوة وطمع وشره وكبرياء، فكل ذلك منغص للإنسان في حياته لاحق به بعد موته، بحيث يحس الإنسان به ويشعر ويكون سوائل معنوية في عالم الأثير مختلفة كاختلاف ألوان النبات وروائحه، وهكذا أنواع العلم والحكمة والفضائل الخلقية من الكرم والصفح والآداب جميعها ترى لها سوائل أثيرية معنوية أشبه بالسوائل المغناطيسية ترتشح من النفس ولا تفارقها، كما لا يفارقها في هذه الدنيا من هذه الصورة الجسمية أشكالها وأطوالها وألوانها ونسبها وقبيلتها، وذلك كله جاء في علم الأرواح في العصر الحاضر، وهذا معنى قوله: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، وذلك لأن الله كان رفيع الدرجات وقد رفع درجات العوالم الروحية فهاهو ذا سخرها لترفع الأرواح التي هي ضعيفة في الأرض تعيش مع الحيوان، وهي في نظام كله هرج ومرج إلى عالم أرقى من عالم الأجسام، فإذا ماتت ظهرت بمظهرها الذي وصلت إليه على مقدار طاقتها كما يظهر الطفل بمظهره عند أبويه من النقص والضعف، فالعذاب الذي يعتري النفوس الإنسانية بعد الموت هو من لوازمها وهكذا النعيم.

إن الله تعالى هو مربي العالمين ورافعهم من أدنى إلى أعلى، وفي أثناء رفعهم يرسب بعضهم وتظهر فضائحه وقبائحه أثناء سفره ويحصل للمجرمين عذاب لا يطاق، فإن الإنسان إذا ظهر بعد الموت بمظهر قبيح اشمأزت منه نفوس أصحابه ورأوه بغير العين التي كانوا يروه بها وأصبح في ذل لا يحتمل، واشتعلت النار الجسمية والمعنوية معاً، وقد يرى الأمير أن عبداً من عبيده فضل عليه بأخلاقه التي اكتسبها وطار إلى العلا وخلفه مع العجماوات، فأي ذل وأي عار وأي مهانة بعد هذا كله؟ فلا ظلم إذن، فكما أننا لما خلقنا في الأرض وكان منا نساء ورجال، وكان فينا الجميل والقبيح والقصير والطويل والمريض والصحيح، وما لا يتناهى من الأوصاف والأحوال، لم نقل: إن هذا الاختلاف ظلم، وإلا لكان معنى ذلك أن الوجود كله خطأ، هكذا نقول في أحوال الأرواح بعد الموت، فكل يكون على شاكلته الروحية الحقيقية، فكما لا اعتراض في الاختلاف الجسمي هكذا لا اعتراض في الاختلاف الروحي، فيكون قوم في نعيم وقوم في جحيم ولا اعتراض، كما لا اعتراض إذا قلنا في الأرض فراش وإبل وحيوانات برية وأخرى بحرية وآساد فاتكة وغزلان مأكولة، مع أن الإنسان لو قيل له: أتموت أم تكون ناموسة أو جرادة؟ لا يرضى إلا بالموت، وكذلك الجرادة لا تطلب أن تكون إنساناً لأنها تجهله، فإذا عرفت الجرادة والنملة والحمامة مرتبة الإنسان وحرمت منها فهناك الطامة الكبرى والعذاب والذلة والمهانة وهناك تكون نار الخزي ونار العذاب، فالأرواح الأرضية بعد الموت التي هي ضعيفة ليست كالجراد في الحياة الدنيا بل هي تحس وتعرف المراتب، وهنا تتجلى نار الخزي ونار جهنم، ولكن نار الخزي أشد، كما يحس الإنسان في الدنيا بالعار إذا لوثت سمعته وضاع صيته ومجده وشرفه، ولكن في الدنيا يتخلص بالموت، ولكن في عالم الأرواح لا يقدر على التخلص من الحياة فيه.

وهذا يفهمنا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، فيصل كل إلى ما يستحقه سريعاً. ولهذا المعنى الذي قررته لك تفهم قول سيدنا علي كرم الله وجهه لما سأله سائل: «كيف يحاسب الله الناس كلهم؟ قال: كما يرزقهم كلهم».

وقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ القيامة، سميت بذلك لأزوفها، أي: قربها، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ إذ ترتفع عن أماكنها فتلتصق بحلوقهم من الخوف، فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا حال كون أصحاب القلوب ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الغم أو ممسكين بحناجرهم ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ولا شفيع مشفع ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير محرم واستراق النظر إليه ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ من الضمائر ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ وقد عرفته فيما مضى في هذا المقام ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ تهكم بالأصنام لأنها جماد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأما الأصنام فلا سمع لها ولا بصر فكيف تقضي بحق أو باطل؟ انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف: في قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ [غافر: ١]

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧] الخ، وقوله تعالى:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]

تبين لك فيما تقدم في هذا التفسير أن الحروف في أوائل السور قد جعلت رموزاً، وعرفت في كثير من السور كيف كانت تشير إلى مقاصد لرقي المسلمين، كما ترى في سورة «البقرة» ﴿الٓمٓ﴾ للتنبيه على جهاد بني إسرائيل في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] الخ، ولتوجيه الهمم إلى بحث حقائق العجائب الكونية في قصة الخليل والعزير كما سبق شرحه مراراً في سورة «العنكبوت» قد رجع رمزها إلى البحث في عجائب العناصر، وكيف كان لها نظام كشفه العلامة «مندليف الروسي» وتبعه العلماء، وهكذا في «يس» و«ص».

فأما هنا فإن الأمر أعجب. وكيف لا يكون أعجب ونحن نرى في آخر سورة «الزمر» قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥]، وقد وضعوا مراتب كما جعلت أرواح الناس مراتب في الدنيا وهم يسبحون ويحمدون، وقد عرفت أن ذلك كله عبارة عن العلم بالجلال والإكرام، ولا معنى لمعرفة صفات الإكرام إلا بدراسة العجائب الإلهية. وبعبارة أخرى: دراسة العلوم التي امتازت بها أوروبا علينا. هذا هو الذي يفهم من التسبيح والحمد. فأما الملائكة فعلومهم طبعاً فوق طاقتنا، وترى السورة ختمت بقول الملائكة والمؤمنين: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وكيف يحمد المؤمنون ربهم حمداً حقيقياً إلا إذا عرفوا نظام المخلوقات، إذ لا يحمد المحسن إلا على مقدار ما عرف الحامد من آثاره الواصلة إليه وإلى غيره. هذا هو الذي جاء في آخر سورة «الزمر»، ثم قال في أول سورة «غافر»: ﴿حمٓ﴾ حرفان من الحروف الأربعة عشر مشيراً إلى الحمد، أي: حمد المؤمنين وحمد حملة العرش، وبعبارة أخرى: مشيراً إلى العلوم الطبيعية والفلكية التي هي أقرب إلينا نحن في الأرض. فانظر ماذا تم بعد ذلك؟ أعاد الكرة في أوائل السورة فذكر حملة العرش وتسبيحهم بحمد ربهم واجتهادهم في ارتقاء أهل الأرض وحبهم لإسعادهم.

انظر وتعجب، فإني سأريك الساعة عجباً عجاباً، بل أريك معجزة القرآن الحقة، وكيف نطق من ألف وثلاثمائة سنة بما نقرؤه اليوم في كتب الفرنجة. أنت إذا كنت من الذين تتبعوا هذا التفسير لا تنكر ما سأقوله الآن، ولكن إذا كان هذا أول نظرك له فإنك تقول: إن العالم اليوم أصبح كله راقياً، وأنتم أيها المسلمون مخرفون، إن العالم كله مادي أوله وآخره، وأنا لم أر ملكاً ولا روحاً يرقيني. فما هذا القول؟ ومن هم حملة العرش؟ وأي رموز تقولونها؟ دعونا دعونا، وإني أجيبك ناقلاً لك عن علماء الشرق وعلماء الغرب، فأقول: جاء في «إخوان الصفاء» أن الأساتذة والآباء والمعلمين إذا ماتوا كان كل عملهم إنّما هو الإرشاد والتعليم لتلاميذهم وأولادهم. وهذا التعليم الإلهامي يرقي الروح لعملها والحي المتعلم فهو نافع للحي والميت.

وقال الفخر الرازي في سورة «النازعات» وسأذكره هناك إن شاء الله: أليس الابن قد يرى أباه في المنام فيهديه إلى كنز مدفون؟.

أليس أن جالينوس قال: كنت مريضاً فعجزت عن علاج نفسي فرأيت واحداً في المنام أرشدني إلى كيفية العلاج. وقال أيضاً: أليس أن الغزالي قال: إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق أن إنساناً شابه الإنسان الأول في الروح والبدن فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير كالمعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير، فتسمى تلك المعاونة إلهاماً، ونظيره في جانب النفوس الشريرة وسوسة. اهـ.

هذا ما قاله علماؤنا. فإذا أبيت إلا علماء أوروبا فإني أقول لك: إنهم أغرقوا في هذا العلم إغراقاً ونبغوا فيه وفاقوا الشرقيين، لأن الشرق اليوم يظن أنه بإنكاره هذه العلوم يعد فيلسوفاً. أما الأوروبي فهو حر والآراء تقال بلا نكير. فلأسمعك ما قاله أكبر علماء الطبيعة في بلاد الإنكليز في خطبة خطبها في مجمع العلماء فما قاله: وليس من العقل أن يقال إن النفس تضمحل إذا تلف الجسد، بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض. أقول لك ذلك مستنداً إلى أدلة علمية. أقول: لأني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ أني قد ناجيتهم ثم قال: إني مقتنع بأننا لا نضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير.

ومن قوله في نفس الخطبة: وعندي أن في الوجود كائنات نسبتنا إليها كنسبة النمل إلينا ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين عنها شيئاً. انتهى ما أردته منه. وقد تقدم هذا القول مطولاً تارة ومختصراً أخرى لمقاصد مختلفات في هذا التفسير، وسيأتي نفس هذا القول في سورة «النازعات» عند ذكر قول الإمام الرازي أن أرواح الناس تصبح من المدبرات أمراً.

أفلست ترى أن ما يقوله علماؤنا وما تموج به الجمعيات النفسية في أوروبا قد أصبح تفسيراً لهذه الآية. انظر كيف يقول العالم الإنكليزي: إن هناك عوالم نسبتنا إليها كنسبة النمل إلينا. وقوله: إن الأموات يهتمون بأمر هذا العالم. يا عجبا، أليس هذا هو عين ما قاله الإمام الرازي والغزالي وإخوان الصفاء. أليس هذا عينه هو نفس هذه الآية. بل أليس هذا معجزة. وأي معجزة أكبر من هذه؟ تموج المجامع النفسية بهذه الفكرة، فيقول الناس في مجالسهم: إن فوقنا أرواحاً تلهمنا وتعلمنا وتهتم بنا ونحن نمل بالنسبة لها.

أليس هذا عينه هو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر: ٧]. ولقد عرفت أن الأمر راجع للعلم. وقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥]، فهل لهذا معنى إلا الإلهام والتعليم فيعلمون الأنبياء ويعلمون كل واحد منا الآن بالإلهام، وإذا كنا أصبحنا جميعاً من جهلاء وعلماء مؤمنين بعالم الحيوان الذري المسمى بالمكروب وإنه هو الذي يأتي لنا بالطاعون والحمى والجدري، والحكومات في الأرض كلها تؤمن وتمتثل لقول الأطباء في ذلك، مع أن تلك الحيوانات لم نرها قط ولكنا آمنا بها، مع أن الموت والمرض لا يحتاجان إلى فاعل يفعلهما، فإن المرض نقص والمادة في تحول دائم والموت خراب الجسم وخراب الجسم لا يحتاج إلى فاعل يفعله بحسب النظر الظاهري، ولكن العلم اليوم أثبت ذلك. وأن الموت أيام الوباء والأمراض الكثيرة

كالحمى والجدري والحصباء إنّما يكون بأحياء لا نراها تحدث تلك الأمراض الكثيرة المنتشرة. فما أسهل أن تعرف أن الخير والشر تأتي بها عوالم تسمى ملائكة أو أرواحاً. فالأرواح العالية لإلهام الخير والأرواح السافلة للوسوسة. هاهنا تجلى الأمر وظهر وعرفنا سر «الحاء» و«الميم» اللذين جيء بهما بين حمدين: حمد في آخر سورة «الزمر» صادر من الملائكة وأرواح المؤمنين. وحمد صادر في سورة «غافر» مصحوب بالتسبيح والملائكة يفيضون الخير على المؤمنين. وهذا كما ستراه في سورة «النبأ» إذ جاء في آخرها: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾[النبأ: ٣٨] وفسر ابن عباس الروح بأرواح العباد يصطفون كما تصطف الملائكة، وهاهنا ظهر معنى الاصطفاف إذ الأرواح تلاميذ الملائكة فأصبح الأمر كله راجعاً للعلم والدراسة. فإذا تعلمنا اليوم فهو مقصود الحمد المذكور في السورتين، وأصبح التسبيح والتحميد معناهما الارتقاء العلمي، والارتقاء العلمي للملائكة وهم يرقون أرواحنا في الدنيا كما نرى الأساتذة يعلمون تلاميذهم والآباء أبناءهم، فإذن ارتقاؤنا في الدنيا بالعلوم والملائكة ملهمون. ونحن إذا متنا نكون في تلك العوالم المدبرات أمراً كما فسره الإمام الرازي في سورة «النازعات» وكما رأيته في كلام فلاسفة الشرق والغرب. هنا يظهر لك مقصود «الحاء» و«الميم» في هذه السورة. فهما من الحمد والحمد راجع للعلم الذي يلقيه الأعلى إلى الأدنى، ومبدؤه من الله رفيع الدرجات ذي العرش وهو الذي يرقي الأرواح والأجسام. فترى صفوف الكواكب طبقة بعد طبقة كما ترى صفوف الأرواح صفاً بعد صف.

ذكر الأحاديث والآثار الواردة في هذا المقام

فإذا سمعت ما ورد أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أردفهم الله بأربعة أخر كما قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٧]؛ فلتعلم أن ذلك إشارة إلى ازدياد عدد الأرواح المرتقية.

وإذا سمعت قول ابن عباس: «حملة العرش مابين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام»؛ وما يروى أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسماوات إلى عجزهم؛ فلتعلم أن معناه إحاطتهم علماً وتدبيراً بهذه العوالم بإذن ربهم. وإذا سمعت أنهم يقولون: «سبحان ذي العزة والجبروت. سبحان ذي الملك والملكوت. سبحان الحي الذي لا يموت. سبوح قدوس رب الملائكة والروح»؛ فاعلم أن هذا إشارة إلى علمهم بصفات الجلال وصفات الإكرام التي هي تشمل سائر العلوم، وإلى أنهم مقرون بأن الله رباهم بقولهم: «رب الملائكة»، وأنهم هم مربو الأرواح التي هي أقل منهم بأمر ربهم. وإذا سمعت أنهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة وهؤلاء أشد خوفاً من التي تليها وهكذا؛ فإن ذلك على مقدار العلم، فإن الخشية تتبع العلم، ومن عرف جميلاً وملأ عينه حسناً وجمالاً وبهجة وحكمة فإنه يدهش منه ويخشاه، ولا يتسنى ذلك لمن يجهل أمره. وإذا سمعت أنه صلى الله عليه وسلم حدث عن ملك أن مابين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام؛ فذلك إن صح لاتساع دائرة علمه وتدبيره للعوالم التي تؤهل أنت اليوم للقيام ببعضها على ما عرفت.

وإذا سمعت عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : إن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كخفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام ؛ فذلك إشارة إلى عظمة ملك الله . وهذا أصبح اليوم معروفاً في علم الفلك الحديث كما تراه في سورة « البقرة » وغيرها . وإذا سمعت أن العرش يكسى كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى فهذا ظاهر اليوم ، لأن ملك الله تجلى اليوم كما في هذا الخبر وعلى هذا النحو ، وأما ألوان النور فإنك لو بحثت لوجدت أن الأنوار لا يحصى عددها بألف ولا بآلاف كل يوم ، ولو أنك فكرت في عدد الأنوار التي تسطع على أرضنا من النجوم وإن لم نرها لدقة نورها واحتجابه عنا بالشمس نهاراً لرأيتها تعد بمئات الملايين وهي تسطع على الأرض وأصحاب الأرصاد يميزونها تمييزاً حقيقياً ، وإن أردت بالأنوار العلوم فهي أوسع مدى ، فإن تغير العوالم لا يكون إلا بعلوم قامت بنفوس الملائكة والأرواح المدبرات . وقوله : لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى ، فهو ظاهر . إن الشموس التي لا نهاية لعددها ظهر اليوم أن أنوار كثير منها أضوأ من الشمس بمراتب كثيرة ، فلا يستطيع الناس أن ينظروا إليها لو كانوا هناك ، ولكن الأقرب للحديث أن تلك الأنوار هي العلوم التي في نفوس الملائكة وهي محجوبة عمن عداهم ولا يعرفها غيرهم إلا إذا ارتقى إلى مراتبهم .

ولست أقول لك إن هذه الأحاديث أو الآثار ذكرتها لك على أنها صحيحة أو حسنة أو ضعيفة إنّما المقام مقام ذكر ما قيل بدون نظر إلى مقدار صحته ، لتعلم كيف كان التعبير الذي يعبر به عن عظمة ملك الله ، وما دام المقام مقام مجاز فلا بأس بذكر ذلك كله . وإذا سمعت بقول وهب بن منبه : إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش ، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء ، ويدبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة ، وذكر أنهم يقولون : سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك الخ ، وأن كلاً منهم يسبح بتسبيح لا يسبحه الآخر ، فإن ذلك أصبح معلوماً لك لأنهم مراتب وصفوف ودرجات لا يعرف منتهاها عبر عنها بذلك العدد . وإذا كانت الكواكب بلغت ما لا يعرف له عدد فكيف يكون عالم الأرواح ؟ فأما التسبيح والتحميد فهو العلم الذي أمرت بدراسة مقدماته في الدنيا ، وأشير لذلك بـ « الحاء » و« الميم » في السورتين وفي سورة فاتحة الكتاب . وإذا سمعت قول وهب بن منبه : إن الله احتجب عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار وسبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور وسبعين حجاباً من در أبيض ومثلها من ياقوت أحمر ومثلها من زبرجد أخضر ومثلها من ثلج ومثلها من ماء ومثلها من برد وما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، فذلك معناه على سبيل المجاز نقص مراتبهم عن مرتبة ربهم لأنه هو العليّ الكبير .

فانظر كيف كان الأولون يضربون للناس الأمثال بعظمة ملك الله تعالى ليوسعوا خيالهم ، حتى إذا جاءت الحقائق وكشف القناع اتسعت له العقول وأقبلت عليه ، وقال السامع : نعم قد تخيلنا هذا من قبل في الآثار الواردة عن آبائنا الأولين . فالتعبير بأن العرش جوهرة خضراء وأن الأنوار تكسوه ونحو ذلك كله للدلالة على الجمال والبهاء والإشراق والعظمة والعلم والحكمة .

ولعلك الآن فهمت قول ابن مسعود : إذا وقعت في الـ ﴿ حمٓ ﴾ وقعت في روضات الجنة أتأنق فيهن » .

أقول : وهل روضات الجنات إلا العلوم؟ أوليس نفس « الحاء » و« الميم » هذان الحرفان هما اللذان فتحا هذا الباب كله ، إن « حم » إشارة إلى المحامد ولا محامد بلا علوم ، فالأمة الإسلامية اليوم عليها أن تقوم بدورها في الحكمة والعلم ، فقد خبأ الله لها كنوزاً في الأرض ستظهر بأعمال المسلمين ، فليقوموا بدورهم . هذا كله معنى : ﴿ حمٓ ﴾[غافر: ١] .

صلاتنا معاشر المسلمين

لقد علمت أن الملائكة يسبحون ويحمدون ، وأن معنى ذلك إنّما هو العلم بالعالم العلوي والسفلي الذي هو داخل في صفات الإكرام الذي اتصف به الله تعالى .

والمسلم في صلاته عند الركوع يقول : « سبحان ربي العظيم » ، ثم يقول : « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » . ومعنى ذلك أن يدرسه ويفقه سره ، وكذلك في السجود يقول المسلم : « سبحان ربي الأعلى » ثم يقول : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره وتبارك الله أحسن الخالقين » .

فإذا ظن الناس أن تسبيح الملائكة وتحميدهم عبارة عن ألفاظ فليفهموا أن تسبيحنا وتحميدنا ألفاظ لا غير . فإذا أرادوا الجد فليعلموا أنه جاء في هذه السورة قول الله تعالى بعد ذكر حملة العرش وتسبيحهم وإلهامهم للذين آمنوا ودعائهم لهم فالحمد لله العلي الكبير . وبين مثار الحمد فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾[غافر: ١٣] ، فجعل مدار الحمد ترقية العقول بالعلوم وتدبير الأجسام بالرزق . هذا هو مقصود الحمد ومقصود ﴿ حمٓ ﴾[غافر: ١] ومقصود القرآن .

ليعلم المسلمون بعد اليوم أن المسألة جد لا هزل فيها . وأن الملائكة تأهلوا لمرتبتهم بالعلم . وأن الناس لا يسعدون في دين ولا دنيا إلا بالعلم ، وإننا نسبح بحمد الله كما أن الملائكة يسبحون بحمده ، ذلك ظاهر في صلاتنا إذ نبدأ بالتسبيح ونتبعه بذكر النعم التي أنعم بها علينا في سمعنا وبصرنا الخ . كل ذلك ليعلم المسلم أنه ملزم بالعلم والحكمة اللذين يرجعان إلى معنى التسبيح والتحميد . هذا هو سر « الفاتحة » التي يتلوها المسلم صباحاً ومساء ، يقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، ويفصل بعض النعم في الركوع والسجود ويقسمها في الرفع والاعتدال ، فيقول : « ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » . ومعلوم أن العوالم لا تخرج عن هذه . فالفاتحة علم والركوع علم وآل حم علم وتسبيح الملائكة علم وتحميدهم علم وتشبهنا بهم في ذلك علم .

فليفطن المسلمون فقد انقضى دور الهزل وجاء دور الجد . وأظهر الله السر الذي خبأه ، وأبان لعباده عجائب الدنيا بالعلوم والدين بالفهم والإلهام . وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة .

القسم الثالث من السورة

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ أي: مآل الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود ﴿ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قدرة وتمكناً ﴿ وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كالقلاع والمدائن الحصينة ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ يمنع العذاب عنهم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات والأحكام الواضحات ﴿ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريده غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ كل عقاب دون عقابه.

قصص موسى عليه السلام وبني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ المعجزات ﴿ وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وحجة ظاهرة ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ يعنون موسى. ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ أي: أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم من قبل كي يصدوا عن اتباع موسى ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا

فِي ضَلَٰلٍ ﴾ أي: وما صنع فرعون وقومه إلا في ضياع، فإن هذا كله لم يمنع موسى من إقامة دينه وخذلان فرعون وجنوده، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ وقد كانوا يكفونه عن قتله تهويناً لأمره، ويقولون: إذا قتلته ظن الناس أنك عجزت عن إقامة الحجة. ثم قال: ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ إظهاراً بعدم المبالاة به مع أنه لم يمنعه من قتله إلا شدة الهول والفزع من ذلك لعلمه أنه نبي، ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي: يغير ما أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام، ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي: ما يفسد ديننا من التحارب والتهارج ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ ﴾ لقومه لما سمع كلامه ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ ذكر اسم الرب إشارة إلى التربية وليحضهم على موافقته في الدعاء، لأن اتجاه أرواح كثيرة لغرض واحد أقرب للإجابة ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ من أقاربه ﴿ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ أي: أتقصدون قتله ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ أي: لأنه يقول ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ وحده ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ الكثيرة ﴿ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ لا يتخطاه ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أي: فلا أقل من أن يصيبكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ ولو كان مسرفاً كذاباً لخذله الله ولكنه لم يخذله فأعطاه المعجزات والآيات البينات ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ غالبين عالين في أرض مصر ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ أي: فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾ أي: ما أشير عليكم إلا بما استصوبه من قتله ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ﴾ في تكذيبه ﴿ مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ مثل أيام الأمم الماضية، أي: وقائعهم، كما يقال: أيام العرب، ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ مثل جزاء ما كانوا عليه دائباً، أي: دائماً، فكانوا لا يفترون عنه ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي: وما الله يريد أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب ولا يخلي النظام بغير انتقام لأنه يربيهم، ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ أي: يوم ينادي فيه بعضهم بعضاً ويتصايحون ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ ﴾ من الموقف ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ منصرفين عنه إلى النار ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ ابن يعقوب ﴿ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وبخهم بأن يوسف جاءهم بالبينات على التوحيد من قبل موسى فشكوا في أمره وبقي شكهم إلى زمن موسى وهذا قوله: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ أي: وذلك حكمكم من عند أنفسكم من غير برهان، ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ﴾ أي: مثل هذا الضلال يضل الله كل ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ في عصيانه ﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ في دينه ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ بدل من «مسرف» لأنه بمعنى كل مسرف ﴿ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ في دفعها وإبطالها ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾ حجة ﴿ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ أي: عظم ذلك الجدال بغضاً ﴿ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ ﴾ هكذا ﴿ يَطْبَعُ ٱللَّهُ ﴾ يختم ﴿ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ عن قبول الحق والهدى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ

﴿ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا ﴾ بناء مكشوفاً عالياً، من: صرح الشيء إذا ظهر ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ الطرق. ثم بينها فقال: ﴿ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه، أو قصد بذلك التمويه على الجهلاء يريهم أن إله السماوات الذي يقول به موسى إنّما إله كالآلهة التي هي عبارة عن تماثيل في مصر يراها الناس الآن بقيت من ذلك الزمان لتضليل عقولهم ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ ﴾ في دعوى الرسالة ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾ سبيل الرشاد وموّه على الناس بهذه التمويهات ﴿ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾ أي: خسار ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ ﴾ أي: مؤمن آل فرعون ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ ﴾ بالدلالة ﴿ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ لأن ما عليه فرعون غيّ ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ ﴾ تمتع يسير لسرعة زوالها ﴿ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ لخلودها ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴾ عدلاً من الله ﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافاً مضاعفة ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ كرر النداء إيقاظاً لهم من سنة الغفلة، ثم أبدل منه قوله: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ ﴾ بربوبيته ﴿ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ أي: من كملت قدرته وغلبت، ولا يكون ذلك إلا بعلم وإرادة فهو قادر على التعذيب والغفران، ﴿ لَا ﴾ رد لما دعاه إليه قومه ﴿ جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ «جرم» فعل بمعنى حق، وأن وما بعدها فاعله، أي: حق ووجب بطلان دعوته، أي: إن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته وما تدعون إلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعي الربوبية فكيف تدعونني إلى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا حق له ولا يدعو إليه هذا جهالة فلا أتبعها. وعطف على فاعل «جرم» قوله: ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ في الضلالة والطغيان ﴿ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ ملازموها ﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ ﴾ أي: فيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ ﴾ من النصيحة ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ ليعصمني من كل سوء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ فيحرسهم. ثم فر من بينهم فطلبوه فلم يقدروا، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ ﴾ شدائد مكرهم ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ ﴾ بفرعون وقومه ﴿ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ وكأنه قيل: ما سوء العذاب؟ فقال: هو ﴿ ٱلنَّارُ ﴾. ثم استأنف مبيناً فقال: ﴿ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا ﴾ وعرضهم عليها إحراقهم بها، يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف، إذا قتلهم. وقوله: ﴿ غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ ﴾ أي: في هذين الوقتين يعذبون بالنار وينفس عنهم فيما بين ذلك، ويدوم ذلك إلى يوم القيامة ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ يقال لخزنة جهنم: ﴿ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي: عذاب جهنم، قال علماؤنا: وهذه الآية دليل على عذاب القبر، وقد ظهر ذلك العلم في المجامع النفسية وأوضحناه مراراً

في هذا التفسير وشرحناه تكراراً، وصار هذا القول حقاً في علم الأرواح. وفي حديث البخاري ومسلم أن رسول لله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة». وهذا المعنى هو الذي أطالت به الأرواح لما سألوها بتفصيل فاقرأ في كتابي المسمى «الأرواح».

ثم قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ اذكر لقومك يا محمد ﴿ إِذْ يَتَحَآجُّونَ ﴾ أي: يختصمون، أي: أهل النار ﴿ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ ﴾ وهذا تفصيل للمخاصمة، ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أتباعاً كخدم جمع خادم ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ دافعون ﴿ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ أي: كلنا فيها لا يغني أحد عن أحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ قضى بينهم فأدخل قوماً الجنة وقوماً النار ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا ﴾ قدر يوم شيئاً ﴿ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ ﴾ ملزمين لهم الحجة: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ توبيخاً لهم، ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ﴾ فإنا لا نجترئ عليه إذ لم يؤذن لنا في ذلك ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ ضياع لا يجاب، والمقصود من مساق هذه القصة أن عادة الله نصر الرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة ووعده بالنصر حق. ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأن يجدّ في الاستغفار والتسبيح حتى يأتي له نصر الله، وهذا قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ كما مر في هذه القصة، ﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ أي: في الدارين، ولا ينقض ذلك بما كان لأعدائهم من الغلبة امتحاناً أحياناً لأن المدار على العواقب، والأشهاد جمع شاهد كالملائكة والأنبياء والمؤمنين ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من يوم الأول ﴿ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ البعد من الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ جهنم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ما يهدي به في الدين من المعجزات والصحف والشرائع ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذاهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ في إظهار دينك وفي تأييدك وتأييد كل صادق في دينك كما أيدت موسى ومن صدق من أتباعه ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي: وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك مثل ترك الأولى الذي لا يعد ذنباً عند غيرك، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وتدارك ذلك يكون بالاستغفار، وهكذا إذا خالجك اهتمام بأمر الأعداء فافزع إلى الاستغفار، لأن الله تعالى كافيك في النصر وإظهار الأمر، وهكذا كل صادق في وجهته الدينية والمنفعة العامة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ ودم على التسبيح والتحميد لربك، وذلك مطابقة لما جاء من تسبيح حملة العرش الذين هم في الملأ الأعلى. فعلى أهل الأرض أن يحذوا حذوهم، والله ينصر رسله القائمين بدعوة الخير الذين يحذون حذو الملأ الأعلى. وإلى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة وتفسيره اللفظي، والحمد لله رب العالمين.

القسم الرابع من السورة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (٥٦) لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (٦٣) ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦٤) هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦٥) ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٦٧) هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨) أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (٧٠) إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ (٧١) فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ (٧٥) ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٧٨) ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ

لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ سواء أكانوا هم مشركي مكة أم اليهود الذين قالوا: «لست أنت الذي وعدنا بك بل هو المسيح ابن داود يبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار»، أم غيرهم، فهؤلاء ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي: إلا تكبر عن الحق فلا يتفكرون ولا يتعلمون، وإنما يقولون: الملك والنبوة فينا ﴿ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ﴾ أي: بالغي مقتضاه من الرئاسة والنبوة ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: فالتجئ إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ بعملك وعملهم ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ ذلك لأنهم كانوا يجادلون في البعث، فمن قدر على خلق السماوات والأرض مع عظمها فهو على خلق الإنسان أقدر، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يتأملون لغفلتهم ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ الغافل والمستبصر ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ أي: المحسن والمسيء، فإذن لا بد لهم من حال فيها يظهر التفاوت وذلك بعد البعث، فهاهنا برهانان: البرهان الأول: لجواز البعث. الثاني: لوجوبه إقناعاً، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: تذكراً قليلاً تتذكرون، ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ في مجيئها لما تقدم من الدليلين ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يصدقون بها لقصور نظرهم ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي: اعبدوني أثبكم. وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾».

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ لتستريحوا فيه بأن خلقه بارداً مظلماً ليؤدي إلى ضعف المحركات وهدوء الحواس ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ يبصر فيه أو به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لا يوازيه فضل ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلهم بالنعم وإغفالهم مواقعها وجهلهم بالنعم ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الذي اتصف بتلك الصفات ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ

يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ بأن خلقكم منتصبي القامة، أعضاؤكم متناسبة، متهيئين للعلوم وللصناعات واكتساب الكمالات ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ النافعات واللذائذ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وكل ما سواه مربوب مفتقر إليه ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ ﴾ المنفرد بالحياة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ ﴾ فاعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الطاعة من الشرك والرياء ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ولما طلب الكفار منه عليه الصلاة والسلام عبادة الأوثان نزل: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ﴾ بالوحي والقرآن ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أن أستقيم وأنقاد ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ بخلق أبيكم آدم منه أو بخلقكم أنتم من تراب انقلبت عناصره بالتغذية نباتاً فحيواناً، فكان منهما غذاؤكم منه وكانت أجسامكم فكان منها نطفة فعلقة فمضغة فتخرجون أطفالاً، وهذا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي: يخرج كل واحد منكم طفلاً، وقد وضح هذا المقام في سوابق هذا التفسير ﴿ ثُمَّ ﴾ يبقيكم ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ ﴾ يبقيكم ﴿ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل الشيخوخة، أو من قبل بلوغ الرشد ﴿ وَ ﴾ يفعل ذلك ﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت الموت ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما في تقلبكم في تلك الأدوار من العبر والحجج، فإن أبلغ الحجج ما أحس به الإنسان من نفسه ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أي: أراده ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى عدة أو كلفة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ عن التصديق به وإنما كرر ذم المجادلة لأنها هي الغالبة على نوع الإنسان تكبراً وعناداً وتقليداً وتمسكاً بالعادات ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ بالقرآن ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ من سائر الكتب ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ ﴾ أي: فسوف يعلمون جزاء تكذيبهم وقت ما تكون الأغلال في أعناقهم، و«إذ» للماضي عبر بها عن المستقبل لتيقنه، كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١]. ثم قال: ﴿ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ بها ﴿ فِي ٱلْحَمِيمِ ﴾ في الماء الحار ﴿ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ يقال: سجر التنور، إذا ملأه بالوقود، ومعنى ذلك أنهم في النار فهي محيطة بهم ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي: تقول لهم الخزنة ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يعني الأصنام ﴿ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً، تقول: حسبت فلاناً شيئاً فإذا هو ليس بشيء، وذلك إذا خبرته فلم تر عنده خيراً ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الهدى، ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي: بسبب ما كنتم تبطرون وما كنتم تختالون ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ السبعة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الإيمان جهنم. ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ بنصرك على الأعداء، أقول: لا جرم أن ذلك النصر يمتد إلى كل صادق في نصر دينه ﴿ فَإِمَّا

نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب في حياتك كالقتل يوم بدر فذاك ﴿ أَوْ ﴾ أن ﴿ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ﴾ إلى أممهم ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ ولم نذكر لك حال الباقين منهم وما منهم من أحد إلا أعطي آيات ومعجزات وقد جادله قومه وكذبوه فيها، وما جرى عليهم يقارب ما جرى عليك كما جاء في مثل سليمان عليه السلام، ما تحت الشمس من جديد. وكما يقول العلماء: التاريخ يعيد نفسه. وقد صبروا ونصروا فاصبر وستنصر، يقال: إن عدد الأنبياء ١٢٤ ألف نبي والذين ذكرت قصصهم أشخاص معدودة، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهل المعجزات إلا عطايا قسمت بينهم كسائر العطايا والمنح ليس لهم في هبتها مدخل ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾ بإسعاد المحق وإشقاء المبطل ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ المعاندون باقتراح الآيات. ولما كانت الآيات المقترحات ليس لها إلا نتائج ظاهرية كما شرح في هذا التفسير، وإنما الأمر يرجع إلى النظر في العجائب؛ أردفه بقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فإن من جنسها ما يؤكل كالغنم، ومنها ما يؤكل ويركب وهو الإبل ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ كالألبان والجلود والأوبار ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي: تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد في أسفاركم وحاجاتكم ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أي: وعلى الإبل في البر وعلى السفن في البحر ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ دلائل قدرته، كما قال في أول السورة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ [الآية: ١٣]، وسيأتي قريباً لماذا قال هنا: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ بعد ذكر الأنعام، ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ فتقولون: إنها ليست من عند الله، وهذه هي الدلائل القائمة في أنواع المخلوقات من الحيوانات، ثم أردفها بدلائل آثار الأمم الظالمة وكيف كان التكذيب بالآيات الكونية سبباً في خراب الأمم، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قصوراً ومصانع ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: لم ينفعهم كسبهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ ﴾ رضوا ﴿ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ كأن يقولوا: لن نبعث ولن نعذب، وكأن يقولوا: نحن نحسن علوم السياسة والزراعة والصناعة والإمارة ونظام المدن، فهل بعد هذا علم؟ ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ شدة عذابنا ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ يعنون الأصنام ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ أي: فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ أي: سنّ الله ذلك سنة ماضية في العباد وهذا مصدر مؤكد، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ أي: وقعت رؤيتهم البأس، فهو اسم مكان استعير للزمان، ﴿ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾

ذكر الله الأنعام وأعقبها بذكر أنه يرينا الآيات، وقد جاء في أول السورة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾[غافر: ١٣]. تبين في سور كثيرة من هذا التفسير أن الرزق والحكمة متلازمان، أنزل الله الأنعام والزرع لرزقنا الجسمي والعقلي، كرر الله ذلك في القرآن ليبين لنا أن هذه الحياة لم تكن لهواً ولعباً، إننا مخلوقون في عالم كله جمال وكمال وحكمة وعلم، فالويل لمن استمرأ المرعى وغفل عن نظامه، إن الأمر لجدّ فلينتهز المسلمون الفرصة أيام حياتهم، ولينتهلوا من تلك النعم رزقاً وعلماً، ومن لم يوجهوا عنايتهم لاقتحام الأخطار وتجشم المشاق ودرس هذه العوالم وبحثها لا ينالون دنيا بها يتمتعون، ولا آخرة بها يرقون، فليشمر المسلمون عن ساعد جدهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ثم ارجع إلى هذا المقام في سورة «النحل» تأمل هناك كيف ذكر الأنعام وأنه خلقها لنا لنستدفئ بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ونتنفع بلحمها وشحمها ولبنها، وأنها لنا جمال في غدوها ورواحها، وأنها تحمل أثقالنا إلى بلاد نائية، وكيف ذكر الخيل والبغال والحمير، وأنها للركوب والزينة، ثم قال: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٨]، فانظر كيف يقول هناك: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٨] عقب ما ذكر، ويقول هنا: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[غافر: ٨١]. ويقول في سورة «البقرة» بعد الكلام على ذبحها: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ٧٣].

انظر لماذا يقول هناك: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[البقرة: ٧٣]، ويقول في النحل: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٨]، ويقول هنا: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، الفعل مضارع في الجميع، ولقد علمت الإجابة في سورة «البقرة» أن الأرواح لها وجود وهي تكلم الناس فارجع إليه، فهذا رمز لما حصل فعلاً في هذا الزمان من مخاطبة الأرواح، وكذلك مر بك في سورة «النحل» كيف كان ذلك إخباراً بما حصل فعلاً في أيامنا من الكهرباء والآلات المحركات بالبخار، فإن الكهرباء أصبحت تعطي للناس ما تعطيه الأنعام من حرث ونقل في البر والبحر، فهذا معنى قوله هناك: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وأشار له هنا بقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: التي بها تنالون ما تلتمسوه من الأنعام النافعة لكم في حياتكم. انظر هذا المقام واضحاً في سورة «النحل» وتفطن.

لقد تبين لك أن ﴿ حمٓ ﴾ تشير إلى الحمد، وأن الحمد مرجعه العلم كما شرح في هذا التفسير مراراً، وآية ذلك أنه قد تكرر الحمد هنا، فبينما تراه في آخر سورة «الزمر» إذا هو في حيز الكلام على حملة العرش يسبحون بحمد ربهم، ثم في قوله تعالى آمراً لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[غافر: ٥٥]. وأخيراً في الكلام على عجائب الحكمة من جعل الأرض قراراً والسماء بناء وتصويرنا في أحسن صورة ورزقنا من الطيبات، إذ ختم هذا المقال بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

تذليل التفسير في سورة ﴿حمٓ﴾ غافر

والكلام فيه على مقصدين:

المقصد الأول: في قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا﴾ [غافر: ٧٩] الخ.

المقصد الثاني: في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

المقصد الأول: في تصوير يشمل الإنسان والحيوان

ولنخص الكلام على التنفس فنقول:

التنفس الرئوي في الإنسان والحيوان

التنفس إنّما يكون في الحيوان برئات هوائية مثل رئة الإنسان. والرئة تكون في الحيوانات الرخوة كهيئة شبكة العنكبوت، وأرقى من ذلك في الضفادع فهي فيها وعاءان، وفي الحيات كيس مستطيل فيه خلايا كثيرة، وفي ذوات الثدي والطيور عضو إسفنجي البناء كالبقر والجاموس، وللطيور رئة تناسب حالها في طيرانه.

صفة الرئة العامة

جسمان إسفنجيان موضوعان في الصدر، وظهر كل منهما متصل بباطن الأضلاع، ويتصلان بالفم بقصبة غضروفية يدخل فيها الهواء، وهذه القصبة متى وصلت إلى الرئة تتحول إلى شعبتين كل شعبة تدخل رئة تصير شعباً كثيرة منبثة في الرئة اليمنى والرئة اليسرى، ويصير كل فرع من الفرعين في كل رئة من الرئتين مشبهاً بكيس، وهذا الكيس متصل بالهواء الخارجي بأنبوبة صفاقية تخترق الرئة حتى تخرج منها في أعلى الصدر، وباجتماع الأنبوبتين تكون القصبة الغضروفية، والدم إذا عاد من أطراف الجسد بواسطة الأوردة يصب في الأذين الأيمن من القلب ويسير منه إلى البطين الأيمن، ويخرج من البطين الأيمن المذكور بشريان كبير يقال له الشريان الرئوي، وهو يسير إلى الرئتين ويتفرع فيهما كما تتفرع شعب القصبة، فتنتهي الشعب بالأنابيب الهوائية، وتنتهي الشرايين بالشبكة الشعرية. فإذا دخل الهواء في المسالك الهوائية وانتهى إلى الخلايا الهوائية أصبح مجاوراً للدم في الأوعية الشعرية. فإذن يمتص الدم الأكسوجين من الهواء وينفث فيه حامض الكربونيك بقوة حيوية لم تدركها عقول الناس. وحينئذ يدخل الدم في البطين الأيسر والأذين الأيسر ويتفرع في سائر الجسم. اهـ.

لعلك تقول: نحن الآن في تفسير القرآن والقرآن سهل. وهذه الألفاظ التي سمعناها الآن لا تفهم. فما هو البطين وما هو الأذين وما معنى هذا المقام؟ أقول لك: إن هذا المقام مقام العجائب والحكمة.

انظر إلى القلب، إنه فيه أربع تجاويف كأنها أربع غرف: غرفتان في أعلى وهما صغيرتان، وغرفتان في أسفل وهما كبيرتان. والصغريان تسمى كل منهما «أذين» أعني أذن صغيرة تشبيهاً لها بالأذن. والكبريان يقال لكل منهما «بطين» أي أنها كالبطن والبطن أكبر من الأذن. هكذا هاتان أكبر مما فوقهما.

ولعلك تقول: قد فهمت. إذن أقول لك: إن لنا حنجرة وهي القصبة الهوائية. وهذه القصبة تتفرع إلى فرعين كل فرع يدخل إلى رئة من الرئتين كما تقدم. والفروع المتفرعة من الفرعين تكون منتهية بما يشبه الكيس يدخل الهواء فيه من الفم. وهذا الهواء الآتي من الفم معد لتطهير الدم، والدم يأتي من أطراف الجسم في العروق التي يقال لها أوردة، لأن الأوردة تحمل الدم الذي يحتاج إلى الإصلاح وهو الدم الوريدي، والشرايين تحمل الدم الشرياني، أي: الذي حصل إصلاحه بالهواء كما سترى. فهذا الدم الذي جاء من طريق الأوردة يصل إلى الأذين الأيمن. وهناك فتحة بين الأذين الأيمن والبطين الأيمن تفتح وتقفل، والقلب أشبه بالآلة الماصة الكابسة فينزل الدم من الأذين الأيمن إلى البطين الأيمن تحته، ويخرج من البطين الأيمن في الشريان الرئوي وهو يمتد إلى الرئة ويتفرع فيها فروعاً شعرية دقيقة. وقد علمت مما مر أن القصبة الهوائية لها فروع منبثة فيها هواء. فهاهنا تجاورت الفروع الهوائية الآتية من الفم والفروع الشعرية الآتية من الشريان الممتد من البطين الأيمن. وهناك يتلاقى الدم والهواء ويحصل التفاعل بينهما.

فانظر كيف جرى الدم وسار في مسالك الجسم، ثم جرى إلى الأذين الأيمن والبطين والشريان الرئوي وانتهى إلى الهواء الآتي من الخارج. وكيف استمر هذا العمل ليلاً ونهاراً والناس لا يعلمون، بل ربما يعيش الإنسان ويموت وهو لا يدري عن هذا ولا عن غيره شيئاً، ومتى طهر الدم سار في كل من الأذين الأيسر والبطين الأيسر وخرج إلى الجسم في الأوردة، وهو يتفرع إلى فرعين: فرع يمتد إلى أعلى الجسم، وفرع إلى أسفله، ويتفرع فروعاً لا تحصى في سائر الجسد لتغذيته وهكذا، ومتى اتصلت بالحويصلات الجسمية وتغذت بها رجعت عكارة الدم المتحدة بالمادة الفحمية وهو الكربون إلى القلب بطريق الأوردة وهكذا، وإنما أطلت لك في هذا المقام لأن المدار ليس على كثرة العلم، بل المدار على الفهم والتعقل، وهذا مقام دقيق يحتاج إلى البسط والشرح.

الدم جاء من الأغذية الداخلة من الفم إلى المريء إلى المعدة إلى الأمعاء، وخلاصته تذهب في الأوعية الشعرية وتدخل الكبد، ويطبخ هناك وتخرج منه الصفراء ويخلص منه السوداء والماء، ويتجه كل إلى مقره فالأولى في المرة الصفراء، والثانية في الطحال، والثالثة تذهب إلى الكلية ويبقى الدم فيدخل مع الدم الشرياني في الدورة، فهذا الدم الآتي من الغذاء محتاج إلى الهواء لتجديد مادة الحياة فيه، فهو للدم أشبه بالماء بالنسبة لظاهر الجسم من حيث إزالة المضار، فكما أن الماء نشربه وتتطهر به هكذا الدم يتطهر بالهواء ويأخذ منه مادة الحياة كلما ضعفت. هذا ما أردت ذكره في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثاني: في قوله تعالى:

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾

قد ذكرت لك أن علماؤنا رحمهم الله قالوا: إن هذه الآية تدل على عذاب القبر. وإذن لا بد أن أذكر لك شذرات من كتاب «الأرواح» الذي ألفته لهذا الغرض، وإني أحمد الله عز وجل إذ جعل بيني وبين تفسير القرآن حائلاً نحو ١٣ سنة مع أني كنت أدرسه في مدرسة «دار العلوم»، وكانت

الفرصة سانحة لتتميمه، فأراد الله أن يسلط رجال السياسة علي وأنا في «دار العلوم» فوشوا بي وقالوا للإنجليز: إنه يعلم تلاميذه الوطنية، فنقلت من تعليم طلبة «دار العلوم» الذين يفهمون إلى تعليم تلاميذ الثانوي اللغة العربية لا غير، وانقطع التفسير وبقي ما كتبته محفوظاً عندي حتى انتهت الحرب العظمى، ودارت الأيام وانتهيت من أعمال الحكومة، وفي أثناء هذه السنين اطلعت على علم الأرواح وألفت فيه الكتاب المذكور، فلولا نعمة الله التي كانت بحسب ظاهرها نقمة وهي تأخير التفسير مع مسيس الحاجة إليه وشغف الطلبة والعارفين به؛ ما أمكن شرح هذا المقام ولا إظهار ما أبرزه الله في العالم الإنساني من الخبايا الروحية التي تنطق بمصداق القرآن، فكم لله من نعمة اختبأت في ظواهر النقم. فلأشرع في نقل شذرات من ذلك الكتاب الذي ألفته لهذا المعنى، فقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما يأتي:

ألا فليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن المحافل الروحية والمجامع النفسية في البلاد الأوروبية قد نطقت فيها الأرواح على مرأى ومسمع من مجالس شوراهم والملأ من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان في أمريكا وغيرها كما سترونه مفصلاً ومبيناً أيما تبيان، لقد شرحت الأرواح ما شاهدته في عالم البرزخ من نعيم وبؤس وهناء وعناء، وخاطب الأموات الأحياء والآباء الأبناء، فأنصت الجمع وكفكف الدمع وجاءت البشرى بالحياة الأخرى، وقال الأموات للأقارب والإخوان: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[العنكبوت: ٦٤]، فصدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده، وجاء الحق وزهق الباطل، وفرح المسؤول وقنع السائل.

فهل نقف نحن معاشر المسلمين أمام هذا الحادث صامتين؟ إنه لعيب فاضح وخطأ واضح وشين مبين، نحن أحق بهذا العلم من الغربيين، إن الأمر لجلل يعوزه كتب تؤلف ومجامع تحتشد وعلماء تنتقد، أنا لست في كتابي هذا أثبت العالم الروحي فحسب، فلقد سبقني إليه من نشروا الفكرة وأذاعوا أمره بين إخواني المصريين، إنّما الذي أدهشني ما عثرا عليه من المحاورات بين الأرواح الناطقة من عالم الغيب وبين الأحياء في المجامع العلمية، وكيف كانت آراؤها وتعاليمها تذكرني كثيراً بما طالعته في أمهات الكتب الإسلامية وما جاء عن السادة الصوفية. أليس من واجبي أن أنشر تلك المطابقات العجيبة بين أممنا الإسلامية. إنه لحرام علي أن أغمض العين ولا أنتهز الفرصة فأذكر كل حادثة من حوادث العجائب الروحية بما يطابقها من كلام أئمتنا الإسلامية مبيناً الكتاب واسم المؤلف.

سيعجب المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إذا جاءهم هذا النبأ الذي عنه يتساءلون، من ذا الذي كان يدور بخلده أو يهجس بخاطره أن ما جاء من نعيم القبر وعذابه في ديننا يعرض اليوم عرضاً على المجامع الأوروبية النفسية؟ كمثل الحاكم الألماني بيللون الذي مات وعمره ٧٩سنة، وقد استغاثت روحه من اضطهاد يتيمين له، وحققوا فوجدوا ثبوت غدره باليتامى في دفاتر الحكومة في تلك الأقطار.

أم من ذا الذي يسمع بحادث مدينة «ونسبرج» إذ تجلت روح محاسب ارتكبت الخيانة فطلب أن تساعده أرملته، إذ دلها على المكان الذي أخفيت فيه تلك الدفاتر، ففعلت ما طلب وخف عنه

بعض ما يجد من العذاب المهين؟ بل من ذا الذي يسمع بحادثة مدينة «انجوليم» ولا يكون من الموقنين؟ وهي من حوادث لا عدد لها في المجامع النفسية الروحية. ذلك أنه مات غني بخيل فأحضرت الجمعية روحه فقال: هاتوا لي ذهبي ومالي لم أخذتموه؟ في حديث طويل ستقرؤه مفصلاً في الكتاب.

أنا لست في كتاب «الأرواح» أسرد الحوادث المنقولة سبهللاً ولكني أجد ذلك يطابق ما نص عليه الغزالي وغيره بطريق الكشف، وكيف قال: إن عذاب القبر على هذا الأسلوب، وستراه مفصلاً في الكتاب.

من وقف على أسرار دين الإسلام في أمهات الكتب العلمية عرف ما للذنوب القلبية من الحسد والكبرياء والطمع والجشع من الأثر في العذاب، وأن العلاقة متينة ثابتة مؤكدة بينهما عند الممات. وكذلك ليس للمرء من كمال إلا بالأعمال العظيمة لبني الإنسان. لما قرأت محادثات الأرواح التي ستراها ألفيتها جاءت مصدقة لما قرأته في كل كتاب، فأبنت المطابقة في هذا الكتاب. وفي الحديث: «من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». أفلا يجب نشر هذا التفصيل لإخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؟ إن ذلك يأمر به الدين.

نعم لقد بزغ بزوغ الشمس للورى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾[آل عمران: ٣٠]، وثبت بالبراهين ويقين الصدق قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣].

وجاء في صفحة ٣٣ منه وما بعدها ما يأتي:

(أولاً) قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبد الرؤوف تاج العارفين ابن زين العابدين الحداوي القاهري المعروف بالمناوي المولود سنة ٩٥٢ المتوفى بالقاهرة صبح يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر الخير سنة ١٠٣١ على قصيدة النفس لابن سينا صفحة ٣٢ ناقلاً عن الغزالي ما يأتي:

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التي تلي جهة فوق إلى التي تلي جهة أقدامنا مملوء جنوداً وملائكة، وما يعلم جنود ربك إلا هو، إلى أن قال: ولا ينبغي أن ينكر منكر ذلك، وقد شهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته، حتى إن قرصها يكون بالغرب وشعاعها بالشرق فها هو الآن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذي بالمشرق بلا زمان، لو كان جسماً ما انقطع في عدة سنين، وإذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس إلى حيث شئت ثم تعطفه لا في زمان. وجوهر الشعاع بالإضافة إلى جوهر النفس كثيف، فليس في العالم موضع إلا وهو مغمور بما لا يعلمه إلا الله، ولذلك أمر الشارع بالستر في الخلوة وعند الجماع والعالم مشحون بالأرواح. اهـ.

(ثانياً) قال المناوي نفسه في الكتاب المذكور نقلاً عن الغزالي رحمه الله صفحة ٨٠ ما ملخصه أنه قال: قد ظهر بالمشاهدة ظهوراً أوضح من العيان أن أصناف عذاب القبر ثلاثة أقسام: فرقة المشتهيات، وخزي وخجل الفاضحات، وحسرة فوت المحبوبات.

وهذه أنواع روحانية تتعاقب على الميت إلى أن ينتهي إلى النار الجسمانية. ففرقة المشتهيات وهو أولها وصورته المستعارة من عالم الحس والتخيل التنين الذي وصفه الشرع، وعدد رؤوسه وهي

بقدر الشهوات ورذائل الصفات، إلى أن قال: والثاني خزي وخجل الفاضحات، فإذا تطاول الزمن بعد الموت وقد احترق الفؤاد بفراقه ما تشتهيه النفس من الأهل والأحباب والمال تخبو نار ذلك الفراق بطول الزمن، فتبدو إذ ذاك نار الخزي في القلب بما ارتكبت من الذنوب والآثام، ويرى نفسه في خزي وفضيحة أمام خالقه والعقلاء، فإذا طال الزمن ألف الفضيحة. ثم تظهر آخر الأمر نار حسرة فوت المحبوبات من الأعمال العظيمة والعلوم اليقينية التي يرى غيره بها ارتقى، وذلك آخر ما يلقى من العذاب قبل ما يلج في النار في الآخرة. هذا ملخص ما ذكره المناوي نقلاً عن الغزالي صفحة ٨٠ و٨١ ومما قال فيها بالحرف:

ولا تظن أن الله يغضب عليك انتقاماً ثم تخدع نفسك برجاء العفو، فتقول: لم يعذبني ولم تضره معصيتي. إذ يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السم. وهذه الحسرة دائمة لا تزول أبداً. انتهى المقصود منه بالحرف الواحد.

(ثالثاً) قال في إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٦٢: واعلم أن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل، كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل، فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل، كما قال تعالى: ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ﴾[الأنعام: ١١٢]. فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد، وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأبصار. وقال قبل ذلك ما ملخصه: إن هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرة أخرى، فحينئذ تصبح النفس كأنها لا حية ولا ميتة، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾[الأعلى: ١٣]، وتقول: ﴿ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ ﴾[الأعراف: ٥٣] ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾[النبأ: ٤٠]، ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ ﴾[الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الأنعام: ٢٨]؛ لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة، وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم، وهكذا شأن الغافلين. انتهى ملخصاً من إخوان الصفاء.

ثم جاء في صفحة ٣٨ وما بعدها ما يأتي:

قال شير محمد: عندي سؤال آخر هام لا طاقة لي على كتمه ولا مندوحة لي من فهمه، وذلك أني قرأت أحاديث كثيرة في أمر عذاب القبر ونعيمه، وأنها أمور جسمية لا معنوية، وكيف يقنع المسلمون بقولك هذا؟ وكأني بمن يسمع كلامك يقول: هذا كلام فلاسفة خارج عن الدين، وما تقوله في قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون في ماذا أنزلت: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾[طه: ١٢٤]. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً، هل تدرون ما لتنين تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رؤوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم

يبعثون » . قلت : يا شير محمد إن لنا في الجواب عليه وجوهاً ثلاثة ذكرها الإمام الغزالي ، فلنسر على منهجه ولننسج على منواله .

الوجه الأول : أننا نبقي الحيات والعقارب والتنانين على حالها بلا تأويل ، ونسلم أنها موجودة وجوداً غير ما نعهده ، ولنا في ذلك نظائر . ألم تر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه جبريل والناس لا يرونه ، وهم به مصدقون لما رأوا من الآثار والعلم والحكمة ، وقد أجمع رجال الكشف من المسلمين أنهم يشاهدون صوراً ويعرفون أموراً يجهلها سواهم ، وأنت تعلم أن الوسطاء المنوَّمين ـ بالفتح ـ يشاهدون صوراً وأشباحاً ويخبرون بأمور . والناس حولهم لا يدركون منها شيئاً . أفليس الميت أوفر حرية وأكثر انطلاقاً وأوسع نطاقاً؟ فإذا لم يسعك أن تتصور هذا وشق عليك فاستمع لما ألقيه إليك في :

الوجه الثاني : ذلك أننا نعتبر بحال النائم ، فإننا نرى نائمين في فراش واحد وقد قام أحدهما مذعوراً كئيباً وجلاً خائفاً مما شاهد وقت نومه . وقال الثاني : قد كنت في حديقة غناء مع من أحب ، وهو مستبشر فرح مما لاقى من المسرات والنعيم . فلنتأمل الميت الذي صار أكثر حرية وأحدّ نظراً من النائم ، فتكون الحية والتنين والعقرب موجودة بالنسبة له ، والحاضرون لا يعلمون . فإذا عسر عليك هذا وأبيت أن تقبل فاستمع لما أقول في :

الوجه الثالث : بأن نقول : إن الحيات ليست مؤذية بذاتها ، وإن المؤذي هو السم الذي تفثه من نابها ، فيدور مع الدم فيكون الألم الشديد ، بل نفس السم ليس بمؤذ . ألا ترى إلى ما حققه الأطباء أن سم الحية إن شرب ولا جرح في الفم ولا في مجرى الطعام إلى المعدة صار غذاء لا داء قاتلاً . وإنّما يؤذي ويضر الجسم إذا دار مع الدم في العروق والشرايين ، فهنالك الأذى ، فالحية ليست بمؤذية ولا السم ، وإنما هو الأثر الناجم من السم الملفوظ من الحية ، فكانت النتيجة أن اللذات والآلام كيفيات قد تصل إلى الحس بطريق الأعصاب . والمدار على الأثر لا المؤثر . والآلام قسمان : قسم جسمي وقسم روحي . فالجسمي إما من داخل وإما من خارج . والذي من الخارج إما من الحواس الخمس ، كالصوت الكريه في السمع ، والمنظر البشع والمحزن أو المخيف في البصر ، والروائح الكريهة في الشم ، والمر في الذوق . والذي من داخل هي الأمراض وهي ترجع إلى انحراف المزاج عن اعتدال الطبائع الأربع وهي الصفراء والسوداء والدم والبلغم . ومن هذه تنشأ سائر الأمراض المتكاثرة . أما القسم الروحي فهو راجع إلى الغضب والشهوة والجهل وعدم العدل ، ولقد تفرع على هذه فروع كثيرة كتفرع رؤوس الحيات وعدد التنانين والحيات . فإذا لم يتزن الغضب بالشجاعة والعلم ولم تحفظ الشهوة بالعفة ولم يوصف العقل بالحكمة ولم يكن اعتدال بين هذه القوى ؛ كانت الآلام النفسية الموجعة التي تبقى في النفس بعد الموت . وهذا انحراف في الأخلاق كما أن المرض انحراف في المزاج . فإذا غلب الدم حدثت الأمراض الناجمة عنه . كما أن الغضب في الأخلاق يحدث عنه أمثال الأحقاد والضغائن ، وإذا غلبت الشهوة حدثت أمور كالعشق المنحرف عن الجادة ، ومتى فارق المحب ما أحبه جزع . وهناك موازنة ما بين الآلام الجسمية بقسميها وما بين الآلام النفسية .

ولنضرب لك مثلاً يوضح المقام فنقول: لنتخذ حاسة اللمس مثلاً، فإن الآلام الواصلة إلى الجسم منها تكون بالضرب أو بالجرح مثلاً. ونقابلها بالآلام الروحية لفقد المحبوب من مال وعقار. فلو أن رجلاً قيل له أعطني عقارك وضياعك وضرب ضرباً موجعاً؛ فإنه لا يترك ما ملك ولا يدع ما أحب لما يحس من الألم الناجم من فراق المحبوب وهو ما يملكه، وهو أشد من الألم الناجم من الضرب المؤلم بطريق اللمس. إلا أنه لا يزال يوازن بين الألمين ويتحمل الأمرين ويرضى بتمزيق جلده، حتى إذا أصبح ألم الجسم لا يطاق وكادت تلتف الساق بالساق هنالك يرى الألم الناجم من الضرب الجسمي أقوى من ألم فراق المحبوب، فيتركه على قاعدة: «إذا اجتمعت علتان يتبع الأخف».

قال الإمام الغزالي: والصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات، وانقلاب الصفة مؤذياً يضاهي انقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق، فإنه كان لذيذاً فطرأت عليه حال صار اللذيذ بنفسه مؤلماً. حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال. بل هذا بعينه أحد أنواع عذاب الميت. فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه، ولو أخذ منه جميع ذلك في حياته من لا يريد استرجاعه فماذا ترى يكون حاله؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويقول: يا ليتني لم يكن لي مال قط ولا جاه فكنت لا أتأذى بفراقه؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية دفعة واحدة.

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه وتسلم إلى أعدائه، ثم يضاف إلى ذلك الحسرة على ما فاته من نعيم الآخرة. انتهى المقصود منه.

وجاء في صحيفة ٤٤ ما يأتي:

المجلس الرابع

في الروح التي أخبرت بموتها وزمنه، وفي قلة علم النوع الإنساني ومقارنات شتى بين أقوال الأرواح وبين القرآن والحديث الشريف

فلما أن جاء الشيخ شير محمد والتأم المجلس شرع يطالبني بما وعدته في المجلس السابق، فقلت: حباً وكرامة. أما القصة الأولى فهي ما قاله في الكتاب المذكور في صفحة ٦٣ ونصه بالحرف الواحد: روى المعلم «جاردي» نقلاً عن إحدى الجرائد الروحانية الألمانية الحادث الآتي:

في اليوم الثالث من شهر آب ١٨٨٢ قعد ثلاثة أشخاص من مدينة. ح. حول طاولة لمكالمتها. فلما استقرت بهم الحال أخذت المائدة تتحرك إشارة إلى رغبتها في التكلم. فدار بينهم الحديث الآتي:

(س) من الطارق؟. ج: خياط مقتول.

(س) كيف قتلت؟. ج: مر علي قطار فداسني.

(س) متى كان ذلك؟. ج: منذ ثلاث سنين.

(س) وأين تم ذلك؟. ج: في أونتربارمن.

(س) أي يوم؟ . ج : في ٢٩ آب سنة ١٨٧٩ .

(س) ما اسمك؟ . ج : سيجوار ليكوبيسك .

(س) أين كان مقرك؟ . ج : في بارمن .

(س) هل والدك في قيد الحياة؟ . ج : نعم .

(س) أكنت معلماً أم صانعاً؟ . ج : كنت أجير صانع .

(س) في أي سن قتلت؟ . ج : في السابعة عشرة من عمري .

(س) هل تستحسن أن نبلغ ذلك لوالديك؟ . ج : كلا .

(س) لماذا؟ . ج : لأنهما لا يعتقدان الحياة بعد الموت .

(س) ربما هذا يقنعهما . ج : لا ينوبكم من ذلك إلا السخرية .

(س) كيف تم حادث قتلك؟ .

(ج) كنت ذاهباً لزيارة أنسباء لي في أونتربارمن ، وإذ كنت ماشياً في طريقي لم ألمح لضعف بصري قدوم القطار فمر علي وداسني .

(س) بماذا تشتغل الآن؟ . ج : لا أستطيع وصف ذلك .

فعجب الحضور من هذه الرواية وقصدوا أن يتحققوا صحتها ، فكتب أحدهم في اليوم الثاني إلى مديرية بارمن ليستقصي الخبر ، فورد إليه الجواب من رئيس الشحنة في ١٧ آب سنة ١٨٨٢ وهاك نصه : إجابة لطلبكم رقم ٨ الجاري ؛ أتشرف بإعلامكم أننا على إثر مطالعتنا سجلات المديرية وجدنا أن الصانع الخياط المدعو سيجوار ليكوبيسك وله من العمر سبع عشرة سنة بينما كان ماراً في طريق أونتربارمن من ليلة ٢٦ آب سنة ١٨٧٩ الساعة ١١ والدقيقة ١٤ ؛ مر من فوقه قطار السكة الحديدية فقتله ، ونسبت قضيته إلى تجول القتيل جهلاً منه في طريق القطار . اهـ .

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾[غافر: ٦٧]

إلى قوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[غافر: ٦٨]

مع قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾[غافر: ٧٩]

إلى قوله: ﴿ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾[غافر: ٨١]

مع ملاحظة آية: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[الزمر: ٦] التي في سورة «الزمر»

إلى قوله هناك: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الزمر: ٧]

وقوله فيها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾[الزمر: ٥]

إلى: ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[الزمر: ١]

فهاهنا خلقنا وخلق أنعامنا ، وإنه حكيم ، وإنه خلق هذه العوالم بالحق ، وإنه يرضى لنا شكر النعمة ولا يرضى لنا كفرها ، ولا جرم أن المجهول لا شكر عليه ، إذن المعلوم هو الذي يكون عليه

الشكر، وعلى قدر جهل الإنسان بالنعمة يكون كفرها، وعلى مقدار معرفة حقائقها والعمل بها يكون شكرها، إذن المسلمون إذا جهلوا الأنعام ونحوها فهم كافرون بنعمتها، والله لا يرضى لنا الكفر. وأنت عليم أيها الذكي أن شكر النعمة تقدم تفسيره تكراراً في هذا التفسير، ذلك أن شكرها صرفها فيما خلقت له، وذلك لا يكون إلا بعد المعرفة، فمن عرف نعمة المحسن أحبه وأثنى عليه بلسانه، وذلك هو الحمد، وأطاعه بتسخير أعضائه كلها له. إذن هنا قلب عرف فأحب، ولسان أثنى، وجوارح تسخر في مصالح المشكور، والمشكور هنا هو الله والله غني. إذن يجعل الإنسان كل مواهبه مسخرة لعبادة الله، هذا هو شكر النعمة الذي أساسه المعرفة. والمسلمون اليوم في أقطار الأرض محروم أكثرهم من معرفة هذه العوالم، والحرمان من المعرفة يبعث على التقصير في الشكر، فوجب علي إذن في هذا المقام أن أصطفي نبذاً جميلة مفيدة للمسلمين كنموذج لمعرفة علم الحيوان، ولأخص من غوامض العلم ما تقع أعين الناس عليها وهم عنها غافلون.

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير، فقال: ماذا تريد أن تقول في علم الحيوان؟ ألم تكتب عنه مقداراً كبيراً في سورة «النحل» عند آية: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾[النحل: ٦٦] الخ، وفي سورة «طه» نبذاً جميلة مصورة بالصور الشمسية البديعة، وهكذا في آخر سورة «الحج» إذ بينت هناك كيف تقسم الحيوانات إلى فقرية وغير فقرية، وجعلت الذبابة المذكورة في الآية محور التقسيم ناقلاً عن العالم الفرنسي الذي كان يحدث تلاميذه في أمر الذبابة وأنها عند عصرها لا يرى لها عظم ولا دم، والحصان عند تهشيمه يرى له دم وعظم، وهنالك انقسمت المملكة إلى هذين القسمين وهكذا. ثم إنك في سورة «النور» أطلت في هذا المقام ورسمت الصور الحيوانية والنباتية المقسمة على المناطق الأرضية كلها.

وهناك إيضاح تام عند قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾[النور: ٤٥] الخ. وهكذا في سورة «النمل» شرحت أحوال النمل شرحاً وافياً، كما شرحت أحوال الحشرة المسماة بالأرضة وأبنت عجائبها البديعة في سورة «سبأ» عند آية: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾[سبأ: ١٤] وفي سورة «الروم» رسمت صور الحشرات والطيور والثعابين المختلفات الألوان؛ لتبيان أن الألوان التي اتصفت بها هذه الحيوانات كانت سبباً في حفظ ما شاكلها بهذه الألوان من الحيوانات الأخرى التي خلت من سلاح المقاومة والحفظ، وهذا كما اتضح في أول «الروم» عند آية: ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢]، واتضح أيضاً في سورة «المؤمنون» في أولها عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾[المؤمنون: ١٧]، فهنالك حيوانات كثيرة مرسومة حفظت بما منحت من الهيئات الخاصة والألوان المناسبة لحالها بخلاف تلك المرسومات في سورة «الروم» فإن منفعة ألوان الحيوان تعدّت إلى حفظ غيره، لأن مشابهة ما ليس له سلاح لما له سلاح من الحشرات ونحوها هي التي أخافت الحيوانات المفترسة لهذه الحشرات ونحوها فصارت محفوظة، ذلك كله ظاهر. وقد تقدم في سورة «فاطر» عجائب أنواع الريش في مختلف الطيور ونحو ذلك،

وهكذا تقدم هناك عجائب المعدة والأمعاء وأعصاب الحس وأعصاب الحركة وما شابه ذلك كله تقدم موضحاً أيما إيضاح، كما اتضح أيضاً في سورة «السجدة» عند آية: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] الخ، هذا كله تقدم في هذا التفسير، فما الذي تريد أن تقوله اليوم في علم الحيوان؟.

فقلت: أنا أسألك سؤالاً في علم الحيوان. فقال: سل. فقلت: ما تقول في نوع السحالي والبرص والحرباء، أضارة هذه أم نافعة؟ فقال: لا أدري. فقلت: ما الفرق بين الثعابين السامة والتي لا سم لها حتى نقتل الأول ولا نقتل الثاني. وما الثعبان الذي يحمله الحواة في بلادنا المصرية؟ وهل هو سام؟. فقال: لا أدري. فقلت: هل تعلم حيواناً في الماء يولد في مكان بعيد عن وطنه الأصلي بعداً شاسعاً جداً وهذا المولود وهو صغير يسافر شهوراً وشهوراً حتى يرجع إلى الوطن الذي خرج منه أصله. فقال: كلا. فهذه ما هي إلا ألغاز. فقلت: وهل العلق الذي في الأرض له منفعة؟ فقال: لا أدري. فقلت: أضرر الحدأة أكبر أم نفعها حتى إذا غلب ضرها قتلناها أو نفعها أبقيناها؟ فقال: لا أدري.

فقلت: فلأجبك على هذه الأسئلة في هذا المقام، حتى إذا جاءت فرصة ذكرت فوائد أخرى، وذلك في سبعة فصول في السحالي والبرص والحرباء والثعابين وثعابين السمك والعلق والحدأة. فقال: ولكن يظهر لي أن الكلام وإن حسن فقد خرج عن الموضوع. فقلت: إن الله يقول: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فقد ذكر الأنعام، والأنعام نوع من الحيوان، إذن فلنبحث في تقسيم الحيوان حتى نستخرج منه الأنعام. فقال: أما هذا فنعم. فقلت: نظرنا في كتب المتقدمين فوجدنا أن «إخوان الصفاء» يقسمه إلى ناقص الخلقة وتام الخلقة، وناقص الخلقة مقدم في الوجود على تام الخلقة.

ثم قال بعد كلام: واعلم يا أخي أن الحيوان هو جسم متحرك حساس يغتذي وينمو ويحس ويتحرك حركة مكانية، وأن من الحيوان ما هو أشرف المراتب مما يلي رتبة الإنسانية، وهو ما كان له الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم، ومنه ما هو أدون رتبة مما يلي النبات، وهو كل حيوان ليس له إلا حاسة واحدة وهي اللمس فحسب كالأصداف، وما كان كأجناس الديدان كلها التي تتكون في الطين أو في الماء أو في الثلج أو في لب الثمر أو في الحب أو في لب النبات والشجر أو في أجواف الحيوانات الكبار الجثة، وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجلده رقيق، وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة، ويحس باللمس وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر غير اللمس حسب. وهو سريع التكون وسريع الهلاك والفساد والبلى. ومنها ما هي أتم بنية وأكمل صورة، وهي كل دودة تتكون وتدب على ورق الشجر والنبات ونورها وزهرها لها ذوق ولمس. ومنها ما هي أتم وأكمل، وهي كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر، وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمياه والمواضع المظلمة. ومنها ما هي أتم وأكمل، وهي كل حيوان من الهوام والحشرات التي تدب في المواضع المظلمة له لمس وذوق وشم وليس له بصر مثل الحلمة. فباللمس قوام جثته، وبالذوق يميز الغذاء من غيره، وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت، وبالسمع يعرف وطء المؤذيات له فيحترز قبل الورود والهجوم عليه، ولم يجعل له البصر لأنه يعيش في

المواضع المظلمة ولا يحتاج إلى البصر، ولو كان له بصر لكان ذلك وبالاً عليه من حفظه من إغماض العين من القذى ضرورة، لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضواً ولا حاسة لا يحتاج إليها ولا ينتفع بها. ومنها ما هو أتم بنية وأكمل صورة وهي ما لها خمس حواس كاملة وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر، ثم يتفاضل في الجودة والرداءة.

فصل: ومن الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج، ومنها ما يزحف كدودة الصدف، ومنها ما ينساب كالحية، ومنها ما يدب كالعقارب، ومنها ما يعدو كالفأر، ومنها ما يطير كالذباب والبق، ومنها ما يدب ويمشي ما له رجلان، ومنها ما له أربعة أرجل، ومنها ما له ستة أرجل، ومنها ما له أكثر كالدحال، ومما يطير من الحشرات ما له جناحان، ومنها ما له أربعة أجنحة، ومنها ما له ستة أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخاليب وقرون كالجراد، ومنها ما له خرطوم كالبق والذباب، ومنها ما له مشفر وحمة كالزنابير، ومن الهوام والحشرات ما له فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة مثل النمل والنحل، يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقرى وجمع الذخائر والقوت للشتاء، ويعيش حولاً وربما زاد، وما كان غير هذين من الهوام والحشرات مثل البق والبراغيث والذباب والجراد وما شاكلها فإنها لا تعيش حولاً كاملاً لأنها يهلكها الحر والبرد المفرطان ثم يتكون في العام القابل مثلها.

فصل: ومن الحيوان ما هو أتم بنية مما ذكرنا وأكمل صورة منها. وهو كل حيوان بدنه مؤلف من أعضاء مختلفة الأشكال، وكل عضو مركب من عدة قطعات من العظام، وكل قطعة منها مفننة الهيئات من الطول والقصر والدقة والغلظ والاستقامة والاعوجاج، ومؤلفة كلها بمفاصل مهندمة التركيب، مشدودة الأعصاب والرباطات، محشوة الخلل باللحم، منسوجة بالعروق، محصنة بالجلدة مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أو الصدف أو الفلوس، وفي باطن أجسادها أعضاء رئيسة كالدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرش والحوصلة والقانصة وما شاكلها، وفي ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخاليب ومناقير والحافر والظلف والخف وما شاكلها، كل ذلك لمآرب وخصال عدة ومنافع جمة لا يعلمها إلا الذي خلقها وصورها وأنشأها وأتمها وأكملها وبلغها إلى أقصى غايتها وتمام نهايتها، وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الهوام كالحيات والأنعام، وهو كل ما له ظلف مشقوق، والبهائم ما كان لها حافر، والسباع ما كان لها أنياب ومخاليب، والوحوش ما كان مركباً بين ذلك، والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار، والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخاليب معقربة، وحيوان الماء ما يقيم فيه ويعيش، والحشرات ما يطير وليس له ريش، والهوام ما يدب على رجلين وأربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبيه.

فصل: ثم اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه بأن الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية التي لها عظام كبار وجلود ثخان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل الفيل والجمل

والجاموس وغيرها تحتاج أن تمكث في الرحم زماناً طويلاً إلى أن تولد، لعلتين اثنتين: إحداهما: كيما تجتمع في الرحم تلك المواد التي تحتاج إليها الطبيعة في تتميم البنية وتكميل الصورة. والعلة الأخرى: كيما تدور الشمس في الفلك وتقطع البروج المثلثات المشاكلات الطباع وتحط من هناك قوى روحانيات الكواكب إلى عالم الكون والفساد التي تحتاج إليها في تتميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسة، ليقبل كل جنس من الكائنات المولدات ما له أن يقبل من تلك القوى، كما بينا طرفاً من ذلك في رسالة مسقط النطفة. ثم اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه بأن الحيوانات التامة الخلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كونت في بدء الخلق ذكر أو أنثى من الطين تحت خط الاستواء، حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين والحر والبرد معتدلين والمواضع الكنينة من تصاريف الرياح موجودة هناك والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة، ولما لم يكن في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جعلت أرحام إناث هذه الحيوانات على هذه الأوصاف، من اعتدال الطباع لكيما إذا انتشرت في الأرض تناسلت وتوالدت حيث كانت، وأكثر الناس يتعجبون من كون الحيوانات من الطين، ولا يتعجبون من كونها في الرحم من ماء مهين، وهي أعجب في الخلقة وأعظم في القدرة، لأن من الناس من يقدر أن يصور حيواناً من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من النحاس كما هي موجودة مشاهدة في أيدي الناس من خلقة الأصنام، ولا يمكن أحد أن يصور حيواناً من الماء لأن الماء جسم سيال لا تتماسك فيه الصورة، فتكون هذه الحيوانات في الأرحام أو في البيض من ماء مهين أعجب في الخلقة وأعظم في القدرة من كونها في الطين، وأيضاً إن أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل أكثر من خلقة البقة، وهي أعجب خلقة وأظرف صورة، لأن الفيل مع كبر جثته له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان، والبقة مع صغر جثتها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخر لا يدركها البصر، وهي مع صغر جثتها مسلطة على الفيل بالأذية، ولا يقدر عليها ولا يمتنع بالتحرز منها. وأيضاً فإن الصانع البشري يقدر على أن يصور فيلاً من الخشب أو من الحديد أو من غيرها بكماله، ولا يقدر أحد من الصناع أن يصور بقة لا من الخشب ولا من الحديد بكمالها، وأيضاً فإن كون الإنسان من النطفة بدياً، ثم في الرحم جنيناً، ثم في المهد ضعيفاً، ثم في المكتب صبياً، ثم في تصاريف أمور الدنيا رجلاً حكيماً، أعجب أحوالاً وأعظم اقتداراً من كونه يبعث من تراب قبره يوم القيامة، وخروج الناس كأنهم جراد منتشر، وهكذا أيضاً خروج عشرين فروجة من تحت حضن دجاجة واحدة؛ أو ثلاثين دراجة من تحت حضن دراجة واحدة ينقض عنها قشور بيضها في ساعة واحدة وعدو كل واحدة في طلب الحب وفرارها وهربها من الطالب لها حتى ربما لا يقدر عليها؛ أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة، فما الذي منع المنكرين من الإقرار بذلك وهم يشاهدون مثل هذه التي أعجب هي منها وأعظم في القدرة لولا جريان العادة بها. اهـ.

هذا ما جاء في «إخوان الصفاء» أيها الذكي، ولا جرم أنك رأيت في هذا المقام تعريف الأنعام بحسب ما كانوا يرونه والفرق بينها وبين السباع والبهائم، وهذا نوع آراء المتقدمين.

ولما كان هذا التفسير لا يقنع أذكياء قرائه بآراء طائفة دون أخرى أردت أن أريك تقسيم المتأخرين للحيوان، وهنالك نأتي بالفصول السبعة لتعرف أجوبة المسائل المتقدمة، وهنالك تعرف أننا في هذه الإجابة الآتية لم نخرج عن مضمون الآية الكريمة فقد صرح فيها بالأنعام، وما الحيوان إلا أنعام وغير أنعام، وهذا الذي سنذكره إنما هو بعض المقابل لما في الآية، وهذا من مقاصد التفسير، إذن الفصول السبعة الآتية لا تخرج عن مضمون التفسير، فهاك تقسيم المتأخرين في زماننا الحاضر: الحيوانات إما أولية أي ذات خلية واحدة. وإما غير أولية أي كثيرة الخلايا.

فذات الخلية الواحدة كحيوان الملاريا الذي لا أعضاء له يتحرك بها، فيعيش في الكرات الدموية الحمراء في دم الإنسان فترتفع حرارته بسبب تكاثر هذا الحيوان بالتناسل، وهو يستعين بالناموس فيدخل فيه، وهذا ينقله إلى إنسان آخر فيمرض بهذا المرض، فهذا هو أدنى الحيوان خلق ليكون ضاراً بالنوع الإنساني، والإنسان مكلف بدراسته ليتقيه. فهذه نعمة من حيث إنها تحثنا على الدراسة التي بها نعرف مضرة الضار فنتقيه ومنفعة النافع فنصطفيه. فإذا جهلنا فإننا لا محالة مصابون بالضار معاقبون بالحرمان من منفعة النافع. انتهى الكلام على الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة.

أما الحيوانات ذوات الخلايا فمنها الإسفنج وهو معروف. ومنها حيوان المرجان، وقد تقدم الكلام عليه في سورة «النحل» وسور أخرى. ومنها الحيوانات ذوات الجلد الشوكي كنجم البحر وهذا تقدم في سورة «الحج» رسمه وقنفذ البحر. ومنها الديدان المفرطحة كالدودة الكبدية والبلهارسيا. ومنها الديدان الأسطوانية مثل دودة الأنكلستوما ومنها الدودة الحلقية وهي دودة الأرض والعلق الطبي. ومنها الحيوانات المفصلية مثل الصرصار والذباب المنزلي الخ. ومنها الحيوانات الرخوة كالقواقع وأم الخلول. ومنها الحيوانات الفقرية التي جاءت ببعضها هذه الآية. والفقرية منها السمك والضفادع والزواحف والطيور والحيوانات الثديية. هذا مجمل أنواع الحيوانات.

ولا جرم أن الفصول السبعة الآتية من ذوات الفقرات كثعابين السمك وكالحدأة. وبعضها من الديدان الحلقية كدودة الأرض. وبعضها من الحيوانات الزاحفة كالسحالي والبرص والحرباء والثعابين. إذن فلنذكر الفصول السبعة على ترتيب ما قدمناه:

الفصل الأول: في السحالي

اعلم أن السحالي من الحيوانات الورلية. وهذه الحيوانات تغطى أجسامها بالحراشيف أو الدرنات. ولها أربعة أطراف تنتهي أصابعها بمخالب حادة. وهذه الحيوانات في الغالب نشطة وسريعة الحركة وألوانها زاهية وبعضها يماثل لون الوسط الذي يعيش فيه وهذا يساعدها على الاختفاء عن الأنظار. وأذناب هذه الحيوانات طويلة، ويلاحظ أنها تتحرك زمناً بعد فصلها عن الحيوان. ولهذه الحيوانات قدرة خاصة على تجديد بعض أعضائها المقطوعة كالأذناب.

تعيش الحيوانات الورلية في المناطق الحارة عادة ويقل وجودها أو ينعدم في الأقطار الباردة. وتتغذى هذه الحيوانات باللحوم كالحشرات والديدان وغيرها. وتضع بيضاً تدفنه في الرمال حتى يفقس. وتشمل هذه الفصيلة حيوانات كثيرة منها الورل والسحالي والأبراص والحرباء.

(١) الورل: حيوان كبير الحجم نوعاً يغطى جلده بدرنات خشنة. ويصل طول أكبر أنواعه إلى متر أو أكثر ويعيش بعض أنواعه في الصحاري وعلى شواطئ الأنهار حيث تغوص في الماء إذا أزعجت.

(٢) السحالي: حيوانات كثيرة الأنواع توجد في جميع جهات القطر في المزارع وغيرها وتتسلق الأشجار وتتغذى بالحشرات والديدان والحيوانات الصغيرة، وجلدها لين في الغالب وذو ألوان زاهية، وتعتبر من الحيوانات النافعة لأنها تتغذى بالحيوانات الضارة. (انظر شكل ١).



(شكل ١ ـ رسم السحلية)

الفصل الثاني: الأبراص

الأبراص: زواحف صغيرة تكثر في المنازل، ولها أصابع مفرطحة نوعاً منتهية بمخالب، ويتكون هذا الجزء المفرطح من أجزاء عضلية مستعرضة بارزة موازية لبعضها تقريباً، فإذا وضع الحيوان قدمه على سطح أملس انطبق سطح هذه الأجزاء عليه انطباقاً تاماً، وذلك بطرد الهواء الموجود بينهما، وبذلك يتمكن البرص من تسلق الجدران الناعمة والمشي على الأسطح الملساء كالزجاج، وتتغذى الأبراص بالحشرات الصغيرة في المنازل كالصراصير مثلاً، ولذلك يعتبر البرص من الحيوانات النافعة، والذكور في العادة أزهى لوناً من الإناث، وتماثل الأبراص لون الوسط الذي تعيش فيه عادة. (انظر شكل٢).



(شكل ٢ ـ رسم البرص)

الفصل الثالث: الحرباء

الحرباء حيوان غريب الشكل متوسط الحجم يعيش على الأشجار، وللحرباء رأس هرمي وعلى جانبيه عينان براقتان بارزتان، وتتحرك كل منهما بمفردها في جميع الاتجاهات، وعنقها قصير وعليه ثنيات جلدية، ولها ذنب طويل يلتف ورفيع عادة حول أفرع الأشجار التي تقف عليها، وأصابعها

معدة للقبض على أفرع الأشجار. وجلد الحرباء لين ويتغير لونه بسرعة حسب لون الوسط الموجودة فيه الحرباء لتختفي فيه عن الأنظار، وتصعب رؤيتها حتى من مسافة بسيطة، ولسانها طويل وأسطواني الشكل وينتهي بطرف منبسط كالملعقة يفرز مادة لزجة. وتتغذى الحرباء بالذباب وأبي دقيق والصراصير والحشرات الصغيرة، إذ عندما تقترب منها حشرة ينطلق لسانها بسرعة البرق فتلتصق الفريسة بقمته وسرعان ما يعود اللسان بها إلى الفم. والحرباء حيوان بطيء الحركة كسول يتربص لفريسته زمناً طويلاً حتى يتمكن منها. وتوجد الحرباء في كثير من بقاع الدنيا القديمة وفي كثير من مناطق الصحاري المصرية حيث توجد بعض الحشائش والأشجار. (انظر شكل ٣).



(شكل ٣ ـ رسم الحرباء)

الفصل الرابع: الثعابين

الثعابين: تتميز الثعابين عن الزاحفات الأخرى بطول جسمها وخلوه من الأطراف، توجد الأطراف بحالة أثرية تحت الجلد في البوا والبيتون، ويتناسب شكل الثعابين مع طرق معيشتها حيث تزحف داخل الشقوق والأنفاق الضيقة. ويغطى جسمها بطبقة حرشفية. وتغير الثعابين الطبقة الخارجية من جلدها في فترات منتظمة. وتعيش الثعابين في جميع بلاد العالم، وتكثر على الأخصّ في البلاد الحارة، فيعيش بعضها في الغابات ويتسلق الأشجار. ويعيش بعضها على الأرض في أنفاق خاصة. ويعيش البعض في الماء. وأغلب الثعابين المائية سام.

توجد بجانبي رأس الثعبان عينان ليس لهما جفون متحركة، وهذا ما يجعل الحيوان كأنه محدق دائماً.

ومما يستحق الذكر أن الثعابين لا ترى تماماً أيام انسلاخها ، لأن الطبقة الخارجية لقرنية العين تتغير أيضاً . وبالجزء الأمامي من الرأس يوجد الفم وله فتحة كبيرة ، وتتمكن الثعابين من ابتلاع حيوانات كبيرة بالنسبة لحجمها ، وذلك راجع لعدم التحام بعض عظام الرأس التي يتصل بها الفك الأسفل ، وبهذا يمكن فتح فمها واسعاً بدرجة غير عادية ، ومما يسهل مرور الفريسة الكبيرة الحجم في القناة الهضمية كون أضلاع الثعابين عائمة أي سائبة من أسفل ولا تتصل بقص متوسط .

وللثعابين أسنان حادة متصلة بالفكين ولسان طويل سريع الحركة وذو طرف مشقوق ويستعمل كعضو للحس . (انظر شكل ٤) .

(١) النابان السميان

(٢) اللسان المشقوق

شكل ٤ ـ رسم رأس ثعبان سام

ويميل أكثر الثعابين للرقاد هادئاً ولا يتحرك إلا من الجوع أو الخوف . وبعضها نهاراً يميل للرقاد تحت أشعة الشمس المباشرة . وبعضها ليلي أي أنه لا يتجول للبحث عن غذائه إلا ليلاً . وتتغلب أكثر الثعابين على فريستها بسرعة حركتها وقوة عضلاتها . وقد وصفها بعضهم بقوله : إن الثعابين تفوق القردة في مقدرتها على التسلق ، والأسماك في مقدرتها على العوم ، والزبرا في مقدرتها على الوثب ، وتفوق على أكبر مصارع ، وتبطش بالنمر الهائج . وكل هذه الصفات ترجع لقوة مجموعها العضلي .

تتغذى الثعابين بالطيور وبيضها وفراخها وبالجرذان والسحالي ، إذ تبتلعها كما هي ، وتتغذى كذلك بالضفادع والأسماك ، وتضع الثعابين بيضاً تدفنه في الرمال وأكوام الأسبخة وفي الأراضي ، وقد ترقد بعض الثعابين على بيضها . ويلد البعض الآخر أحياء كبعض أنواع الحيات . والثعابين إما سامة أو غير سامية ، وتتميز الأولى بوجود نابين كبيرين حادين بالفك العلوي يعرفان بالنابين السميين .

يفرز سم الثعبان من غدتين موجدتين على جانبي القسم الأمامي من الجمجمة بالقرب من عظام الفك العلوي الذي يحمل النابين السميين . ومن المحتمل أن هاتين الغدتين تقابلان الغدتين النكفيتين اللعابيتين متحوّرتين . وتخرج من كل غدة سمية قناة تمتد إلى الناب المقابل لها ، فتفتح إما في قناة مقفلة تمر في وسطه أو في قناة مفتوحة هي عبارة عن ميزاب بجانبه . وفي كلتي الحالتين يمر السم إلى الجرح الذي سببه الناب في جسم الفريسة . ولا تختلف الثعابين السامة ذات القناة المفتوحة في شكلها العام عن غير السامة . أما الثعابين السامة ذات القناة الداخلية فتكون ذات ذيل قصير ورأس مثلث ولونها زاه قليلاً كما في الحيات .

وسم الثعبان سائل رائق مصفر اللون وسريع التأثير إذا حقن تحت الجلد أو في الدم مباشرة ، وذلك ما يحصل عندما يعض الثعبان فريسته . ولا يؤثر سم أغلب الثعابين إذا وصل إلى القناة الهضمية لأنه يتأثر بالعصارات الهضمية كباقي المواد الزلالية ، فيتحلل تركيبه ويفقد خواصه السامة . وتستعمل الثعابين سمها للدفاع عن نفسها وكذلك لتسميم فريستها حتى تتغلب عليها . وسنذكر هنا بضع أنواع سامة وأخرى غير سامة :



(الكوبرا المصري)

(شكل ٥ ـ رسم الثعبان الناشر ـ الكوبرا)

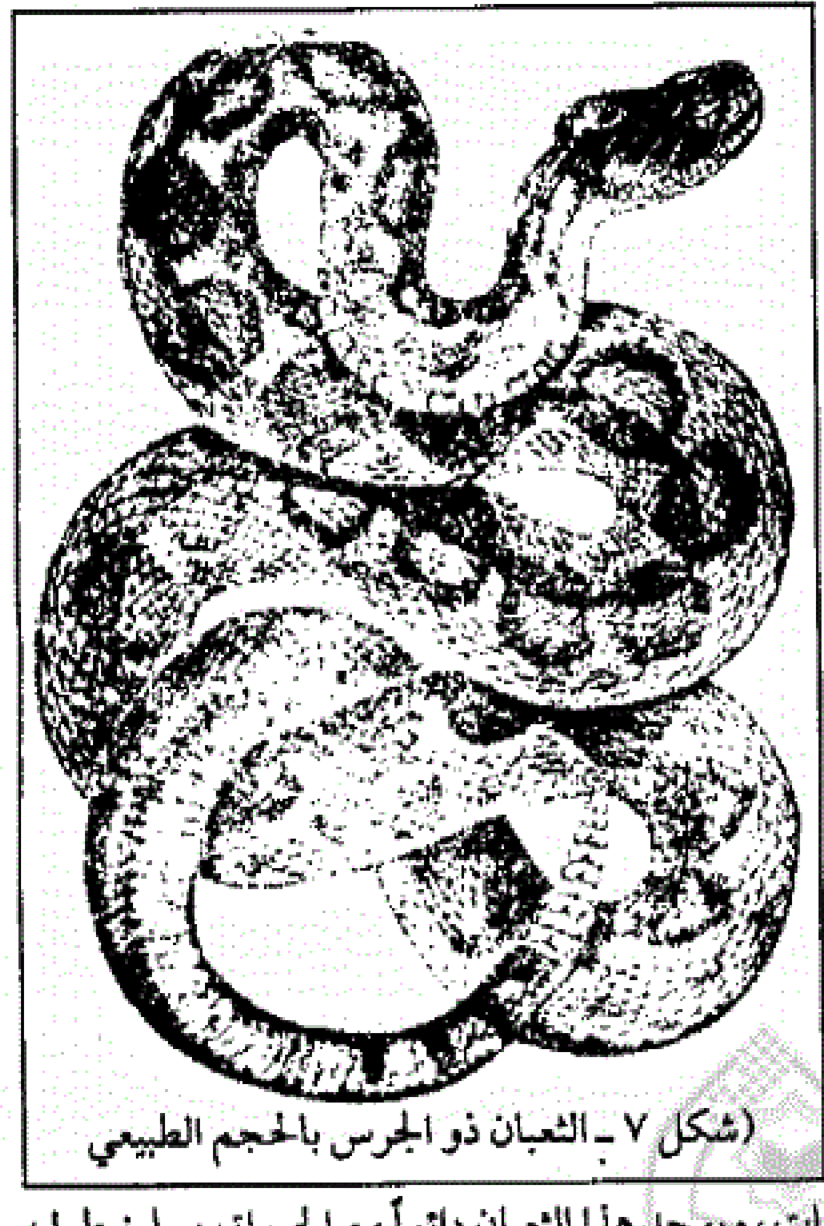
(١) الثعبان الناشر: واسمه العلمي « ناجاحاجي ». يعرف هذا الثعبان بالكوبرا المصري وسمي بالناشر تبعاً لانبساط رقبته عرضاً عند انفعاله، ويوجد في المزارع في جميع جهات القطر المصري، ولونه العام بني في سطحه العلوي وأصفر في سطحه السفلي ويصل طوله إلى متر وثلاثة أرباع المتر، ويتغذى بالضفادع والفيران وغيرها وربما بالأسماك، لأنه يعبر الترع إذا اضطر لذلك. وتضع الأنثى بيضاً يختلف عدده من ١٨ إلى ٢٥ بيضة في حجم بيض الحمام وله قشرة جلدية بيضاء. وسم الثعبان الناشر قتال سريع الفعل، ويحدث نوع من الكوبرا في الهند عدداً من الوفيات كل عام. (انظر شكل ٥).

(٢) الحية المقرنة: واسمها العلمي « سيراستيس كوزنوتس »، وهذا النوع من الثعابين ذو سم قتال للحيوانات الصغيرة، وليس من المحقق أنه قتال للإنسان، وتعيش الحيات في الصحاري ولونها مصفر كالرمل وعليها بقع داكنة اللون، وتتميز بوجود نتوءين صغيرين كالقرون على رأسها، وتتغذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة التي تجدها في تلك المواضع كالجربوع مثلاً، ويبلغ طولها نصف متر أو أكثر قليلاً. (انظر شكل ٦).



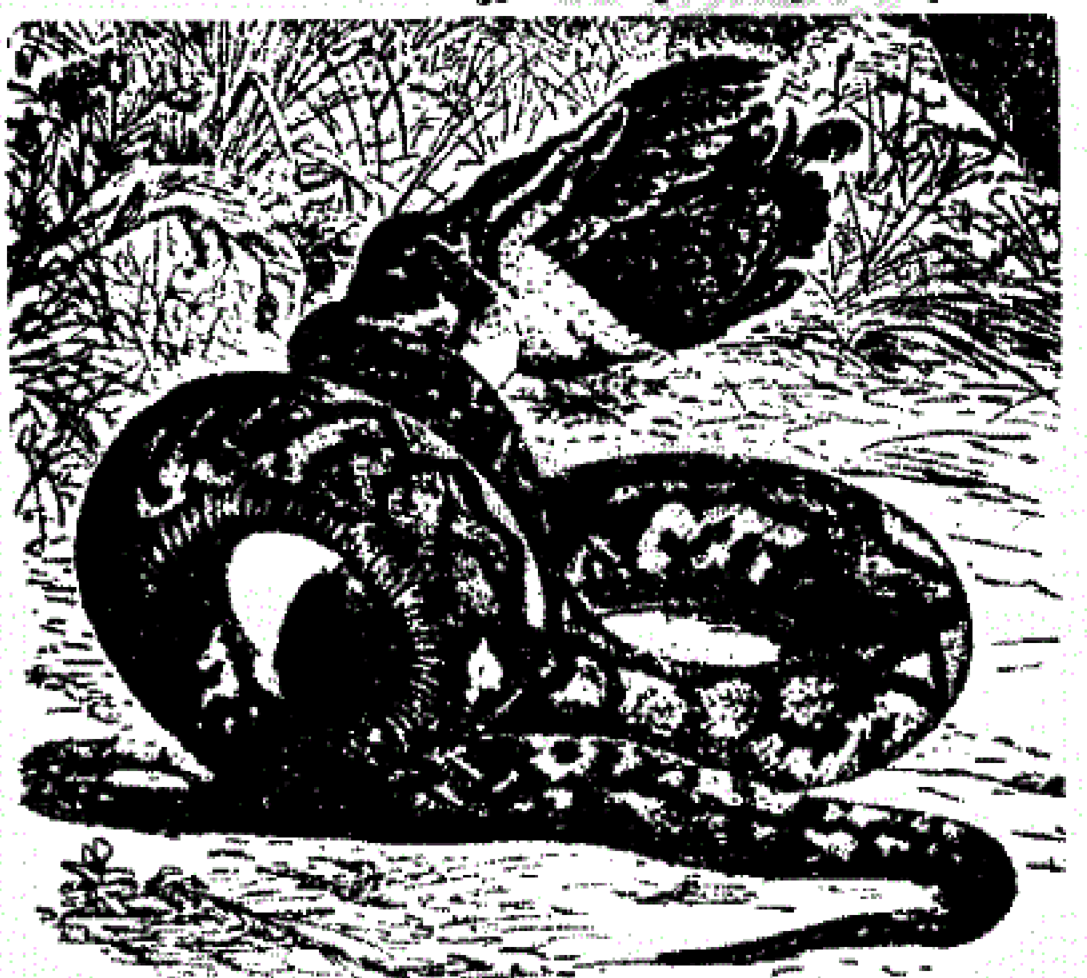
(شكل ٦ ـ رسم الحية المقرنة)

(٣) الثعبان ذو الجرس: واسمه العلمي «كروتالوس أتروكس»، يوجد هذا النوع من الثعابين السامة في أمريكا، ويمتاز بذنبه الذي يغطى طرفه بعدد من حراشيف قرنية جافة ومستديرة تحدث رنيناً عند احتكاكها ببعضها البعض أثناء سير الحيوان. (انظر شكل ٧).


(شكل ٧ ـ الثعبان ذو الجرس بالحجم الطبيعي)

(٤) الثعبان الأرقم: واسمه العلمي «زامينيس دياديما»، هذا الثعبان غير سام وكثير الانتشار في جميع القطر، ولونه العام في سطحه العلوي رملي مائل إلى الاحمرار وعليه بقع ذات لون بني، أما سطحه السفلي فذو لون أصفر، ويسكن في الجهات الجافة، فيكثر وجوده في الحفر العميقة بجوار الأهرام وعلى حدود الدلتا القريبة من الصحراء وفي الدلتا نفسها في المناطق الجافة الخالية من المزروعات، ويوجد هذا الثعبان دائماً مع الحواة، ويبلغ طوله (١٣٠) سنتيمتراً تقريباً، ويتغذى بالفيران والحيوانات القراضة الصغيرة.

(٥) البيتون: وهو أكبر أنواع الثعابين، إذ يبلغ طول بعضها تسعة أمتار أو عشرة، وتوجد في كثير من المناطق الحارة في إفريقيا وآسيا وهي غير سامة، وتقتل فريستها بكونها تلتف على جسمها وتضغط عليه حتى تموت الفريسة. وتوجد بهذا الثعبان آثار الأرجل الخلفية تحت الجلد كما سبق القول. (انظر شكل ٨).

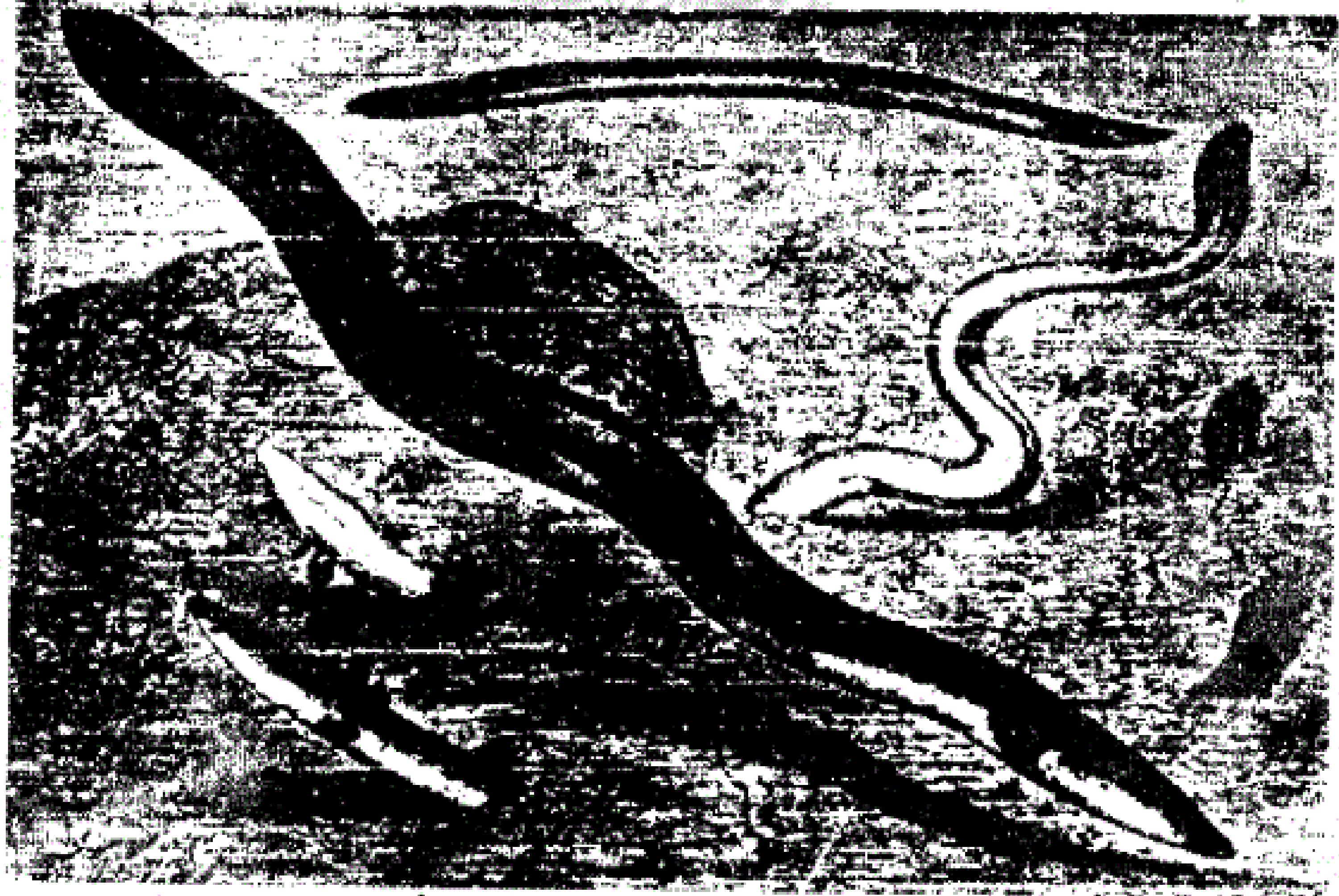

(شكل ٨ ـ بيتون أفريقي يبتلع دجاجة)

الفصل الخامس: في ثعابين السمك

الأسماك حيوانات مائية تحورت أجسامها بشكل خاص يساعدها على معيشتها الدائمة في المياه، ولو استثنينا الأسماك المفرطحة كسمك موسى لوجدنا بقية أنواع الأسماك كلها قريبة الشبه بعضها من بعض. فجسمها يشبه القارب ومغطى بقشور متصلة بالجلد من جهة واحدة وسائبة من جهاتها الأخرى، وتغطي القشور بعضها بعضاً وكلها في اتجاه واحد. وهذه القشور من أهم ميزات الأسماك، كما أن الحراشيف من مميزات الزاحفات، والريش من مميزات الطيور، والشعر من مميزات الحيوانات الثديية.

من ثعابين السمك نوعان: أحدهما يعيش في أنهار أوروبا وشمال أفريقيا، ويعرف بثعبان السمك الأوربي الأفريقي، واسمه العلمي «أنجلا أنجلا»، ويعيش الآخر في أنهار الولايات المتحدة التي تصب في المحيط الأطلنطي واسمه العلمي «أنجلا كريزيا».

ويوجد ثعبان السمك في مصر في النيل والترع الخارجة منه بكميات كبيرة. وهو حيوان أسطواني ذو جلد أملس أي لا قشر عليه، ولون ظهره أخضر قاتم وبطنه سنجابي، وفمه في مقدمة الرأس وبفكيه أسنان حادة قاطعة. ويتغذى الثعبان من اللحوم، أي أنه يأكل الحيوانات المائية التي يتمكن من افتراسها كالأسماك الصغيرة والضفادع والديدان وغيرها. ويختلف طول الثعابين من (٥٠) إلى (١٠٠) سنتيمتراً. فالقصيرة في الطول عادة هي التي تعيش بالقرب من مصب النهر وهي الذكور عادة. أما التي تعيش في أعالي النهر فتكون طويلة وهي الإناث. وهذه الأسماك ليلية أي أنها تختفي بالنهار بأن تدفن نفسها في الطين أو بين الأحجار، وتخرج بالليل باحثة عن غذائها. (انظر شكل٩).



(شكل ٩ ـ ثعابين السمك ويشاهد بعضها مدفوناً في الطين)

ولا تتناسل الثعابين أصلاً في الأنهار كبقية الأسماك النهرية، ومع ذلك فإنه يوجد بها كميات كبيرة لا تقل سنة عن أخرى، و كذلك فإنه توجد بين الكميات التي تصاد أفراد كبيرة وأخرى صغيرة، ويلاحظ في الوقت نفسه أن الثعابين الكبيرة تهاجر من النهر إلى البحر، أما الصغيرة فتصعد من البحر إلى النهر. ويتم نمو الثعابين عادة بعد مدة تتراوح بين أربع سنين إلى سبعة، وفي هذا الوقت يتغير لونها في السطح العلوي من أخضر إلى لون مائل للحمرة، وفي السطح السفلي من سنجابي إلى أبيض فضي ويكون ذلك في فصل الخريف، وعند ذلك تترك النهر مجتمعة في عدد كبير متجهة إلى مصبه، وفي الماء عادة تنزل إلى البحر فتعوم بنشاط، وتبدأ رحلة طويلة فتمر من بوغاز «جبل طارق» إلى المحيط الأطلنطي وتعبره إلى جزائر برمودة القريبة من شواطئ الولايات المتحدة فتصلها في الشتاء، وتقوم ثعابين أنهر أوروبا الغربية بنفس هذه الرحلة.

وعند وصول الثعابين إلى نهاية رحلتها البحرية الطويلة يكون قد تم نمو أعضائها التناسلية فتضع الإناث بيضها في الماء، وتفرغ كذلك الذكور مادتها المنوية في الماء أيضاً، فيتم إخصاب البيض بهذه الطريقة، وتضع الأنثى كميات كبيرة من البيض تبلغ المليون أو أكثر.

أما مصير الذكور والإناث بعد ذلك فمجهول، ولكن الأرجح أن مصيرها الموت كما هي العادة عند بعض الحيوانات، وعندما يفقس البيض تخرج منه الصغار المعروفة باليرقات فتبدأ سياحتها راجعة في الطريق التي أتى منه أبواها، وتتغذى في طريقها بالحيوانات المائية الدقيقة، وفي الوقت نفسه تكون هي معرضة لافتراس كثير من الحيوانات البحرية، وتستغرق سياحتها في الرجوع كما يقال سنة ونصفاً أو سنتين. ومما يدل على أن قيام الثعابين التامة النمو بهذه السياحة من الأنهار إلى المحيط ورجوع يرقاتها من المحيط إلى الأنهار فعل غريزي هو أن يرقات ثعابين السمك الأمريكية لا ترجع إلا إلى الأنهار الأمريكية التي تربى فيها أبواها، ولا يوجد ثعبان السمك الأمريكي في أنهار أوروبا ولا أفريقيا وذلك الحال مع الثعبان الأوروبي الإفريقي، وعندما تصل اليرقات إلى مصب النهر يكون ذلك عادة في أواخر الخريف وأوائل الشتاء، ويبلغ طولها في هذا الوقت تسعة سنتيمترات، فتصعد النهر ويعيش بعضها بالقرب من مصبه، وهذه تكون عادة ذكور المستقبل، أما التي تصعد إلى أعالي النهر فتكون إناث المستقبل، وهي التي يبلغ طولها عند نهاية نموها متراً تقريباً.

أما الباعث لهذا الحيوان على تنقلاته الغريبة من النهر إلى المحيط للتوالد، ومن المحيط إلى النهر للنمو، فلا يزال غامضاً، وكل التفسيرات في هذا الشأن ليست شافية.

الفصل السادس: في دودة الأرض

اعلم أن الناس يعيشون ويموتون وأمامهم جمال وعلم وحكمة ولا يدرون ما هي، لقد كنا أيام الطفولة نتوجه إلى شواطئ البحار مع الأطفال، ونبحث عن العلق في الأرض فنستخرجه ونضعه في الشص «الصنارة» ونصطاد به السمك، ونحن لا نعقل ولا آباؤنا ولا إخواننا لم خلق الله هذا العلق؟ الله أكبر! فأرانا العلم أن هذا العلق يصل عدده في الفدان الواحد كما ستراه إلى (٥٣) ألف دودة جعلت في الأرض لتحرثها حرثاً غير حرث الإنسان.

إذن المسلم إذا عاش ومات وهو لا يعرف عجائب هذه الدنيا فقد كفر نعمة الله ولم يشكرها، ومن كفر النعمة حرمها. وهذا سبب ضعف المسلمين. إذن فلأسمعك الكلام على دودة الأرض من كتاب «علم الحيوان» وهذا نصه:

(١) دودة الأرض

توجد ديدان الأرض بعدد وافر في الأراضي مهما كان نوعها، غير أنه يلزم أن تكون رطبة، لأن الرطوبة من ضروريات حياتها، والجفاف قتال لها. ولذلك يندر وجودها في الأراضي الرملية والصحاري ويكثر وجودها في الأراضي المغطاة بالنباتات والخضراوات إذ تقيها حرارة الشمس، وذلك كما في أرض الجنائن عادة.



(شكل ١٠ ـ دودة الأرض بالحجم الحقيقي)

شكلها الخارجي: ديدان الأرض أسطوانية الشكل، ويبلغ طولها ١٥ سنتيمتراً تقريباً، وطرفاها رفيعان ولكن الأمامي منهما أرفع من الخلفي، وجسمها مقسم بخطوط عرضية إلى حلقات يتراوح عددها ما بين ١٢٠ و١٨٠ حلقة، ولون الجسم قرنفلي، وعليه أشواك صغيرة متجهة إلى الخلف لتساعدها على الحركة دائماً إلى الأمام. وهي أربعة أزواج في كل حلقة زوجان منها في كل جانب من الجسم. (انظر شكل ١٠).

تغطى دودة الأرض بجلد لين رطب مخاطي، ويشاهد بالسطح العلوي للدودة انتفاخ بسيط واضح في الديدان التامة النمو يعرف بالسرج، ويمتد من الحلقة الثانية والثلاثين إلى السابعة والثلاثين، وبه غدد تفرز مادة مخاطية لصنع الكيس الذي تضع الدودة فيه بيضها. وتوجد بالجسم عدة فتحات نذكرها بالاختصار فيما يلي:

(١) الفم فتحة صغيرة بأسفل الحلقة الأولى.

(٢) الاست فتحة بيضية في الحلقة الأخيرة من الجسم

(٣) الفتحات التناسلية أربعة أزواج وهي: (أ) الوعاءان الناقلان الآتيان من الخصي ينفتحان على جانبي الحلقة الخامسة عشرة. (ب) قناتا المبيض الآتيتان من المبيضين ينفتحان على جانبي الحلقة الرابعة عشرة. (جـ) للدودة أربعة أحواض منوية لتخزين السائل المنوي الآتي من فرد آخر، ولها أربع فتحات على جانبي الحلقتين العاشرة والحادية عشرة.

(٤) على جانبي كل حلقة من جسم الدودة ما عدا الثلاث حلقات الأولى والحلقة الأخيرة فتحتان بوليتان آتيتان من الكليتين. (انظر شكل ١١).

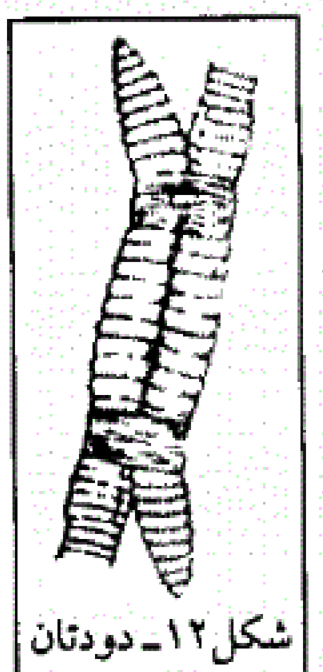


(شكل ١١)
دودة الأرض مكبرة

عاداتها وغذاؤها : تعيش ديدان الأرض في الأنفاق التي تعملها في الأرض . وكيفية ذلك أنها تأكل جزءاً من الطين لكي تفسح لنفسها مكاناً ، ويساعدها على ذلك دفع جسمها إلى الأمام . وتكون هذه الأنفاق عمودية عادية . وتبقى الديدان فيها أثناء النهار إلا إذا اضطرها المطر الغزير إلى مغادرتها ، وعند ذلك تهجرها مرغمة وتشرع في عمل غيرها . وتنشط الديدان أثناء الليل . إذ تخرج وتتجول على سطح الأرض باحثة عن غذائها أو أليفها .

وكثيراً ما نرى آثارها على الطرق والجسور المبتلة بدرياً في الصباح . وبالرغم من أن الديدان عديمة الأعين نجدها حساسة للضوء وتتجنبه إذا عرضت له . تخرج الديدان بالليل باحثة عن غذائها وأفضله الأوراق والأزهار المتساقطة . إذ عندما تعثر بها تقبض عليها بفمها وتسحبها إلى أنفاقها لتتغذى بها . وتتغذى كذلك ببذور النباتات التي تجدها في التربة والكائنات الأخرى كبعض الجراثيم وبويضات الحشرات والديدان الصغيرة حية كانت أو ميتة . وتكتفي الديدان في الأراضي غير المنزرعة بالمادة العضوية التي تستخلصها من الطين الذي تبتلعه .

التوالد : ديدان الأرض خناث . ولكنها لا تلقح نفسها . بل يحصل التلقيح عادة بين فردين ، وذلك بأن تضع الدودتان سطحيهما السفليين مقابل بعضهما على أن يكون رأساهما في اتجاهين مختلفين . وعند ذلك تمر المادة المنوية من كل منهما وتدخل في الأحواض المنوية للأخرى حيث تتخزن بها . (انظر شكل ١٢) .



شكل ١٢ ـ دودتان في حالة الاجتماع التناسلي

وبعد هذه العملية تنفصل الدودتان ، وتفرز كل منهما من السرج مادة زلالية قرنية يتكون منها حزام عريض يحيط بجسم الدودة في هذا الموضع . وعند ذلك تنسحب الدودة من هذا الحزام إلى الخلف ، وعندما يصل الحزام إلى الحلقة الرابعة عشرة تنزل فيه الدودة بضع بويضات ، وعندما يصل إلى الحلقة العاشرة تنزل الدودة في الحزام كمية من المواد المنوية . وعند انسحاب الدودة منه نهائياً ينسد طرفاه فيصبح بشكل حوصلة محتوية على بضع بويضات . وقليل من الحيوانات المنوية كلها مغمورة في سائل لبني مغذي يحتمل أن تقوم بإفرازه غدد جلدية ، وفي تلك الحوصلة تخصب البويضات . وعند فقسها تخرج الأجنة وتتغذى بالسائل اللبني ، حتى إذا ما نمت قليلاً خرجت من الحوصلة لتعيد تاريخ حياتها .

ولا يخرج عادة من الحوصلة إلا جنين واحد يشبه الدودة اليافعة بعض الشبه . وتضع الديدان بيضها عادة أثناء فصل الربيع والصيف . ولكنه قد يستمر طول العام .

الأهمية الاقتصادية لديدان الأرض

(أولاً) تستعمل الديدان طعماً في صيد الأسماك . إذ يبحث عنها الصيادون على جانبي الترع تحت الأحجار والمواسير وغيرها .

(ثانياً) ديدان الأرض غذاء مهم لكثير من الطيور .

(ثالثاً) تؤثر هذه الديدان تأثيراً عظيماً على حياة النبات. وذلك أنها تتجول في الأرض فتفككها وبذلك تكون عاملاً مهماً في تهويتها وتصفيتها، وتساعد كذلك جذور النباتات على التعمق فيقوى النبات ويكبر لاتساع دائرة غذائه.

(رابعاً) عندما تأكل الديدان الطين تحدث بمواده المعدنية والعضوية تحليلاً يجعلها أكثر صلاحية لتغذية النباتات.

(خامساً) تقذف الديدان الطين بعد مروره في جوفها على سطح الأرض. وبعملها هذا تعرض الطبقات السفلية من التربة إلى المؤثرات الجوية، فكأنها تقوم بعملية حراثة بطيئة.

(سادساً) بما أن هذه الديدان تسحب كثيراً من أوراق النباتات تحت سطح الأرض. فبذلك تزيد في خصوبتها عندما تتعفن هذه المواد العضوية.

ولما تحقق الأستاذ تشارلس دارون من فوائدها عني بأمرها وأجرى تجاربه العديدة لاكتشاف مقدار ما تسببه هذه الديدان من نفع غير مباشر للإنسان. فقال: كانت هذه الديدان بمثابة المحراث الطبيعي للأرض، قبل أن يخترع الإنسان محراثاً، لأنها تؤدي عمله إلا أنها أبطأ منه. ومنها في الفدان الواحد من أرض الجنائن نحو ٥٣ ألف دودة يمر من أجسامها عشرة أطنان من التربة في السنة. وهذا القدر كاف لأن يغطي سطح أرض الفدان الواحد بطبقة سمكها نصف سنتيمتر. لهذه الديدان مقدرة غريبة على تجديد أجزائها المفقودة. فمثلاً إذا قطعت الدودة إلى قسمين أثناء عزيق الأرض يعيش كل جزء مستقلاً وينمو الجزء المفقود منه، فمثلاً ينمو للقسم الذي به الرأس جزء خلفي.

(٢) العلق

العلق ديدان مائية تعيش في المياه العذبة في البرك والمستنقعات وبعضها في الأراضي الرطبة. وهي حيوانات طفيلية تعيش على الدم الذي تمتصه من الحيوانات التي تعثر بها. وجسمها خال من الأشواك، وتتعلق بعائلها بواسطة ممصين موضوعين على طرفي جسمها، ويساعدانها أيضاً على الانتقال، حيث يلاحظ ذلك عند حركتها بتشبيب الواحد منهما قبل رفع الآخر. وهذه الديدان خناث وتضع بيضها في أكياس تصنعها لهذا الغرض، وأهم هذه الديدان هو العلق الطبي.

أقول: أفليس من المدهش أن نرى في فداننا خمسين ألف محراث تحرث أرضنا قبل أن يضع ابن آدم محراثه في الأرض، أوَليس مما يدهش أن نرى ما هو حقير في نظر الجاهل عظيماً في نظر العالم! وأن هذا الدود الذي كنا نستخرجه لنصطاد به السمك هو أثمن وأغلى في العلم من الذهب والفضة، لأنه به سعادتنا، إذ هو يعين على نماء زرعنا، ولا معنى للذهب والفضة إلا بعد أن يكون عندنا مزارع نأكلها فإذا عدمت الزروع فأي معنى للذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة، الذهب للمعاملة في البيع والشراء. وإذا لم تكن حياة بالغذاء فأي بيع وأي شراء، والأحجار الكريمة للزينة وأي زينة لمن عاش وهو جائع لا يجد في جرابه مضغة. إذن الحياة مملوءة بالجهالة. إذن الموت خير لبني آدم حتى ينقلهم من هذه الدار التي فيها قلبت الحقائق إلى دار أخرى لتعرفهم تلك الحقائق بعد تمام البحث الممكن هنا. انتهى الكلام على الفصل السادس.

الفصل السابع: في الكلام على الحدأة

الحدأة طير يعرف عند العامة يعرف بالحداية، وهو من الطيور الجارحة واسمه العلمي «ملفوس اجبتيوس»، وهو منتشر في كل القطر المصري، ولكنه لا يوجد في مناطق الإسكندرية وبور سعيد والسويس ووادي النطرون إلا متجولاً. وهو كثير في مديرية الفيوم. ويبلغ طوله نحو ستين سنتيمتراً، وطول منقاره نحو أربعة سنتيمترات، والنصف الأعلى من المنقار متقوس إلى أسفل كمنقار كل الطيور الجارحة. ويبلغ عرض الطير وهو باسط جناحيه نحو ١٣٠ سنتيمتراً. ولون رأسه ورقبته أبيض رمادي، يكون فيه شيء من الاحمرار في أعلاها. والخط المركزي لكل ريشة فيهما أسود، ولون الريش في أعلى جسمه قاتم. والريش الرئيسي في الجناحين أسود. والذيل مشقوق ولونه قاتم مائل إلى الحمرة في أعلاه، وأعتم في جنبيه، وفيه نحو عشر ريشات. ولون المنقار أصفر. ويشاهد أن الحدأة التي لم تبلغ أشدها يكون منقارها أسود وذيلها غير مشقوق، ويكون لون أعلى رأسها ورقبتها لوناً أصفر يشبه لون الرمل. وكل من القدمين ينتهي بأربع أصابع، وكل أصبع بمخلب حاد منحن قوي، والأنثى أكبر من الذكر في الحجم قليلاً. ويعشش هذا الطير على الأشجار العالية في القرى وفي المدن، ويصنع عشه من أفرع الأشجار الجافة ينظمها على شكل حفرة، ويبطنها من الداخل بالحشائش الجافة وورق الأشجار والورق الصناعي وبعض الخرق البالية، وفي بعض الأحيان تحتل الحدأة عشاً مهجوراً لطير آخر مثل الصقر. وتظهر علامات التنبه الجنسي في شهر مارس، حيث يطير الذكر والأنثى متتابعين متلاعبين في أعلى الهواء، راسمين دوائر كبيرة القطر متتابعة على شكل حلزوني غير منتظم. وأثناء ذلك تكاد تكون الأجنحة ثابتة، ولا يشاهد فيها إلا بعض حركات نادرة. فالطير يحلق في الجو مستعيناً بسطح جناحيه الواسع ومستعملاً ذيله في الاتجاه.

ويشاهد الإنسان إذا لاحظ الحدأة وهي طائرة بجناحيها منبسطين أنها ترتفع فجأة في الهواء إلى منطقة أعلى دون أن تقوم بأدنى مجهود، وسبب ذلك أنها تصادف في سيرها تيارات الهواء الساخن الصاعد من الأرض فترفعها إلى أعلى. وتبيض الأنثى نحو ثلاث بيضات ترقد عليها وحدها ويأتي الذكر إلى الأنثى بغذائها أثناء ذلك. وبعد فقس البيض تبقى الصغار مدة طويلة في العش. ثم حين تطير تبقى مدة أسابيع عالة على أبويها متغذية مما يأتيان به إليها منه. وصوت الحدأة العادي مخالف لصوتها وقت التفريخ. ويأكل هذا الطير صغار الدجاج والبط والإوز ويأكل أيضاً الجرذان والضفادع والثعابين والسحالي ودود الأرض والحشرات ولا يحجم عن أكل الرمم.

ولو لم تكن شراهته كبيرة في افتراس صغار الطيور المنزلية لكان من أهم الحيوانات المفيدة للإنسان بأكله الجرذان والحشرات الضارة، وهو من أفيد الطيور في المدن المصرية، لأنه ينقي الشوارع من الرمم ومن بقايا الحيوانات، وينقي الأسطح من كل بقايا المأكل ومن فضلات المطابخ التي تطرح عليها.

وهذا الطير بطيء الطيران ولو أنه يطير عالياً، وله كثير من الدهاء. وحاسة النظر عنده نامية جدا كما يشاهد ذلك من يتتبع حركاته عندما يسقط فجأة من أعلى منزل مرتفع على بقايا لحم الجزارة

ملقاة في الشارع. هذا ما أردته من كتاب « علم الحيوان »، وإلى هنا تم الكلام على الفصول السبعة والحمد لله رب العالمين. كتب في أول أغسطس سنة ١٩٣٠.

خاتمة في الحيوانات النافعة

أذكرك أيها الذكي بما ذكرته في سورة « يوسف » من أني كتبت في مجلة « الملاجئ العباسية » مقالة في الطيور، فحصرتها الحكومة ثم حرمت صيدها، وأني كتبت في سورة «طه» آخر رأي للحكومة المصرية في الطيور النافعة التي يحرم صيدها وهي: القنبرة. وعصفور التين. وأبو فصادة. واللقلاق. والشحفوت. والجليل. والكروان. والسنونو. والزرزور. والدخلة. والزريقة. والحسيني. والدح. والكركي. والوروار. والبلشون. وأبوقردان. وعصفور الجنة. والهدهد. والبلبل الصغير. والخطاف. وأبو بليقة. وأبو اليسر. والزقزاق مطوق. والزقزاق البلدي. والغراب الزيتوني. وأبو صدر «أبو الحناء». والجميزة. والصعو. والهزار. والقمحية. وأم الهوى. وزقزاق شامي.

هذا ما ذكرته هناك، فلنزد عليه ما ذكرناه هنا وهي السحلية والبرص وغيرها من كل حيوان قاتل للحشرات كالعنكبوت.

فيا سبحان الله! أيليق أن نعيش في دورنا ونحن نجهل ما حولنا. هاأنا ذا في العقد السابع من حياتي ولا علم لي أن البرص يأكل الصرصار وغيره إلا في هذا الشهر. فأخبرت أهل المنزل بذلك وقد كانوا متشائمين منه ظانين أنه ضار لا نافع فمنعوا عنه الأذى.

اللهم إن جهل هذه العلوم من أكبر ما أضر بالأمة الإسلامية، هذا ولقد تقدم في سورة « فاطر » عند آية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[فاطر: ٢٧] الخ؛ أني ذكرت هناك أن الجراد هجم على مصر أيام طبع تلك السورة، وكتبت في جريدة الأهرام أن الجراد تجارة رابحة، وأنه يعصر زيتاً نافعاً في الطيارات، وأن الجراد الهاجم على بلادنا إذا بعناه كان نعمة عظيمة، وتفله ينفع لطعام البهائم، ثم أرسلت الحكومة البلجيكية خطاباً للحكومة المصرية تطلب منها ذلك الجراد فلم ترد عليها. وهاك ما جاء في جريدة الأهرام عند طبع هذه السورة يوم (٨) أغسطس سنة ١٩٣٠ وهذا نصه:

تجارة الجراد في بلجيكا

والسعي للحصول على مقادير كبيرة منه للمصانع

عدم اكتراث الحكومة بما كتب إليها بشأنه

منذ أسابيع كتب جناب قنصل البلجيك في الإسكندرية كتاباً إلى الحكومة المصرية لمناسبة اهتمامها بمحاربة الجراد يقول فيه ما مؤداه: إن في بلجيكا مصانع خاصة تستخدم الجراد لأغراض صناعية. وقال: إن بلاده على استعداد لشراء أي مقدار يقدم إليها من جماعات هذا الطير المضر بعد قتل أرجاله (كذا).

ويظهر أن السلطة التي كتب إليها بهذا الشأن لم تهتم بالأمر كثيراً، ويقال إنها أهملت الطلب حتى إنها لم ترد على كتاب القنصل بكلمة. وقد فهمنا الآن أن أحد البيوت المالية البلجيكية الكبيرة في الإسكندرية علم أن العراق ما زال يحارب الجراد في بعض أرجائه، فجعل يسعى للحصول على مقدار

منه من تلك البلاد لا يقل عن مائة طن. وهناك شروط معينة لتوريد الجراد أخصها: أنه يجب على المورد أن يضع الجراد بعد قتله في الماء الحار نحو (١٥) دقيقة وتوضع في الماء كمية من الملح. وبعد ذلك يؤخذ الجراد ويفرش على الأرض أربعة أيام ثم ينظف ويوضع في أكياس أو صناديق ويشحن إلى ميناء «أنفرس» حيث يتسلمه الطالبون.

ولا ندري لماذا لم تهتم السلطة المصرية ذات الشأن بما كتبته إليها القنصلية البلجيكية في هذا الموضوع في أثناء محاربة الجراد في الأراضي المصرية أيام كان الأهالي يهلكون أرجال هذا الطائر ويتلفون كل ما يجمعونه منها. وقد كان بالإمكان بيع مقادير كبيرة منه لمصانع البلجيك بواسطة القنصلية البلجيكية والكويتوار البلجيكي. ولو أن الأهالي كانوا يعرفون أن للجراد فوائد صناعية وأن هناك مصانع تطلبه لاهتموا بالأمر وباعوا منه مئات الأطنان وربحوا منه المال الوفير.

عسى أن لا يأتي الجراد إلى مصر مرة أخرى والبلاد في غنى عن هذه التجارة. ولكن إذا الأقدار ساقت إلى مصر جراداً في وقت من الأوقات فيجب أن يكون مفهوماً أن في أوروبا مصانع تحتاج إلى ما يقتل من هذا الطائر المضرّ بالزراعة. انتهى.

هذه حال حكومتنا المصرية التي لها في الحكم نحو قرن وثلث، وهؤلاء حكامها يتباطؤون في منفعتها، فما بالك أيها الذكي بغيرها من حكومات الشرق المتأخرة. ألا فليعم التعليم النافع بلاد الإسلام فلا يكون تعليماً قشرياً. إن بعض الحكام في البلاد الشرقية ليس عندهم تهذيب تام ولا عشق للعلوم. إن من عشق العلم يحب الأمة والفضيلة، ومن خلا من عشق العلم انصرفت همته إلى شهواته، فعاش خادماً لها بحيث تكون جميع أعماله موجهة إلى هذا الغرض وحده، فلا يبالي برقي الأمة وسعادتها، ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[إبراهيم: ٤]، كل الأمر راجع للتعليم. والحمد لله رب العالمين. انتهى ليلة الأحد ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٠

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ﴾[غافر: ٦٧]

إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[غافر: ٦٨]

مع ملاحظة آية: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾[الزمر: ٦]

مع قوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾[الزمر: ٦]

إلى قوله هناك: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ ﴾[الزمر: ٧]

وقوله فيها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾[الزمر: ٥]

إلى قوله: ﴿ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾[الزمر: ٥]

هذه الآية أولها وحدة النفس التي منها خلقت نفوسنا الكثيرة. وفي آخرها وحدة الله تعالى. ولا جرم أن الوحدة الأولى تدل على الوحدة الثانية وهذه من أعاجيب القرآن. يقول الله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾[الزمر: ٦] وخلق من هذه النفس نفساً أخرى. ومن هاتين النفسين خلق نفوساً وهكذا.

فالوحدة مبدأ الكثرة وذلك كالعدد أسه الواحد، وبانضمام آخر إليه ابتدأ العدد، لأن العدد يفهم منه التعدد ولا تعدد في الواحد. واعلم أن العلوم الحديثة المنتشرة في كرتنا الأرضية هي التي تفهمنا سر هذه الآية. ألا ترى رعاك الله أن وحدة الإنسان ظاهرة بأن له روحاً، وهذه الروح تتصرف في جسمه وفي جميع أعضاء الحس وأعضاء الحركة وهي متعددة. ومن عجب أن هذه الوحدة الظاهرة في الروح المتصرفة في الجسم ظاهرة أيضاً في ملكة النمل وجنودها منه. وفي ملكة الأَرَض «جمع أرضة» بوزن سمكة المرسومتين في أول سورة «سبأ»، والمرسومتين أيضاً في سورة «النحل»، إذ قلت: إن هذه الآية تفسرها العلوم الحديثة. أقول لك: أيها الذكي ارجع فاقرأ ما كتبته على النمل في سورة «النمل» وفيما كتبته على الأرضة في سورة «سبأ» ثم أزيد عليه الآن فأقول:

هاهم القوم في أوروبا ضغطوا على الزر في أوروبا فأوقدوا المصابيح في أستراليا، فدل ذلك على أن هذه العوالم كلها متصلة اتصالاً وثيقاً، ولقد تكلم السياحون وهم فوق القطب الجنوبي في هذه السنة (١٩٣٠) مع من هم في الممالك المتحدة بطريق البرق الذي لا سلك له، إذن هذا الجو كله مملوء بالأسرار مفعم بالأنوار موصل جيد للأخبار.

إذا علمت هذا فلتعلم علماً ليس بالظن أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة الأَرَض ـ بوزن سمك ـ متصلات مع رعاياها بواسطة هذه الأسرار الخفية في الأثير، وهي مع مملكتها كأرواحنا مع أعضائنا، فإذا وصلت أعصابنا أخبار حواسنا إلى داخل أجسامنا، وأوصلت أعصابنا أخبار ملاذنا وآلامنا إلى المخ وهو وصله إلى أرواحنا، فإن الجو وما فيه من الأثير موصل بلا أعصاب فيه، فكما وصل أخبار من وصلوا إلى القطب الجنوبي لمن هم في الممالك المتحدة، ووصل تيار النور من أوروبا إلى أستراليا في لمح البصر بمجرد الضغط على الزر بسر الراديوم، هكذا وصل الأثير أخبار ملكة النحل إلى عمالها، فكان منهن المربية للذرية والجامعة للعسل والشمع والتي تقف على باب الخلية حتى لا يدخلها أحد، ووصل أخبار ملكة النمل كما تقدم في سورة «النمل» فكانت مملكتها كأرقى مملكة في العالم، فمنهن الديدبان والعامل الصغير والجندي والضابط والمربي للذرية كما تقدم في سورة «النمل» وهناك ترى مزارع النمل المنظمة البهجة مرسومة موضحة، فهل يكون ذلك النظام وتلك الطاعة المدهشة تحت إمرة الملكة بلا خطاب منها ولا تفهيم؟ كلا. والموصل هو العالم الخفي في الأثير.

تباركت ربنا وتعاليت، أنت جعلت الوحدة فينا أي وحدة أرواحنا، وهذه الوحدة في أرواحنا جمعت قوانا وأعضاءنا فكانت عالماً واحداً، وجعلتها نموذجاً نفهم به وحدة ممالك النمل والنحل وممالك الإنسان، بل مملكة الأرض والمجرات والعوالم كلها كلهن متصلات اتصال أعضائنا بأجسامنا التي تقودها أرواحنا واتصال ممالك النحل بملكاتها وممالك النمل كذلك والأَرَض ـ بوزن السمك ـ كلهن خاضعات للمكاتهن خضوع أجسامنا لأرواحنا، هكذا العوالم كلها يا الله خاضعات متصلات متحدات مرتبطات ارتباطاً وثيقاً وأنت المدبر لها، وقد ضربت لنا مثلاً نفهمه من أنفسنا ومن ممالكنا ومن ممالك النحل والنمل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠]. فإذا دبرت الروح الجسم؛ ودبرت ملكات النحل ممالكها؛ ودبرت ملكات النمل ممالكها، وخضعت تلك الممالك

كلها لواحد دبرها، فهاهي ذه مملكتك خاضعة لك دبرتها وأنت واحد. بهذا فهمنا: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[لقمان: ٢٨]، وفهمنا قولك: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[الزمر: ٦]، وقولك في «سورة الزمر الآية ٦»: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾، أي: فكما لا قدرة للأعضاء على مخالفة الأرواح، ولا لأفراد النحل على الخروج عن أمر ملكاتها، ولا لأفراد النمل عن الخروج عن أمر ملكاتها. هكذا نوع الإنسان لا طاقة له أن يخرج عن النظام الأقدس وهو التوحيد الذي أمر به، وهو ملزم أن يدرسه ويسير على منواله ويطيع خالقه، غاية الأمر أن طاعة الأعضاء للروح وطاعة أفراد النمل لملكاتها وطاعة أفراد النحل لملكاتها وطاعة الأرضات ـ بوزن سمكات ـ غريزية طبيعية. وطاعة الإنسان ربه يجب أن يكون بالتعليم والتهذيب لا غير. انتهى صباح يوم الاثنين (١٥) سبتمبر ١٩٣٠.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾[غافر: ٦١] إلى قوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[غافر: ٦٨]

فجاء في هذه الآيات:

(أ) ذكر الليل والنهار، وبيان أن الله له فضل على الناس بتعاقبهما، وأن الناس قلّ شكرهم على هذا الفضل.

(ب) بيان أن الله خالق كل شيء بمناسبة تعاقب الليل والنهار، وأن ذلك محل اعتبار فمن صرف عنه فهو خاسر.

(جـ) بيان أن الأرض جعلت لنا قراراً والسماء بناءً، وأن صورنا حسنة، ورزقنا طيب، فالله تعالى كثير البركات والخير وهو حيّ، فوجب حمده والإخلاص له وترك عبادة غيره والتسليم له هو.

(د) بيان نظام خلقنا وتدرّجه في النشوء.

(هـ) بيان حياة كل حيّ وموته وتعاقبهما.

في هذه المسائل الخمس تدخل العلم الإلهي في العلم الطبيعي والفلكي، فعلوم الفلك في عدد (١) أن تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب عليه اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار. إذن هو الأصل وما بعده من أن الأرض قرار وأن صورنا حسنة ورزقنا طيب وارتقاءنا في الحياة من تراب إلى نطفة إلى علقة وتعاقب الموت والحياة علينا كل ذلك فروع. إذن العلوم الطبيعية خاضعات لآثار الأفلاك، فهاهنا علمان: الرياضيات والطبيعيات. وهي فروع جمة واضحة في ثنايا هذا التفسير، وقد تخلل ذلك العلم الإلهي لأن نوعي الرياضي والطبيعي لا ثبات لهما إلا بمدبر للعالم، فلذكر تجده يذكر في أثنائهما، فقد قال قبل ذكر علم الفلك: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر: ٦٠]، وحذرهم من الكبر وخوفهم من جهنم. ثم يتخلل الكلام على العلمين إظهار فضله على الناس وتبيان أنه هو الخالق لكل شيء، أي فليست هذه العلوم منفصلة مفككة العري بل لها من يحفظ كيانها. وأخذ يذم الجاحدين لأن الحركات المنظمة لها منظم. وإذا كان هذا العالم مملوءاً نشاطاً وحياة فمن أين أتت هذه الحياة إلا من أن الخالق حيّ؟ أفلا تحيا نفوسكم بالإخلاص له وحمده والإعراض عن سواه.

أليس هو الذي ينقلكم حالاً بعد حال في الخلق، بل يخلق الموت والحياة فيكم وفي غيركم. إذن في هذا العالم حركات هائلة: ليل ونهار وموت وحياة وأرض وسماء، وصور حسان في الإنسان مشتقة من تراب لا حياة فيه. هذه نبذة عامة في مجمل هذه الآيات.

فهل لك أيها الذكي أن تسمع ما ألقيه عليك الآن من نبأ العمران في هذه الأرض المبني على الفلك لتعلم أن الإجمال في آيات القرآن يعوزه التفصيل. إن الوقوف عند حفظ القرآن جهل عظيم، وفهم المعنى اللفظي والوقوف عنده غرور وموت. وقف المسلمون غالباً عند ظواهر الألفاظ وناموا. لا أيها المسلمون. هذا إجمال أما التفصيل فإنما يكون بجميع العلوم، وليس معنى هذا أن المسلم يقرأ جميع العلوم تفصيلاً. كلا. بل يختص كل جماعة بعلوم خاصة، وإذن يستخرجون منافع أرضهم ويحبون ربهم ويرتفع شأنهم في الدنيا والآخرة. إن الحرارة والبرودة في الأرض ترجع إلى الليل والنهار ارتفاعاً وانخفاضاً، وعلى مقتضاها يكون ظهور النبات والحيوان وتكاثرهما تارة وقلتهما تارة أخرى وعدمهما بتاتاً. الناس والحيوان والنبات موزعات على الأرض بقوانين كلها ترجع إلى سير الشمس. إن الله كما جعل التوسط في الأخلاق من شدة ولين هو الصراط المستقيم؛ هكذا جعل المكان الذي يتوسط فيه وجود النبات على الأرض ويتوسط فيه الحر والبرد؛ هو الذي يعيش فيه الإنسان. أما المكان الذي كثر حره ونباته أو المكان الذي كثر برده فهما لا يصلحان لسكنى الإنسان. إذن القانون واحد قانون الأخلاق بالتوسط فيها وقانون سكنى الأرض. شحنت كتب الديانات وكتب الفلسفة بعلم الأخلاق. لماذا هذا؟ لأن الإنسان لا يعيش مع الناس إلا بخلق متوسط، فإذا تعالى في الشدة أو تغالى في اللين نبذه الناس في الأولى بالخوف منه وفي الثانية ببغضه. والنفوس الإنسانية لا تحب إلا الاعتدال. ذلك لأنك ستعرف قريباً كيف كان الإنسان يستحيل عليه أن يعيش في الغابات الاستوائية لوفرة الحرارة فيها التي بها كثر النبات فطرد الإنسان منها. ولا في الأقطار الباردة لكثرة البرودة التي منعت أكثر النبات والحيوان فلم يستطع أن يعيش الإنسان هناك. إذن الإنسان عالم متوسط في خلقته وحياته. متوسط في أخلاقه. وإذن هناك تناسب بين خلقته وخلقه، والله عليم حكيم.

وستسمع قولاً عاماً على الأرض وسكانها وغاباتها وبدائعها مما لم يسبق له نظير في هذا التفسير وفيها ترى عجائب هذه الأرض وتعرف فيها ما لا يعرفه السائح حولها، لأن السائح بعقله قد يعرف من التفصيل ما لا يعرفه السائح بجسمه، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور:٤٦].

فقال صاحبي: لقد شوقتني إلى ما تقول، ولكني أريد أن يكون هذا المقال على سبيل المحادثة بيني وبينك، حتى تتجلى الحقيقة واضحة ظاهرة، أنت تريد شرح الحرارة والبرودة وما ترتب عليهما من الحياة على الأرض، وهذا كله فروع لا أصل، والأصل هو البنية الإنسانية، ذلك أن كل ما نزل من العلم على قلوب الأنبياء أو الحكماء أو العلماء إنّما يراد به هذه الإنسانية، ولقد ذكرت أنت في تفسير البسملة في سورة «ص» ما ملخصه أن الإنسان له أعضاء حس وهي الحواس الخمس، وله أعضاء حركة وهي اليدان والرجلان، ولقد كان هذا أمراً عجباً! وهل أعجب من أن خلق الإنسان جعل مناسباً للعالم، فكأن العالم نسخته أو هو نسخة العالم، أو كأن العالم شجرة وهو ورقتها، ولقد تقدم

في سورة « يس » في المقالة المنقولة من كتاب « علوم للجميع » كيف كانت الشجرة صورة مكبرة لورقة ساقطة تحتها في بعض الأشجار، أو الورقة صورة مصغرة للشجرة التي سقطت هي منها، ذلك أن الزوايا التي تحدثها فروع عروق الورقة مع الخط المتوسط فيها ـ المشبه في هذا التوسط فقار الظهر مع الأضلاع في الإنسان والحيوان ـ تشبه من كل وجه الزوايا الحادثة من أغصان الشجرة مع جذعها والحادثة من الفروع الصغيرة مع أغصانها حذو القدة بالقدة، فهكذا نجد وضع هذا الإنسان مع العالم المحيط به، ذلك أنه ـ وإن غفل جمهوره ونام ولم يعقل حقيقة نفسه ولا بهجة جسمه ولا جمال وضعه ولا حكمة خلقه ـ بحواسه الخمس التي تقدم القول فيها؛ قد استعد لمشاهدة الأنوار والظلمات والحيوان والنبات والعالم العلوي والسفلي، وبأعضاء حركته استعد لأمرين: أمر الانتقال في الأرض بالرجلين، وأمر العمل في الطبيعة باليدين، فيضع ما شاء صنعه بعقله الذي استمد الصور من حواسه، إذن العالم كله مقسم على أعضاء الحسّ وأعضاء الحركة، فأعضاء الحسّ للعلم وأعضاء الحركة للعمل. فمنها ما هيئ للانتقال. ومنها ما هيئ للعمل. هذا هو الأساس الذي يبنى عليه كل علم في الأرض وكل عمل. فما البناء الذي تريد أن تبنيه على هذا الأساس الآن؟ فقلت: أريد أن أبني بناءً حسناً جميلاً، كما أن هذا البناء حسن جميل. فقال: ففي أي وجه سيكون بناؤك في ذلك المقال الذي تريد. فقلت: في وجه نظام العالم الإنساني كله. إني أرى ولا شك في رأيي وأنا موقن به أن جميع النوع الإنساني يجب أن يكون كهيئة هذا الجسم، وأرى أن هذا الإنسان كله الآن جاهل كثير الجهل كثير الغرور، لأن من درس هذا الجسم حق دراسته ودرس العالم حوله لم يشك أن هذا العالم بالنسبة لهذا الإنسان أشبه بهذه الأعضاء بالنسبة للروح، والروح واحدة في الهيكل الإنساني والأعضاء مطيعة لها. فلتكن الإنسانية واحدة تطيعها العوالم حولها. فقال: هذا قول حسن وتقدم له نظائر في التفسير. ولكن الإجمال يعوزه التفصيل. فقلت: إن الإنسان سائر إلى ما أقوله. فقال: كيف ذلك ؟.

فقلت: اسمع يا صاح، أضرب لك مثلاً رجلاً له أبناء كثيرون فبنى لهم قصراً منيفاً وأبدعه أيما إبداع، فجعل الأبنية فيه لا تبلغ إلا نحو الثلث، والباقي من الأرض جعل بركة عظيمة تتخلل تلك الأبنية التي تشبه في وضعها مدينة البندقية « فينيزيا »، فإن البيوت يحيط بها ماء البحر والناس يتنقلون في السفن من منزل إلى منزل، ثم إنه ملأ تلك البركة بالسمك وملأ تلك الأبنية بأنواع النبات والحيوان والخيرات. فهو في أول الأمر جعلهم متفرقين في المنازل وجعل الماء يفصل بينهم. ثم أخذ يعلمهم كيف يضعون خشبات في الماء وكيف يركبونها، فكان سكان أحد المنازل إذا ركب في البركة وقابل آخر من منزل آخر أخذا يتحاربان ويتقاتلان، ثم أخذت كل جماعة تحارب الجماعات الأخرى، واستمر النضال جيلاً فجيلاً، وذلك النضال كان هو السبب في بحث عجائب منازلهم وعجائب بحارهم، فقرّ قرارهم آخر الأمر أنهم يجهلون ما أراد بهم والدهم. ذلك أن أحدهم قال: إنني وجدت في حديقتي التي في منزلي أني لا أنال حظاً من ثمارها إلا إذا كانت الطيور تأكل الدود كأبي قردان وبعض الغربان والعصافير المغنية وغير المغنية وهكذا مما تعد بالعشرات، ووجدت أن البرص والسحلية وغيرها تأكل الحشرات في أرض الحقل، ومن المدهش أني رأيت العنكبوت تنصب الشباك في الأشجار ولا تقتصر في

صيدها على الذباب بل هي تصطاد حشرات كبيرة . فيا أيها الأخوة ، إن أبانا ذو عقل وحكمة ، إنه لم يشأ أن يقول لنا الحقيقة ، فباعد فيما بيننا ظاهراً وأراد أن نعرف الحقيقة من أنفسنا ، ولن نعرفها إلا بدراستها ولا دراسة إلا بمقدمات ، والمقدمات هي العداوات التي كانت بيننا ، وهي السبب في تعلمنا ، فالعداوة بيننا كانت أشبه بالجوع ، فالجوع غير مقصود لذاته بل هو مهماز يسوقنا إلى الغذاء لنعيش ، والعداوة مهماز أعلى يسوقنا إلى العلم لنخترع ما نشاء في المحاربة ، وفي نهاية العلم اهتدينا إلى ما يأتي :

إن كل واحد منا يقتل أخاه ليأخذ ماله ، ولكنه في الوقت نفسه حافظ على عصفور وغراب وأبي قردان وكروان وبرص وسحلية وزقزاق بلدي وزقزاق شامي وعنكبوت في الحديقة وعلى جاموس وبقرة وجمل . لماذا هذا كله؟ لأن كل هذه طعام لنا فيمكننا إبادتها بأكلها في أيام قائل ، ولكن نحن بالاختيار أبقيناها لتساعدنا في حياتنا . فمنها ما نحرث به أرض الحدائق . ومنها ما يجر لنا العجلات لأعمال الزرع في الحديقة . إذن بقاء هذه كلها وإن كانت تحت تصرفنا خير لنا من إبادتها . وبعبارة أخرى : إن اللذة الوقتية بأكل هذه الحيوانات شرّ مستطير لأنها تحرمنا من ثمرات لا حد لها . إذن ننبذ اللذة العاجلة إذا حرمتنا نفعاً عظيماً مستقبلاً .

هذه نظريتنا في منازلنا نحن هكذا نفعل ، فإذا كان بقاء هذه الدواب والطيور خير لنا ، لأنها وإن كانت تحتل الجو والأرض معنا وبعضها يأكل مما نزرع ويشاركنا بعض المشاركة في الأرزاق ؛ فبقاؤها خير لنا ، أفلا يكون كل واحد منا إذا بقي خيراً لأخوته وإن شاركهم في المطعم والملبس كما يشارك كلّ منا دابته في أكل بعض الحبوب ، وفي سكنى بعض أجزاء المنزل ومضايقته ، مع أن نفع الدواب محدود ونفع الإنسان أوسع وأعظم قدراً .

فلما فكر إخوانه في كلامه قالوا : صدقت والله ، وقال آخر منهم : أيها الإخوان ، إن أبانا كان حكيماً فلم يفعل معنا ما فعلته الطيور تعيش جماعات من غير تعليم ولا تثقيف ، فهو فرقنا ظاهراً ولم يشأ أن يجمعنا إلا بجدنا واجتهادنا ، وأحاط منازلنا بالماء حتى يكون لنا ميدان تسابق ، وسهل لنا سبل التواصل والتعقل حتى إذا اجتمعنا بعد الافتراق كان اجتماعنا بعقل ، فنرتفع في السعادة إلى أعلى منزلة ، بخلاف الحيوان فإنه يقف عند حد واحد . وعاشوا بعد ذلك وارتقوا ارتقاء لا حد له .

هذا هو المثل الذي أردت أن أضربه لأهل الأرض الآن ، فالأبناء تمثيل لبني آدم ، والأب تمثيل لله عز وجل ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النحل : ٦٠] ، والمنازل هي القارات والجزائر ، والبركة المحيطة بالمنازل هي البحر الملح المقسم إلى أقسام ، كل قسم منها سموه محيطاً ، فيقولون : المحيط الأطلانطيقي والمحيط الهادي والمحيط الهندي وما أشبه ذلك ، والخشبات التي ركبها الأبناء هي السفن في البحار ، والعداوات بينهم مثل العداوات التي بين أهل الأرض ، وبقية القول معقول مفهوم .

وبيت القصيد في هذا المقام أن هذه الإنسانية جاهلة غاية الجهل ، وهي اليوم آخذة في رقيها . ثم انظر إلى ما قدمنا في سورة « يوسف » من أن الطيور النافعة كان الأوروبيون يقتلون منها أبا قردان وغيره ، وهذه الطيور خلقت محافظة على الزرع تقتات من الدود في الأرض فيسلم الزرع . فلما كان الأوروبيون في بلادنا قوماً لا رادع ولا زاجر لا من ضمائرهم ولا من حكوماتهم عاثوا في الأرض

فساداً، وقتلوا هذا الطير لتتحلى نساؤهم بريشه، فهلك الزرع. فلما كتبت مقالاً في إحدى المجلات العلمية وقرأه الوزراء، صدر الأمر بإبقاء الطيور البالغات نحو (٣٠) طيراً مذكور أكثرها في سورة «يوسف» كما قلنا وباقيها في سور أخرى.

الله أكبر، اللهم إني أحمدك على العلم وأحمدك يا رب على الحكمة، أنت المنعم أنت المعلم، يا رب، إن العلم واضح والعيون تشاهد صوره ولكن القلوب مقفلة.

اللهم إنك تعلم أن الأمم كلها أشبه بالأمة المصرية، والجهل بمنافع الإنسان في الأرض كجهل قومنا بمنافع الطيور، وظهور حكماء في الأرض يعلمون الناس ثمرات بقاء الإنسان على الأرض كظهور المقال الذي كتبته في فوائد الطيور آكلة الدود، وتحرم الحرب والقتال بين الأمم اجتناء لفوائد الأمم كلها، كتحريم حكومتنا المصرية صيد الطيور فانتفعنا بزرعنا، وهل الإنسان الحالي إلا كما قال الله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧].

هذا هو المثل الذي ضربته من حيث الطيور المصرية وتحريم صيدها استبقاء لمنفعتها ومضاهاة منفعة الإنسان ببقائه بمنفعة الطيور، فشهوة اغتيال أمة لأخرى شهوة وقتية، وبقاء الأمة الضعيفة مفيد للأمة القوية كما أفادت الطيور والدواب الإنسان وهي ضعيفة أمامه. إذن النظرية التي شاعت وذاعت في الكرة الأرضية في القرن التاسع عشر أن الأقوى يبيد الأضعف وجعلها عامة نظرية خاطئة، فلو كان ما يقولون حقاً لم يعش حيوان نقدر على أكله، مع أن الطيور في منازلنا وحقولنا، وكثير منها حرمنا أكله لمنفعتنا، إذن هي نظرية جزئية جعلوها عامة، وضلال هذا الإنسان أكثره يرجع إلى تعميم القضايا والحكم بالجزئي على الكلي، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧].

فقال صاحبي: لقد أجدت والله وأنصفت، وأتيت بحكمة شريفة وآية منيفة وعلم تام، ولكني أتذكر أنك قلت لي: إن الإنسانية متجهة إلى وجهة الاتحاد العام. فهل تشرح لي ذلك؟ قلت: إن أبناء الرجل الحكيم في قصره الواسع أدركوا أن أباهم أراد إسعادهم من طريق نصبهم هم لا من طريق المنحة المجانية. فهل تشرح لي الأمرين معاً في شأن هذا الإنسان؟ فقلت: أما الأمر الثاني فهو واضح، ألا ترى رعاك الله أن هذا الإنسان أعطيت له الأرض وترك فيها، وقيل لآدم وذريته: ﴿ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾[طه: ١٢٣].

ويا ليت العداوة اقتصرت على أن تكون بين الإنسان والإنسان، بل جعلت بينه وبين ما حوله، الأرض دائرة حول الشمس تقرب وتبعد وفيها مناطق باردة وأخرى حارة، فلا هو بقادر أن يسكن الباردة ولا هو بمستطيع أن يسكن الحارة. فالمناطق الباردة قلّ فيها النبات والحيوان، والمناطق الحارة اكتظت بالنبات فطرد الإنسان منها، والأمطار تهطل ليلاً ونهاراً فلن يقدر أن يوقد النار فيها، فلا بد أن يعيش في الأقطار المعتدلة. وهذه المعتدلة تكون فيها الغابات القوية وتكاد تمنعه أيضاً من ولوجها. ولكن لما كانت تلك الأقطار يتناوبها الصيف والشتاء والخريف والربيع. وكان الخريف والشتاء فصلين يجردان الشجر من قوته بعض التجريد، قدر الإنسان إذ ذاك أن يدخل في تلك الغابات وينتفع بها فيها. فهو إذا طرد من القطبين ومن خط الاستواء لم يعدم وسيلة بها يدخل في غابات الأقطار المعتدلة،

حيث تساعد أحوال الجو على ولوجها واستعمارها والانتفاع بأشجارها. وما هذا أيها الذكي إلا مثال واحد من أمثلة أعمال هذا الإنسان. فهو إذا دحرته غابات البرازيل حيث الشمس حارة في أمريكا، وطردته غابات أفريقيا الاستوائية فلم يستطع سبيلاً لتذليلها أو السكنى في أرضها لقوة النبات ولا السياحة في داخلها إلا بمشقة، فإنه قدر أن يتمتع بنباتات المناطق المعتدلة ويغالب الطبيعة هناك. ثم إن الإنسان لم يستطع ذلك إلا بالجموع الكثيرة منه. فأما الأفراد فلا.

يا عجباً! هذا تفصيل جسم الإنسان، إنه مفصل على مقتضى هذه الدنيا، وهذه الدنيا كلها وجدناها مزرعة له، ثم ألفيناه عقل بعض النظريات العلمية فحافظ على كل حيوان نافع له فأبقاه، لأنه نافع له في اجتناء الفوائد، وهاهو ذا يرى فوائد غزيرة في الغابات الأفريقية والغابات في البرازيل، يرى منافع ومنافع وعجائب تحت الأرض في القطبين، فهناك الفحم وهناك غزال الرنة ومنافع كثيرة، وكلها موصدة أمامه تحتاج إلى عناء ونصب وعقول وقوى، أفلا تكون تلك المنافع القطبية والتي في الغابات الاستوائية ومنافع الهواء والماء وضوء الشمس التي لا تزال كلها لغزاً أمام النوع الإنساني.

أقول: أفلا تكون هذه كلها مضاهية لمنافع زرعنا، وتكون الأمم التي يسمونها ضعيفة بمنزلة الطيور آكلات الدود لحفظ زرعنا. لا لا. والله إن الأمم الأرضية أعظم نفعاً وذخراً في استخراج ثمرات العوالم المحيطة بنا من أبي قردان في حفظ زرعنا ومن العنكبوت في حدائقنا المبيد لبعض حشراتها، فالإنسان الآن جاهل أشد الجهل بهذه النظرية العلمية، وعلى كل من اطلع عليها وكان من أهل النبل والشرف والجاه والحكمة أن يذيع العلم في أمم الإسلام أولاً، ثم يبث فيهم روح الجد والنشاط واكتناه العوالم العلوية والسفلية.

ثم إن المسلمين إذا أشربت قلوبهم الحكمة يكونون هم السبب في ارتقاء أهل الأرض، لأن لأهل أوروبا وأمريكا ينظرون إلى الظواهر فيجعلون لون السواد ولون الحمرة في أبناء السودان ببلادهم وأبناء أمريكا الأصليين من أسباب العداوة، فلا يطيقون أن يروهم في أماكنهم العامة، وهكذا أهل إنكلترا فهم يطردون السود من بعض مطاعمهم، وبعض تلك الأمم تنقض على الأمم الضعيفة لتأكل خيرها وتذلها، كما يفعل الفرنسيون مع أهل مراكش والجزائر وتونس، وكما تفعل إيطاليا مع أهل طرابلس، وكما تفعل إنكلترا مع فلسطين ومصر والهند. وهاهي ذه اليوم قد سجنت غاندي الزعيم الهندي الذي قام بالحركة الإصلاحية هناك، وطالب بعدم إسراف المال في الملابس الأجنبية وعدم شرب الخمر القاتل للإنسانية. إذن هذه الأمم كلها جاهلة قدر الإنسانية فهي لا تصلح لرقيها وقيادتها. إن الأسد لا يصلح لقيادة الإنسان وإنما يصلح لأكله، ونحن نريد أن يحكم الإنسان ويعلمه إنسان مثله لا حيوان.

الأرض قد بخلت بما لديها فلم تفرط فيما عندها من غابات خط الاستواء ونحوها، ولا من المدخرات في القطبين ونحوهما، إلا إذا كان أبناؤها جميعاً يداً واحدة في استخراج ذلك. وهؤلاء لقلة تبصرهم يتركون الحقائق الكامنة. ويصدهم عن هذا النعيم المنتظر للإنسانية كلها مظاهر الألوان واختلاف الأديان والأقطار واللغات، إذن الإنسان جاهل كل الجهل.

فليتعلم المسلمون وليعلموا الإنسانية . أنا موقن أن هذا القول سيخوض البحار ويقرؤه أهل الأقطار وتنقله السفن في البحار والطيارات والبالونات التي يركبها الناس في الجو وتنتشر الفكرة ويعم الاتحاد وتخرج الإنسانية من جهالتها .

إن الإنسانية اليوم استعدت لفهم هذا القول . وهذه الطيارات تطير حول الكرة كلها ، والسياحون يطوفون حولها في السفن والقطارات البرية ، والعلماء يتسابقون إلى الكتابات في السلام العام كما أكتب أنا الآن ، إذن اتحد على هذه الفكرة سير السفن في البحار حول الكرة الأرضية ، وطيران الطيارات حولها أيضاً ، وكتابة العلماء في الاتحاد العام . وهذا نوبل مخترع الديناميت المشهور قد أعد جائزة لمن ينفع السلام العام . فما أقول اليوم جاء أوانه . فليدل المسلمون دلوهم في الدلاء . وليقوّموا أنفسهم أولاً ثم ليقوّموا الإنسانية ثانياً ، والله هو الولي الحميد .

فقال صاحبي : نعم ما فصلت وحسن ما دبجه يراعك . ثم أذكرك أنك تقول : إن غابات خط الاستواء وغابات بلاد البرازيل لا يمكن اجتيازها لصعوبتها . وذكرت أموراً لا يعرفها إلا القليل . فأحب أن تذكرها لنا من مصدر علمي واسع النطاق يشرح هذه المواضيع كلها وما شابهها شرحاً واسعاً كما وعدت بذلك في أول المقال . فقلت : اسمع ما جاء في كتاب «الجغرافيا التجارية الاقتصادية» تحت العنوان التالي وهذا نصه :

الإنسان وتوزيعه على المعمور

تكاثف السكان

شروط صلاحية القطر للسكنى ، مغالبة الإنسان طبائع الأقطار التي يسكنها

أسباب قلة سكنى الغابات الاستوائية . مقارنتها في ذلك بالغابات المعتدلة

التغيرات الفصلية تعد القطر للسكنى ، وكذا التغيرات الدهرية

الحرب وتأثيرها في عدد السكان

انظر إلى خريطة العالم حيث توزيع السكان على المعمور تر الإنسان منثوراً في متفرق النواحي من غير مساواة في العدد . فهذه الصين والهند وما جاورهما غاصة كلها بالسكان ، وهناك جهات أخرى من العالم الفسيح لا يسكنها إلا النفر القليل حتى في الولايات المتحدة وهي جمهورية واحدة ، ترى الإنسان متجمهراً في جهة الشرق ثم يرق شيئاً فشيئاً جهة الغرب ، وفي جنوب أمريكا تراه كذلك محتشداً في جهات منتثراً في أخرى ، وهاجراً شتى . وكذلك في أفريقيا وأستراليا ، والخلاصة أنك بالتأمل بالخريطة لا ترى الإنسان موزعاً بانتظام في أنحاء الأرض . بل ترى منها ما اختصه بسكناه فتزاحم عليه ، وربما كان ذلك لعهد قديم مثل مصر ، ومنها ما نضب عدده فيه مثل معظم أفريقية . فلماذا كان بعض الجهات أصلح لمقام الإنسان من البعض الآخر ؟ هذا ما نجيب عنه .

الإنسان محتاج إلى هواء معتدل ، فالرطب منه جداً والجاف جداً كلاهما لا يطيب له ، ومحتاج أيضاً إلى مقدار معتدل من الحرارة ، فالأصقاع الباردة جداً والحارة جداً تضر به ولا تصلح له ، ومثل ذلك النبات والحيوان ، ولذا نرى أن الجهات النادرة الحيوان والنبات قلّ أن تصلح لمقام الإنسان ، ففي

أواسط القارة المتجمدة وفي أواسط الأرض الخضراء حيث توجد فلوات الجليد؛ قلّ أن تدبّ دابة، فلا يتسنى للإنسان عيشة فيها، كذلك في قلب بعض القارات حيث ترتفع درجات الحرارة، وحيث يجف الهواء جداً، فينشأ عنه الصحارى القاحلة، لا ينتظر للإنسان عيشة وكذلك سفوح البراكين الحية وأمثالها من سطح البسيطة التي لم يستعمرها الحيوان والنبات؛ ستبقى خلواً من الإنسان، مفلتة من قبضة يده إلا إذا تغيرت أحوالها وتبدلت أطواره.

ومن المعلوم أن لكل صقع مجموعة خاصة من حيوانات ونباتات، فكلما ساد الإنسان في صقع وتكاثر فيه كان ذلك على حساب تلك الحيوانات والنباتات الأصلية يزيحها ويحتل مكانها. عمر الإنسان البراري الإسكتلندية مثلاً منذ أقل من قرن، فإذا تركت قلل جبالها جانباً ونزلت إلى حيث يسكن منها وجدت «الجلنج» قد فني، وليس منه إلا رقاع صغيرة في المراعي. ورأيت حقولاً من الشوفان والبطاطا واللفت والكلأ ومثل ذلك.

وما هي إلا حاصلات تافهة في جانب ما يزرعه الفلاح الإنجليزي في الشرق. ولكنها مع ذلك تمثل المطلوب من أن الإنسان يكتسح الأجناس الطبيعية السائدة بالصقع الذي يستعمره، ويضع محلها نباتاته هي التي يختارها غذاء وكساء. وهكذا كلما تفشى في صقع عمد إلى ذلك العمل على نظام ومنوال أوسع. تطوف بإنكلترا وتسيح في فرنسا فترى الأفدنة الشاسعة من الأراضي الزراعية المخدومة تنبت أنواع الحاصلات المختلفة، وهذه هي نفس الأراضي التي كانت في وقت يحسبه الطبيعي غير بعيد تكتنفه كله الغابات الكثيفة، وتشوهها المستنقعات المؤذية قد طهرتها يد الإنسان بالجد والعمل. ومثل ذلك وقع على الحيوانات، فإذا ما سرنا في الأراضي المنحطة من إنكلترا وإسكتلندة وجدنا من الأنعام والأغنام والخنازير والدجاج والإوز والبط خلقاً كثيراً تملأ الضياع هناك. وكل هذه الحيوانات المنزلية قد استنفرت إلى الروابي ونجاد «ديفون» و«كورنوول» غزلاناً كانت تجول في الأحراج القديمة في بريطانيا. ومن أجلها أيضاً استؤصلت شافة الذئاب العاتية التي كانت تعيث في الأرض فساداً، وتعيش على تلك الحيوانات البرية، وقصارى القول: إن الإنسان لا يمكنه أن يعيش في هذه الدنيا إلا بقلب طبيعتها واختصاص نفسه في محله الذي ينزل فيه ببعض الحيوانات دون الأخرى، وبمطاردة التي لا تنفعه لتفسح مجالاً لما يعوزه ويحتاج إليه.

قلنا: إن الإنسان تتعذر عليه الحياة في الجهات التي يسوء فيها نمو النبات وصحة الحيوان، ولكن قد تكون غزارة النبات من جهة أخرى سبباً في حرمان الإنسان من سكنى الجهات الفسيحة. فإذا نظرت إلى خريطة سكان العالم وجدت جزءاً عظيماً من البرازيل حيث الشمس حارة والمطر وافر غزير يطيب فيه النبات ويزهو ويتكاثف ويعلو فيكون الأحراج الاستوائية، ولكنك تبحث عن الإنسان في وسط هذا العالم فلا تكاد تجده إلا قليلاً. ومثل هذا في غابات أفريقية الاستوائية، فليست قلة الحياة النباتية هي التي تعرقل مساعي الإنسان في استعمار مثل هذه الجهات، بل غزارتها ووفرتها الزائدة عن حد الطاقة، إذ الغابات الاستوائية هي ما يسميه النباتي بالتآلف المطلق، أي المكان الذي يكون نضال الحياة النباتية فيه شديداً قاسياً لا يتسنى لأجناس جديدة أن تدخل فيه.

نعم إن العراك والنضال النباتي كذلك شديد في غابات المنطقة المعتدلة، ولكنه تصحبه في كل خريف وشتاء هدنة من الله، إذ تضعف قوى الأشجار ويجمد ماء حياتها في عروقها. فيقوى عليها ساعد الإنسان فتكون له الغلبة آخراً. حتى إذا جاء الربيع الذي تتماثل فيه الأشجار إلى القوة والفتوة لم تغلبه ولم تستعص عليه، إذ كان قد ذللها من قبل، واجتث منها وملك ناصيتها، ولا يخفى أن في الغابات المعتدلة تكون المقاومة بين الأشجار الكبار. أما النبت على أديم الأرض فليست له مقاومة تذكر. خلافاً للغابات الاستوائية إذ التفت الساق بالساق بزاحفات من النبات متعددة قد تكدس منها على أديم الأرض عالم كثير، حتى قال أحد السياح: إن في غابة غانة الجديدة الاستوائية إذا سار جماعة فيها ثلاثة أميال في اليوم عد ذلك أمراً عظيماً جداً، لأنهم في الغالب لا يستطيعون قطع نصف هذه المسافة في اليوم. وقال أيضاً: إنه لا يوجد من حاصلات الغابة ما يمكن أن يقتات به الإنسان، فإذا نفذ مأكله تهدده الجوع بالقتل.

النضال في الغابات الاستوائية شديد جداً والظروف الطبيعية هناك توافق حالات النبات لدرجة يتعذر معها وجود حيز فيها غير مشغول، فتفرع الأشجار وتبسق إلى عنان السماء تطاول الواحدة جارتها. وكلما تناطحتا وحجبتا الضياء عن الأرض تحتهما تسلقت عليهما النباتات الزاحفة طلباً للعلو حيث الهواء والضياء. وقد لا تصل جذورها إلى التربة الأرضية، بل تجد غذاءها الكافي بين الأوراق البالية. ومن الرطوبة الموجودة في هواء الغابة الخمل.

هذا وعلى ضفاف الأمازون الفاترة حيث يطلب الباحثون المطاط ليرسلوه إلى أوروبا لتتخذ منه إطارات السيارات وغيرها من منافع المدينة، يتكبد رواده الشقاء والعناء من تزاحم الشجر، إذ لا يرجون التسيار والتنقل إلا بقرب الضفاف حيث تتبعثر الأشجار ويقل عددها نوعاً، وفي غابات فرموزا واليابان والصين يطلب الرواد أشجار الكافور ليصنعوه بخوراً أو كرات للعثة، ولكن جهدهم هذا يبذلونه أيضاً بشق الأنفس، لأن أشجار الكافور توجد في الغابة متفرقة الواحدة عن الأخرى، فكلما جمعوا شيئاً من بقعة ارتحلوا طويلاً إلى غيرها، وكم في هذا من عناء وعذاب.

فما أكبر الفارق بين هذه الغابات وبين أمثالها في المنطقة المعتدلة حيث توجد في بعض جهاتها الرطبة من البحر الأبيض المتوسط مساحات ضخمة كلها من شجر أبي فروة والجوز واللوز والصنوبر والخرنوب، وتوجد مساحات ضخمة من الزان والبلوط ويسميها كلها النباتيون الأجناس المجتمعة، لأنه إذا وجدت زانة وجد من نوعها الكثير. فتتسنى تربية الخنازير على مقربة يطعمونها من حبه. ومثل هذه الأجناس المتجمعة من الأشجار نادرة الوجود في الغابات الاستوائية. ولذلك لا بد من بذل الجهد في طول الغابة وعرضها للبحث عن النبات الصالح.

كذلك تكثر في الغابات الاستوائية الحيوانات ذوات الثدي، ولكن أفراد كل نوع منها قليلة، فلا يوجد فيها مثلاً ما علمناه من وفرة عدد الجاموس البري ببراري أمريكا، ولا الغزلان بسهول أفريقية، ولا الحيوانات الأخرى بسهول آسيا، قبل أن تصل إليها قدم الإنسان، وما يذكر من الأسباب هنا هو ما سبق ذكره عن المطاط والكافور مقارناً بالزان والبلوط.

ويوجد بغابات البرازيل أنواع كثيرة من القردة، ولكن عدد كل نوع منها قليل جداً، ويوجد الحيوان البطيء المسمى بالكسلان ولكنه نادر جداً، ويوجد بها حيوانات أخرى أكالة اللحوم تتسلق الأشجار ولكنها قليلة أيضاً، وحالها هذا مصداق ما سبق قوله.

والمقصود من هذا البحث أنه إذا قلت أنواع النبات و الحيوان التي من جنس واحد عز بسببها الاستعمار وصعب الاستثمار وقلت السكنى. وزد على ذلك أنه يوجد بالغابات الاستوائية الحيات الرقطاء والحشرات السامة، ولكنها مع ذلك أقل خطراً من البعوض الذي أغلبه مصاص الدماء. ويحمل من فريسة إلى أخرى جراثيم الأمراض مثل الملاريا ومرض النعاس، ومنه ما يبيض تحت الجلد فيحدث القرح الأليمة. ومن الحشرات ما يعض أو يخز، والكثير من الهوام والبعوض يتأثر من التعرض لضوء الشمس في بعض أدوار حياته فيموت. فإذا أمكن للإنسان أن يطهر الغابة منه زال الخطر وتسنت المنفعة. ولكنه في الغابات الاستوائية الممطرة يحول الجو بينه وبين أعظم مساعد له على التطهير وهو النار، فإذا كان ثمة صقع يتناوبه الجفاف والمطر ـ مثل غابات غرب أوروبا ـ أمكن للإنسان انتهاز الموسم الأول فيشعل الحشائش الطوال ويبيد جيشاً كبيراً من النبات الملتف فيكون الرماد الناعم تربة خصيبة، تكون مهاداً لبذور النبات الصالح الذي متى رعاه وتفقده أتى بالخير العميم. ولكن إذا كان الجو دائماً دائباً على الأمطار تعذر إشعال النار وغلت يد الموقد.

ومن ذلك نرى أن الأصقاع التي يسكنها الإنسان يشترط أن تكون عرضة لتغيرات طبيعية صالحة لنمو النبات غالبة مرة ومغلوبة أخرى، سواء أكان التغير في درجة الحرارة كما في مناطق خطوط العرض المرتفعة في المعتدلة الباردة، أم في درجة الرطوبة كما في الهند والصين، بسبب التغيرات الموسمية أو فيهما معاً. كما في بعض جهات الصين أيضاً، أعني أن الممالك التي يكثر فيها الإنسان هي التي يروج فيها النبات في مواسم مخصوصة بسبب تغيرات الفصول، وعلى ذلك فالأصقاع شديدة الرطوبة غير صالحة، لأن موسم الرواج فيها قصير جداً أو منعدم بالمرة إذا كانت متطرفة في شدتها. وكذلك بعض الأصقاع الاستوائية حيث درجة الحرارة مرتفعة دائماً والمطر هطال دائماً. ويدخل في معنى الفصول هذه تلك التغيرات الطبيعية الموسمية التي كانت سبباً في إخصاب أرض مصر وإعدادها للسكنى من زمان قديم، وهي جزء من الصحراء، فدرجة الحرارة فيها دائماً مرتفعة ارتفاعاً نسبياً. والمطر يكاد يفقد فيها مرة واحدة، فتغير الفصول غير مشاهد فيها بالمعنى المراد إذا قارناها بـ« نيوفوندلاند » مثلاً، حيث الفرق بين درجة الحرارة في الصيف والشتاء قد يصل إلى ٥٠ درجة ف. من هذه الأسباب كان مورد الحياة في مصر هو نيلها لا غير، يعلو ويهبط سنوياً في مواسم معينة، فإذا علا فاض بالماء الذي فيه حياة أهلها وحاصلاتهم. وإذا هبط حل الجدب الذي فيه موت كثير من أعداء الإنسان من العشب غير الصالح، وبعض الهوام وفي أثناء هذه الفترة يتسنى له أن يجمع حاصلاته وأن يغلب على الماء، فيحمله بالقنوات أنى شاء فيتزايد الزرع والحاصل ويموت جيش النبات الضار.

والخلاصة أن نباتات أي صقع وحيواناته ما هي إلا مجموعات مرتبطة ملائم بعضها لبعض قد هيأها الله لحالة الصقع من أزمان، فكل شيء يضطرب بسببه ولو قليلاً، هذا التوازن الدقيق يصبح

فرصة سانحة لدخول الإنسان، وتحصل الاضطرابات هذه في كثير من أنحاء الأرض بسبب دورة الأرض وتغييرات الفصول الناتجة عن تلك الدودة، وكلما حصلت هذه التغييرات على نظام أوسع في صقع ما وسهل على الإنسان التدخل كان ذلك الصقع ساحة الوغى التي يجول فيها الإنسان ويصول بخيله ورجله ويصل فيها إلى أوج المدنية.

وقد يكون مع التغيير الفصلي تغيير دهري يقع في أثناء الأجيال والدهور، فيؤثر في نتيجة الموقعة القائمة بين الطبيعة والإنسان، من ذلك أنه يظهر في فلسطين واليونان وفي معظم أواسط آسيا مثلاً أن قد تقلب دهور وعصور تغيرت فيها مع البطء الشديد مقادير الأمطار الساقطة هناك، فحال هذا التغير بين الإنسان وبين كثير من المنافع التي كانت في حظوته قديماً، وأمكنت الطبيعة البرية من أن تسترد كثيراً من أراضيها المغصوبة، كذلك عملت تغيرات أخرى من قرون لا عدد لها على جفاف تربة أوروبا. وفي أواخر عهد الجليد تحسنت حال المصارف في جزء عظيم من تلك القارة بسبب تأثير الجليد في سطح الأرض وإيجاده البحيرات، ثم انتظمت مجاري الأنهار وفاضت بالطمي فانصلحت الأراضي، حتى قال أحد الجغرافيين: إن مثل هذه التغيرات الدهرية كانت العامل الأعظم في التقدمات الباهرة التي حدثت في القرون الأخيرة بأوروبا وأمريكا، إذ اكتسح عهد الجليد نوع الإنسان القديم كما اكتسح معه حيوانات أوروبا، وقد جعل الأرض بما أحدث من التغييرات فيها صالحة لسكنى الإنسان المتمدين.

ويقولون: إن المدنيات القديمة التي يقرؤونها على الحفائر وغيرها في مثل أواسط آسيا وبلاد العراق وفي مثل فلسطين وحتى في جهات أمريكا الوسطى كلها تثبت أن الجو في تلك الأيام الخالية كان غيره الآن. ولولا ذلك ما زرع فيها القمح ولا غيره قديماً، ولا عاش فيها إنسان في ذاك الزمان، وفي هذا المعنى يقولون: إن جو أوروبا الآن وفلسطين وآسيا الصغرى الخ قد قلت فيه درجة الرطوبة عن قبل أمطاراً وثلوجاً.

وينسبون التغيرات الدهرية إلى إرسال الشمس شعاعها المتغير كثيراً أو قليلاً على حسب طبيعة جوها التي هي فيه، فإذا اشتد شعاعها كثرت عليها السفع. ويكون ذلك رمزاً على كثرة الحرارة التي تعتري على سطح الأرض من جراء ذلك، ثم تكون هذه سبباً في تسخين الهواء وإحداث زوابع الأمطار والثلج، أي: في رفع درجة الرطوبة، فإذا شعت الأرض حرارتها جميعها صار سطحها بارداً جداً وهذا تعليل برودته ورطوبته قديماً.

ومما تعرف به التغيرات الجوية الدهرية أعمار الأشجار القديمة، ففي غرب أمريكا مثلاً توجد أشجار عمر الواحدة منها ألفا سنة أو أكثر، وعمر الشجرة يعرف من دراسة الحلقات الموجودة على خشبها. ومن هذه الحلقات يستدلون على مقادير الرطوبة في تلك العهود، وتعرف التغييرات الدهرية كذلك من دراسة مستوى البحيرات الملحة القديمة في مثل غرب الولايات المتحدة، وفحص طبقات الصوديوم والكلورين هناك، إذ يرى لدى الشاطئ خروز الطبقات، فالعالي منها يثبت امتلاء البحيرات إلى حده، ويدل على كثرة الرطوبة في وقته، والواطئ يثبت انحسار مستوى البحيرة إلى حده ويدل على قلة الرطوبة وهكذا.

ونرى من كل ما تقدم أنه لا نبات برياً ولا حيوان وحشياً قد أظهر من القدرة على الانتشار في العالم مثل ما أظهر الإنسان، وأنه لا نبات ولا حيوان قد تناسل مثل تناسله، فالخلنج على البراري سالفة الذكر قد يكثر، حتى يخيل إلى الناظر إذا ما وجد هناك أن العالم كله خلنج، ولكنه إذا ترك هذه البراري ونزل إلى الوهاد أو إلى الوديان البسامة لم يجد للخلنج فيها أثراً مرة واحدة. سر على جبال الألب بين أشجار التنوب وغابات الصنوبر فيخيل إليك أن العالم كله تنوب وصنوبر. ولكنك إذا غادرت موقعهما بين الجبال مشيت الأيام والليالي دون أن تعثر لهما على أثره. تكلمنا على الجاموس الأمريكي والرشا الأفريقي وذكرناهما أمثلة من وفرة النتاج بجهة من الجهات، وهما مع ذلك لم يشغلا من سطح الأرض إلا جزءاً صغيراً بالنسبة له.

انبث الإنسان في جهات الأرض وعمرها، وهو وإن اضطر إلى الفرار من غابات الاستواء وهجير الصحراء وبوادي الأقطاب ومن النجاد والوهاد القاحلة فهو مع ذلك فائز منصور، حيث لم يحظ غيره من النبات والحيوان بمثل ظفره وانتصاره، سواء عنده جوانب الألب الشامخة وهضاب تبت الباردة والوديان البسامة والسهول الخصيبة، فقد عمرها كلها وانبث فيها مصطحباً معه أينما حل قطعانه المنزلية، ونباتاته الزراعية قد ذللها جميعها، فدانت له وتبعته إلى أقصى الأرض حيث لم توجد أجناسها من قبل.

هذا والحرف العصرية التي يجدّ العالم فيها ويلج الآن وغدا لها تأثير عظيم جداً في السكان على المعمور، فالأقطار الزراعية تجتذب إليها السكان، ويتزايد عددهم فيها كلما أخصبت الأرض وأينعت محصولاتها، فتفيض عليهم بالأرزاق والأقوات في مثل الهند والصين وغيرهما، والأقطار العشبية التي تقوم فيها حرفة الرعي يقل عدد سكانها عن الأخرى الزراعية، كما يلاحظ ذلك من الخريطة الخاصة، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم سخاء الطبيعة بالقوت الكافي للكثير من السكان.

وأما أكثر الحرف اجتذاباً للسكان فهما حرفة الصناعة وحرفة التعدين، لما تتطلبه كل من كثرة الأيدي العاملة على استثمار المناطق الخاصة بهما، ولما ينجم عن مزاولة الحرف الصناعية الآلية من عظيم الأجر وكبير الربح، ولذا ترى المناطق الصناعية من إنجلترا وألمانيا وبلجيكا والروسيا أغص جهات هذه الممالك سكاناً وأكثرها ثراء ويساراً، وبدهي أن المملكة التي يتجمع فيها عدد من الحرف يتجمهر فيها السكان بمقادير عظيمة تمثل ما وصلت إليه هذه الحرف من الرقي، كما هو الواقع في شرق الولايات المتحدة، ويحسن هنا مطابقة خريطة حرف العالم على خريطة تكاثف السكان. انتهى ما أردته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد وفيت بالمراد. وأتيت بالعجب العجاب. فقلت: الحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم السبت ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٠.

أسرار العلوم المخبوءة في هذه السورة

جاء صديقي العالم الذي جرت عادته أن يناقشني في هذا التفسير، فقال: لقد فسرت الرحمة في البسملة وطبقتها على ما في السورة تطبيقاً تاماً، ولكن بقي في النفس شيء، فهل تأذن لي أن أسألك

استيفاء لهذا المقام وإيضاحاً للأنام؟ فقلت: نعم. فقال: إن في السورة أولاً: الذنوب ومغفرتها. ثانياً: الكفر والإيمان. ثالثاً: محاورة المؤمن من آل فرعون معهم. رابعاً: محاجة الكفار في النار من الضعفاء والمستكبرين. خامساً: ما يقوله بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر: ٥٧] الخ، إذ جعلوا ذلك إشارة إلى الدجال، ألم ترى إلى ما جاء في كتاب «تنوير المقابس» من تفسير ابن عباس المؤلف في القرن التاسع الهجري، إذ جاء فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[غافر: ٥٦] هم اليهود، وكانوا أيضاً يجادلون مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بصفة الدجال ورجوع الملك إليهم عند خروجه، وقوله: ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾[غافر: ٥٦] أي: عن الحق ﴿ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[غافر: ٥٦] أي: ببالغي ما في صدورهم من الكبر وما يريدون من رجوع الملك إليهم عند خروج الدجال، ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾[غافر: ٥٦] يا محمد من فتنة الدجال ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾[غافر: ٥٦] لمقالة اليهود ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴾[غافر: ٥٦] بهم وبأعمالهم وبفتنة الدجال وبخروجه، فخلق السماوات والأرض أكبر، أي: أعظم من خلق الناس، أي: من خلق الدجال، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر: ٥٧] يعني اليهود ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر: ٥٧] فتنة الدجال.

هذا ما رأيته في ذلك، وابن عباس رضي الله عنه شرفه عظيم وعلمه نبوي، وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم. هذه هي الفصول الخمسة التي أريد منك شرحها وإن كان في ذلك مشقة عليك وأنت محب للعلم ومحب لرقي العقول، وحديثنا يقرأه المسلمون بعدنا، فالفائدة عامة، فأرجو أن تحدثني كيف يكون الله هو الرحمن الرحيم؛ والناس: (١ و٢) يذنبون أو يكفرون. (٣ و٤) وكيف عصى آل فرعون من آمن منهم، وأضل المستكبرون الضعفاء، فأين الرحمة؟. (٥) وكيف يخرج الدجال فيضل الأمم ونحن نستعيذ بالله منه كل حين، والله قادر أن يرفع هذه عن الأمم. ولقد تبين لي أن تفسير ابن عباس مؤيد بما ندعو به في كل صلاة، إذ نقول: وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال. فهذه مشاكل نحن في حاجة لها وطرق يعوزها التعبيد حتى تكون مذللة لنسير فيها على صراط مستقيم.

فقلت: لقد تقدم في تفسير البسملة ما يغني عن الإجابة الآن. انظر رعاك الله إلى ما جاء في تفسير البسملة في أول سورة «الروم» وأول سورة «لقمان»، فقد ذكرت هناك كيف كانت الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان خلقت لمنفعته هو. وكيف كان الضرب والكسر والصدم والجرح والبرد والأمراض والأسقام وكل ما يضر الجسد ويفسده، كل ذلك إنّما جعل منذراً لنا لنصلح ما فسد بسبب الأحوال المادية في هذه الدنيا، وهكذا ذكرت لك هناك أن قتال الفرس والروم والمسلمين مقيس على أحوالنا المرضية. فهذه أمراض اجتماعية تنذرنا بإصلاح ما فسد من مجتمعنا، كما أن الجوع وآلام المرض تحثنا على الطعام والدواء. فالآلام رحمة. إذن الرحمة لها جيشان: جيش الآلام. وجيش اللذات. هما جيشان للرحمة. وإذا كانت الرحمة موجهة فقط إلى لذاتنا فإنها تنقلب نقمة. فاجتماع الآلام واللذات إتمام الرحمة. فاللذات نصف الرحمة، والآلام النصف الآخر. هذا ملخص ما تقدم.

فقال صاحبي: هذا حسن، ولكن هذا الكلام إجمالي عام، فإن في هذه السورة أموراً أخرى. فيها مؤمن آل فرعون. ولماذا يقص الله ذلك القصص علينا؟ وأي مناسبة بين أمة الإسلام الآن وآل

فرعون؟ ولماذا يقول لهم: ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾[غافر: ٢٩]، وأي بأس أنذرهم به؟ وهل نزل بهم هذا البأس وفي أي زمن؟ ولماذا؟ كل هذا أريد أن أعرفه حتى ينتفع المسلمون بحديث هذا المؤمن في زماننا. إن حديث مؤمن آل فرعون لن يتم الانتفاع به لنا في أمراضنا الاجتماعية إلا بمعرفة ما يرمي إليه وماذا كانت نتائجه. ثم لماذا ذكر الله محاجة المتكبرين والضعفاء بعد محاجة مؤمن آل فرعون؟ وما المناسبة بينهما؟ ثم لماذا نرى ابن عباس يفهم هنا مسألة الدجال. وما الملك الذي يبتغيه اليهود؟ وهل هم يحاولون ذلك الآن؟ ثم لماذا نرى المسلم في كل صلاة يستعيذ من فتنة المسيح الدجال. كل هذا أمور لا تزال غامضة، والمسلمون يصلون وأكثرهم غافلون.

والصلاة بلا عقل قليلة الثمرات. وإذا لم يفهم المسلمون أدعيتهم في الصلاة فما الذي استفادوه إذن! إن الحياة المبنية على الحفظ بلا عقل أشبه بحياة الجماد. وتكرار الصلوات بلا عقل قد ذمها الله فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[الماعون: ٤-٥]، وقال في ذم من يقرؤون ولا يعقلون: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد: ٢٤]، وقال في اليهود إذ كانوا لا يعقلون التوراة: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[الجمعة: ٥] الخ.

إن بقاء المسلمين على حالهم يصلون ولا يعقلون الصلاة ويقرؤون ولا يعقلون القرآن أوقعهم في الغرور كابراً عن كابر جيلاً فجيلاً، وكل جيل ينزل عما قبله، حتى أصبح المسلمون اليوم أجهل الأمم التي على هذه الأرض وقد تركوا مواهبهم، فإذا لم توضح هذا المقام غير مكتف بما قدمت في تفسير البسملة فإن الحال تستمر على ما هي عليه وكل جيل يكون أقل مما قبله وهذا لا يرضيك. فقلت: إني بحمد الله سأوضح المقام على قدر طاقتي وأبينه بما أقدر عليه والله المستعان، فأقول:

إن هذه الأسئلة الخمسة التي تريد الإجابة عليها ترجع كلها إلى أمر واحد، ومتى عرفناه زال الإشكال. فقال: وما هو؟ فقلت: هو ما تقدم في سورة «الزمر» في أولها عند قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾[الزمر: ٥]. ألم أقل لك هناك: إن الجنين في الرحم يحيط به ظلمات ثلاث: المشيمة والرحم وبطن أمه. قال: بلى. قلت: أليست هذه مع كونها ظلمات جعلت له رحمات. قال: بلى. قلت: ألم نقل هناك إن علماء الفلك يقولون: إن الغبار في الجو ودخانه يصنعان فيه (١٦) طبقة حاجبة للشمس عن عيوننا رحمة بنا، فيكون ضوؤها الواصل لنا صباحاً أقل من الضوء الواصل وقت الظهيرة (١٣٥٠) مرة. قال: بلى قد تقدم ذلك. قلت: ومعلوم أن الغبار والدخان ضاران بأجسامنا يدخلان رئاتنا فتضعف أجسامنا وتقصر أعمارنا. قال: بلى. قلت: ولكن هذا الضار باجتماعه مع ضوء الشمس صار نعمة. قال: نعم. قلت: ألم أقل هناك إن وسوسة الشياطين للناس نقمة ولكنها في الحقيقة قد جعلت نعمة لهم، لأنهم إذا أعطوا العلم دفعة واحدة لا يطيقونه. قال: بلى ولكن هذا المقام يحتاج إلى الإيضاح هنا. فقلت: نعم أوضحه، فأقول: أنا لا أخرج عن هذا المثل وهو مثل الشمس، انظر، إذا أشرقت الشمس على الأرض فهل تستوي الأرض والماء في قبول حرارتها؟ قال: أنا أرجوك أن تسمح لي بفهم ما تقول. فقلت: أيهما أسرع قبولاً للحرارة الماء أم الأرض؟ وأيهما أبطأ

وأيهما أسرع إخراجاً لحرارته التي كسبها من الشمس؟ وأيهما أبطأ في ذلك. قال: الأرض أسرع قبولاً للحرارة وأسرع تملصاً منها والماء على العكس من ذلك. فقلت: هل تستنتج من هذا شيئاً؟ قال: لست مستعداً لذلك الاستنتاج في هذا المقام. فقلت: هاهنا قاعدة، كل ما كان أتم صنعاً كان أدوم وأحسن فائدة، وكل ما كان أنقص صنعاً كان أقل دواماً وأقل فائدة، فهذه الأرض لما أسرعت في قبول الحرارة أسرعت في التملص منها، وهذا الماء لما أبطأ في قبول الحرارة أبطأ في التملص منها. فالغنيّ الذي كسب المال بجده وعرق جبينه يكون غناه أتم وأدوم، والذي نال المال بلا جد يكون له مبذراً لأنه لا يعرف قيمته. انظر إلى القرع وإلى النخل، فذاك لا يثمر إلا بعد سنين، وهذا يطول ويثمر حالاً ولكنه سريع الزوال، وانظر إلى صغار الحيوان كلما كان أسرع نمواً كان أقصر أجلاً. ألا ترى أن الكلب يتم نموه في سنة ونصف ولا يزيد غالباً عن (١٢) سنة كما تقدم. وأن الحصان لا يتم نموه إلا بعد ثلاث سنين ويعيش (٢٤)سنة وهكذا. وكل هذا تقدم، وإنما نضربه هنا أمثالاً، وهذا فعل الله والفعل جميل، ولا يعرف جماله إلا بالعلم والحكمة، فأما المعرفة القولية فلا فائدة فيها. وهذا الهرم المبني في بلادنا المصرية لما كان أتم بناء كان ثباته ودوامه أتم. وهذه قاعدة مطردة. قال: قد فهمتها. فقلت: وقبل أن أرتب عليها الإجابة على ما طلبت أقول: إن هذا الاختلاف في الأحوال قد جعل لغايات شريفة. ألا ترى إلى ما تقدم في سور كثيرة أقربها ما جاء في سورة «الأحزاب» عند آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٦]، فقد وازنت هناك ما بين قول النابغة للنعمان بن المنذر:

كأنك شمس والنجوم كواكب

وما بين هذه الآية، وأن فضائل النعمان لا نسبة بينها وبين الشمس، وأن ثمرات فضائل النبوة تشبه نافع الشمس، وقد ذكرنا هناك الرياح والسحاب، وكيف كانا ناجمين من الحرارة والبرودة، وكيف كانت سرعة قبول الأرض للحرارة وضدها بطء قبول الماء للحرارة والبرودة سببين متضادين، أنتجا منافع للناس بالرياح المختلفات، فلولا هذا الاختلاف لم يكن نسيم البر ولا نسيم البحر ولا الرياح الموسمية ولا الرياح التجارية الضدية وهكذا، كل ذلك تقدم، فهذا الاختلاف هو الخير والمنفعة والسعادة للحيوان على الأرض، إذن اختلاف أحوال المادة جعل لفوائد شريفة.

إذا فهمت هذا فأقول إجابة على أسئلتك الخمسة: ما الذنوب ولا الكفر إلا أشبه بما عرفنا في الماء من أنه لا يقبل الحرارة بسرعة، فالكافر والعاصي لم يقبلا الإيمان والطاعة، لأن فطرتهما ليست سريعة القبول، فإذا أسلم الكافر بعد ذلك، وإذا أطاع العاصي بعد اقتراف الذنب وبعد الندم الشديد كان ذلك بعد جهاد ومشاق طويلة فيكون صلاحه أتم، وهذا معنى قولهم: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

وكم من متوسط الذكاء فاق من هو أذكى منه بسبب طول أناته وصبره وجده في التحصيل فيصير أرقى منه وأقدر وأقوى وأعلم. فقال: هذا حسن وقد فهمناه، ولكن ماذا تقول في العاصي إذا مات بلا توبة والكافر إذا لم يؤمن؟ فأين الحكمة إذن في ضلالهما الدائم؟ فقلت: هذا أدع الجواب

عليه الآن، فإنه من المسائل التي ليس يعقلها كل امرئ. ولتكن الإجابة عليها في وقت غير هذا، ولكني أقول لك الآن إجمالاً لا يعقل حكمة ذلك إلا حكيم قرأ العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية، فإذا لم يعلم ذلك فلا يجوز له أن يبحث في هذا لأنه فوق طاقته، وأنت تقدر على الجواب من نفسك لنفسك.

فقال: إذن نكتفي بهذا في الفصلين الأول والثاني. فقلت:

الفصل الثالث: في محاجة مؤمن آل فرعون لقومه

وملخصها ما يأتي:

(١) إن كذب الرسول واقع عليه وصدقه إن لم يطع القوم أنزل العذاب بهم، وهذه الحجة تنتج أحد أمرين: إما الاقتصار على عدم أذاه، وإما الزيادة على ذلك بإطاعته، والنتيجة التي يقصدها عدم التعرض له بالأذى.

(٢) الملك لا يدوم فإذا تعدينا على غيرنا فالله لنا بالمرصاد فمن ذا ينصرنا.

(٣) إن هناك أمماً تقدمتنا فعلوا ما فعلنا فهلكوا أفلا نخاف العاقبة.

(٤) بل هناك يوم الحساب.

(٥) أنتم قوم اعتدتم التكذيب والشك كما حصل منكم في أمر يوسف.

(٦) إن هذه الحياة كسراب بقيعة فكيف نغتر بها.

(٧) والأصنام التي تعبدونها لا قيمة لها.

(٨) ونتيجة ذلك أن الله تعالى وقاه سيئات مكرهم ووقع العذاب بالقوم.

إذن لنفصل هذا العذاب الذي حل بالأمة المصرية بعد زمن المؤمن الذي قال هذا القول من بلادنا المصرية، وهذا يعوزه ثلاث جواهر:

الجوهرة الأولى: في مجمل تاريخ قدماء المصريين وبيان أنه ثلاثة أدوار.

الجوهرة الثانية: في أن هذا الذي قاله مؤمن آل فرعون كان في الدور الثالث. وبيان سر التنزيل، إذ يقول مؤمنهم: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]، وما هو هذا البأس.

الجوهرة الثالثة: في بيان الأسباب العقلية التي سببت هذا اليأس. وكيف كان التقليد وترك العقل جانباً في أعمال الحياة وفي الدين ينتهي بموت الأمة وهلاكها. وأن هذا الدرس متى فهمه المسلمون أقلعوا عن جهلهم، لأن أكثرهم اليوم يشبهون هذه الأمة المصرية في دورها الثالث، وأن هذا التفسير هو آخر إنذار لهم وهاك بيانها.

الجوهرة الأولى

جاء في كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين ما نصه:

لمحة في تاريخ مصر القديم

ينقسم تاريخ مصر القديم باعتبار الدولة الأصلية إلى ثلاثة أدوار:

الدور الأول يشمل الدولة القديمة. والدور الثاني يشمل الدولة الوسطى. والدور الثالث يشمل الدولة الحديثة.

الدولة القديمة

تاريخ الدولة القديمة ينحصر في ثلاثة عصور: وهي العصر الصاوي، والعصر المنفي، والعصر الهراقليوبولوتيني.

(١) العصر الصاوي:

وتنحصر فيه الأسرتان الأولى والثانية، من سنة ٥٠٠٠ إلى سنة ٤٤٥٠ ق. م، وهو يبتدئ بالملك مينا رأس الفراعنة الذي جمع تحت سلطانه الوجهين البحري والقبلي. وجعل عاصمة ملكه تانيس أوطينة البربة بجوار جرجا حيث توجد قبور الملوك الأولين.

(٢) العصر المنفي:

يبتدئ من الأسرة الثالثة وينتهي إلى الأسرة الثامنة، من سنة ٤٤٥٠ إلى سنة ٣٣٥٠ ق. م، وكانت عاصمة المملكة في هذا العصر مدينة منف أو منفيس المعروفة الآن بميت رهينة الواقعة على بعد عشرين كيلو متراً جنوبي القاهرة. وكانت في ذلك الوقت محط الرحال. وكعبة الآمال. غنية بعلومها ومعارفها، متقدمة بفنونها وصناعاتها، وفي هذه المدة توسعت مصر في الفتوحات حتى استظلت برايتها بلاد سينا والنوبة والواحات، واشتهر من ملوك الأسرة الثالثة من سنة ٤٤٥٠ إلى سنة ٤٢٤٠ ق. م زوسير مشيد الهرم المدرج. وسنفرو مشيد هرمي ميدوم ودهشور. ومن ملوك الأسرة الرابعة من سنة ٤٢٤٠ إلى سنة ٣٩٥٠ ق. م خوفو وخفرع ومنقرع وهم الذين شادوا أهرام الجيزة. ومن الأسرة الخامسة من سنة ٣٩٥٠ إلى سنة ٣٧٠٠ ق. م الملوك ساحورع ونوفرارقرع وامرنرع واوناس الذين شادوا أهرام أبي صير. وشيدوا بها المعبد الشمسي. ومن ملوك الأسرة السادسة من سنة ٣٧٠٠ إلى سنة ٣٥٠٠ ق. م تيتي وبيبي الأول وبيبي الثاني ومرنرع الأول ومرنرع الثاني الذين بنوا أهرام سقارة، وقد انتهى عصر هؤلاء الأسر الثمانية بوقوع البلاد في وهدة الشقاء بسبب الاضمحلال الذي ابتدأ بالأسرة السابعة سنة ٣٥٠٠ ق. م، وأخذ يزداد في الأسرة الثامنة من سنة ٣٥٠٠ إلى سنة ٣٣٥٠ ق. م التي انقرض هذا العصر بانقراضها.

(٣) العصر الهراقليوبولوتيني:

وهو يشتمل على الدولتين: التاسعة من سنة ٣٣٥٠ إلى ٣٢٠٠ ق. م، والعاشرة من سنة ٣٢٠٠ إلى سنة ٣١٠٠ ق. م، وفي عهد هاتين الدولتين نشبت الحرب بين ملوك الوجه البحري وملوك الوجه القبلي.

الدولة الوسطى من سنة ٣٢٠٠ إلى سنة ١٦٠٠ ق.م

لما كان النصر من حظ ملوك الوجه القبلي. اهتم ملوك الانتيف ومنتحوتب وهم من الأسرة الحادية عشرة من سنة ٣١٠٠ إلى سنة ٣٠٥٠ ق. م بحفظ رونق مدينة طيبة ـــ التي من أطلالها الآن الأقصر والكرنك والقرنة ومدينة هبو ـ واتخذوها قاعدة لملكهم. وجعلوا إلههم أمون رع سيد جميع الآلهة. وفي عهد الامنحتبيين والأوسرتسيين الذين هم من ملوك الأسرة الثانية عشرة من سنة ٣٠٥٠ إلى سنة ٢٨٤٠ ق. م كانت مصر زاهية زاهرة باهية باهرة. فحافظوا على دولة طيبة الأولى، وحكموا

النوبة حتى الشلال الثاني، واحتفظوا بملك سينا، وعمروا إقليم الفيوم، وأقاموا بطيبة المعابد الضخمة والمباني الفخمة، وشادوا أهراماً بدهشور واللشته والنبوم. وبنوا قبور بني حسن والبرشة. وأقام الملك أوسرتسن الأول أمام هيكل الشمس مسلتين من حجر الصوان، إحداهما موجودة الآن في المطرية وطولها نحو العشرين متراً، وقد بنى الملك امنمحعت الثالث قصراً شرقي بركة قارون بالفيوم فيه ٣٠٠٠ غرفة وهو المعروف بالتيه المعدود من عجائب الدنيا السبعة. وفي عهد الأسرة الثالثة عشرة من سنة ٢٨٤٠ إلى سنة ٢٤٠٠ ق.م حافظت مصر على نظامها ومجدها. ثم في عهد الأسرة الرابعة عشرة من سنة ٢٤٠٩ إلى سنة ٢٢٠٠ ق.م تجزأت مصر إلى عدة حكومات. ونقلت عاصمتها إلى سخا بالوجه البحري. وتردّت بأردية التقهقر والخمول فسقطت في مهاوي الذل والهوان. حتى إنه في عهد الأسرة الخامسة عشرة من سنة ٢٢٠٠ إلى سنة ٢٠٠٠ ق.م لما هاجم مصر الهكسوس «رعاة آسيا» لم يجدوا مقاومة تذكر من المصريين فاحتلوها. ونقل المؤرخون أن الرعاة حكموا مصر ٥١١ سنة، وكان منهم فرعون يوسف الصديق.

الدولة الحديثة من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ٣٤٠ ق.م

وهي دولة طيبة الثانية من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٣٨٠ ق.م

انضم أموزيس أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلى أمراء الأسر الملكية المصرية القاطنين بالوجه القبلي بعد أن أخرج الرعاة إلى آسيا، وتوسع في الفتوحات حتى بلغ ملكه نهر الفرات شمالاً. وإلى النيل الأزرق جنوباً. واهتمت هذه الأسرة بالمباني ومظاهر العمران.

وفي زمن الأسرة ١٩ من سنة ١٣٨٠ إلى سنة ١٢٢٠ ق.م التي كان ملوكها رعمسيس الأول وسيتي الأول ورعمسيس الثاني ومنفتاح؛ احتفظوا بملك فلسطين وسوريا القبلية، واستمرت بلاد آسيا والسودان تابعة لمصر حتى آخر عهدهم. ثم استقلت بعدهم حين ضعف نفوذ الملوك وسقطت سطوتهم بينما كان كهنة أمون قد أحرزوا الجاه الواسع والثروة من الهدايا والتحف التي كان يقدمها هؤلاء الملوك إلى المعابد. فيأخذونها غنيمة باردة. وبسبب هذه الثروة الواسعة صار لهم النفوذ. وقويت كلمتهم. واشتدت شوكتهم، ولم يزالوا يمهدون الأمور حتى تولوا الحكم وخلص الملك منهم.

العهد الصاوي

من سنة ٧٢٠ إلى سنة ٣٤٠ ق.م

في هذا العهد كانت مصر في حاجة شديدة إلى الوئام والوفاق لاتقاء شر الدول المتغلبة ومقاومة الأمم التي كانت استولت عليها. لأن هذه الأمم كانت نهضت لتحريرها وخروجها من نير العبودية، ولكنها انقسمت على نفسها وفشا فيها داء التخاذل والتنافر، حتى تنقلت العواصم ما بين تانيس المعروفة بصا الحجر بمديرية الغربية وتل بسطة بمديرية الشرقية. ونتج من هذا الانقسام في مصر أن استولى الآشوريون عليها. وبهم ابتدأت الأسرة الخامسة والعشرين من سنة ٧١٥ إلى سنة ٦٦٦ ق.م.

ثم جاء الصاويون وهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين من سنة ٦٦٦ إلى سنة ٥٢٥ ق.م، فأخرجوا الآشوريين من مصر واستولوا عليها. وفي عهدهم أصاب مصر من الضعف والوهن ما

أصابها عقب حكم الملك بساميتك والملك نخاو. واستولى عليها الفرس وخضعت لهم سنة ٥٢٢ ق.م. ثم جاء النقتانبيون وهم ملوك الأسرة الثلاثين من سنة ٣٧٨ إلى سنة ٣٤٠ق.م، فنالت مصر على يدهم الحرية، ولكنها لم تلبث قليلاً حتى استولى عليها إسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق.م. وقد اتفق المؤرخون أنه من هذا العهد لم يحكم مصر واحد من بنيها. وهكذا الشأن في كل أمة يسود فيها الانقسام ويروج فيها التنافر والتخاذل، وكل نزاع نتيجة الفشل، وكل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب. انتهت الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية والثالثة

لقد علمت في الجوهرة الأولى أن أدوار هذه الأمة ثلاثة، ودورها الحديث كان من سنة ١٦٠٠ ق.م إلى سنة ٣٤٠ ق.م.

أقول: إن من أشهر ملوكهم «امنحتب الأول» من الأسرة الثامنة عشرة، و«اموزيس الأول» و«تحوتمس الثاني» من الأسرة الثامنة عشرة، و«تحوتمس الثالث» من الأسرة الثامنة عشرة، و«رعمسيس الثاني» من الأسرة التاسعة عشرة، و«رعمسيس الثالث» من الأسرة التاسعة عشرة أيضاً، وهؤلاء كانوا أعظم ملوكهم، ولكن لا بد أن نذكر أن رجال الدين زاد استيلاءهم على العقول فاستولوا على الملك، إن الرعاة الذين جاؤوا إلى مصر في دورها الثاني كانوا أجانب عنها، فكانوا يقبلون النازلين بمصر على الرحب والسعة، ومن هؤلاء إبراهيم عليه السلام لما مر بمصر، وهكذا يوسف وإخوته وهم عشرة، إنّما جاؤوا في أيام الرعاة وبقوا بمصر بعد خروجهم، فاضطهدهم المصريون، وهذا الاضطهاد حصل في هذا الدور، ولكن لا تنس أيها الذكي أن العقول في هذا الدور أخذت ترجع القهقرى، وذلك بسبب وقوف العقول وتجيدها التقليد المجرد وبعدها عن التحقيق. وهل أتاك نبأ ما مر عليك سابقاً في هذا التفسير في سورة «النمل» عند آية: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾[النمل: ٥٢]، وآية ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[النمل: ٣٤]. فهناك ترى كيف اشتركت هذه الأمة المصرية الحديثة والأمة الأندلسية في أمر واحد، وهو الوقوف على الظواهر والتقليد الأعمى والفسوق، وهكذا ذكرت لك هناك أمم العرب المتأخرة في بلاد الشام والعراق، إذ نقلت عن ابن خلدون أن هذه الأمم العربية لما كانت مستمسكة بالدين حفظت بلاد الله، ولما نبذت الدين صارت عالة على الأمم، فأزال الله ملكهم إذ ذاك.

انظر هذا المقام هناك فإنك تجد القوم من مبدأ الأسرة السادسة عشرة اتخذوا الحيوانات ـ التي كانت دالة على إبداع الخالق ورمزاً لجماله ـ معبودات عبدوها هم، وجعلوا المعبود الحق في الدرجة الثانية، فأخذوا يعبدون الطير والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب، وهناك ترى حرباً دارت بين بلدتين إحداهما عبدت السمك والثانية عبدت الكلب، فالذين لا يعبدون السمك أكلوه، فاغتاظ عباد السمك وأكلوا كلباً إغاظة في عابديه، فعقول هذا شأنها صارت أسفل من الحيوان في الأرض، بل هم أضل من الأنعام. فلماذا إذن لا يدخل البلاد الأجانب، وهناك تقرأ النبوءات التي أعلنها أنبياء المصريين بزوال ملكهم وخراب دولهم، فارجع إليه واقرأه هناك فلا سبيل لإعادته هنا.

فهذه العقول لما خربت خربت الديار . ألا ترى رعاك الله أن الجيش الفارسي لما أخذ يحارب المصريين أحضر ملكهم قططاً وجعلها صفوفاً بين الجيشين ، فتحاشى المصريون ضرب القطط لأنها آلهتهم ، مع أن أسلافهم كانوا يحترمونها لأمر واحد وهو أنها تأكل الفيران ، فأخذوا هذا التعظيم من حيث هو لا من حيث نتائجه وزادوه حتى صارت نفس القطط آلهة . وبهذه الحيلة دخل الجيش الفارسي مصر . لماذا؟ لأن تلك العقول لا تعي ، وانحطت تحت قوة الحيوان الأعجم .

هذا هو السر في قول مؤمن آل فرعون لهم : ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ ﴾[غافر : ٢٩] ، وبأس الله هو دخول الفاتحين من الآشوريين أولاً والفارسيين ثانياً والرومان ثالثاً وهكذا . وكل هذا سببه وقوف العقول على التقليد بلا روية ولا فكر . انظر لقوله : ﴿ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾[غافر : ٢٨] الخ . إذن هم لا يفكرون لأن عندهم بينات لم يفكروا فيها . إذن هم قوم مقلدون ، وبهذا التقليد دخل الفرس بلادهم لانحطاط عقولهم .

ومن العجب أن قول مؤمن آل فرعون يشابه قول «ملا كاتب جلبي» الذي ألف كتاب « كشف الظنون » في القرن الحادي عشر الهجري ، وقال في حق الدولة العثمانية التركية التي هو مستظل بظلها ناقلاً عن الشهاب الخفاجي في كتابه « الخبايا في الزوايا » يقول : إن الدولة التركية لما أفتى أحد علماء الدين بتحريم العلوم والفلسفة أخذت تنحط . ثم قال : وهذا إيذان من الله بذهاب ملك دولتنا . انتهى بالمعنى . وقد تحقق ذلك في هذه الأيام ، فدولة بني عثمان قد انحلت وذهبت كأمس الدابر . ومن عجب أنني وأنا مراهق كنت أتعلم في الجامع الأزهر ، وأرجع إلى القرى فأجد أناساً يأتون بهيئة وقار واحترام وهم من آل البيت الكرام ، ويأخذون من الناس رزقاً سنوياً ، ولهم أناس يسيرون تبعاً لهم ويبيتون عند الأغنياء ، ويذكرون ليلاً ويأخذون رزقاً من الناس يسمونه « العادة » ، ولقد بطل هذا في زماننا في بعض البلاد .

فيا عجباً . كل ذلك للجهالة الفاشية ، فالمعطي جاهل والآخذ جاهل ، كل ذلك للجهالة الحالّة بأمم الإسلام ، لا يجوز أن يكون في الأمة عاطلون ، وما أولئك الذين يعيشون من كسب غيرهم بحجة الدين إلا كذباب أو حشرات أو نباتات طفيلية ، فيجب على العلماء وعلى الأمراء أن لا يسمحوا بهذا بل يجب أن يعم التعليم ، لأن الجهل هو الذي أوحى إلى الجهال أن يتزيوا باسم الدين ويأكلوا أموال الناس بالباطل . إن شرار أمة الإسلام أولئك الذين يأكلون باسم الدين . إن كثيراً منهم يوهمون العامة أنهم يشفعون لهم عند الله في جلب الرزق والصحة ، ولهم التصرف في الأنفس ، فيصرفون عقولهم عن ربهم إلى أشخاصهم ، وإذا وجدنا المصريين في الدولة الحديثة قد جعلوا الحيوانات في الدرجة الأولى والله المعبود الحق في الدرجة الثانية ؛ فوالله إن الجهل قد أوحى بذلك فعلاً إلى جهلة المسلمين ، فما عليك إلا أن تتزيا بزي الصلاح والتقوى ، وتظهر للعامة أموراً توهمهم بها حتى يعتقدوا هذا فيك ، ولم أر حكيماً ولا عالماً في أمتنا الإسلامية يرضى بذلك ، والذي يرضى به هو الجاهل ، لأن العالم قلبه معمور بالعلم والحكمة .

أما الجاهل فلخلو نفسه من علم يدّعيه ويفرح بقول العامة إنه قطب زمانه ، كما يفرح كثير من أولئك التعساء إذا تعلموا في المدارس العالية ، ولكن الأمة تحتقرهم لفسوقهم وسوء سلوكهم ، فلا يحسون في نفوسهم بسعادة فيتلمسونها من كلام الناس ، ويسعون عند الملوك ليعطوهم ألقاب الشرف ويفرحون بقول القائل لهم : سعادة فلان وعزته ، وهو لا سعادة له ولا عزة ، لأن السعادة والعزة إن لم يحس بها القلب غير ممكنة ، اللهم إلا الرياء ، والرياء ليس سعادة بل هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الآلام فوق الآلام والشقاء فوق الشقاء ظلمات بعضها فوق بعض وعذاب أليم .

فقال صاحبي : لقد أقنعتني وفهمت الحقيقة . وأريد الآن أن تأتي بنبذة من أحوال مصر في عصرنا هذا استطراداً ، لتقارن بين وعظ الواعظين في الدولة الحديثة المصرية منذ ٣٥٠٠ سنة ، وبين وعظ الواعظين الآن ، وإنّما أردت هذا لأفرح بالموازنة بين عقلين بينهما ٣٥٠٠ سنة ، والله تعالى لم يذر أمة بلا نذير ، فكل زمان له نذير . فمؤمن آل فرعون نذير قومه . فأريد أن تصطفي عبارة أدبية ليكون ذلك من لطائف مجلسنا في تفسير هذه الآية . فقلت :

اعلم أن الأمة المصرية الآن اعتورتها الخطوب وانتابتها الصعاب وأحاطت بها الأمم من كل جانب ، فأول من أذلها في الأزمان الأخيرة الأمة التركية ، إذ جردتها من سلاح العلم وأخذت صناعها منذ ٤٠٠ سنة ، وحصرت مجموع الأمة في الزراعة ، وحذفت من البلاد بيوت العلم شيئاً فشيئاً ، حتى إذا تغلبت دول أوروبا على بعض بلاد الشرق أرسلوا المبشرين فزلزلوا العقائد ، وزاد الطين بلة أن الإنجليز أزالوا أكثر آثار النهضة العلمية التي أحدثها المرحوم محمد علي باشا في القرن التاسع عشر وذهبت ورعة الدين ، وترى أكثر أكابر الأمة وعظمائها لا يحلو لهم جلوس ولا سمر إلا في المحال التي فتحها الفرنجة في نفس بلادنا ، يحتسون فيها أنواع الشراب من البيرة والخمر والشمبانيا ، وأكثر المتعلمين لا عمل لهم إلا أن يكونوا في مناصب الحكومة ، لأن التعليم تعليم لفظي لم يخالط بشاشة القلوب ولم يحرك اليدين للعمل . فهل لك أن تقرأ ذلك الخطاب الذي أرسلته أنا لمجلس النواب ولوزارة المعارف ولمجلس الشيوخ ، فاقرأه في سورة « يونس » في أولها . إذا عرفت هذا أدركت مضمون ما يكتبه الكاتبون في بلادنا ، فإن التعليم إذا كان لفظياً لا يملأ القلوب روعة ، وظاهرياً مخلوطاً بالزيغ والإلحاد ، فإن نتائجه أن لا يكون بعض أهل الحل والعقد في البلاد إلا ممن لا يرقبون في الله لومة لائم ، ولا يقيمون العدل إلا قليلاً ، ولا يعملون عملاً صالحاً إلا رياء . أما مراقبة النفس والعمل للمصلحة العامة فذلك قليل . ومما زاد الطين بلة أن المحاماة في البلاد أصبحت من أهم الحرف والصناعات . ومبنى المحاماة أمام القضاة إنّما يكون على أساس الخداع والغش وقلب الحقائق . وبعض هؤلاء يتولون القضاء ثم يصيرون وزراء وحكاماً . وقد يكون الرجل منهم سيئ السيرة مخموراً مشتهراً بذلك بين معاصريه . ثم يتولى الرئاسة وهو مغضوب عليه ، فلا يقيم وزناً للحق ولا للمروءة قسطاساً . والحق الذي لا محيص عنه أن الجهال أصفى نفوساً وأصح إيماناً وأنقى عقائد من بعض هؤلاء الذين لا يتقون ولا هم يذّكّرون .

إذا عرفت هذا أدركت ما يرمي إليه الكتاب في زماننا الحاضر. فهذه هي الأصول التي تتفرع عليها فروع الكتابة المتشعبة في زماننا، فإذا كانت نصيحة رجل من آل فرعون في البلاد المصرية على هذا الأسلوب المذكور في الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها، فهذه هي الأصول التي يدور عليها محور الإرشاد في أيامنا مضافاً إليها ما منيت به الأمة من تهتك النساء والتبرج المزري والتقليد الضار والسير على نهج لا رأي فيه ولا هدى ولا كتاب منير. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

هذا مجموع ما يقال على أمتنا المصرية من حيث العموم. وقد آن أن أبحث معك أيها الذكي في أمر خاص، وهو أن هذه الأمة اليوم غير الأمة أيام مؤمن آل فرعون. هذه الأمة اليوم عربية بحتة، نعم فيها أقوام من نسل آل فرعون، ولكن أكثرهم أسلموا، ثم الذين بقوا على دين النصرانية لا يتكلمون إلا بالعربية، وأبناؤهم يتعلمونها ويقرؤون آداب العرب وأشعارهم وعلومهم، وغالب الأمة مسلمون والقليل جداً هم القبط. وإذا كانت عربية فلها اتصال بأهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وأهل السودان وسوريا وفلسطين وشرقي الأردن ونجد واليمن والحجاز وبلاد العراق والموصل. ولكن أصابها الترك فمزقوها في قرون مضت حتى فرقوا أوصالها ومزقوا أحشاءها. وعلموهم كيف يتدبرون. وأفهموهم كيف يكونون جاهلين، فمهدوا بذلك للدول الثلاث هم: فرنسا وإنكلترا وإيطاليا، هذه الدول الثلاث هم الذين اقتسموا أبناء العرب وعلموهم كيف يجهلون وينامون، وقالوا لهم: أنتم وطنيون فليس لكل منكم إلا وطنه. فأهل أوروبا كلهم يفتخرون بأنهم نصارى وعلى دين واحد. ويقولون لأبناء العرب: دعوا صلة الدين وتفرقوا بالوطنية.

ولما كان المصريون هم الذين اختص بهم هذا المقال أردت أن أذكر هنا رسالة شاب نابغة تعلم في مصر وألمانيا، وكان من تلاميذي بالمدرسة الخديوية، وله بي صلة، وهو رئيس تحرير مجلة «الشبان المسلمين»، وهو الذي اخترت أن أكتب رسالته في نصيحة المصريين أن يتعاونوا مع إخوانهم العرب والمسلمين عموماً، لتدرك أيها الذكي الفرق بين النصائح المذكورة في القرآن من مؤمن آل فرعون في بلادنا أيام الفراعنة وبين نصيحة الشاب المصري، وكيف كان مؤمن آل فرعون يذكر قومه بربهم وعظمته، ويدلهم على صدق رسالة موسى عليه السلام بمعجزاته، وأن عظمة الملك لا دوام لها، وأن الله بالمرصاد للظالمين، وكيف أظهر فرعون العظمة واستبد بالأمر، وكيف حذر المؤمن قومه من غضب الله عليهم كما غضب على الظلمة من الأمم السابقة في الدنيا والآخرة، وكيف عيرهم بالتمادي في الإنكار. وكيف حقر أمر الأصنام وأنها لا تعقل. وكيف فوّض أمره إلى الله تعالى. وكيف وقاه الله مكر القوم.

فإذا وازنا هذه النصائح بنصائح كتابنا كما ستراه في هذه المقالة التي اخترناها؛ ألفينا صديقنا يحيى الدردير يذكر العرب عموماً والمصريين خصوصاً بتاريخ أممهم، وأنهم إن جهلوا هلكوا. وذكرهم بالأخلاق الفاضلة والعمل بالدين. وأراهم أن فصل تعاليم الدين عن التعاليم الوطنية مهلك للأمة. وأن المصريين القدماء قبل إلحادهم وكفرهم كانوا أمة موحدة. وأوصاهم بالتحالف مع إخوانهم في العراق ونجد واليمن والشام وشمال أفريقيا.

إذن النصائح اليوم في مصر متجهة إلى الدين أولاً، وتصحيح العقيدة كنصيحة مؤمن آل فرعون. ولكن هناك زادت أمراً جديداً وهو الجامعة العربية. فهاك نص المقالة المذكورة:

النعرة القومية والفكرة الإسلامية

قامت في هذه الأيام ضجة حول مبدأ التمسك بالوطنية وترك ما عداها. وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار: «الدين لله والوطن للجميع»، فقال المصريون منهم: نحن مصريون فرعونيون قبل كل شيء. وقال بعض السوريين: نحن فينيقيون. وقال بعض العراقيين: نحن كلدانيون. وقس على ذلك. تريد كل فئة أن تتمسك بمجدها التالد، وتحتبس في حدودها غير ناظرة إلى ما يهددها من المخاطر من جراء عزلتها التي تجعلها فريسة سائغة لكل مستعمر قوي مغتال.

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه، لأن ماضي الأمة يلعب دوراً كبيراً في حاضرها ومستقبلها، ولا يمكننا أن نتناسى الماضي، لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه. وهو الذي يكوّن روح الأمة وشكلها. ولذلك كلما كانت الأمة عريقة في المدنية وذات مبادئ حقة كان نسلها ذا استعداد طبعي لكل تقدم ورقي. قال الدكتور جستاف لوبون: حظ الشعب متوقف على ما يعتقده أنه الحق. وإن التطورات الاجتماعية وتأسيس أو هدم الممالك وتقدم أو انحطاط المدنية ناتجة عن قليل من العقائد التي تنزل من النفوس منزلة الحقائق، وهي تمثل مسايرة الشعب الوراثية وفقاً لحوادث الدهر.

إن من أخطر الغلطات في العصر الحاضر ترك الماضي، وعدم الاعتراف به، وكيف يمكن ذلك؟ إن ظل الأسلاف يحكم أرواحنا، وهو يكوّن الجزء الأكبر منا، كما عليه ينسج القدر حظنا، وأن حياة الموتى أكثر بقاء من حياة الأحياء. لا يمكن لأي مدنية أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المتعلمين، أو بالأحرى بدون مبادئ عامة قوية. لأن قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هي الآن المحرك الحقيقي للعالم.

معرفة الماضي يجب أن تكون أداة لإذكاء روح الحمية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال، وهنا حدود الوطنية البريئة. ولكن لا يجوز أن تتعداها إلى الصلف والكبرياء والعزلة والاغترار بالنفس وعدم الاعتراف للغير بفضائله ومحاسنه، فهذا هو الطيش والحمق.

قامت في مصر الفكرة القومية أو الدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول، وهي تحرير الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة في أيدي أبنائها، وأن يكون اعتماد الأفراد على أنفسهم في سبيل تحرير بلادهم. وقد وصف الزعيم الأول للنهضة المصرية مصطفى كامل ما يجب على كل وطني عمله. فقال: إن الأمم لا تنهض إلا بنفسها، ولا تسترد استقلالها إلا بمجهودها وأن الشعب كالفرد لا يكون آمناً على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعاً لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة. إن قانون الحاكم في معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم. فإن رآهم أمواتاً في أزياء أحياء يقولون ما لا يعتقدون، ويطلبون من الإصلاح كما يطلب السائل الإحسان. لا كما يطلب صاحب الحق حقه استبد فيهم وسخرهم لسلطته كما تسخر الأنعام.

على مثل هذه المبادئ السليمة قامت الدعوة الوطنية الشريفة. ولقيت من الأمة المصرية آذاناً صاغية وقلوباً واعية. وأصبحت حرية البلاد واستقلالها عقيدة قوية لا يصح التهاون فيها. وهي كما

قال مصطفى كامل: إذا صح التسامح في بعض الأمور وفي ظروف معينة؛ فإن التسامح في الوطنية إعدام لها وقضاء عليها. وإن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان. وقال أيضاً: إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنّما يريدون أن تموت روح الوطنية في مصر، أي: تموت الأمة المصرية، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب.

الوطنية الصحيحة لا تقوم إلا على الأخلاق الفاضلة، وهذه بدورها تستمد قوتها من الدين الحنيف. وتاريخ مصر قديمه وحديثه شاهد على ما نقول، ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء في المدارس، لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضي، ويلقون في روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى، ومحاربة الدين الإسلامي على الخصوص لأنه يبعث في نفوس النشء الإسلامي الاحتفاظ بالكرامة ومبادئ الحرية والشجاعة، وهذا ما لا يتفق مع سياسة المستعمر الغاصب في إخضاع الأمم الإسلامية وإذلالها.

فالذين يدعون إلى الوطنية وترك الدين جانباً إنّما يدعون إلى قضية محققة الخسران. لأنهم يدعون إلى مبادئ لا روح فيها ولا حياة. إذ كيف يكون حال نشء في الوطنية وهو خلو من مبادئ الفضيلة ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن؟ هؤلاء لا تكون لهم إلا سياسة واحدة وهي سياسة المنافع وجر المغانم. أو بعبارة أخرى: سياسة الهوى، وهي سياسة مقضي عليها بالفشل. وقد قال لامارتين بحق: إن ضميراً خالياً من الله كالمحكمة الخالية من القاضي.

إن تاريخ مصر القديم والحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لا تنفصل، بل هما بمثابة الروح والجسد في عالم الحياة. جاء في مجلة «علم الآثار» المصرية في الجزء الأول والمجلد الثاني ص ٣٧ للأستاذ العالم «رفيو»: الدين كان له القدح المعلى والمكانة الأولى في نفوس قدماء المصريين الورعة، وإليه يرجع الفضل في كراهة الأجانب الغاصبين، وتوحيد القوى الوطنية التي بها أمكنهم أن يطردوا الهكسوس ومن بعدهم الآشوريين. ويشهد المؤرخ اليوناني «هردت» وقد زار مصر في عهد العجم أن هؤلاء المغلوبين «المصريين» كانوا يبغضون الغاصب ويحتقرونه بما كانوا يبدونه من مقاطعته وقطع كل صلة مع الغاصبين. فلا يجلسون معهم على مائدة ولا يأكلون معهم.

إذا تتبعنا سيرة الحياة المعنوية لروح الأمة المصرية في أطوارها نراها روحاً إسلامية بحتة، سواء في عهد الفراعنة أو غيره، لأن روحها روح التوحيد، وقد تأصل في قرارة نفسها بالرغم مما طرأ عليها من صروف الحدثان والمظاهر الكثيرة التي أوّلوها في كثير من الأحيان على غير وجهها الصحيح. قال المؤرخ الشهير «شمبليون فيجياك»: قد استنبطنا من جميع ما هو مدون على الآثار صحة ما قاله المؤرخ «جامبليك» وغيره، من أن المصريين كانوا أمة موحدة لا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيئاً. غير أنهم أظهروا صفاته العلية إلى العيان مشخصة في بعض المحسوسات. وأنهم لما غرقوا في بحر التوحيد علموا أبدية الروح، وأيقنوا بالحساب والعقاب. ولا عبرة بما قاله بعض مؤرخي الأجانب الذين حضروا محافل المصريين الدينية وشاهدوا بها كثرة تماثيلهم الرمزية. وأنهم لجهلهم للغتهم وبحقيقة

عبادتهم حملوا الأمور على ظاهرها . وحكموا عليهم بالكفر والإلحاد مع أنهم لم يفهموا منها المراد .
فكأنهم دخلوا بقول الشاعر :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

راجع كتاب الأثر الجليل لقدماء وادي النيل لأحمد بك نجيب ١٢٣ . وقال العلامة « مسبرو » : من تأمل في الآثار الباقية إلى الآن بالديار المصرية واللوحات الدينية المنقوشة بالهياكل وما على الورق البردي هالته كثرة هذه الآلهة المصورة عليها ، حتى يظن أن مصر كانت مسكونة بهؤلاء الآلهة ، وأن أهلها ما خلقوا إلا لعبادتها . وسبب ذلك أن المصريين كانوا أمة مخلصة في العبادة إما بالفطرة أو بالتلقين أو بالتعليم . فكانوا يرون الله في كل مكان فهامت قلوبهم في محبته ، والجذبت أفئدتهم إليه ، واشتغلت أفكارهم به ، ولازم لسانهم ذكره وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله ، حتى صار أغلبها صحفاً دينية .

كانوا يقولون : إنه واحد لا شريك له كامل في ذاته وصفاته وأفعاله ، موصوف بالعلم والفهم ، لا تحيط به الظنون ، منزه عن الكيف ، قائم بالوحدانية بذاته ، لا تغيره الأزمان . ثم عددوا صفاته العلية وميزوها بالأسماء واشتقوا منها نعوتاً شخصوها في المحسوسات . وكل شيء نافع . وجميعها ترجع إليه . ولأجل التمييز جعلوا لكل اسم تمثالاً . فانتشرت هي وما اشتق منها حتى ملأت المدن والبلاد .

إن الساعة التي تسرب فيها الإلحاد والشرك إلى العقيدة المصرية كان ذلك نذير زوال مجد مصر . إذا عرفنا أن تاريخ مصر يربط عقيدتهم الدينية قديماً وحديثاً بالله عز وجل ، وأنه تعالى يجب أن يكون قصدهم متبعين أوامره منتهين عن نواهيه ، فالإسلام عندي هو الدستور الطبيعي الذي يوصلهم إلى غاياتهم السامية ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت : ٣٣] .

الدين الإسلامي الحنيف لم يبخس الوطنية حقها ، بل جعل حب الوطن من الإيمان . وأن تحرير الأوطان لا يكون إلا بالدأب على العمل المنتج ، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾[التوبة : ١٠٥] . وأن الثمر متوقف على بذل الجهد ، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم : ٣٩] . فلماذا إذن نحيد عن هذا الطريق المستقيم الذي يقودنا إلى سعادة الدنيا بالعمل الصالح المنتج ، وإلى سعادة الآخرة بمعرفة الله عز وجل ؟ .

لقد أعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها الصحيح وأذاعوها من أن المصريين هم فرعونيون غير عرب . وأن واجب المصريين أن يشتغلوا بشؤونهم دون سواهم . إما أن يشتغل المصريون بشؤونهم أولاً فهذا ما يقره عليهم الإسلام حسب قاعدة : ابدأ بنفسك ثم بمن تعول . وإما أن يتعزلوا عن بقية الأمم الإسلامية المجاورة لهم ، فهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة المصريين ولا مع مبادئ الإسلام السليمة . ونحن في عهد تحالف واتفاقات دولية أصبحت إحدى وسائل القوة والمنعة ، ومن عاش منفرداً في هذا الزمن عرض نفسه إلى السلب والقهر .

إن الدعوة القومية المصرية التي ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الإسلامية إنّما أرادوا بها انتحار مصر الأدبي .

أريد أن أهمس في أذن هؤلاء النفر الناعر بالقومية الفرعونية. وأنا مصري صميم مسلم موحد: إذا كان حقاً ما تدعون من الاعتزاز بالمصرية بالفرعونية هل غاب عنكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتصل بكم في جدته العليا هاجر المصرية أم إسماعيل عليه السلام وهو أبو العرب المستعربة، وأن خاتم الرسل عليه السلام تزوج منكم مارية القبطية. فنحن نتصل بالعرب بصلة الرحم والنسب، فهم أقرباؤنا وجيراننا، وهم أولى الناس بمحبتنا وعطفنا ومساعدتنا. إن دعوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يجب أن لا تؤيد من ناحية المسلمين المصريين فحسب، بل من ناحية المصريين كافة مسيحيين وغير مسيحيين أيضاً، حسب الأصول المتبعة في الدفاع عن حق القرابة والنسب والجوار.

يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لا نضل الطريق السوي فنهلك. إن الله جل شأنه هو الذي اختار رسوله الأمين محمداً صلى الله عليه وسلم ليبلغ دينه للناس كافة، فالدين الإسلامي هو دين للجميع لا دين عرب أو عجم، وإن من أكبر قواعده الديمقراطية أنه لم يجعل الفضل للجنسية بل جعله للعمل الصالح المنتج، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الناس أنفعهم للناس».

الإسلام هو الدستور البشري السليم الذي يعطي كل ذي حق حقه ولا يبخس الناس أشياءهم وإن اشتغال المصريين بمسألة القومية والدفاع عن حريتهم واستقلالهم لا يمنعهم بأي حال من الأحوال من العطف على الأمم الإسلامية ومساعدتهم حسب ما في قدرتهم، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

نحن نرتبط مع جيراننا من الأمم الإسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين. فيجب أن نحرص عليهما أشد الحرص، وتعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلائق الاقتصادية والاجتماعية بيننا وبين الأمم الشرقية كافة والإسلامية منها خاصة، ونحن في عصر التحالف الذي لا تستطيع أمة أن تنفرد فيه بنفسها. فالممالك الكبيرة تتحالف بالرغم مما يملكه كل منها من وسائل القوة، كمحالفة إنكلترا لفرنسا مثلاً، وكذلك الممالك الصغيرة، فقد قام التحالف الصغير يضم بولونيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبعض بلاد البلقان، وقامت تركيا تتحالف مع جاراتها العجم وروسيا.

إن مصر من العالم الإسلامي القلب النابض والرأس المفكر، وفلسطين وسوريا والعراق وبلاد العرب والعجم والهند والصين الساعد الأيمن، وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وما يليها الساعد الأيسر، فيجب أن لا يشغل مصر حالها عن أحوال جيرانها، فإنهم حصونها الطبيعية المكينة، وإن كل عدوان على أي بلد إسلامي نعتبره معشر المصريين عدواناً علينا في الصميم.

يجب أن نحذر سياسة الغاصبين المستعمرين، وهي سياسة التمزيق والتفريق وقيام الحوائل الجنسية والقومية بين المسلمين والشرقيين، ليشتغل كل منهم بنفسه فيدوم لهم إذلالهم وخضوعهم.

إن عمل كل أمة شرقية كانت أو إسلامية لرد حريتها واستقلالها لا يمنعها بأي حال من الاشتراك مع جاراتها المظلومة في رفع الصوت عالياً بالاحتجاج، وبذل ما يمكن بذله لمعونتها الأدبية

والمادية لرفع ما حاق بها، « والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه »، و ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨] . انتهى كلامه. وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثالث في محاجة مؤمن آل فرعون لقومه وجواهره الثلاث. والحمد لله رب العالمين.

وقبل الشروع في الفصل الرابع الآتي قريباً نذكر ما فتح الله به عند طبع هذه الآيات، وهاهو ذا:

نور العلم في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء في قوله تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[غافر: ٥٥]

كتبت ليلة السبت ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠

بينما أنا أصلي في هذه الليلة صلاة الوتر في الساعة الثانية بعد نصف الليل وأنا أقول في الركوع: « سبحان ربي العظيم » وأكررها من ثلاث إلى إحدى عشرة؛ خطر لي أن هذه السورة التي تطبع الآن مبدوءة بغفران الذنوب وقبول التوب. ثم ذكر فيها أن حملة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض. وأتبع ذلك بأحوال الكافرين وعذابهم. وضرب مثلاً لذلك بكفر بني إسرائيل. وأتبعه بذكر مؤمن آل فرعون. ثم لخص الموضوع كله بأن موسى أوتي الهدى والذكرى. وأتبع ذلك بأمر نبينا صلى الله عليه وسلم بالصبر والاستغفار والتسبيح والتحميد. وهذا التسبيح والتحميد والاستغفار هي التي صدرت من حاملي العرش ومن حوله فيما تقدم. ففي أول السورة أن تنزيل الكتاب من الله، وأنه غافر الذنب وقابل التوب، وإذا استغفر الملائكة فإنّما يستغفرون للمؤمنين لا لأنفسهم، لأنهم ليسوا في أجسام مادية كأجسامنا حتى يستغفروا لذنوبهم، بل استغفارهم لأجل أهل الأرض. ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يستغفر لذنبه هو أولاً. ولا جرم أن الله قابل التوب كما هو مذكور في أول السورة. ومتى خلصت نفس الإنسان من الذنب وسبح ربه وحمده، ولا جرم أن التسبيح والتحميد هما ملخص الحكمة المخبوءة في هذه الدنيا وفي الآخرة.

يا الله، عجبت لصلاتنا كيف أمرنا بالتسبيح وأمرنا بالتحميد. نكررهما صباحاً ومساء، نقول: « سبحان ربي العظيم » في الركوع. ونقول: « سبحان ربي الأعلى » في السجود. ونسمعك تقول لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾[غافر: ٥٥] الخ، ونسمعك تقول: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٧٤]، ونسمعك تقول: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[الأعلى: ١]، ونسمعه صلى الله عليه وسلم يقول: « اجعلوا هذه في ركوعكم واجعلوا هذه في سجودكم »، فجعلناهما كما أمر. فنحن الآن نسبح كما أمرنا ونستغفر كما يستغفر نبينا صلى الله عليه وسلم، والخلف يتبعون السلف في هذه الثلاثة. ثم إننا نعلم أن نبينا صلى الله عليه وسلم معصوم من الذنوب فكيف يستغفر لذنبه؟ والملائكة لما كانوا في عالم لا مادة فيه كان استغفارهم لمنافع غيرهم شفقة على الذين آمنوا. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم استغفر لذنبه هو نفسه، فأين هذا الذنب وهو معصوم؟ وهو كما استغفر لذنبه استغفر للمؤمنين كما تفعل الملائكة، فهو ذو استغفارين: استغفار لنفسه واستغفار لغيره. أما الملائكة فلا يستغفرون إلا لغيرهم لأنهم لا يقعون في معصية، ولكنك تقول له: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[محمد: ١٩] . هذا ما خطر لي في الصلاة.

الجواب: ولقد فتح الله عز وجل بما يشرح الصدر في هذا المقام. فلأجعل الكلام في ثلاث مناهج: في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لذنبه. وفي تسبيحه. وفي حمده. فأقول:

اعلم أن الذنب على قسمين: ذنب هو فعل، وبيانه أن هذه الطبيعة البشرية الممتزجة بالمواد الأرضية والمائية والهوائية معدّة للذنوب، ولا ذنوب إلا ما كان من الانحراف عن الاعتدال في حال من أحوال النفس، والذنب لا يصدر إلا عن هيئة في النفس تكون نتيجتها المخالفات والشرور. فهذه الهيئة التي في النفس والصفة القائمة بها والميل الذي اتصفت به هو المصدر، وأما الفعل فهو كما يكون من آحاد الذنوب. مثال ذلك: صبي عاش بين قوم لصوص فاكتسبت نفسه تلك الصفة وأشرب حبها. فهذه الصفة هي المصدر الذي عنه تصدر أفعال اللصوصية. فإذا لم تكن الصفة في النفس فلن يكون الفعل. فكل سرقة بالفعل تكتب ذنباً على العبد، ولكن لولا ذلك المصدر وهي الصفة القائمة بالذنب بسبب المعاينة واستحسان هذا الفعل من الأهل والأقارب ما صدر ذلك الفعل. هذا معنى المصدر ومعنى الفعل. والاستغفار من الذنب يتبادر إلى الذهن أنه راجع إلى الفعل لا إلى المصدر.

ولا جرم أن محو المصدر القائم بالنفس والهيئة الشريرة فيها أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً. وإذا استغفر الإنسان وطلب من ربه غفران ذنب من ذنوبه الشهوية والغضبية كشرب الخمر أو الظلم مثلاً مع بقاء الصفة في النفس؛ كما فعل شيئاً عظيماً، ولو أنه طلب من الله أن يزيل ذلك الميل من قلبه لكان خيراً له، واستغفار النبي صلى الله عليه وسلم لذنبه راجع للمصدر لا للفعل، إذ لا فعل، وذلك من باب تسمية الذنب باسم المسبب، وهذا في علم المعاني مجاز مرسل علاقته المسببية كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: عنباً. فكما يقال: عصرت خمراً، أي: عنباً؛ هكذا يقال: استغفرت من ذنبي، أي: طلبت من الله أن يديم لي عدم الصفة التي هي مصدر للذنوب، كما نقول في الصلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: أدم هدايتنا. إذن قد حلت مشكلة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وحلت مشكلة: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢]، ومعنى هذا: ليديم لك ذلك الغفران. وقوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] معناه: أن لا يكون هناك مصدر للذنب أصلاً. فهذه الجملة ترجع إلى عدم تلك الصفة التي يصدر عنها الذنب. ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١]، ورتب على هذا الفتح المغفرة، أي: زوال ذلك المصدر، أي: الميل والصفة التي بسببها تكون آحاد الذنوب، أي: رتب على الفتح دوام تلك الطهارة التي عبر عنها في بعض الروايات بأن صدره شق وأخرج منه حظ الشيطان. فهذا هو المصدر الذي تنشأ منه الذنوب. ولا جرم أن من صفت نفسه هذا الصفاء تكون نفسه على تمام الاستعداد للمعرفة والعلم والوقوف على الحقائق. ومن نتائج العلم العمل. ومن نتائج الأعمال فتوح البلدان لينتشر الإسلام. وكما أن للذنب مصدراً هو المقصود من الاستغفار؛ هكذا لفتوح البلدان ونشر الإسلام في الكرة الأرضية مصدر هو امتلاء النفس بالحكمة والعلم، إذ القلب المقفل لا سلطان له على قلب الغافل، فإذا عمر القلب بالعلم كان له تأثير على الجاهلين فيتعلمون ويعلمون. إذن لا فتح للبلدان إلا بعد فتح القلوب، ولا انتشار للإسلام إلا بعد أن كان الداعي لذلك الانتشار معموراً قلبه

بالعلم الذي يؤثر به على سامعيه، ولو كان علمه كعلم الفلاسفة أو علم العلماء لكان مثلهم، فتكون آثاره محدودة كآثارهم. إذن هناك فتوح أعلى، وأن النفس تستمد من العوالم القدسية، وتشاهد الملك والملائكة، وهو لا يعطينا إلا ما يناسبنا. ولولا أنه يحس في نفسه بالمشاهدة والقرب لذلك المقام الأقدس ما أطاعته هذه الأمم في حياته وبعد موته، إذن الغفران يرجع لمصدر الذنب، والفتح يرجع لمصدره، وهي علوّ نفسه صلى الله عليه وسلم والفتوح العلمي. وكما يلزم من انعدام مصدر الذنب ودوام ذلك الانعدام من النفس انعدام نفس الذنب؛ هكذا يلزم من الفتوح بالمشاهدة والقرب بالعلوم والمعارف المستمد من ذلك الجناب القدسي ظهور الآثار في المؤمنين بفتح البلدان وانتشار الإسلام، وكما أن الاستغفار موجهاً إلى مصدر الذنب فيدوم عدمه؛ هكذا الفتوح راجع إلى مصدر فتوح البلدان، وهو فتوح العلوم، ويلزم من ذلك فتوح البلدان الذي هو إحدى نتائج الفتح العلمي.

وإذا روى البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[الفتح: ١] لما دخل مكة وقد ظهرت عليه هيئة السرور؛ فليس ذلك لهذه الظواهر وحدها. كلا، بل ذلك لمصدرها وهو الفتح الحقيقي لنفسه صلى الله عليه وسلم بالعلوم والمعارف وفرحه بربه، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا» الخ. والحديث مذكور في أول سورة «الأنفال» وقد ظهرت أسرار هذا الحديث بذل الأمم العربية التي فتحت تلك البلاد، وظهرت آثار خوفه صلى الله عليه وسلم على أمته فعلاً في زماننا وقبله. إذن فتوح البلدان وإن كان لانتشار الإسلام فيه الخير والشر، فالخير للصحابة والتابعين ومن نحا نحوهم، لما عمروا أرض الله، والشر لمن بعدهم، وقد لحقنا نحن وأصبحنا اليوم تحت ضغط أمم أوروبا، لأنا لن نقم بحق الفتح. إذن فتح البلدان فيه الخير وفيه الشر كما أخبر صلى الله عليه وسلم وظهرت آثاره فينا. إذن مصدر الفتح هو الذي فرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ يقرأ سورة «الفتح» عند الكعبة يوم الفتح، وكان قلبه مفعماً بالسرور لذلك، وكيف يفرح بفتح البلدان الظاهري وهو يظهر خوفه علينا من ذلك الفتوح، ويقول إن أكثر خوفه علينا من ذلك كما في الحديث الصحيح. إذن الفتح راجع لانكشاف الحقائق العلمية التي لا يخاف من زوالها، وهي السعادة التي لا نهاية لها، إذ لا سعادة لهذا الإنسان كله إلا بالاطلاع على الحقائق، وكل ما يصيبنا في الحياة قصد به أن يكون مهمازاً نساق به إلى العلم، وهو تمام النعمة وهو النصر العزيز.

إن ترتب الهداية على كمال العلم والوقوف على الحقائق أقرب من ترتبها على فتح البلدان، لأن الهداية ألصق بالعلم، وأيضاً قد شرح الله صدره صلى الله عليه وسلم ووضع وزره عنه، ورفع ذكره، وهو لا يزال في مكة قبل فتح مكة وقبل صلح الحديبية، وهو مهدي إلى الصراط المستقيم قبل ذلك، فكيف يترتب عليه الهداية! إن الفتوح فتوح العلم، وبالعلم جمع القوم وبالعلم فازوا.

وهذا له نظير في لفظ الغنى، فلفظ الغنى يكتفي هذا النوع الإنساني منه بظاهره وهو كثرة المال، والنوع الإنساني أكثره مخطئ في ذلك، لأنه ظن أن امتلاء خزائنه بالمال سعادة له، وهو وهم باطل، إذ لا سعادة إلا بغنى النفس، وكلما أوغل الإنسان في حوز المال توغلت نفسه في الطمع والحرص، فيزيد

ذلة ومهانة. فالغنى الحقيقي النفسي هو السعادة كالفتح الحقيقي والغفران الحقيقي. وكما أنه لا يلزم من غفران آحاد الذنوب زوال مصدرها الذي شرحناه، هكذا لا يلزم من فتوح البلدان المعروف بين الأمم الفتوح العلمي، بدليل أن القواد الحربيين يفتحون المدن وهم لا يعلمون إلا فن الحرب. وكما أنه يلزم من غفران مصدر الذنوب المتقدم ذكره عدم نفس الذنوب بتاتاً؛ هكذا يلزم من الفتح العلمي المذكور الفتح الإسلامي للبلاد في الأرض.

هذه مبادئ السر في هذه الآية: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[غافر: ٥٥]، وآية: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[الفتح: ١] الخ، والفتح بالمشاهدة يترتب عليه دوام زوال مصدر الذنوب ودوام النصر وتمام النعمة. هذا ما فتح الله به في هذا المقام، وتم الكلام عليه كتابة حوالي الساعة الثالثة بعد نصف الليل. وهذا هو المنهج الأول في الاستغفار.

المنهج الثاني والثالث: في التسبيح والتحميد

لقد قدمت لك أن الذي حفزني إلى كتابة هذا الموضوع هو أنني في الركوع كنت أقول: «سبحان ربي العظيم» وهناك خطرت لي هذه الخواطر، ولما رفعت رأسي من الركوع قلت: «سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، كلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا رادّ لما قضيت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ».

فما أتممت ذلك حتى جال فكري في هذه المعاني وأخذت أقول: يا سبحان الله، نحن نسبح في الركوع وفي السجود وعقب الصلوات، والنبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يسبح ويحمد بالعشيّ والإبكار، ونحن بعد التسبيح ترانا نذكر السماوات والأرض وما بينهما وما وراءها. إذن الأمر عظيم. إذن هذه الصلاة ليست ألفاظاً فحسب. كلا، إنها متن وشرحه هذه الدنيا كلها. نحن نسبح ونحن نحمد ونستغفر. أما الاستغفار ففتح باب لصفاء القلوب، إذ العلم لا يجتمع مع الظلمة في القلب. فبقي التسبيح والتحميد، ولقد كررت معناهما في كل مناسبة في كل مقام بحسبه. ولن يغني ما أقوله في مقام عما أقوله في مقام آخر في معناهما، إذ العلم أشبه بأنواع الزرع وأنواع الطعام. ولا جرم أن اختلاف المزارع والطعوم لمقاصد وفوائد لا حصر لها. فهاهنا أقول: أكابر المسيحيين هم الذين يقفون على حقائق هذه الدنيا. وإذا درسوا نفس هذا التفسير حصلت لهم ملكة بها يقتدرون على أن يعرفوا أن شرور هذه الدنيا ونكبات الدهر ومصائب الموت والفقر والذل وكل مصيبة تحلّ بفرد أو أمة فإنّما ذلك موجه للخير العام، والخير العام موجه لخير الأفراد. وأكثر العقول الإنسانية لن تقدر على تصور ذلك، ولكن هذه هي الحقيقة التي لا يشك فيها المفكرون.

إن السعادة الحقيقية في الحب. ولا سعادة في الحب إلا إذا توجه لموجود لا يموت، وهو جميل وحكيم وله صفات بديعة. وكل ما ينسب له من الإهلاك والتدمير يحدث في القلوب خوفاً لا حباً. فأكثر أهل الأرض وقفوا عند درجة الخوف من البطش لا الخوف من انقطاع الحب. والتسبيح الحقيقي به نقف على حقيقة هذه الشرور، ومتى أدركنا سرها ـ وأن جهلنا هو الذي أفهمنا أن ذلك كله موجه

لإذلالنا وتفريق شملنا وإهانتنا وتفريق جماعتنا ـ وعرفنا الحقيقة؛ هنالك تكون السعادة، لأن تلك الذرات المقدسة كل أعمالها رحمة موجهة لنا. وهذه الرحمة لا تكمل إلا بهذه الشرور، والإيمان بهذه الأشياء حسن ولكنه لا يملأ القلب سعادة، كما يملؤها الوقوف على الحقائق. وهيهات هيهات أن يقف الإنسان على هذه الحقيقة أو يكون له بها يقين، إلا بأن يجعل حياته وقفاً على درس سائر العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها ـ وهي التي كان يظنها جهلة المتأخرين من المسلمين كفراً ـ إذا أمكنه ذلك، ويساعد العقل على الفهم الصلوات والتسبيحات، فإنها لها آثار في القلوب. وهنالك يفهم المسلمون ما يقولونه في الرفع والاعتدال كما قدمته: «لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت. ولا رادّ لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». ويفهمون أيضاً لماذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاهد المسلم على أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله. وسر التسبيح. فهم أن هذا الشر الذي هو من الله إنّما هو خير في الحقيقة. وهناك هناك يحل الحب الحقيقي من العبد لله ومعه السعادة الحقيقية. وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[المجادلة: ١١].

هذا هو الفرق بين العالم والجاهل. الجاهل أمر أن يؤمن بأن الخير والشر من الله، ووقف عند درجة الخوف من الله، وعند درجة التسبيح اللفظي، وإعظام الله تعالى إعظاماً مصحوباً بالخوف. والعارف هو الذي يعرف بعقله أن هذا الشر موجه للخير، وأن هذا الشر مكمل لذلك الخير، والخير بدونه ناقص. فهنالك يحب ربه حباً لا حدّ له ويسعد سعادة لا حدّ لها، لاسيما إذا أمدّه الله بعلوم وحكم وأفاض عليه. فهذا هو التسبيح. أما التحميد فهو معرفة جميع العلوم المذكورة من حيث جمالها وكمالها وحكمها. وهذا هو السر في ذكر التسبيح غالباً مع الحمد، لأنهما في الحقيقة بينهما صلة وهما يرجعان للعلوم. هذا ما فتح الله به كتبته عقب ورود هذا الخاطر بعد ما انتهيت من نفس الصلاة، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع: في محاجة الضعفاء والمستكبرين إذ يتحاجون في النار ونتيجة المحاجة أن الجميع في النار

إن هذه المحاجة قد ذكرت بعد نصائح المؤمن من آل فرعون لهم من باب ذكر السبب بعد المسبب. فإن آل فرعون قوم مقلدون للرؤساء. والمقلد للرؤساء بلا عقل هالك. إذن هذا من أسرار القرآن، فإنه بعد أن ذكر آل فرعون ـ وقد تبين من تاريخهم الذي ذكرناه أن عقولهم إذ ذاك قد أخذت تنحط حتى عبدوا الحيوانات، وقد ظهر ذلك ظهوراً واضحاً في آثارهم ـ أخذ يذكر المحاجة بين الضعفاء والمستكبرين في النار.

والمقصود من هذا أن الله كأنه يقول: أنا لم أذكر مؤمن آل فرعون ومحاجته مع قومه عناية بالتاريخ، كلا، وإنّما ذكرتها أشبه بمثال القاعدة المذكورة بعد، والقاعدة المذكورة بعد أن وقوف العقول هو البلاء الأكبر. وليس الاتكال على الرؤساء بنافع المرؤوسين، فإن العقول عند الجميع، وما اتكال المرؤوسين على الرؤساء إلا كالاغترار بالمسيح الدجال، فالمسيح الدجال يوهم الناس فيتبعونه

والرؤساء كذلك . إذن ما سيأتي في الفصل الخامس متمم لما في هذا الفصل ، وعلى هذا تكون الفصول الثلاثة متصلة . كل فصل مكمل للآخر ، فضلال المصريين سببه الاغترار بالرؤساء ، والمرؤوسون لا ينفعهم الاحتجاج بالرؤساء مهما أوهموهم ، وإذا كان إيهام المسيح الدجال لأتباعه وإضلال عقولهم وإظهار الأمور العجيبة لا يخلي أتباعه من العقاب على أتباعه لما لهم من العقول التي تركوها والمواهب التي أناموها ؛ فكيف يفلت الضعفاء من العقاب إذا اتبعوا رؤساءهم الذين لا يبلغون في المكر والخديعة عشر معشار المسيح الدجال؟ ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٨] ، وهذه الحجج القرآنية دامغة واضحة ، وآيات ساطعات قد ظهرت في هذا التفسير ، ليعلم المسلمون قاطبة في أنحاء الكرة الأرضية أن دين الإسلام قد أحاطت به تقاليد كاذبة وضلالات خاطئة ، ومن قرأ كتاب « الفرق بين الفرق » وعرف ما فيه من الفرق التي تبلغ نحو نيف وسبعين فرقة ، ودرسها درساً جيداً ، واطلع على بعض تلك الفرق الباقية الآن ، أدرك يقيناً أن كثيراً من تلك الآراء قد ألصقت بالدين لغرض واحد وهو الجاه والثروة والملك والرئاسة وحوز المال والتعالي والعزة والبطش .

إن هذا الكتاب ألفته للمسلمين عامة ، ولست أريد أن أوضح أكثر من هذا ، وليس عندي لهذا الداء لجميع الأمم الإسلامية إلا دواء واحد ، وهو دراسة جميع العلوم وتعميم التعليم .

الآراء الحديثة وآيات القرآن

انظر إلى ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩] واقرأ ما نقلته عن العلامة « كانت الألماني » ، فانظر كيف يقول : إن البصيرة متوقفة على التعليم ، والتعليم متوقف على البصيرة ، وهذا دور ، والدور محال . ثم أجاب عن هذا الإشكال بما ملخصه أن كل جيل من أجيال الأمة يجدّ فيما ورثه عن أسلافه ، ويزيد عليه ويسلمه لمن بعده جيلاً فجيلاً ، حتى يصل الإنسان إلى السعادة . ومما قاله أيضاً : إن العالم إذا اتبع طريقة من قبله بلا تعقل فإنه ينقص عنه ، وهكذا جيل ينقص عما قبله حتى تنزل الأمم إلى أسفل سافلين . وملخص آراء الرجل أن العلم لا يؤخذ إلا مع أدلته على شريطة أن يعرف الإنسان أصول الأشياء ، فيزيد شيئاً ويرتقي الخلف عن السلف من حسن التصرف . أما إذا لم يكن هناك إلا التقليد المحض رجعت الأمة القهقرى ، وهل في هذه الآيات إلا هذا؟ .

هذا ملخص هذه الآيات ، ومن اطلع على الشبان المسلمين في المعاهد الدينية يجد أنهم يلقنون في صغرهم أن عقولنا أضعف وهممنا أقل ، وكل جيل يأخذ عمن قبله ويكون أقل منه ؛ حتى إن أتباع الإمام الشافعي في زماننا ينظرون إلى الرملي وابن حجر بعين العظمة ، ولا يقدرون أن يفكروا في البويطي من أصحاب الشافعي فكيف إذن بالشافعي رضي الله عنه وأبي حنيفة . أما القرآن وأما الحديث وأما أحوال النبي صلى الله عليه وسلم فهذه كلها ينظر إليها نظراً تاريخياً لا غير ، أو تبركياً غالباً وهذا هو الرجوع القهقرى .

فليقرأ المسلمون جميع العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ، لتتسع عقولهم ، ويدرسوا تاريخ كل علم ليعرفوا أصولها ، ثم ليكن في كل قطر جماعة من هذه الطبقة الممتازة ، ولتكن نتائج آرائهم

موازنة في مجلس عام مع آراء المصطفين من الجماعات المختلفة، وليكن لهم مجلس عام في مكة أو في غيرها، ثم ليقرر ما يجب من الأصول المرعية للمسلمين، ولا يصح أن يتولى زعامة المسلمين أناس لم يدرسوا تلك العلوم، فوالله إنهم ليسوا أهلاً لإدارة شؤونها سواء أكانوا ملوكاً أم أمراء أم علماء. هذا هو المناسب لهذا الزمان. ولقد كتبت نظير هذا في مواضع كثيرة من هذا التفسير.

هذا هو الذي فهمته أيها الذكي من هذه الآيات. فقال: لقد أجدت صنعاً وأحسنت وأفدت فلله الحمد والمنة، ولكن لا يزال بعض الإشكال قائماً بل لا يزال بحاله. فقلت: ولماذا؟ قال: إن الرحمة تقضي أن لا يكون شيء من هذا وتكون الحياة سعادة. فقلت: هذا السؤال مكرر في هذا المقام وفي غيره، وكم أجبت عنه. فقال: نعم ولكني أريد زيادة الإيضاح. فقلت: ماذا أوضح بعد ما ذكرت لك في أول هذا المقام من مثال الماء والأرض والحرارة فيهما، وأنها في أحدهما أبطأ من الآخر، وإبطاء تصاعدها على مقدار إبطاء قبولها، فهكذا الأمم إذا تدهورت بسبب الرؤساء أو شيوخ الدين أو شيوخ الصوفية أو الجهلاء الذين هم غير كاملين، أو المستعمرين الذين يدخلون البلاد فيجعلوا الشعب أشبه بالحيوان يسخرونه. كل هذا لم يخرج عن كونه تأخيراً للرقي، وهل هذا التأخير إلا نفس إبطاء قبول الرقي، وهذا الإبطاء يجعل الرقي أدوم. إذن الدجالون والمستعمرون والشيوخ الجاهلون كل هؤلاء جعلوا في الأرض امتحاناً لعقول الأمم يؤخرون رقيهم، فإذا استيقظوا بأمثال ما نكتبه في هذا التفسير وبالآلام والإذلال فإنهم يجدّون في تثبيت مدنيتهم تثبيتاً أتم. أما إذا شربوا العلم شرباً بدون آلام ولا تأخير فقلما يدوم في أجيالهم، ولعل قدماء المصريين لم يدم ملكهم خمسة آلاف سنة إلا بعد أن قاسوا حروباً وإذلالاً آماداً طويلة.

فمثل الأمة التي يصيبها الذل بالاستعمار وبالشيوخ الجاهلين كمثل الماء فيما تقدم. وما أحسن ضرب المثل بالماء، فقد جعل مثلاً للعلم في آيات القرآن، وعلماء الطبيعة جعلوه مبدأ لارتفاع سطح الأرض، لأن سطحه منتظم، وجعلوه مقياساً يقاس به الوزن النوعي للجوامد وللغازات، بحيث يكون الحجم الذي مثل حجم الماء من الزئبق يساوي وزن الماء ١٣ مرة و٦ من عشرة، ومن الذهب ١٩ مرة وثلاثة أعشار المرة، ومن الأثير الكبريتي سبعة أعشاره لا غير. إذن هذا أخف من الماء. والهواء أخف من الماء ٧٧٣ وستة أعشار، أي أن الهواء المساوي لحجم الماء يكون أخف منه بهذا المقدار.

أقول: فإذا كان الماء قد جعل مقياساً في علم الطبيعة لوزن كل شيء وزناً نوعياً إذا كان على درجة ٤ فوق الصفر من سنتيجراد؛ وكانت هذه المعادن وغيرها على درجة الصفر منه، فهو إذن معيار عظيم، هكذا هنا هو خير معيار نجيب به عن ظواهر المظالم والجهالات، فنقول: إنها لم تفعل شيئاً أكثر من تأخير الرقيّ للأمم، وهذا التأخير لأجل الشوق لذلك الرقيّ، والشوق مثبت له. وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]. هذه هي الحكمة الإلهية في تحمل الضغط والإذلال.

وعلى المفكرين في الأمم أن يحملوها على دفع هذه المظالم ورفع هذه الأثقال عنهم، والله من ورائهم محيط. قال: لقد انشرح صدري بهذا المقال. فلنبدأ بالكلام على الفصل الخامس.

الفصل الخامس: في المسيح الدجال

فقلت: لقد ذكرت المسيح الدجال غير مرة في هذا التفسير. وكل ما أحاول أن أقوله قد مر نظيره. فقال: ولكني الآن أريد أن تشرحه شرحاً عاماً لتشرح صدري وصدور القراء، فأنا أريد أن أعرف كيف يقول صلى الله عليه وسلم في حديث أبي داود والترمذي أن الأنبياء أنذروا قومهم به، وأن نوحاً أنذر قومه به، وكيف نستعيذ بالله منه في كل صلاة، وكيف يستعيذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه في صلاته ولم يظهر في زمانه، إذن الأنبياء يستعيذون بالله ونحن والصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم من شيء لم يحصل وهذا محال. فقلت: إن الحيرة في هذا إنّما تأتي لمن يجهلون علوم اللغة العربية، فالعامة يجهلون البلاغة في كلام العرب، ولكن الأدباء وهم قوم أعطوا حظاً من علم اللغة هم الذين يفهمون أمثال هذا المقام. إن القرآن في أعلى طبقات البلاغة، وللبلاغة علم، فإذا جعلنا تفسير القرآن على يد طائفة تجهل هذه العلوم حصلت لهم الحيرة. أما نحن فلا حيرة عندنا. إن في علم البيان ـ وهو أحد علوم البلاغة الثلاثة ـ التشبيه والمجاز والكناية. والكناية بإجماع العلماء أبلغ من الحقيقة، وأي كلام أحق بالبلاغة من القرآن. قال: هذا حسن. فقلت: وما الكناية إلا لفظ له معنى، ولكن ليس المقصود هذا المعنى، بل المقصود الحقيقي معنى آخر مع أن المعنى الأول لا يزال بحاله، ويراد أيضاً من اللفظ. فإذا قال رجل للآخر: إن كلبك جبان، وكان القائل بليغاً، فإن السامع إذا كان بليغاً أيضاً؛ يفهم منه أن هذه الجملة معناها أنه كريم، لأن جبن الكلب إنّما جاء من كثرة الأضياف، فإنهم لكثرتهم لم يتحمل الكلب كثرة النباح عليهم. فهذا الممدوح من جهة كريم وهو المقصود. ومن جهة أخرى يصح أن يكون له كلب، وذلك الكلب جبان فعلاً. فهذه هي الكناية. فالمقصود فيها المعنى الذي كني باللفظ عنه. فهاهنا نقول: هذا المسيح الدجال الذي يظهر العجائب وناره جنة وجنته نار ويقتله المسيح ابن مريم له معنيان كمسألة جبان الكلب. والمعنى المشار إليه هو المقصود، والمعنى الأصلي جائز لا مانع منه.

هذا هو الذي يقتضيه علم البلاغة. وإذا لم نستعمل هذا العلم فيما خلق له وهو فهم الدين؛ أفنقتصر في استعماله على أشعار العرب ونحوها. فقال: ولكن لا بد للقرينة من كناية، فما هي القرينة هنا؟ قلت: هنا قرائن لا قرينة واحدة. بل قرائن يجب علينا أن ندرسها. فقال: وما هي؟ قلت: كيف نستعيذ من فتنة المسيح ولا فتنة له الآن؟ وهل يستعيذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء لا وجود له؟ وهل ينذر الأنبياء أقوامهم بما لا وجود له؟ فقال: إذن المستعار منه كل من كان ظاهره الصلاح وباطنه الخداع والظلم والجور. فقلت: نعم، وذلك يشمل الدجال الحقيقي متى ظهر، ويشمل كل دجال من المستعمرين للبلاد، ومن الشيوخ الجاهلين في الإسلام وغير الإسلام، فكل هؤلاء دجالون، لأن أحدهم يظهر العلم وليس بعالم، ويظهر الزهد وليس بزاهد. والأمم المستعمرة تجعل أنفسها داخلة لإصلاح البلاد إذا هي تمنع العلم عنهم.

كل هؤلاء استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منهم ونستعيذ نحن. فهم في ظواهرهم أشبه بالمسيح ابن مريم، يريدون السلام العام، وفي الحقيقة لا يريدون إلا تسخير غيرهم لهم. ولقد ابتليت

أمتنا بقوم من هؤلاء. فكثير من القائمين بالملك في الأزمان القديمة كانوا لا يريدون إلا العلو على الناس، لا أنهم يريدون الخير للأمة. نعم الصحابة رضوان الله عليهم كان لهم اجتهاد، ولكن الأمم المتأخرة كثر فيهم طلاب الملك والرئاسة. وأنت ترى آثار ذلك الدجل في الجهلة من الشيوخ الذين يحملون الأعلام ويدقون الطبول. كل ذلك آثار من آثار أسلافهم الذين كانوا يفعلون ذلك لأجل الملك. ولقد أحسن صنعاً مصطفى كمال باشا في تركيا، إذ أخرجهم فقاموا بأعمال تنفع الأمة ولم يبقوا عالة عليها، كما هو حاصل في بلاد الهند. وقد تقدم مقال مطوّل شارح للأولياء الهنود في سورة «الأحزاب» عند آية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا ﴾[الآية: ٤٥] الخ، ذكرته هناك ليعلم المسلمون أن هذه الطوائف التي جعلت الدين مصيدة سبقنا بها البراهمة فاقرأه هناك، ومستحيل أن ترتقي الشعوب الإسلامية إلا بالاطلاع الواسع حتى يزيحوا هذه الأوهام، ولم نر أمة من أمم الفرنجة دخلت بلاداً إسلامية كبلاد السودان أو بلاد شمال أفريقيا إلا اتخذت هذه الطوائف أعواناً لها. لماذا هذا؟ لأنهم إخوان شركاء في الصيد.

فالمستعمرون من أوروبا كالآساد والنمور، وهؤلاء الشيوخ كالذباب وكالحدآت، فإنها تأكل فضلات أولئك المستعمرين. ولقد أخبرت منذ أيام أن رئيس طائفة كبيرة من الصوفية ببلاد المغرب قد تزوج امرأة فرنسية. إن فرنسا تعرف كيف تؤكل الكتف. إن أوروبا ـ كما يقول غاندي مصلح الهند ـ أشد خطراً من الشيطان، وما أكذب الشيطان إذا نشر شره وهو يذكر الله. وبعبارة أخرى نقول: إن الأحاديث الواردة في الدجال يراد منها ما هو حاصل الآن فعلاً في بلاد الإسلام، حتى يقول المسلم: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»، فهذه الفتن كلها حاصلة، والمظهرون الصدق والإخلاص في العالم وهم كاذبون كثير أفراداً وأمماً. فهؤلاء الشيوخ يقولون للناس: واظبوا على الأوراد صباحاً ومساء فقط، ولكن لا يحببونهم في العلم لأن أكثرهم جهلاء، والمتعلمون منهم كالمتعلمين من أهل أوروبا يقولون: إذا تعلموا تعالوا علينا. وهذا المقام تقدم شرحه في مواضع كثيرة من هذا التفسير، مثل ما جاء في سورة «الكهف» عند آية: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الكهف: ٥١]، وفي سورة «إبراهيم» في آخرها، وفي سورة «سبأ» عند آية محاجة الضعفاء والذين استكبروا مثل ما هنا وهكذا.

فقال: لقد انشرح صدري لهذا الجواب، ولكن بقي أمر واحد وهو: كيف يقول ابن عباس: إن اليهود يتخيلون ملكاً يكون لهم على يديه، فهل هذا له أثر. فقلت: إن أمر اليهود لا يخرج عما قررناه. إنهم الآن مشتتون في كل أمة من الأمم، وهم أذكياء جداً ولهم تاريخ مشهور، فهم يحافظون على مجدهم، ولا أمة في الأرض تضارعهم في هذا، لأن التوراة قد ملئت بأخبار أسلافهم، وهم قد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا فتنة الأمم كلها، كما نقلته في هذا التفسير منقولاً عن التلمود، فلا تجد فيهم عالماً ولا حكيماً ولا سياسياً إلا وهمه موجه إلى خير أمته، وإن هلكت جميع الأمم. وأقرب شاهد على ذلك أن الذي أثار الحرب الكبرى في ألمانيا وأوروبا هم فلاسفة اليهود، فإن نتشيه يهودي، وهو الذي نشر فيها: إن الرحمة في هذه الأرض خطأ فلا يبقى إلا الأقوياء. وانتشرت آراء كثيرة في هذا

المعنى، فقامت الحرب بين الأمم كلها. ثم هم أنفسهم لما رأوا أن ألمانيا أخذت تنتصر نشروا في طول البلاد وعرضها أنها أمة متوحشة، فثارت الأمة على الحكومة، فسلمت ألمانيا لمن هم أضعف منها. وقد مضى على هذا نحو ١٣ سنة لأننا الآن في سنة ١٩٣٠ وإيقاف الحرب كان في سنة ١٩١٨، ونسمع أثناء طبع هذه السورة أن ألمانيا قامت تنفض الغبار عن وجهها، ويقول رجالها في الحزب الاشتراكي القومي فيها الذي قام الآن فعلاً: لا يبقى يهودي في البلاد. لأنه مستحيل أن يكون يهودياً وألمانيا في آن واحد. هذا هو الذي يقال فعلاً عند طبع هذه السورة. وهاهي ذه ألمانيا يقوم شبانها في هذا الأسبوع فيحطمون زجاج منازل اليهود، إن اليهود يريدون أن يجعلوا لهم السلطان على العالم كله ولو بطريق غير مباشر. ولقد أزاحوا القناع عن أمرهم أيضاً في مسألة فلسطين. فبعد الحرب التي ارتجت لها الكرة الأرضية وحصل الصلح؛ أخذ اليهود يطلبون أن تكون لهم دولة في فلسطين، وهذا من مكرهم وخداعهم. وأيضاً إن القائم بأمر البلشفية في الروسيا هم اليهود ولا ندري ما يتم في ذلك. فالعالم كله اليوم مخادع، وأكثر الناس خداعاً اليهود. ونحن نستغيث بالله من هذا الخداع.

وعلينا أن نسعى في رقي المسلمين بعلوم الأمم، ثم نكمل ما نقص من أخلاق غيرنا بعد كمال أنفسنا نحن. وإذ ذاك نعلم أجيالاً وأجيالاً يكونون صادقين لخدمة الأمم، فيذهب خداع الأمم بعضها بعضاً وأكاذيب السياسيين والدجالين وشيوخ الطرق وأكاذيب التجار، بل خداع الشهوات واللذات، فهي ملحقات بخداع الدجالين، لأن الإنسان مخلوق مسكين تخدعه شهوته ويخدعه غضبه ويخدعه نقص علمه وتخدعه الأمم ويخدعه الشيوخ الجاهلون. ولست أقول: إن شهواتنا من قبيل الدجالين. كلا، بل أقول: إنها ملحقات بذلك مقيسة عليه. فلنجدّ نحن المسلمين في العلوم لنساوي الأمم، ثم نسير على صراط مستقيم للتمهيد إلى السلام العام بين الأمم الذي عبر عنه بزمان عيسى ابن مريم، ولن يكون زمان المسيح إلا بعد أن يقتل الدجال. إذن لنقتل الدجل من بلاد الإسلام أولاً، ولن يكون ذلك إلا بالعلم، وبعد ذلك نقتله من الأمم، ثم يكون السلام العام، وهذا هو المقصود، فليس في هذا أيها الذكي إنكار للمسيح على حسب لفظ الأحاديث ولا للدجال على حسب لفظها، وإنّما الذي يجب علينا نحن أن نعمل من الآن لهدم أركان الدجالين وترقية النفوس ليصلح العالم ويعم السلام. هذا ما أدين به، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد نطقت بعلم وأفدت بفهم وشرحت صدري، ولكن ما تقوله من السلام العام وأنه يحصل بإماتة الدجالين وتعميم التعليم بعيد الحصول، فاضرب مثلاً مشاهداً أقيسه عليه. فقلت: أذكرك بما تقدم في أول سورة «يوسف»، ألم أكتب مقالة أحمل فيها على الحكومة المصرية لإهمالها حفظ الطيور النافعة. قال: بلى. قلت: ألم تأمر الحكومة بحفظ هذه الطيور. قال: بلى، وتبلغ فوق (٣٠) عداً منها أبو قردان والكروان والزقزاقين الشامي والبلدي الخ. قلت: فأيهما أنفع للناس. أكل أبي قردان وأكل هذه الطيور كما كان ذلك حاصلاً قبل منع حكومتنا أم إبقاؤها لتأكل الحشرات والدود فينمو الزرع كما هو حاصل الآن. قال: بل إبقاؤها خير، ونسبة منفعة أكلها إلى منفعة ما تناله من بقائها أقل من نسبة الهواء إلى الماء من حيث الخفة، إذ تقدم أنه أخف منه (٧٧٣)

مرة تقريباً . وإذن تكون المنفعة في أكل تلك الطيور أشبه بالعدم . فقلت : وماذا تقول في البقر والجاموس التي تساعدنا في الحرث والسقي إذا فرض أنه ليس لدينا غيرها إذا ذبحناها وأكلناها ، أنأكلها أم نبقيها؟ فقال : بل نبقيها كما نبقي الطيور ، ومن أكل هذه الطيور أو هذه الحيوانات المذكورة فهو أولى بأن ينسب إلى الجنون من أن ينسب للعقل . فقلت : أحسنت ، ثم قلت : انظر هنا ماء يسقي الزرع وهواء يتنفس فيه ويأخذ منه الكربون كما تقدم في سورة « يس » عند الآية ٣٦ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ . قال : نعم . قلت : وطيور تأكل الحشرات والدود ، وذوات الأربع تحرث الأرض وتسقي الحرث . أليس كل هؤلاء تعاونوا على المزرعة . قال : بلى . قلت : وهم مختلفون صفات اختلافاً بيناً . قال : بلى . قلت : فماذا تقول بالإنسانية العامة . أليسوا مختلفين أمماً وأفراداً اختلافاً كثيراً أو قليلاً . قال : بلى . قلت : والاختلاف لغايات كالاختلاف بين صفات الإنسان وصفات الطير والهواء ، والنتائج تبع ذلك الاختلاف . قال : نعم . قلت : أفليست الدنيا كلها مزرعة واحدة . وبنو آدم إذا قتل بعضهم بعضاً يكونون في سخافة عقولهم أشبه بهؤلاء الزارعين الذين ذبحوا أبا قردان وأكلوه ، وذبحوا البقر والجاموس ، وحرموا الزرع من تلك المنافع فأصبحوا خاسرين . قال : بلى والله حسن جداً . إذن الإنسانية للآن في غاية النقص . قلت : نعم وكمالها بذبح الدجل والاستعمار ، فهذا الشيخ الذي يقول للتلميذ : اتبعني واترك كل علم غير ما أقوله لك ، مريداً بذلك إيقاف عقله ، أشبه بالفلاح الذي ذبح أبا قردان لأكله ونسي أنه هو الذي يأكل حشرات حقله ، وهذه الأمم المستعمرة التي تذل الشعوب ليدوم خضوعهم هم أشبه بذلك الفلاح أكل الطيور وذبح البقر والجاموس وقعد يضرب أخماساً لأسداس .

قال : ما هذا؟ إذن الإنسانية الآن بهذا البرهان سخيفة غبية . فقلت : حقاً لا إنسانية . وهذا لا يزول إلا بأن يفهم المسلمون آيات هذه السورة ويعلموا أنهم هم المقصودون بانتشال الإنسانية من حقها وجهلها لأنهم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . وأن اليهود لن يرجعوا عن إضلال الأمم ودس الفتن فيها ، وكذلك أمم أوروبا لن ترجع عن إذلال الأمم فتصنع معها ما يصنع الفلاح الغبي الذي يأكل أبا قردان ويذبح البقرة والجاموسة اللتين تنفعانه في نمو زرعه إلا بظهور الحقائق ظهوراً تاماً ، ونشر الثقافة في الأمم والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، وحين ذلك يفهم المسلمون سر قول ابن عباس في تفسير هذه الآيات . وأن اليهود وغير اليهود لن يسلطوا على هذه الإنسانية ، وأنها لا بد من ارتقائها ، وأن الحرب ستزول ويكسر الصليب ، لأن ديناً اخترعه العقل الإنساني واجتلبه من دين البوذية لن يبقى إلا بالمبشرين وهم يحملون الصليب . فهذه وأمثالها ستخف وطأتها وتعرف الإنسانية الحقائق ، ويكون الناس إخواناً في نفس الحياة ، إنّما مثل المستعمرين الذين يفشون الجهل في الأمم والشيوخ الذين يتاجرون بالدين كمثل من رأى صبياً يرضع من ثدي أمه ، فحكم بأن لا يترك هذا الثدي أمد الحياة ، وهو يرى ويعلم أن هذا الطفل له أدواراً ثلاثة : دور الجنين ودور الرضاعة ودور الاستقلال في الطعام والشراب ، فاقتصار المريد على قراءة الأوراد أشبه باقتصار الطفل على لبن أمه أمد الحياة ، واقتصار الأمم التي استعمرها الأجنبي على أن يكونوا خدماً وقد قتلوا ذكاءهم أشبه بذلك الصبي الذي لا يترك لبن أمه ، فهؤلاء وهؤلاء قد حرموا فوائد عظيمة فقدتها الإنسانية بتأخيرهم رقي غيرهم ، وكتابنا

العزيز وتفسير ابن عباس يدلان أن الإنسانية ستأخذ حظها، ولا يتم إلا بالسلام العام وبقتل المسيح الدجال، ولا يعيش في الأرض إلا الصادقون المخلصون. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[غافر: ٥١] أي: النصر ليس قاصراً على الحياة الأخرى، إذن فلنبشر الإنسانية كلها بالنصر وأنهم يصلون للسلام العام، لأن دين الإسلام وأمة الإسلام المستقبلة ستنتصر في هذه العقيدة العيسوية المحمدية وتقتل الدجل وتحيي السلام العام الذي يقوله المسلم في عبادته. فلما سمع صاحبي ذلك قال: ما أجمل هذا المقال، وما أبهج العلم، وما أسعد العلماء، ولكني أريد منك زيادة إيضاح في موضوع الدجالين.

فقلت: أيها الذكي اقرأ ما تقدم في آخر سورة «المائدة» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[المائدة: ١١٦]، ثم انظر كيف كان هذا الدين منقولاً من «دين خريستا» ومن «دين بوذا» بالهند، أحدهما قبل الميلاد بمئات السنين والآخر قبله بآلاف السنين، وتأمل فيما كتبته هناك تجد أصول الدين منقولة بالحرف الواحد وهي هناك واضحة أيما إيضاح، وعلى هذا نرى هذا الدين له مبشرون قائمون بأمره، محافظون على تعاليمه، ومن عجب أنهم يتصرفون فيها تصرفاً مزرياً، ومن أفظعه أن الخرافات التي عمت الكرة الأرضية الآن هم المشيرون بها وهم الفاتكون بالأمم، وهذا مخالف لنص هذا الدين على خط مستقيم. ولقد جعل مبشروهم الدين آلة لتمزيق الأمم وزلزلة العقائد، حتى إن فتح مصر لبلادنا المصرية لم يتم إلا بما اتخذوا لذلك من مبشرين زعزعوا العقائد فدخلت جنودهم البلاد بعد أن دخلت شرورهم وسمومهم القلوب. وهاهي ذه فرنسا ترحب بالدين خارج بلادها لإضرار عقائد الأمم، ولكنها تضطهده في داخل بلادها، علماً منها أن تعاليمه ضارة بنظام بلادها. وبالجملة فالديانة المسيحية الآن أحبولة لاصطياد النفوس وقنابل لتفريق الجموع. أليس هذا هو أثر من آثار المسيح الدجال. وأي دجل أعظم من هذا. ونظرة في المقالة الآتية التي سطرها أحد الفضلاء في مجلة «جمعية الشبان المسلمين» تكفي لتبيان ما قلنا، وذلك في عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه:

من كان بيته من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة

يحكى أن سائحاً إنجليزياً رأى صينياً يصنع صحناً من الأرز المطبوخ فوق قبر، فقال له متهكماً: متى تظن أن فقيدك يقوم فيأكل هذا الأرز؟ فأجابه الصيني بقوله: يكون ذلك متى جاء فقيدكم يستنشق روائح الأزهار التي تضعونها على قبره.

هذا الرد الظريف المسكت ذكرني بكلمة لصيني آخر عن أعمال المبشرين في الصين فيها نفس المغزى وهو: إن من كان بيته من زجاج فلا يرجم الناس بالحجارة. كنت قد قرأتها من زمن بعيد، ثم رأيت أن أنقلها اليوم لقراء مجلة الشبان المسلمين كردّ خالص على ذلك الاختلاق، وتلك التقارير الوهمية التي يذيعها المبشرون عن انتشار المسيحية في أنحاء العالم، وتراجع الإسلام تحت ضغط انتشارها، باعتبار أن الكلمة صادرة عن رجل يتكلم بلسان ربع سكان المعمورة، وهذه هي: لأيّ غرض جاء إلى بلادنا هؤلاء المبشرون؟ هم يقولون إنهم جاؤونا بدين يرون فيه لنا أسباب السعادة في

الدنيا والآخرة. ويسمون هذا الدين بالدين المسيحي، ولأننا لم نكن في حاجة لمثل هذا الدين بالمرة لأنه في نظرنا دون شريعة كونفوشيوس وبوذا؛ لم يستطع المبشرون مدة أربعة عشرة قرناً أن يؤثروا به فينا، إذ لا يوجد حتى الآن بين أمتنا التي يربو عددها على أربعمائة مليون نفس أكثر من أربعين ألف مسيحي صيني، ولست بحاجة لأن أعرفكم بهؤلاء الصينيين المسيحيين، فهم الفقراء الذين لا يقدرون على كسب قوتهم. ولذلك صاروا مسيحيين، لأن المسيحية لديهم هي العيش، ولم يستطع المبشرون رغماً عن الجهد الجهيد استمالة رجل ذي شأن ككاتب مطلع أو موظف أو تاجر أو أي ذي حرفة، ولم يجتمع حولهم غير التعساء والمتشردين. وكيف يكون الأمر غير ذلك ما دام بوذا قد علمنا كل ما يحاول هؤلاء تعليمه لنا مرة أخرى، وما دامت فلسفة كونفوشيوس أكمل وأجمل قانون عرفناه الفضيلة والأخلاق حتى اليوم.

على أن أساس الديانة المسيحية وحده يكفي لإبعاد كل ذي تفكير حر عن المسيحية، وإني أترك لكم الحكم على صحة قولي هذا. يقول المسيحيون: إن الله أراد في يوم من الأيام إنقاذ العالم، وبما أنه القادر على كل شيء، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، كان يجوز أن يظهر رغبته في إنقاذ العالم بكيفية بسيطة، ولكن الأمر لم يجر بهذه البساطة، فهم يقولون: إن الله الذي كان واحداً فرداً رأى أن يصير ثلاثة مع بقائه فرداً، فليفهم ذلك منكم من يستطيع. وكانت نتيجة ذلك أن الله رزق بكراً من بنات آسيا غلاماً، وهذا الغلام صار رجلاً وإلهاً في آن واحد، فما هذه التعقيدات والإشكالات. إني أسألكم هل يوجد صيني سليم العقل يقبل هذه القصة؟ أليس هذا وحده يفسر لنا لماذا لم يجد المسيحيون سبيلاً لنشر دعوتهم في هذه البلاد التي تترك الحكومة فيها للشعب حرية تامة في التفكير في مسائل الدين، كما أثبت ذلك القسيس هوك. إلى جانب هذا نعلم أن المسيح «نبي البيض» دعا قومه إلى التسامح والرحمة والغفران ـ كما فعل كونفوشيوس من قبل ـ وأوصاهم بأن يعيشوا مع الناس في سلام، وأن لا يعملوا مع الغير ما يريدون أن يعمل الغير معهم. فهل المبشرون يتبعون الشريعة التي يريدون إدخالها بيننا. كلا. فالدين ما هو إلا وسيلة في أيدي هؤلاء القسوس الذين جاؤوا لإنقاذ أرواحنا ـ كما يقولون ـ بغير أن نطلب ذلك منهم، لأنهم كانوا الطلائع لغيرهم من مواطنيهم، وهم التجار الذين ظننا أنهم هم الآخرون أتوا لتبادل المنفعة معنا، فقابلناهم بكرم ولطف ورحابة صدر، في ماذا قابلوا حسن صنيعنا؟ قابلوه باحتلال الجهات التي يسكنونها من الأراضي الصينية وادّعوا أنها ملك لهم ومحكومة بقوانينهم، ومحال أنهم كانوا يقبلون ذلك في بلادهم لو ادعى صينيون منا هنالك مثل دعواهم، فتركناهم مع ذلك وشأنهم، ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا لا يطاق لهم وجود، لأنهم أرادوا أن يكونوا هم السادة أصحاب الأمر والنهي، وأن نكون نحن أرباب البلاد خدماً لهم يحكموننا بالقوة والإرهاب الخ، وهي كلمة طويلة نكتفي منها بما تقدم. والذي يلفت النظر فيها بنوع خاص هو أن المسيحية التي يدعي المبشرون أنها تنتشر في أنحاء المعمورة، وأن الإسلام يتراجع تحت ضغطها لم تستطع بعد جهد استمر نحو ١٤٠٠ سنة أن تجذب إليها رجلاً واحداً ذا شأن في بلاد الصين، وإن كانت فازت بعد ذلك الجهد بأربعين ألف مسيحي صيني، لا أظن أن العالم المسيحي الأبيض يغتبط بأخوتهم

لأنهم ـ كما يقول الكاتب ـ أناس ضحكوا على ذقون المبشرين ليأكلوا « عيشهم »، والمبشرون من جانبهم يضحكون بهم على ذقون من يمدونهم بالمال ليعيشوا هم الآخرون. فالإسلام لا خوف عليه من تهديد المبشرين ومزاعمهم.

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

ما دام هذا الدين السمح الذي كفل الحرية الصحيحة للناس في حدود الفضيلة وحرر النفس البشرية وساوى بين الناس؛ فلم يفضل أبيض على أسود أو أحمر أو أصفر إلا بالتقوى والعمل الصالح. لا خوف عليه وهو دين الحرية والديموقراطية من طغيان الدين المسيحي عليه. ذلك الدين الذي يحتفل أبناؤه البيض ـ في بلاد المدنية والعدل والحرية أمريكا، معقل رجال الدين ومصدر المبشرين ـ بتعذيب إخوانهم ومواطنيهم المسيحيين السود، ونحن نتحدى كائناً من كان من المبشرين في مشارق الأرض ومغاربها أن يكذب هذا الخبر الذي نورده هنا، وهو هذا:

احتفل أميركيو ولاية نيويورك في مدينة نايلور بتعذيب زنجي اسمه « دان دافيز »، فلما شد وثاقه إلى شجرة بعد التعذيب الوحشي الشديد لإحراقه حياً؛ توسل « دافيز » المسكين إلى ذلك الجمع المحتشد من الرجال والنساء بعبارة مؤثرة تستدر الدمع، أن يتقدم واحد منهم ليقطع عنقه قبل أن يسام ذلك العذاب الأليم، فقال: إني أرجو أيها السادة أن يكون بينكم رجل عامر القلب بالمسيحية فيتقدم ليقطع عنقي ويريحني من هذا. فكان جواب الإنسانية المسيحية البيضاء على هذا التوسل رنين ضحكات السخرية والاستهزاء من الجنس اللطيف والجنس الخشن سواء.

نعم. لا خوف على الإسلام من طغيان المسيحية التي دعاتها المبشرون. إنّما الذي يهم جماعة الشبان المسلمين أن يقفوا عليه؛ هو أن الدين أصبح وسيلة في أيدي المبشرين يسترون تحت ثوبه مفسدة عمرانية اعتقادية تنتقل مع الأجيال، وحسب القراء أن يطلعوا على تصريح رئيس وزراء فرنسا سنة ١٩٠٠ المسيو ولدك روسو عن هذه الطائفة، في خطبة علنية أمام مجلس النواب حين ذاك حيث قال: إن اختلاف التربية والتعليم باختلاف المدارس بين أهلية ودينية أحدث في النشء الفرنسي فريقين مفترقين قلباً وقالباً ومبدأ وغاية، ففريق يحب فرنسا ويخلص للجمهورية ويعاهد نفسه على الصدق في خدمتها، وتأييد ذلك النظام الذي اختاره الشعب، وفريق تربى في حجر جماعة اتخذوا لباس الدين رداء رياء ورواء خداع، يربون الأبناء على كراهة الجمهورية ويبثون في نفوسهم مبادئ تناقض مبادئنا.

واكتفى بهذا البيان على أن يترك التعليم حراً، ولكنه أقفل أبواب الوظائف الحكومية في وجوه خريجي مدارس تلكم الجماعات، ثم ظهر بعده من لم يكتف بذلك، بل قضى بإقفال مدارس الرهبنات صيانة للأمة مما يهدد حكمها الثوري ونظامها الدستوري الذي أراقت في سبيله الدماء الغزيرة، حتى ظهر من انتصر للرهبنات. ولا يهمنا نحن وجهة نظر كل فريق منهم، إنّما نورد هنا خلاصته. فمنهم كاتب من كتاب الفريق الثاني وهو المسيو « دريمون » في جريدة « الليبر بارول » في سنة ١٩٠٢ حيث قال: في ألمانيا التي لا يحكمها أصحاب البدع والحمقى يتصرف ولاة أمورها مع الرهبنات بغير ما تصرفنا به، ويعملون معاً نقيض ما عملنا، فإن جيراننا الألمانيين لما علموا علم اليقين أن المبعوثين أقوى

العوامل السياسية والتجارية تأثيراً وأحمدها أثراً، أمدوهم بعنايتهم وأظلوهم بحمايتهم. إلى أن قال: فلم يمهد للإنجليز سبيل فتح مصر إلا المبعوثون الإنجليكان. فإذا كان باقياً هناك من لم يزل يتكلم باللغة الفرنسية فإنّما الفضل في ذلك يرجع إلى مبعوثينا الفرير أساتذة المدارس المسيحية الذين حافظوا على اجتذاب بعض القلوب إلى فرنسا. نعم. ليست العبرة بكلام هذا ولا بكلام ذاك من حيث وجهة نظر كل منهما، إنّما العبرة بمدلول كلامهما حيث كشف لنا كل منهما سوءة من سوءات المبشرين، ونبهنا إلى جانب من جوانب الخطر الذي يتهدد الجنس الشرقي والإسلامي الملقي زمامه إلى هذه الطائفة، على ظن أنها تقوده إلى مراقي العلم والفلاح. فليتق المسلمون الله في أبنائهم وخلفائهم من بعدهم ليتدبروا في كلام الرجلين، حيث يظهر بوضوح جناية المبعوثين الدينيين ومدارسهم على النشء، وليس لهم علينا حجة بعد إيراد شهادة شهود من أهل المبشرين عليهم، والظاهر أن الفئة الأخيرة المدافعة عن الرهبنات قد انتصرت، فهاهي فرنسا اليوم تشهر في وجه الإسلام سيوف الاعتداء على العقائد بتعطيلها الشعائر الإسلامية في بلاد المغرب، وإقفالها محلات عبادة المسلمين في نفس الوقت الذي تنشر المدارس التي تلبسها ثوب التعليم ونشر الثقافة، وتستر تحت هذا الثوب نفس الفكرة التي أجرى الله بها لسان المسيو دريعون فظهرت الحقيقة.

أما الدين الإسلامي نفسه ففرنسا وغيرها تعلم علم اليقين أنه طود شامخ ثابت بمبادئه الإنسانية سام بتعاليمه الروحية. فإن جيوش المبشرين الذين تملأ بهم الدنيا لن تقوى على زحزحته عن موضعه قيد شعرة، ولكن حب الاستعمار هو الذي يدفعها إلى ركوب هذا المركب الخشن، لأنها ترى في تعاليم الدين الإسلامي عقبة في سبيل الاستعمار، ولكن لتفهم فرنسا أن نيتها مفضوحة، وأن المسلمين اليوم غيرهم بالأمس. انتهى.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد شرحت صدري. فقلت: الحمد لله رب العالمين. وإلى هنا تم الكلام على سورة « غافر » وذلك صباح يوم الخميس ١٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠.

تفسير سورة فصلت
هي مكية
آياتها ٥٤، نزلت بعد غافر
هذه السورة خمسة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في التوحيد وذكر بدء الخلق، من أول السورة إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

القسم الثالث: في ذكر إهلاك بعض الأمم التي كفرت كعاد وثمود الذين هم أقرب إلى المرسل إليهم دياراً ولغة وعوائد وتاريخاً، من قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾[الآية: ١٣] إلى قوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

القسم الرابع: في ذكر الحشر وشهادة الجلود والحواس واختصام الناس مع أعضائهم والقرناء وإضلالهم، وأنهم يتتابعون في العذاب كما تتابعوا في الاقتداء وتناسى عقولهم، ثم إذا ظهرت الحقيقة تنابذوا وتناكروا وتعادوا، وإتباع ذلك بالتواد والتحاب بين العوالم الطاهرة من الملائكة وعوالم الإنس وكيف يبشر الأولون الآخرون قائلين لهم وقت الحياة وعند الموت: لا تخافوا مما تردون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم من الأبناء والأهل والأمم، فستردون الجنات، وتنالون أعلى المقامات في ضيافة الله وإكرامه. ثم وصية المؤمن أن يكون هيناً ليناً، رحيماً ودوداً عفواً، يتألف أصحابه ولا يتبرّم بهم ليصبحوا أحبابه، وذلك لا يكون إلا بالصبر والاحتمال وحسن الخلق والتوادّ والتآلف، وأن يستعيذ بالله من قرناء السوء من شياطين الإنس وشياطين الجن إذا وسوسوا له ونزغوا بينه وبين أصحابه وفتحوا له باب الشر والنزاع والشجار، وذلك من قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[الآية: ١٩] إلى قوله: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

القسم الخامس: من قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾[الآية: ٣٧] إلى آخر السورة.

فذكر الشمس والقمر وبهجتهما ومنافعهما، وأن ذلك لا ينبغي أن يوقف الهمم عندهما عبادة وسجوداً، لأن الإنسان لم يخلق في هذه الدنيا إلا للرقي، ولا رقي إذا وقف عقله عند مصنوع أرضي كالأصنام أو مصنوع إلهي كالشمس والقمر، فإذا وقف العقل عند أحدهما سواء أكان صنماً أو جرماً

مضيئاً باهراً؛ كان ذلك المعبود حاجزاً بينه وبين ارتقاء عقله، وكيف يبحث عن الأجرام السماوية البديعة التي شمسنا بالنسبة لها صغيرة جداً، كيف يبحث عنها إذا كان يرى أن الشمس أكبر وأعظم الأشياء لأنها معبودة، والمعبود يفوق كل ما سواه، فإذن تكون الشمس أعظم موجود، فإذا عنّ لعالم فلكي أن هناك شمساً أكبر منها صدّه الدين عن ذلك الاعتقاد، فما بالك إذا رأى هناك (١٠) آلاف مليون من الشموس، أصبحت شمسنا بالنسبة لها كبرتقالة بالنسبة لبطيخة بل قلعة، فضلاً عن شموس لا تزال محجوبة عن الأنظار، هذا هو مقصود الديانات ومقصود القرآن ومقصود العلوم، إن الله قد أرسل إبراهيم الخليل فدكّ صرح عبادة الشمس والقمر والكواكب، وتمم هذا نبينا صلى الله عليه وسلم فانطلقت العقول بعد أن كانت محصورة أيام الصابئين في عبادة كواكب معلومة، وحجزت العقول ومنعت من الاطلاع على عوالم لا نهاية لها.

ثم أتبع ذلك بما يفيد: إنكم يا أهل الأرض لستم شيئاً مذكوراً بالنسبة لعوالمنا الأخرى الروحية فإذا أبيتم يا أهل الأرض أن تعبدوا ربكم ليتسع لكم المجال في رقي عقولكم لتخرجوا من العالم المادي فاعلموا أن هذه السماوات والشموس والأقمار والتوابع ليست خالية من السكان، إن هناك عوالم وهي الملائكة، والملائكة صفوف وكلهم يعبدوني، فإذا لم تبلغ مراتبكم هؤلاء فأنتم وشأنكم.

فكم هنالك من عوالم تسبح ربها عاكفة على السجود له والقيام بأمره ولا يسأمون، بل عبادتهم بشوق وتوق وحب لاقتراب نفوسهم من ذلك الجمال الأبهى، كما أن الشموس والأرضين دارت طائفة بنوع الجاذبية، وإذا ظننتم أن أرضكم الحقيرة الصغيرة قليلة الشأن هي التي حظيت بالعقول والعلوم؛ وأن العالم كله محروم منها؛ فكبروا أربعاً على عقولكم وادفنوها في الثرى، وكيف تظنون ذلك وأنتم ترون أن البحار التي زاد عمقها عن مائتي قامة وضوء الشمس محجوب عنها قد خلقنا فيها عوالم من سمك وسرطان، وأعطيناها كل ما تحتاج إليه، وأضأنا لها بضوء تصرفه على مقدار حاجتها وتطفئه متى شاءت، وتوقده متى شاءت، وتطارد فريستها بهدايته، وتتخلص من عدوها أنى شاءت، فتظهر نورها الوهاج أمام عينيه كي تبهره ثم تختفي وهي أمامه، فإذا فعلت ذلك في قرار بحاركم الذي يصل إلى ما يقرب مائتي قامة، ولا أذره يكون بلا حياة؛ فهل أذر الشموس العظيمة التي شمسكم بالنسبة لها لا تعد شيئاً مذكوراً فضلاً عن أرضكم المحقورة الضعيفة التي خلقتكم فيها زمناً ما لأنقلكم إلى عوالم أخرى تستأهلونها بما فطرتم عليه في هذه الأرض من الأخلاق والأعمال أسمي بعضها بالجنان وبعضها بالنيران. كلا. فأنا لم أدع عالماً حقيراً كأرضكم ولا عالماً عظيماً كالشموس العظيمة وتوابعها إلا أسكنت فيه عالماً يليق به، وكلما كان المسكون أرقى كان الساكن فيه أعلم وأعظم وأقرب إلى ربه، كما تقرب حاسة العين والسمع من العقل، وتبعد عنه حاسة اللمس بعض البعد، إن العين والسمع يعرفان القريب والبعيد، واللمس لا يفقه إلا القريب.

فأنتم يا أهل الأرض أشبه بحاسة اللمس لأن علومكم مادية، والعوالم الأخرى يقرب سكانها من ربهم لبعد نظرهم وكبر عقولهم وتشبههم بربهم وهذا ما يأتي من قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨].

ثم ذكر أن الأرض إذا نزل عليها الماء اهتزت وزادت وتزخرفت بالنبات، هكذا تحيا النفوس بالبعث كما تحيا الأرض بإنزال المطر عليها. ثم ذكر أن هذا القرآن محفوظ لا يتطرق إليه الخلل تذكرة للأمم الأرضية الضعيفة لأنه نزل بحكمة، وهي نعمة على الناس يستحق مسديها حمدهم له، وأن الأمم المدعوة لهذا القرآن تقابله بما قابلت به الأمم السابقة أنبياءها، لأن أهل الأرض منغمسون في المادة ضعاف العقول غالباً ألهتهم الشهوات عن الحكمة لاقترابهم من عالم الحيوان والنبات، فهذه جبلة فيهم، والله سبحانه سيجازي المسيء والمحسن منهم بما هو أهله من عقاب وثواب، ثم إن هذا القرآن لو نزل بلغة غير العربية كما يقترح بعضهم لكان ذلك بدعاً، فيقال: نبي عربي وقرآنه أعجمي، فتقوم حجتهم عليه، ويقولون: في آذاننا وقر، كلا. بل الأمر واضح، نبي عربي وقرآن عربي تسمعه أمة عربية، وتنقله الأمم ثم تذيع لغتها وينتشر دينها وتقوم دول بها، ولا يصح ذلك إلا إذا كان بلغة العرب، ثم أبان أن أمر الساعة كأمر خروج الثمرات من أكمامها وكأمر وضع الحوامل، فهذه الأجسام الأرضية الإنسانية تحمل أرواحاً تربى في الأرض بالخير والشر، وتمتحن بالنعم والنقم والبلايا والرزايا وترسل لها الأنبياء ويخلق فيها العلماء، فتفتح الأجسام عن أرواحها بالموت كما تفتح الأكمام عن الزهر والكفرّا عن الطلع والحامل عن الطفل. فالأجسام بالموت تتمخض كتمخض الحوامل، وتبرز تلك الأرواح ظاهرة واضحة على حسب ما جبلت عليه، كما يخرج الطفل حاملاً ما ورثه من أبويه وذويه ودولته وأمته في الدنيا، فيعيش على ما كان عليه في الرحم من تلك المواريث، ويتلقى كمال علومه في الحياة، فإذا مات فقد تمخض جسمه عن روحه، وأصبح في عالم جديد يحمل صفات وآراء وأخلاق، حتى إذا بعث برز هناك أمام الله والعالم بأخلاقه نفسه، كما برز الطفل في الحياة بما هو من جبلته. ثم قال: وهذه الأمور ليست بالطبع بل لا تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه، هكذا لا يعمل عامل عملاً ولا يحشر إلى جنة أو نار إلا بعلمه، لأن هذا نظام له قانون لا يتعداه.

ثم أخذ يذكر أخلاق أكثر النوع الإنساني، فوصفه بأنه لا يحب إلا الأمور المادية، فإذا نقص منها شيء يئس مع أنه خلق ليهذب ويربى، وإذا أنعم عليه بنعم كثيرة وغمر بها اغتر وظن أن ذلك أمر دائم، وأن النعم الروحية والأخروية تابعة للنعم المادية الجسمية، ثم بشر الله النوع الإنساني لا سيما العالم الإسلامي قائلاً: أيها الناس، إني سأفتح لكم أبواب العلوم والمعارف والحكم، وأبين لكم الحقائق ناصعة واضحة.

وأولا أفتح للمسلمين البلاد شرقاً وغرباً، وهذه دلالة صادقة على النبوة المحمدية، كيف لا وأن النبوة تستلزم إيجاد الأمم وتربيتها، فدين يجمع أمة وتعيش أمداً طويلاً وهو ثلاثة عشر قرناً ويضم من الشرق والغرب آلاف الآلاف، إن ذلك لدليل على أنه من عند الله، لا سيما إذا كان الذي نزل عليه ذلك الدين أمياً لا يقرأ ولا يكتب وهو في أرض قحلة لا صلة بينها وبين العلم.

وثانياً إن هذا القرآن قد فتح للناس باب قراءة العلوم والمعارف فانتشرت الفكرة في العالم كله، وجاءت الحروب الصليبية فانتعشت أوروبا وظهرت العجائب الكونية وظهر علم الأرواح وعلوم النفس وهذه معجزة القرآن.

فهنا معجزتان: معجزة فتح البلاد على أيدي المسلمين. ومعجزة ظهور العلوم في أوروبا التي أدهشت العقول وحيرت الأفكار. وقد ذكرنا كثيراً منها في هذا التفسير. فهذه العلوم هي نفسها آيات الله تعالى أظهرها الله كما أخبر القرآن.

والعلوم المذكورة قسمان: قسم في العلوم الطبيعية والفلكية وهي علوم الآفاق. وقسم في علم الأرواح وعلم النفس وهو علم الأنفس. وذلك كله معجزة القرآن. وإلا فكيف يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، أوليس ذلك لنا نحن المسلمين الآن؟.

يقول الله: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]. فليسمع المسلمون في أقطار الأرض كلام ربهم. هذا أوانه. يقول لكم: سأريكم آياتي في أنفسكم وفي الآفاق.

أيها المسلمون: هذه الآيات قد ظهرت وبهرت. ظهرت شموس وبهرت عقول. ظهرت علوم الكيمياء. ظهرت عوالم بديعة غابت عن عقول الأمم الماضية. ظهر ذلك كله. ظهرت أسرار النفوس وعلوم الأرواح. كلمت الأرواح الأحياء. كلموهم بما جاء به القرآن. قالوا لهم: إننا نعذب وننعم. قالوا لهم: إننا نألم لكل ذنب اقترفناه. قالوا لهم: إن العلم والأخلاق الحميدة هما المسعدان لنا بعد الموت. قالوا لهم ملخص ما جاء في القرآن.

أيها المسلمون، هذا هو دينكم يأمركم أن تدرسوا كل علم وتقرؤوا كل فن، ويقول لكم الله: أي عبادي، قد فتحت لكم أبواب الجنات في هذه الدنيا. فتحتها على مصراعيها. انظروا تأملوا ما فيها من جمال. وأين هي الجنان؟هي العلوم التي أبرزها الله في الأرض. إن الجنان نتائج العلوم والأخلاق. والنيران نتائج الجهل والذنوب. يقول الله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، ولقد أرانا الله ذلك. كان آباؤنا أشرف خلق الله فملكوا الأمم لإسعادها. ولما سكنت ريحهم وغابت شمسهم خلفهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غياً فأذلتهم الأمم. وهذه أيضاً من آيات الله التي أراها الله لنا.

أرانا آيات في آبائنا إذ أخضعوا الأمم. وأرانا آياته في أنفسنا في مصر والشام وسوريا والحجاز وفلسطين والعراق وبلاد المغرب وفي بلاد روسيا والهند وسائر أقطار الإسلام وفيما وراء البحار. خضعت أكثر هذه الأمم للفرنجة. أذاقها الله النكال. هذه من آيات الله تعالى لأنه هكذا أوعد الله الذين لا يفكرون.

أظهر الله علوم الكائنات من شموس وأقمار وكواكب صغار ومعادن وحيوان ونبات وجمال أرضي وعجائب حكمية وعلوم أرواح. كل هذا من آيات الله في الأنفس والآفاق، ثم أيد ذلك بأن الله شهيد على كل شيء، فهو يحقق الأمور كما وعد، وأنه عالم بالأشياء كلها، وقد تم ذلك كله في هذا الزمان وسيزيد في الأزمنة المستقبلة.

إني لأدهش أيها المسلمون حينما أرى هذا كلام ربنا، وأرى أنه ديننا، وأقول في نفسي كيف يكون هذا دين أمة الإسلام والناس كلهم يرقون العلم، أما هم فإنهم نائمون.

عجباً لأمة أصبحت أشبه بملك أصم أعمى تقام له المحافل وهو غافل، وتضرب له المدافع وهو نائم، وتنصب له الحفلات وهو في سبات، أو كعروس أقيم له الاحتفال ونشرت الزينات وأنشدت القصائد وهو تائه غافل لا يعي ما يقال ولا يدري.

يا قوم، يقول ربنا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، ويقول: إنه شهيد على كل شيء محقق للوعد، والمسلمون لا يعلمون هذه الزخارف والزينات القائمة في الأرض والعجائب البارزة زفها الله إليكم، استخرج الله منافع البر والبحر وكلم الأموات الأحياء. كل هذا أخبر به نبيكم صلى الله عليه وسلم، فكيف تقام هذه الزينات وتنصب لكم الحفلات وأنتم في غفلات.

نعم إن المسلمين اليوم أشبه بملوك العباسيين في آخر أيامهم، أو ببعض المماليك في الدولة المصرية إذ تقام لهم الحفلات باسمهم وتنصب لهم الزينات وهم مسجونون.

هذا ما جاش في نفسي عند تقسيم هذه السورة وهو كمختصر لتفسيرها، فلأبدأ في تفسير هذه الأقسام فأقول مستعيناً بالله:

القسم الأول: في تفسير البسملة

هذه قد أخرتها إلى اللطائف وهي أول لطيفة من ست، وذلك لأن فهم الرحمة هناك من حيث شمولها لما في السورة من العجائب يحتاج فيه إلى معرفة ظواهر تفسيرها ولذلك أخرتها.

القسم الثاني من السورة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ﴾ هما حرفان وهما الحاء والميم وقد علمت أنهما في سورة «غافر» تشيران للحمد الذي اكتنفهما، والنتيجة أنهما ترشدان إلى اقتناص سائر العلوم، هذا ملخص ما مضى في هذا التفسير، إنّما لكل سورة مزية، والمزية التي في هذه السورة غير التي مضت، فانظر إلى ما سألقيه عليك، انظر كيف يذكر الله «الحاء» و«الميم» المذكورين في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت: ٢]، فـ«الحاء» و«الميم» في كل من الاسمين، وكيف يقول: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت: ٣٢]، وكيف يقول: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢] فـ«الحاء» و«الميم» في الحمد والحكمة والرحمة المذكورات في هذه السورة.

ولا جرم أن الحمد أعم هذه المعاني لأنه لا يكون إلا على نعم، ولا نعم يحمد عليها إلا إذا عرفت، ومتى عرف الإنسان أن الله رحيم ورحمته شملت العوالم العلوية والسفلية رحمة مصحوبة بالحكمة لا كرحمة الأمهات، بل هي كرحمة الآباء مصحوبة بشدة للتوازن والمحافظة عليها. متى عرف ذلك حمد الله، فإذن يرجع الأمر للتنبيه على العلم، لا سيما أن «الحاء» و«الميم» في الحمد قد جاءا في أول الكلمة متتاليين، فأما في الحكمة والرحمة فليسا كذلك، فرجعت هذه السورة كالتي قبلها مع تفصيل في هذه.

ألا ترى كيف ذكر بدء الخلق، وأنه نظم السماوات والأرض وأودع فيها الأقوات والأرزاق، وأعطى كل شيء خلقه، وأنه أمر الأرض والكواكب بالإتيان إليه، فأتت إليه بطريق الجاذبية لا بطريق القسر والقهر، وهذا الدوران مبني على الحكمة والنظام العجيب. وكيف زين السقف الذي فوقنا بمصابيح مضيئة مشرقة بهجة تسر الناظرين، فبينما الإنسان ينظر في حقله فيرى أزهاراً وأنواراً وجمالاً وبهجة، وماء لطيفاً شفافاً تظهر فيه الوجوه والطيور تحوم حوله، ويرى أنعاماً وأشجاراً وأنواعاً شتى من الثمار في الأرض، إذا هو ينظر فوقه فيرى سقفاً مرفوعاً مزيناً بالصور الجميلة، والقناديل المعلقة، والرسوم البارزة، والوجوه الباسمة، والأوضاع المشوقة، والبهجات الشارحة للصدور، المنعشة للقلوب المزيلة الغموم، المذكرة بالأحباب، المبعدة للنصب، المزيلة للغوب، المناجية لذوي العقول الشريفة، الملهمة لهم الجمال السارّة المفكرين، المذكرة برب العالمين، المصغرة لحياتنا الحيوانية، المعظمة للحياة الملكية الخاصة بالكبراء الممنوعة عن الجهلاء المحجوبة عن ذوي الكبرياء تبرقعت عن الأغيار وظهرت للأخيار وازّينت وابتهجت وأبهجت. ذلك من الرحمة التي ذكرها في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثم انظر إلى الحكمة التي بينها في السورة. ألا تراه بين أنّ قرناء السوء يوسوسون إلى أمثالهم، وقد زين لهم وسوستهم كما زين السماء لأصحاب العقول الكبيرة. ثم تراه يجعل الملائكة ملهمين للنفوس الشريفة في الأرض كما يبشرونهم عند الموت وعند البعث ويسلمون عليهم. أليس ذلك للحكمة. فبدء الخلق رحمة. ووسوسة النفوس الشيطانية إلى النفوس الشهوية وإلهام النفوس الملكية إلى النفوس الفاضلة في الأرض من آثار الحكمة. ذلك أن الحكمة تقتضي أن يقرن الشبيه بما يشبهه.

فالشياطين توحي إلى أمثالها من الناس، والملائكة تلهم من يقرب لها في الخصال ليلحقوا بهم بعد موتهم. ثم أفاد أن الملائكة يعرفون ربهم أكثر من أهل الأرض، فكأنهم شموس تتبعها أرضون، فإذا رأينا شمسنا تبعتها السيارات والأرض وتوابعها ونحوها؛ هكذا تلك الأرواح الكبيرة تتبعها أرواح صغيرة في أرضنا وغيرها، فكأنها تدور حولها كما تدور أرضنا حول الشمس، وكما أن أرضنا تستمد من الشمس النور؛ هكذا الأرواح الصغيرة في عالمنا تستمد العلم من أرواح فوقها أعلى منها بالإلهام أو الإلقاء في الروح، وهذا هو المقصود من قوله: ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾[فصلت: ٣٨]، وإنهم يتنزلون على أهل الأرض، يقولون لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا. كل ذلك من الحكمة. ومن الرحمة أن الأرض تخرج النبات فينتفع به أهل الأرض. ومن الحكمة أن ينزل القرآن باللغة العربية لمناسبة المرسل إليهم الذين هم أقرب إليه. ومن الحكمة مناسبة خروج الثمرات من الأكمام ووضع الإناث لقيام الساعة، فكلاهما نتائج وثمرات لمقدمات.

وبعد أن ذكر آثار الرحمة وآثار الحكمة وأن كل منها مصاحباً للآخر ختم السورة بما يوجب الحمد وهو أنه يرينا آياته في الأنفس والآفاق. وإذا أرانا آياته فمعناه أنه يظهر العلوم والأسرار كما ظهر لك منه كثير في تفسير هذه السورة وغيرها، وبالعلم وانكشاف الحقائق يكون الحمد، فرجع الأمر كله إلى معنى: ﴿ حمٓ ﴾، فقوله: «حم» إشارة إلى الحمد، والحمد لا يكون إلا بمعرفة النعمة، والنعم المذكورة في السورة منها ما غلبت فيها الرحمة وهي بدء الخلق وإنبات النبات. ومنها ما ظهر فيه الحكمة وهي وسوسة الشياطين لأمثالها، وإلهام الملائكة لتلاميذها وأتباعها، ونظام الأمر كله أنه يرينا الآيات، وهذا سبب في الحمد. حقاً إن هذه السورة روضات الجنات.

إن من يقرأ هذه السور يرى ألفاظها متشابهة ومعانيها ومتشابهة، وكأنه لا يرى شيئاً جديداً، فإذا أمعن النظر انفتحت له خزائن العلم والحكمة، كما يحصل عندما يسمع الإنسان قوماً يتكلمون بلغة لا يفقهها، فإنه يرى أن الألفاظ متشابهة ولا يفهمها إلا ببحثها، وكما يشاهد جيشاً عرمرماً من بعيد فإنه يراه شيئاً واحداً لا اختلاف فيه، وكلما اقترب ظهر له تفصيله. وكما يرى الشمس والقمر وهو على الأرض فإنه يرى جسمين صغيرين، فإذا ارتقى بالعلم في الدنيا أو بعروج روحه إلى السماء وكان من أهل ذلك هاله عظمتها. هكذا هذا القرآن نرى أننا كلما توغلنا فيه ظهرت لنا علوم جديدة تبرز في ثناياه.

هذا ما استبان في معنى: ﴿ حمٓ ﴾، فـ«الحاء» و«الميم» يعبران عن الحمد، والحمد يستلزم العلم. والمسلمون اليوم مخاطبون، وهم الآن أقرب إلى العلوم من كل زمان، لأن الله أراهم الآيات في أسلافهم وفيهم وفي الآفاق من العلوم والمعارف. فإذا قصر المسلم بعد ما بيناه فإن الله عز وجل يخسف به وبأمثاله الأرض، وذلك بالذلة والهوان ثم الانقراض، وهذا الأمر لا شك فيه وأصبحت موقناً به كل الإيقان. وقوله: ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي: هذا تنزيل ممن عمت رحمته عظيمات الأمور ودقيقاتها في أكناف السماوات وآفاق الأرضين. وقوله: ﴿ كِتَٰبٞ ﴾ خبر بعد خبر، ثم وصفه بأنه فصلت آياته في معان مختلفة من عجائب خلق وإبداع صنع وإحكام نظم وإنزال غيث وإنزال وحي

والهام وإضاءة سقف مرفوع وتبيان الحقائق وإخبار بمستقبل العلوم ووعظ وأحكام وأمثال ووعد ووعيد وبهجة للناظرين، وهذا قوله: ﴿ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أمدح ﴿ قُرْءَانًا ﴾ موصوفاً بوصفين: الأول: كونه ﴿عَرَبِيًّا﴾. والثاني: كونه ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ووصفه بأنه عربي من الإشارات العجيبة، فإن اللغة العربية اليوم لا يخلو محفل من محافل العلم شرقاً وغرباً من ذكرها، والترنم بمحاسنها، والقيام بشأنها، ومعرفة تاريخها، وتاريخ دينها، والبحث والتنقيب عن أسرارها، وآثار أهلها، كما تقدم في سورة «سبأ»، وأنت ترى المستشرقين في العالم الغربي مولعون بهذه اللغة، ولولا القرآن لم يكن لها هذا الشأن. لقد اشتهرت الأمة العربية وما شهرتها إلا بالقرآن. لقد اشتهرت الأمة العربية وأصبح لها صيت عظيم ومجد كبير، مع أننا اليوم تحت قهر الأمم، ولكن القرآن العربي جمال لنا وزينة. يدعونا إلى الرقي والسلام. أليس من العجيب أن يخبرني أكبر طابع للكتب في مصر وهو الذي تعهد بطبع هذا الكتاب أن تفسير الطبري لما طبعه لم يقدم على الاكتتاب فيه من مصر المسلمة إلا ثمانية عشر رجلاً، ولكن ألمانيا النصرانية قد اشترك منها ثلاثون فيه، ومن عجب أن أول ما طبع المصحف في العالم طبع في ألمانيا، وهذا سر قوله تعالى: ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ مشيراً إلى صيت العرب وذكرهم بهذا القرآن، حتى طبعوا كتبهم ودينهم في مطابعهم. فياليت شعري، إذا كان هذا شأن اللغة العربية عندهم وهم مسيحيون فما بالك لو كانوا مسلمين! هذا كله سر قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

إن أوروبا اليوم فيها فحول العلماء، ولقد شاهدناهم وكاتبناهم فوجدناهم يدرسون اللغة العربية دراسة تامة، ويعرفون أسرارها أكثر من كثير من المسلمين، ذلك كله أشار له القرآن بقوله: ﴿ عَرَبِيًّا ﴾، وإلا فمعلوم أن القرآن عربي.

حكاية

كان أحد الملوك الإسلاميين وهو في سفره له سمير يحادثه ويلقي عليه الملح والنوادر والفكاهات وكان لا يتكلم معه إلا بحكمة، فبينما هما سائران إذ لمحا بناء. فقال له: ما هذا البناء؟ فقال: هذا بيت عاتكة الذي قال فيه الشاعر:

يا بيت عاتكـة الذي أتغزل   حذر العدا وبه الفؤاد موكل

ولما كان من عادة الخليفة أن لا يسمع من هذا السمير إلا ما له حكمة قال في نفسه. يا عجباً، لم قال هذا البيت؟ إن الجواب يكفي فيه أن يقال بيت عاتكة فلم ذكر المسبب، فسأل خواصه وندماءه: هل هناك شيء يلاحظ بالنسبة لهذا السمير؟ فقالوا: نعم إنك وعدته وعداً فلم تنجز، ففطن إلى أنه يشير إلى قول الشاعر:

ولأنت تفري ما تقول وبعضهم   ملق اللســان يقول ما لا يفعل

فأعطاه كل ما كان وعده به وأجازه لحسن أدبه.

فما يشير له لفظ ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أن القرآن سيصير شرفاً للعرب ولو في أيام محنتهم.

إن أبناء العرب اليوم أصبحوا أضعف من آبائهم في الجاهلية من حيث السياسة، ولكن شرف القرآن ألقى عليهم شعاعاً وبارقة أمل نسمعها أيام هذا التفسير، وسيكون لهم مجد لأنهم الآن أخذوا

ينفضون غبار الكسل والذل عنهم وهم مجدون، وفي آية أخرى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الزخرف: ٤٤].

يشير الله إلى أن القرآن شرف للعرب وللنبي صلى الله عليه وسلم، وإلى أننا مسؤولون عنه لأننا أرباب اللغة. إن ذلك توبيخ لنا في العصر الحاضر. يقول الله: إذا كنتم أنتم أبناء العرب فكيف تهربون من مجدكم؟ كيف يقوم أبناء الألمان المستشرقين الذين لا يبلغون ثلاثمائة فيقرؤون تفسيره الكبير وهو تفسير الطبري المذكور. وأنتم يا أبناء العرب تعرضون عنه. يقول الله: القرآن عربي، فأنتم يا أبناء مصر والشام والعراق والحجاز عرب فعليكم نشره. وإذا كان أبناء أوروبا الذين هم ليسوا مسلمين يطبعونه وينشرونه أفلستم أولى به؟.

وقد أخبرني السيد مصطفى البابي الحلبي الذي طبع ذلك الكتاب قائلاً: طبعت التفسير المذكور فلما أرسلته إلى ألمانيا لم يعجبهم الفهرست فوضعوا له هم فهرستاً آخر من عندهم. وأخبرني أخباراً كثيرة من هذا القبيل. لقد اطلعت على عجائب في أيام حياتي. ذلك أني وجدت كثيراً من عظماء أمتي يحقرون الدين والعرب وكل شيء منسوب لآبائهم، لماذا؟ لأنهم ظنوا جهالة أن الدين واللغة والانتساب للعرب هو الذي جعل الفرنجة يدخلون بلادنا. وظن بعضهم أنهم باحتقارهم عاداتهم وتقاليدهم وأنهم يندمجون في الأجانب الذين دخلوا بلادهم يرتقون، ولكن تغيرت الأيام وظهر في الشرق وفي مصر رجال غيروا الرأي، وأخذت العقول تنشط، ولكن إلى الآن لم تصل إلى درجة الارتقاء التي يفيدها قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾، فإن صبغتنا العربية الآن محجوبة وهي تظهر قليلاً قليلاً، وسيكون لها الشأن الأكبر قريباً كما قلت مراراً في هذا التفسير. إن التعبير بلفظ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ يفيد بقاء اللغة العربية أجيالاً وأجيالاً، لأن القرآن حافظ لشكل اللغة، ملزم جميع الأمم العربية وغير العربية المختصة بدراسة الأمم العربية أن تقرأ النحو والصرف وما أشبههما، وذلك الشكل يبقى ما بقي القرآن، والقرآن باق إلى آخر الزمان. وهذا الموضوع مذكور في أول سورة «آل عمران»، وهناك ملخص رواية منقولة عن أحد الألمان ملخصها أن اللغة العربية هي التي تبقى بارزة إلى آخر الزمان، وهي التي تحفظ العلوم، لأن جميع اللغات بعد مئات السنين تتغير تغيراً كبيراً، واللغة العربية تبقى، لأن القرآن يحتم أن تبقى هذه اللغة على حالها، بخلاف لغات العالم كلها فهي في تغير مستمر، كما هو معلوم في علوم اللغات.

وقوله: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي: للعاملين به والمخالفين له ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ لأنه لم يتدبره ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تأمل ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ ﴾ في أغطية جمع كنان ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ الوقر أصله الثقل ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ يمنعنا من التواصل ﴿ فَٱعْمَلْ ﴾ على دينك ﴿ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾ على ديننا ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي عنه ولست أدعوكم بلغة غير لغتكم، فماذا يصدكم عن الفهم؟ فتقولون: قلوبنا في أغطية وآذاننا فيها ثقل وتعرضون هذا الإعراض ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ إلى الله ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ مما أنتم عليه ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ من فرط جهالتهم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾

لبخلهم وقلة رأفتهم على الخلق ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ لاستغراقهم في طلب الدنيا، فلا علم لهم بالآخرة فيرعوون عن الانهماك في المال فيعطونه للفقراء ولا شفقة تدفعهم إلى الإحسان إليهم، ثم ذكر أضدادهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: غير ممنون به عليهم أو غير مقطوع.

ذكر بدء الخلق

قال تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ في نوبتين ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أي: ولا يصح أن يكون له ند ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي خلق الأرض في نوبتين: نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية، ومرة جعلها (٢٦) طبقة في ستة أدوار ظاهرة في علوم طبقات الأرض، فجمودها نوبة، ونظام طبقاتها نوبة ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لا ربها وحدها، فهو مربي كل العالم، فلئن رباها في نوبتين فقد ربى غيرها في نوبتين أو أكثر ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت ﴿ مِن فَوْقِهَا ﴾ مرتفعة عليها لتكون أساسها في الأرض وهي الطبقة الصوانية التي تقدم الكلام عليها في علم طبقات الأرض في سورة « هود » وغيرها بمثابة حصن حصين فوق الكرة النارية التي هي عبارة عن الأرض كلها، وهذه الطبقة التي هي أول ما تكون فوق الكرة النارية هي التي برزت منها الجبال، فالجبال أساسها بعيدة الغور ضاربة في جميع الطبقات واصلة إلى أول طبقة وهي الصوانية التي لولاها لم تكن الأرض أرضاً ولم نستقر عليها، فهذه الطبقة أشبه بنظام الأجسام الحيوانية تكون حافظة للمائعات الداخلة من الطعام والشراب والدم والشحم، وما أشبه ذلك، ويسترها اللحم والظفر والشعر والعروق والشرايين والأوردة والشحم وغيرها، هكذا كرة النار التي هي عبارة عن أرضنا غطيت بالطبقة الصوانية وفوقها طبقات ألطف تكونت فيها الحيوانات والنباتات على مدى الزمان، كما يكوّن على أجسامنا وأجسام الحيوان الشعر والوبر والصوف، فأما هذه الجبال فما هي إلا نتوءات نتأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات الآلاف من الكيلومترات، ثم ارتفعت فوق الأرض وصارت مخازن للمياه وللمعادن وهداية للطرق وحبساً للسحاب وللهواء حتى تحفظه، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ أي: وأكثر خيرها وذلك بالأنهار المبتدئة من الجبال المذكورة الحافظة من حيث أصلها للأرض أن تتبدد الخازنة لمائها ومعادنها كالذهب والنحاس والحديد، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ أقوات أهلها. كل ذلك حصل في نوبتين، فيكون خلق الأرض وجعل الرواسي فوقها وإكثار خيرها وتقدير أقواتها من أنواع الحيوان والنبات كل ذلك ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾، فهذا كالفذلكة لما تقدم، استوى ﴿ سَوَآءً ﴾ استواء ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي: الذين يسألون الأقوات، وهو كل حيوان على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فالناس والحيوان كلهم سائلون ربهم ما يحتاجونه من طعام وشراب ولباس ودواء، وذلك السؤال طبيعي فيهم مغروس في جبلتهم، يسأل الحيوان كالنملة والنحلة والشاة والذئب الرب كما يسأله الإنسان سواء بسواء، فالنملة تطلب قوتها فتجده، والنحلة والعنكبوت والخنزير والكلب والشاة والذئب، تطلب الشاة الطعام فتجد الكلأ، ويطلب الذئب الطعام من ربه فيجد الشاة، فقد أجال الكل والكل يحبه، وقد

ألقى بينهم العداوة والبغضاء ليدوم الارتقاء للآكل والمأكول، فالغزالة تهرب من الذئب فتعطى قوة ونشاطاً لولا الخوف ما كانا، وذلك يقويها ويرقيها. والذئب يجوع وقد حرم عليه أن يأكل الحشائش فهو مضطر أن يأكل الغزالة وهو هو المخيف المزعج لها. وبعبارة أخرى: هو المقوي لعضلاتها لإزعاجه إياها بصوته وحملاته فيغير على القطيع العظيم فيأخذ منه غزالة واحدة أو شاة واحدة، ذلك أجر لما فعله لأنه كأستاذ يعلمهم علم القوة وتربية العضلات والحذر ويقوي القوى الخيالية، وينال مكافأة على ذلك شاة واحدة من قطيع يبلغ المئات من الشياه وربما يأخذ الضعيف الهزيل منها لضعفه عن الجري أو لتأخره، وما تأخر إلا لضعفه، ويريح الجو من التعفن بتلك الجثث التي تقع فيه من الحيوانات، فهذا من معنى قوله تعالى هنا: ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[فصلت: ١٠].

ثم إن الإنسان يهتم بحال ما حوله من الأرض، فلذلك قدّم ذكرها وبيّن أنها هي وما عليها قد كوّنها في أربع نوبات: فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازاً، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فيها معادنها، والمرتان الأخريان إحداهما للنبات، والثانية لعموم الحيوان.

ولما فرغ من الكلام عليها أخذ سبحانه يذكر السماء على سبيل الترتيب الذكري، أي أن الأرض أولاً في الذكر ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: قصد نحوها، يقال: استوى إلى مكان كذا، إذا توجه إليه، ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ أي: مادة غازية نارية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو السديم، وتسمى اليوم في العلم الحديث «عالم السديم»، وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم ستين ألف عالم تبرز للوجود من جديد لا تزال على الحالة السديمية، كما نقلته لك من الكتب الفرنجية في غير هذا المكان، ورأوا أن من تلك العوالم ما هو في أول تكونه، ومنها ما قطع مراحل في تكوينه، ومنها ما قارب التمام، وهي عوالم كعالمنا الشمسي الذي نحن فيه، وسيبرز للوجود كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها، وكانت في الأصل دخاناً وستستمر في التكوين ومدتها نوبتان، ونحن لا نقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان، غاية الأمر أن نقول: نوبة للبداية ونوبة للنهاية، ويكون هذا القول من الجمل العامة وفائدته أن التكوين لم يكن في لحظة واحدة، لئلا يتطرق إلى العقول أنه كان كذلك في الأصل، بل يريد أنه جار على الحكمة والنظام، وقد كوّن في غير نوبة، وكفى هذا في كتاب مقدس كالقرآن يقول إنه خلق الأرض في نوبتين وما عليها كذلك والسماوات السبع كذلك. فهذه العوالم كلها التي شوهدت بالمناظير المعظمة ستبرز للوجود في نوبتين بثوبها القشيب، كما برزت أرضنا وكوّنت شمسنا في نوبتين، إذ قصد الله إليها وإلى كل شمس من الشموس التي كشفت ولم تكشف وهي تعد بنحو خمسمائة مليون، بل قدرها بعض الفلكيين في هذه السنة بما يبلغ ألفي مليون، ويقولون: هذا قطرة من بحر العوالم المجهولة، فهذه كانت عالماً دخانياً فدوّرها وكوّرها فدارت آلاف آلاف السنين، ثم خرجت منها الأرضون والسيارات كما خرجت أرضنا وسياراتنا من شمسنا أثناء دورانها، ثم برزت الأراضي التي قدّرت على الأقل بنحو ثلاثمائة ألف ألف أرض، أي أن تلك الأراضي الدائرة حول الشموس وحول أنفسها بردت قبل شموسها ﴿ فَقَالَ لَهَا ﴾ أي: لتلك العوالم السماوية ﴿ وَلِلْأَرْضِ ﴾ أي: جنس الأرض التي دارت حولها وهي مئات الملايين ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ شئتما أم أبيتما

﴿ قَالَتَآ ﴾ أي السماوات والأرضون ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ وهذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية ، فهي حركة أشبه بحركة المشوق ، فهي تجري جري طاعة لا جري قسر ، والدليل المشاهد على ذلك أننا نرمي الحجر إلى أعلى قسراً فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية ، فهو مجذوب إلى الجسم الذي هو أكبر منه . هكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التي هي أصلها ، وهي حركة دورية بالطوع لا بالقسر ، لأن الحركة القسرية كرمي الحجر إلى أعلى وهي سريعة الزوال ، أما حركة الطاعة فهي الدائمة مادام المطيع متخلقاً بخلقه الذي هو عليه ، ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أي : نوبتين دلالة على النظام والسير بالحكمة كما تقدم في خلق الأرضين ، ومن هذا يفهم كيف قال : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ﴾[فصلت:١١] الخ ، ذلك للدلالة على أن حركة الإتيان منهما مصطحبة ، فبينما ترى الأرض دائرة حول نفسها وحول الشمس ؛ ترى الشمس دائرة حول نفسها وحول شمس أكبر آلاف الآلاف منها ، فهذا هو السبب في ذكرهما معاً ، أي أنه قال لهما معاً وأجاباه معاً ، وحقيقة الأمر كذلك ، لأن الأرض لما كانت من ضمن الشمس كانت دائرة من جملة أجزائها ، فالقول كان لهما معاً وهو الآن لهما معاً ، وإنما قدم الأرض في الذكر على السماء للسبب المتقدم أولاً ، ولأنها تم تكوينها بعد البرودة . وأما أكثر الشموس فلا يزال هناك زمن طويل حتى تبرد وتصير أرضين ، ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ شأنها وما يتأتى حملها عليه اختياراً . ثم ذكر ما هو أهم لنا فقال : ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ فإن هذا العالم الذي نشاهده وهو أقرب إلينا الذي نراه مرصعاً بالنجوم هو الذي نسميه السماء الدنيا ، ولو أننا ارتفعنا إلى بعض عوالمه لرأيناه سماء أخرى بكواكب غير هذه وهكذا إلى آخرها ، فهو سبحانه يقول : إنه زين سماءنا الدنيا بهذه المصابيح المتلألئة المتوهجة ، ثم يقول : ﴿ وَ ﴾ حفظناها ﴿ حِفْظًا ﴾ من الآفات ومن أن يدرك سرها من لا يتأهلون لمعرفتها ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ البالغ في القدرة والعلم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة .

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[فصلت:١٠]

اعلم أن الله لما خلق الإنسان قدر أقواته متفرقة وأحوج كلًا إلى كل ، بحيث نرى من يسكن بلاد آسيا يحتاجون إلى أهل أفريقيا ، وأهل أفريقيا يحتاجون إلى أهل آسيا ، وهذه التربية يراد بها التواصل طوعاً أو كرهاً ، فتجد القطن بمصر وأمريكا وكل الأمم في حاجة إليه . وترى النخل لا يكون إلا في البلاد الحارة . وليس للبلاد الباردة فيه نصيب . وترى النارجيل في الأقطار التي هي أشد حرارة . والبندق في البلاد الباردة . وهكذا جعل لكل قطر خاصية . وأحوج الأمم الأخرى كل منها إلى بقية الأمم . وكلما ارتقت الأمم ازدادت الحاجات وهذا في الحقيقة داعية إلى التواصل والتحابّ طوعاً أو كرهاً . فتارة يتاجر بعضهم مع بعض وآونة يتصلون بالسياحات . وطوراً بالكتب والمراسلات . ووقتاً بالبعثات العلمية . وساعة بالحرب والقتال وهكذا . كل ذلك دلالة عملية أن هذا الإنسان تقدير قوته يدعوه إلى التواصل والتحابّ . وذلك يدعو حثيثاً إلى العلم ، فإن تقدير الأقوات لما بحثناه وجدناه يدعو إلى البحث عنه . ولا بحث إلا بعلم . فأمة الإسلام أصبحت ملزمة باتساع العلوم في كل آية من كتاب الله ، وإلا فكيف يقول : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[فصلت:١٠] وقد تقدم بقية الكلام . اهـ .

القسم الثالث من السورة

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ﴾ عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة، والصاعقة: رعد معه نار. ﴿ مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي: أتوهم من كل جانب وعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا الإعراض. أو أنذروهم وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة. وقوله: «أن» هي تفسيرية بمعنى «أي» ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا ﴾ أي: القوم ﴿ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أي: لو شاء ربنا إرسال رسل لأنزل ملائكة. وإذا كنتم أنتم بشراً ولستم ملائكة ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ لأنكم لستم على ما شرطناه، وهو أن يكون الرسول ملكاً فرسالتكم لا نؤمن بها ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: فتعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون، فولايتكم عليها بلا استحقاق، ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتراراً بقوتهم وشوكتهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قدرة ﴿ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ يعرفون أنها حق وينكرونها ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ باردة تهلك بشدة بردها ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ جمع نحسة، أي: نكدات مشؤومات ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: عذاب الذل فيها والهوان في مقابلة استكبارهم في الأرض ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ أشد خزياً، وهو إسناد مجازي للمبالغة ﴿ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ لا يدفع العذاب عنهم ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ فدللناهم على الحق ﴿ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فاختاروا الضلالة على الهدى ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ أي: ذي الهوان ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من اختيارهم الشرك ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والمعاصي وهم صالح والمؤمنون.

انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ﴾[فصلت: ١٣] الخ

جاء في بعض الروايات أن قريشاً اجتمع ملأ منهم وقالوا: التمسوا لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فليكلم محمداً، وليأتنا لنعرف ما الذي جاء به، فقال عتبة بن ربيعة: أنا لها. فلما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم قال له: أنت خير أم هاشم؟ وعدّد آباءه وقال: كيف تشتم آلهتنا وتسفه أحلامنا؟ ثم عرض عليه المال والنساء والسيادة وأن يكفّ عن ذلك، كل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت، فلما فرغ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[فصلت: ١-٢] إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ﴾[فصلت: ١٣]، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم، ثم رجع واحتبس ولم يخرج، فذهب إليه أبو جهل في جماعة، واتهمه بالحاجة للمال من النبي صلى الله عليه وسلم لأنه صبأ إليه، فغضب من ذلك عتبة وحلف لا يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه قال: أقول الحق ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقص عليهم ما جرى وما سمع، وقال: إني خفت أن ينزل بكم العذاب.

وفي رواية أخرى أنه وصل إلى السجدة فسجد ثم قال: أسمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك، فقام عتبة إلى آخر ما تقدم وقال: يا معشر قريش خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فله ملككم وعزّه عزّكم وأنتم أسعد الناس به، فاستهزؤوا به ساخرين.

القسم الرابع من السورة

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا

مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي: اذكر يوم يجمعون ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يساقون ويدفعون أو يحبس أولهم حتى يلحق آخرهم لكثرتهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ إذا حضروها ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وذلك بلسان المقال أو بلسان الحال الخاصة التي لا توجد في غيرها من الممكنات فتكون فيها علامات وشواهد دالة على أخلاقها وأعمالها وآرائها، وذلك عبارة عن سوائل روحية متمايزة، كل سائل يدل على خلق من الأخلاق ولا يحجب واحد منها الآخر، كما يكون في أنواع النبات والشجر روائح مختلفة، وكما يكون في الهواء أنواع الأصوات المختلفة والروائح، فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة، والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة، وتلك السوائل الروحية ملازمة لأربابها مضايقة لهم مشقية أو منعمة لهم مفرحة. وتختلف الناس بتلك السمات اختلافهم في الدنيا بالألوان والأشكال والأصوات وخطوط اليد وخطوط الإبهام بحيث لا يشابه أحد غيره، هكذا الأجسام الروحية بعد الموت تكون على هذا المنوال لا تشبه نفس أخرى في أوصافها، فهذه هي الشهادة التي تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم، وهاهنا يبدو التعجب منهم قولاً أو حالاً، وهو المعبر عنه بالسؤال والجواب وهما ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ سؤال توبيخ ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾ نطقاً لفظياً أو فعلياً واضحاً أوضح من النطق اللفظي ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ فكل شيء يدل بلسان حاله دلالة أفصح من الدلالة اللفظية. انظر هذا المقام في سورة «النساء» فإنك ترى الكشف الحديث معجزة للقرآن. ثم قال تعالى: ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وفيكم دلائل واضحة كخطوط اليد والإبهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها وظهور آثار الأخلاق على الوجوه، كل ذلك كان في خلقكم أول مرة، وقليل من الناس من يفطن له ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وتلك العلامات أصبحت أشد ظهوراً عند رجوعكم إليه، ولقد كنتم في الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار عند ارتكاب الذنوب، وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيري الذي هو على صورة الجسم الظاهري قد سطرت فيه جميع أعمالكم كأنه لوح محفوظ لها، فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب، وهذا قوله: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾

خيفة ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ لأنكم لم تكونوا عالمين بشهادتها عليكم ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : ولكنكم اجترأتم على ما فعلتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما كنتم تعملون وهو الخفيات من أعمالكم ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله : ﴿ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أي : أهلككم، خبر ثان ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة إلى الشقاء به ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ لا خلاص لهم منها ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أي : وإن يسترضوا فما هم من المرضين، أو يقال : وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع إلى ما يحبون فما هم من المجابين إليها ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ ﴾ وقدرنا للكفرة ﴿ قُرَنَآءَ ﴾ إخواناً من الشياطين ﴿ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أمر الدنيا وشهواتها ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من إنكار الآخرة ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ كلمة العذاب حال كونهم ﴿ فِىٓ أُمَمٍ ﴾ في جملة أمم ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وقد عملوا مثل عملهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ تعليل لذلك والضمير لهم وللأمم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ والغطوا فيه، واللغط : كثرة الأصوات، فكان يوصي بعضهم بعضاً بإكثار الكلام وهو يقرأ حتى يختلط عليهم ما يقول ﴿ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ محمداً على قراءته ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ وهم هؤلاء القائلون ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي : بأسوأ ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي : الأسوأ ﴿ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ﴾ مبتدأ وخبر، هي ﴿ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ يقيمون فيها ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ينكرون الحق ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وهما نوعا شياطين الإنس والجن ﴿ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ نجعلهما في الدرك الأسفل ﴿ لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ مكاناً وذلاً انتقاماً، ولما أنهى الكلام على قرناء السوء وأنهم بعد المودة في الدنيا يكونون أعداء في الآخرة؛ أعقبه بالقرناء الطاهرين الخيرين فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ اعترافاً بربوبيته ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ في العمل مع الثبات على الإيمان والإخلاص ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ عند الموت وعند الخروج من القبر، ثم فسر ذلك فقال : « أن » بمعنى : أي ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ ﴾ مما تقدمون عليه ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾ على ما خلفتم في الدنيا من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك ﴿ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا على لسان الرسل ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : أنصاركم وأحباؤكم نلهمكم الحق ونحملكم على الخير، بخلاف الشياطين كما تقدم ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ بالشفاعة والكرامة، أما الشياطين فإنهم يكونون أعداء الكفار ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ من اللذائذ والكرامات ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي : تتمنونه حال كونه ﴿ نُزُلًا ﴾ رزق النزيل وهو الضيف ﴿ مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ . قال العلماء : وإذا كان هذا كله نزلاً وهو ما يقدم للضيف فما بالك بما بعده، وأقول : إن اللذات البدنية مهما طال أمدها لا تكفي النفس الإنسانية، ولا أماني للنفوس إلا العالم الروحاني . وبعبارة أخرى : أن تصل إلى لقاء الله تعالى وترقى فوق طبقات أهل الجنة، وهو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق : ٣٥] ، وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة : ٢٢-٢٣] ، فكأن الصالحين يكونون في الجنة أمداً على مقدار

استعداداتهم، ثم يبرحونها إلى ما هو أعلى منها، وهو العالم الأعلى المسمى بعليين، كما ورد: «أريت الجنة فإذا أكثر أهلها البله وعليون لأولي الألباب». وفسر الإمام الغزالي البله بمن ليس لهم فكر في حب الله تعالى، فهؤلاء يقفون عند الثواب الجسمي، وليس عندهم شوق إلى الأمور الإلهية، فهؤلاء هم الصالحون الذين يصلون ويصومون لأجل لذات جسمية في الآخرة فينالونها، ولكن هناك من هم أرقى منهم وهم عشاق العلم في الدنيا أي نظام هذه الدنيا وعجائبها، فهؤلاء إذا ماتوا طاروا في عالم الجمال وتركوا اللذائذ الحسية لمن لم يعرفوا هذا النعيم الأعلى. انظر إيضاح هذا المقام في أوائل سورة «البقرة»، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ إلى عبادته ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿ وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ فيعتقد قلبه الإسلام ويتلفظ به ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة، و«لا» الثانية مزيدة لتأكيد النفي، يعني أن الحسنة والسيئة متفاوتتان، والحسنة والأحسن منها متفاوتتان كذلك، فإذا اعترضت سيئة وحسنة فخذ بالحسنة، وإذا اعترضت حسنتان في دفع السيئة فخذ في دفعها بالتي هي أحسن، فإذا أساء إليك رجل فليس طريقه أن تسيء إليه، وهناك حسنتان: العفو عنه، والإحسان إليه، والإحسان أحسن من العفو فخذ به، فإذا ذمك فلا تكتف بالعفو بل امدحه وهكذا، ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك، ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي: يلقى هذه السجية، وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الخير وكمال النفس ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ النزغ يشبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه، أي: يبعثه إلى ما لا ينبغي، أي: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لاستغاثتك ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيتك وصلاحك. تم التفسير اللفظي للقسم الرابع.

القسم الخامس من السورة

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ

قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ لأنهما مخلوقان مثلكم، وقد تقدم الكلام بالإسهاب على هذا وما قبله عند تلخيص تفسيرها في أول هذه السورة، وقوله: ﴿ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ الضمير للأربعة ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ولا جرم أن السجود أخص أنواع العبادات، فمن سجد لشمس أو قمر ظاناً أنه يتقرب إلى الله فهو في ضلال ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ عن الامتثال ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ دائماً ﴿ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ لا يملون، وقد تقدم ذلك فارجع إليه إن شئت. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ يابسة متطامنة ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات ﴿ وَرَبَتْ ﴾ انتفخت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيكون قادراً على البعث ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ يميلون عن الحق في أدلتنا بالطعن ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ وعيد لهم على تحريفهم القرآن عن جهة الصحة وطعنهم ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ تمثيل للمؤمن والكافر ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ نهاية في التهديد ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ ﴾ بالقرآن بالطعن فيه وتحريف تأويله ﴿ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ حين جاءهم يعذبون ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ كثير النفع عديم النظير محميّ بعناية الله ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ التبديل أو التناقض ﴿ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ مستحق

للحمد ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ ما يقول لك كفار مكة ونحوهم ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي: إلا مثل ما قيل الخ من كلمات جارحة ومطاعن ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لأوليائه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لمن هم أعداؤهم، ولما قالوا: لماذا لم ينزل القرآن بلغة العجم؟ قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ﴾ بينت بلسان نفقهه ﴿ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ أي: كلام أعجمي ومخاطب عربي ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى ﴾ إلى الحق ﴿ وَشِفَآءٌ ﴾ لما في الصدور من الشك والشبهة ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ مبتدأ «هو»، ﴿ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أي: صموا عن استماع القرآن وعموا عنه فلا انتفاع لهم به ﴿ أُولَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ فهم لعدم قبولهم الحق أشبه بمن ينادون من مكان بعيد للإيمان فلا يسمعون لبعد المسافة ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ ما بين مصدق ومكذب ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهي فصل الخصومة يوم القيامة ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ بإهلاك المكذبين ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي: الذين لا يؤمنون ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من التوراة أو القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موجب للاضطراب ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ نفعه ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ضره ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فيعذب غير المذنب ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ أي: إذا سأل سائل عنها يقال له: لا يعلم وقت قيام الساعة إلا هو والخلق محجوبون عن معرفة ذلك. ثم أشار بطرف خفيّ إلى نظام يوم القيامة وجزاء المحسن والمسيء ليكون علماً للمستبصر فقال: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ جمع «كم» بالكسر ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ إلا مقروناً بعلمه واقعاً حسب تعلقه به، فكما أن الثمر لا يخرج من الأكمام إلا وهو عالم به، وأن الحامل ووضعها لا يكون إلا بعلمه، هكذا لا تكون الساعة إلا بتقديره ومشيئته، وكما أن الثمر نتيجة الشجرة وعلى مقتضاها، والولد يكون نتيجة أحوال الوالدين جسماً وحالاً غالباً، هكذا تكون النفوس المنسلة من الأجسام الأرضية هناك على مقتضى ما كانت عليه في الدنيا، ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، وكأن هذا العطف أفادنا بطرف خفيّ أن الناس يوم القيامة على حسب أحوالهم في الدنيا كالثمر على مقتضى شجره والولد على مقتضى أبويه، وعلى هذا تكون العوالم كلها متوافقة في نظامها متسابقة إلى حسن النظام والنتائج الخاصة بها، فإذن يكون العالم كله راجعاً لمبدأ واحد، لأن النظام الواحد مدبره واحد، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾ بزعمكم ﴿ قَالُوٓا ءَاذَنَّـٰكَ ﴾ أعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾ من أحد يشهد لهم بالشرك، وذلك أنهم لما رأوا العذاب تبرؤوا من الأصنام ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ يعبدون ﴿ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ مهرب ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ﴾ لا يمل ﴿ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾ من طلب السعة في النعمة ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ الضيق ﴿ فَيَـُٔوسٌ ﴾ من الخير ﴿ قَنُوطٌ ﴾ من الرحمة ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ أي: وإذا أحللنا الصحة محل المرض والغنى محل الفقر قال: إن هذا حقي استوجبته بأعمالي وهو لا يزول عني بل هو دائم، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أي: ما أظنها ستقوم ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ كما يقول المسلمون اليوم ﴿ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: الحال الحسنى والكرامة والنعمة، فإذا كان الله أعطاني نعمة فهو يوم القيامة يوليني

كرامته، ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد لا يفتر عنهم ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ ﴾ عن النعم وبطر النعمة فنسي الشكر ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ تباعد عن ذكر الله ودعائه وتكبر وتعاظم، والجانب: المكان والجهة، فنزلت منزلة نفس الإنسان، كما تقول: كتبت إلى جهة فلان وجانبه العزيز، أي: نفسه فقوله: ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ معناه نأى بنفسه ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ الضرّ والفقر ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ كثير أي: يقبل على الدعاء والابتهال والتضرع، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: القرآن ﴿ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ من غير نظر ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي: من أضل منكم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الاستفهام، أي: فأنتم ضالون، وإنّما لم يقل منكم، بل ممن هو في شقاق بعيد، أي: خلاف للحق بعيد عنه، لبيان حالهم وتقريعهم من غير مواجهة بالخطاب ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ من فتح البلاد شرقاً وغرباً وظهور العلوم في العالم الإنساني، وكشف ما كان مجهولاً في البحر والبر، وتحليل المركبات إلى عناصرها وظهور مخبآتها وأنها مركبات بحساب لا خلل فيها، كما بينا في القرآن إذ قلنا: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩]، وقلنا: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، وقلنا: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨] وقلنا: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩] وقلنا: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧-٨] وقلنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[غافر: ١٧]. وهذه كلها ستظهر لكم أيها الناس فتعلمون أن هذا القرآن حق. أقول: قد ظهر هذا كله اليوم، وعرفنا أن النبات بحساب في عناصره الداخلة فيه، وكذا الحيوان، وهكذا حركات الكواكب والمسافات التي بين كل كوكب وآخر، كل ذلك ظهر في العلم اليوم، وكله معجزة للقرآن إذ قال الله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، وهكذا خاطب الأموات الأحياء وكلموهم، وتعارف الأحياء والأموات وفهم كل الآخر، كل ذلك معجزة للقرآن، وهكذا نظر الناس علم تشريح الحيوان وتشريح الإنسان ونظام النبات، كل ذلك على وتيرة واحدة، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾[الملك: ٣-٤]، فإنك لا تجد خللاً إلا عند الجاهلين، فهذه العلوم التي ظهرت في العالم الإنساني يجب على العقلاء أن يدرسوها ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ﴾ أي: القرآن ﴿ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ أي: أولم يكف ربك، أي: ألم تحصل الكفاية به؟ ثم أبدل منه قوله: ﴿ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي: محقق له، فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة أي: ألم تكفهم شهادة ربك على كل شيء؟ أي أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق والأنفس سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب، ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ ﴾ في شك ﴿ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ عالم بجمل الأشياء ومفصلاتها. انتهى التفسير اللفظي للقسم الخامس من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذا القسم

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٧].

(٢) في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾ [فصلت: ٤٩] الخ.

(٣) في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] الخ.

اللطيفة الأولى: في إنزال الماء من السماء، وإنبات النبات وإخراج الثمرات، ووضع الحاملات أطفالهن مع قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [فصلت: ٤٧]

(١) اعلم أن المواد المعدنية والنباتية والحيوانية لا تنمو ولا تعيش إلا في الظروف الخاصة بها، فإذا لم تكن الظروف الموافقة فإنها تبقى في حالة لا تغير فيها ولا نمو ولا حياة، ومتى لاءمت الظروف اندفعت ذرات العناصر وتقاربت وتجاذبت وتحابت، وبتركبها مع بعضها تنشأ هذه العجائب المنظورة والبدائع المسطورة والزهر والشجر والحدائق والجنات والأعناب والأنعام والغزلان والآساد والذؤبان فنرى النبات بما يعتوره من الحرارة والنور والرطوبة واليبوسة يهب ويرتفع تارة مسرعاً وأخرى مبطئاً، كل ذلك لحوزه ما يلائمه أو فقده ذلك، وهذه قاعدة مطردة كانت قديماً وتبقى إلى آخر الزمان وانقطاع الدهر وزوال العصور.

(٢) يستنتج من ذلك أن مادة الحياة الأولى إنما جاءت من تجمع البسائط التي لاءمتها الظروف والأحوال.

(٣) تركيب العناصر والمواد التي على وجه الأرض يحصل بثلاث طرق، كل واحدة أقل مما بعدها وأرقى مما قبلها:

الطريقة الأولى: أن تركب العناصر تركيباً خالياً من صناعة الكيمياء ونظامها كما تركب الأحجار في الجبال، فإن تركيبها من عناصر ليس على نظام كيماوي ولا نظام حيواني، إذ ليس هناك قانون الكيمياء ولا قانون الحياة، وذلك كحجر الجير المسمى بحجر البناء، وهو كتل مختلفة الحجم ولونه أبيض أو سنجابي أو محمر، وله أسماء مختلفة فيقال: «دبش ودقشوم»، وهذه الأحجار مكونة من كالسيوم وأكسوجين، والكالسيوم فلز ذو لمعان أصفر يتغير بسرعة في الهواء الرطب، وإذا سخن على صفيحة من البلاتين يحترق بلهب شديد اللمعان، وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة، فهذا الفلز وهو الكالسيوم مع الأكسوجين يكون مخلوطاً بالرمل والطفل ـ بفتح الطاء ـ وأكسيد الحديد وكربونات المغنيسيوم، فهذه الأحجار جميعها تكون مخلوطة بتلك الأجسام، فإذن هذا ليس تركيباً كيميائياً بل هو أمر اتفاقي لا قانون له، كما يبني الناس بيوتاً بمواد مختلفة.

الطريقة الثانية: طريقة التركيب الكيماوي، مثال ذلك: البوتاسا الكاوية، وهي عبارة عن مركب الكالسيوم والأكسوجين والأيدروجين والكالسيوم والكربون، فيكون ثلاثة أجزاء من الأكسوجين

وجزء من الكربون ومثله من الكالسيوم واثنان من البوتاسيوم وجزء واحد من الأيدروجين، فهذا المركب على هذا النظام يسمى مركباً كيميائياً، فهذه الأجزاء تغلي فيحصل الاتحاد بغليانها ثم تروق وتصفى وتصعد بسرعة، وبعد التصعيد تصهر في جفنة من الفضة وتصب على سطوح من الرخام أو في قوالب معدنية، وهو في حداثته يكون قطعاً بيضاء معتمة، فالمركب من هذه الأجزاء الخمسة يصبح جسماً جديداً قد عدم جميع صفات الأجزاء التي تركب منها، فلا تجد للكربون ولا للكالسيوم ولا للبوتاسيوم أثراً في هذا الجسم الجديد، بخلاف ما تقدم في حجر الجير، فإنك تجد الذرات الرملية والذرات الطفيلية وهكذا حافظة خواصها. فهذا هو الفرق بين الأول والثاني.

الطريقة الثالثة: طريقة الحياة النباتية والحيوانية، هاأنت ذا أيها الذكي قد تبين لك كيف كان المركب العادي قد حفظت أجزاؤه خواصها، والمركب المعدني قد فقد المركب فيه خواصه، وأصبح عالماً جديداً بخواص جديدة تخصه. فانظر الآن فيما أقصه عليك وتأمل في هذه الأرض التي نعيش عليها. نعيش عليها ونحن لا نفكر في أقرب الأشياء إلينا. أقرب الأشياء إلينا حياتنا وحياة النبات والحيوان. فإذا أخذنا الأكسوجين والأيدروجين والآزوت والكربون؛ أعني إذا أخذنا مقادير من هذه الأربعة التي عليها العماد في تركيب كل نبات وحيوان وإنسان؛ أي أن كل حي لا بد من أنه يتركب منها مع إضافة عناصر أخرى أو أملاح، وجعلنا هذه المقادير مع بعضها بلا نظام؛ كانت أشبه بتركيب حجر الجير فيما تقدم. وإذا ركبناها بطريق كيميائي بنظام تام وأجزاء ثابتة أصبحت لها صفة جديدة وفقدت خواص الأجزاء الأولى، ولكن هل يمكنها أن تنمو؟ وهل يمكنها أن تحس وتتحرك؟ كلا. ثم كلا. فليركب الكيميائيون ما شاؤوا فإنهم لا يقدرون أن يخلقوا ورقة واحدة ولا دودة ولا زهرة. فعلماء الكيمياء أولئك الذين يركبون العناصر بنظام تام على قوانين خاصة لا يقدرون أن يذروها عاجزون جميعاً عن إحداث حال جديدة للمركب، بها يحس أو بها ينمو أو يتحرك. إذن فلنبحث عن الحياة.

الحياة سرّ سار في المادة الأصلية للكائنات

لقد تعلم أيها الذكي أن المادة تتنوع إلى نور وإلى حرارة وإلى كهربائية وإلى مغناطيسية. هكذا تتنوع إلى قوة حيوية، وهذا التنوع سرّ لا يدركه الناس، فهو قاسر يقسرها وقاهر يقهرها بنوّعها تنوّعات مختلفات. فما مثل الحياة إلا كمثل من رمى حجراً إلى أعلى فارتفع إلى الجو، ولما بطلت القوة الرافعة له التي استمدها من الرامي كرّ راجعاً إلى الأرض. هكذا كل نبات وكل حيوان وكل إنسان، فتكسب النطفة في الإنسان قوة وسراً يعطيها حياة فتأخذ في الارتقاء والنمو. وهناك تكون في الجسم عمليتان: عملية الهدم، وعملية التجديد، ففي أول الحياة تقوى عملية التجديد على عملية الهدم، كما يقوى الحجر وهو صاعد على مقاومة الجاذبية.

فإذا بلغ الإنسان أشده تعادلت القوتان، ثم تغلب قوة الهدم على قوة التجديد فيأخذ الجسم في الانحطاط والرجوع إلى الوراء فيصير هرماً فيموت، فالموت إذن ناجم من نفاذ القوة الحيوية كما نفذت القوة الرافعة للحجر فهبط.

وليس الموت من أجل تلف الأعضاء وضعف وظائفها، بل المسبب الأصلي للموت هو نفاذ القوة الحيوية يتبعها ذلك الضعف، فالضعف تابع لا أصل، ولو بقيت القوة الحيوية بحالها لأمكن أن تقوم بالتجديد بإذن الله تعالى.

كيف بدأت الحياة

بدأت الحياة بمادة هلامية في قعر البحر كشفها العلماء وسموها «بروتو بلاسما»، وهي مادة رخوة لزجة تصيب كل الأشكال بسهولة، ومتى تكاثفت كانت منها حويصلات جمع حويصلة ويقال لها «القلالي» فالحوصلة الواحدة تنقسم إلى قسمين، وكل قسم إلى قسمين، وتصبح هذه الحويصلات الجديدة متمتعة بحياة ونمو كالحوصلة الأولى، والأسهل أن نسميها بيضاً جمع بيضة كبيضة الدجاجة تسهيلاً للفهم، فكل نبات وكل حيوان وكل إنسان في الأصل بيضة واحدة تنقسم إلى قسمين كل منهما يصير بيضة. وهكذا هاتان تنقسمان، ويطرد الانقسام ويصبح كل قسم بيضة كاملة تامة الحياة تتغذى بغذاء خاص، فكل نبات تراه وكل إنسان تراه وأنا وأنت أجسامنا عبارة عن بيضة انفلقت فصارت بيضتين كل منهما كالأولى وهكذا، وفي أثناء الانقسام صار لنا العين والأذن والقلب والشعر، وصار للنبات الزهر والورق والثمرات، وصار للحيوان الناب والظلف والظفر والقرن والأرجل وهكذا. هذه صورة الحياة على وجه الأرض.

صورة ارتقاء الحياة على الأرض

إن الحياة على وجه الأرض سلسلة غير منقطعة كما قال الله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فالنبات عبارة عن البروتوبلاسما وقد تكونت فصارت بيضة، فاجتمعت البيضات فكان النبات، والنبات يولد ويحيا ويموت ويتغذى ويتناسل وهو محتاج إلى النور والحرارة والماء وتقتله المواد السامة ويتنفس، وفي بعض أنواعه إحساس. ثم إن النبات من أعلاه متصل بالحيوان فإن نوع الذوفيت يربط الحيوان بالنبات، فهو على شكل النبات لتثبته بالأرض، ولكنه حيوان، ويليه الأخطبوط الهلامي وهو لا يمتاز عن النبات إلا بإمكان التنقل، وله معدة وبعض ظواهر الأعصاب، وليس له نظر ولا شم ولا سمع. ويعد ذلك الديدان، وهو أقوى وأقدر وأكمل أعضاء من الأخطبوط. ثم الحلزون والبزاق وذوات الأصداف التي ليس لها فقرات. ثم الحيوانات القشرية التي لها قشر كسرطان البحر. ثم عقرب البر وله سمع وبصر وله أعصاب عقدية، وبتلك الأعصاب تكون حركة الغذاء ودورة الدم. ثم ذوات الفقرات كالسمك وله دماغ ونخاع شوكي. ثم الدبابات الأرضية. ثم الطيور وأنثاها تبيض. ثم ذوات الثديين. ومنها ذوات الكيس وهي تحمل فيها صغارها، وهي توجد الآن في أستراليا. وهكذا ترتقي الحيوانات حتى تصل إلى القرد ثم الإنسان.

فهذه هي السلسلة التي نظمها الله عز وجل من أدنى إلى أعلى. فبينما تكون الحياة مادة رخوة في البحر إذا هي ارتقت في النبات من أدناه مرتقية إلى أعلاه. وفي الحيوان الأدنى مما يلي النبات وترتقي فيه إلى أعلاه حتى تصل إلى الإنسان. ومعنى هذا أن هذه العوالم هي أشبه بعقد منظم موضوعة خرزاته لنظام مهندم. وليس معنى هذا أن كل خرزة ولدت الخرزة التي بعدها. بل معناه أن الذي نظم

هذا أحسن صنعه ولم يدع في العقد موضعاً خالياً، فأما كون هذه الخرزة قد أنتجت ما بعدها فليس ذلك معلوماً، بل قال به قوم ولم يقم الدليل عليه الآن، وهذا لا يهم الباحث، إنّما المهم النظام والجمال.

خلق الإنسان

وهنا وصلنا إلى مقصودنا من تفسير الآيات، فهاأنت ذا اطلعت على نظام النبات إجمالاً وكذا الحيوان، وانظر قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[فصلت: ٤٧]، ألست ترى أن الأكمام التي على الشجر والحمل الذي في رحم المرأة عبارة عن تلك المادة الهلامية مضاعفة أضعافاً مجتمعة؟ فتأمل كيف كان اجتماع تلك البيضات التي لا عدد لها منتهياً بفوائد متحدة، أي كيف كانت نتائج الأشكال النباتية ملائمة لنتائج الأشكال الحيوانية، وأنها مناسبة لها غذاء ودواء. ثم كيف كان هذا الإنسان إذ كان أرقاها يودّ أن يستولي عليها عقلياً وعملياً، فهو مغرم بمعرفة كل نبات وحيوان ويحوز كل منهما.

إذن انظر في تركيبه في بطن أمه. انظر كيف كان خلقه تدريجياً لا طفرة. يقول الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾[العلق: ١-٢]، وانظر كيف رأى العلماء أنه يكون دودة صغيرة وهي العلقة المذكورة ثم حلزونة ثم سمكة ثم ذبابة ثم قرداً ثم يتوارى ذنبه ويصير إنساناً. فالدودة والحلزونة والسمكة والذبابة والقرد هي التي أشار لها الله تعالى فقال: ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾[الحج: ٥] أي: مسوّاة وغير مسوّاة، فما قبل الإنسانية هي غير المسوّاة، والإنسانية هي المسوّاة. واعلم أن هذه الصور التي رآها العلماء ليست يقينية بل هي تخمينية. انظر هذا المقام في سورة «آل عمران». وإنّما المهم في هذا المقام أن نفكر في أمر حياتنا، فإنها في أول أمرها بيضة تصلح للنبات والحيوان ثم ترتقي فتصير حيواناً ثم تصير إنساناً.

هذا درس ألقاه الله إلينا. يقول لنا: أنا لم أخلقكم لأهينكم بل أنا أرقيكم. ففي أمد قصير ارتقيتم في بطون أمهاتكم درجات كثيرة وهي النباتية والحيوانية. فإذا عشتم على وجه الأرض رأيتم الحيوان خاضعاً لكم، ثم أنزلت عليكم علوماً وقلت لكم إن لي ملائكة ولي عرش وعالم أرواح وبعث إلى آخره. فإذا متم فاعلموا أن العوالم التي تصلون إليها عظيمة جداً لا تقاس بعالمكم. فإليّ يردّ علم الساعة لا غيري، لأنها عوالم لا تعقلونها لأنكم لم تروها ولا تدركون زمانها، إذ جعلته مجهولاً عندكم لحكمة أردتها ونعمة قصدتها. ألا وإن خروجكم من أجسامكم الأرضية كخروج الثمر من أكمامه والولد من بطن أمه. فكلاهما نتيجة لما خرج منه وقد انتهى إلى عوالم لم تخطر بباله. فهل كان التفاح يشعر أنه يكون على موائد الملوك، أو كان الجنين في بطن أمه يدور بخلده أنه يوماً ما يكون ذا ملك عظيم ويذهب ويجيء في الأرض ويركب الخيل ويدبر الأمور. هكذا حياتكم بعد موتكم تكون في عالم نسبته إلى أرضكم كنسبة الدنيا إلى بطن الأم.

هذا إذا كانت النفوس عظيمة. فأما النفوس الضعيفة فإنها تكون هناك عمياء أشبه بالطفل الأعمى الأصم في الأرض، فتكون السعة هناك على مقدار درجات الأرواح العائشات هناك. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩]

هذا بيان لحال الإنسان إذا لم ينوّع العلم والدين عقائده وآراءه. إن الناس قبل أن يهذبوا ويربوا متى أصابهم الشر أخذوا يقلقون ويضطربون ويندبون حظهم ويحزنون وييئسون من روح الله، ويظنون أنه لا فرج لهم ولا عزّ لهم، وأنه قد أقفلت في وجوههم أبواب الفلاح والنجاح، فإذا سكن جأشهم وخف حملهم ورجعت إليهم عقولهم أخذوا يدعون ويتضرعون ويلحون أن يعطيهم الله تعالى الغنى والسعة، فإذا أجيبوا إلى دعائهم وأعطوا نعمة نسوا ما كانوا فيه من الضيق، وظنوا أن تلك النعمة دائمة لهم لا تفارقهم وهم أحق بها، بل ربما ظنوا دوامها وأنكروا الآخرة، لأن النعم أبطرتهم واللذات أسكرتهم. فهذا الإنسان أمره عجيب، يسلب النعمة فيضطرب ويكون مسلوب اللب يائساً حزيناً. ثم إذا خف الأمر عليه دعا الله. فإذا كثرت النعم أصبح أعمى عن الحقائق ناسياً ربه، ظاناً أن ما لديه من الصحة والمال والمنصب والقوة دائم، وهذا من غفلاته وجهالاته. وليس يخرج الإنسان من هذه الجهالة العمياء إلا التذكر والتفكر ودرس العلم والحكمة والصبر، حتى يعلم الإنسان أن النعمة والنقمة كل منهما درس له. فكل حال من أحوالنا دراسة لنا. فكما ندرس أطوار حياتنا في الرحم وفي الحياة الدنيا وندرس الحيوان والنبات يجب أن ندرس ما يجيء به الله لنا من المكاره والنعم، لننظر ما فائدة ذلك لنا، لا أننا نيئس تارة ونغتر أخرى، فإن ذلك فعل الذين عاشوا كالحيوان لا يفكرون ولا يعقلون. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]

لقد أشبعت الكلام على هذه الآية فيما تقدم. ولكن أقول لك الآن إن هذا الزمان أخص الأزمنة بهذه الآية وأولاها بها.

لتعلم أيها الذكي أن هذا زمان الانقلاب. إن الله قد كشف العلوم وأظهر العجائب في جميع أنواع الحكمة والمسلمون لا يعلمون. يقول الله هنا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. أنت قرأت في التفسير إلى هذا المقام واطلعت على ما أبدعه الله في هذه الدنيا وعلى العلوم التي أبرزها في الأرض، وأن ما في هذا التفسير خلاصة العلوم وجمالها وبهجتها وحكمتها، ولن تراه مجموعاً في كتاب. هو خلاصة علوم هذه الكرة وثمرتها. ففيه من كل فن وكل علم وكل حكمة. أفلست ترى بعد هذا أنك قد اطلعت فيما تقدم من هذا التفسير على تفسير هذه الآية أعني أنك قد قرأت فيه معنى هذه الآية. فإذا سمعت الآن قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أفلست تقول: نعم قد تبين لي أنه الحق وأن الله حقق ذلك. وليس معنى هذا أن تقول إني آمنت بالله ورسوله، فالإيمان يشترك فيه الجاهل والعالم، وإنما أقول: إنه قد تبين لك أن هذا الدين حق، وإني واثق أنك ستقول: نعم. أقول لك: إذن أصبح دين الإسلام ليس هو الذي يعرفه العامة بل هو دين الحكمة والعلم ودين الفلاسفة، أي أنه هو

الدين الذي لما ظهرت العلوم الحديثة كانت مبينة حقيقته . وإذا كان كذلك فأنت صرت شريكي في العمل أعني أنه حرام عليك أن تنام .

قم أيها الذكي وقل للمسلمين اقرؤوا العلوم وادرسوها حتى تقوموا بنصيبكم من إسعاد الأمم ، فإنكم الآن عالة على أوروبا . ادرسوا العلوم وأقيموا الحق ، فإن هذا هو الزمان الذي أظهر الله فيه سر كتابكم ، وقد قال لكم : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت : ٥٣] . فقل للمسلمين : إن الاقتصار على قراءة حديث : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله الخ » عار عليكم ، فلا تقتصروا على ظواهر الدين بل ادرسوا حقائق الكائنات .

يقول الله لكم : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت : ٥٣] ؛ فهل رأيتم ذلك؟ كلا . لا ترونها إلا بدراسة . فليدرس المسلمون كلهم على قدر استطاعتهم ليجدّوا . والله يسأل يوم القيامة وعند الموت من يقرأ هذا التفسير ولا يقوم هو مستقلًّا بالعمل لرقي الإنسانية .

أيها المسلمون ، أنتم خلفاء الله في الأرض ونبينا خير الأنبياء ونحن خير أمة أخرجت للناس . وهذه العلوم يجب علينا أن ندرسها . وهذا التفسير وأمثاله جاء في وقت انتقال الأمم من حال إلى حال ، والمسلمون سيأخذون دورهم وأنتم حتماً آخذون دوركم ، فإن لم تقوموا به طوعاً قمتم به كرهاً . وهذا التفسير وأمثاله تنبيه وإنذار للأمم الإسلامية . وسيقرؤه النبهاء فيهم بشوق . فإن لم يوقظوا الأمم الإسلامية بأقوالهم وأفعالهم فليعلموا أن الله قد أعدّ العدّة لكل متقاعس عن العمل من الأمم والأفراد . وسينزل غضبه على كل عالم لا يعظ وعلى كل أمة متقاعسة متقاعدة ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد : ١١] ، وكل من حضّ المسلمين على ما ذكرناه من الحكمة والعلم فله أجر المجاهدين . ومن ترك ذلك فهو من المقصرين .

إن ورود هذه الآية في هذه السورة الواردة في أواخر القرآن لمما يدعو إلى العجب ، فإن القارئ لما قبلها من السور ؛ المطلع على ما حوت من بدائع الحكمة في الأنفس والآفاق ؛ يقرّ إذا وصل إليها بأن القرآن يدعو إلى علم الأنفس والآفاق . فإذن تأخرها إلى الربع الأخير من القرآن بل الخمس الأخير منه لهذه الحكمة العجيبة . ألا وإن هذا هو الزمان الذي سيرقي الله فيه المسلمين . فطوبى لمن بادر من العاملين . وبشرى لمن كان من المبشرين الموقظين . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة . والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاثنين (٢٦) رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية .

تذييل لتفسير هذه السورة

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في إيضاح الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[فصلت : ٤٧]

بعد أن أتممت الكلام على هذه السورة خطر لي ليلاً أن ألحقها بهذه الجواهر الثلاث ، فلم أدافع الخاطر لأني رأيته خاطر خير . فهذه الأولى في ردّ علم الساعة إلى الله تعالى مع ذكر الحمل والوضع والثمر والأكمام . سبحان من أبدع هذه الدنيا وأحكم نظامها .

تأمل رعاك الله في الدرّ المكنون والياقوت البديع . انظر كيف جعل للإنسان هذه المراتب وهو جنين ، يتنقل مراتب في الرحم . فمن دودة صغيرة وهي العلقة إلى قوقعة إلى سمكة وهكذا حتى يصل إلى هيئة القرد فهيئة الإنسان .

ظنّ المشرّحون وعلماء الأجنة اليوم أن تلك هي الأدوار التي مرّ عليها وهم بذلك يوضحون نظامه ، يمر الإنسان على هذه الأدوار وتكون نفسه في تلك الأدوار مشاكلة لتلك الحيوانات ، ولكنها تمر عليها مسرعة ثم تقفز قفزة فتكون إنساناً ، فإذا رأينا الطفل يداعب الهرة ويحب الحمامة ويلعب بالعصفور فذلك لأنه كان بالأمس مثلها . إن المدرس لا ينجح في تعليم تلاميذه إلا إذا مرّ على أدوار التعليم وكان تلميذاً فيمكنه أن يمثل أدوار التعليم كما مثل أمامه . إن الله لم يجعل في الأرض عظيماً في علم أو في مال أو في ملك إلا إذا مرّ على الأدوار المنحطة وارتقى منها فعرفها فرجع إليها ، وعلى ذلك تجد الحكومات في رؤساء اللصوص الذين تابوا خير معوان على التجسس على اللصوص ، فربّ البيت أدرى بما فيه ، وهكذا نجد الأنبياء عليهم السلام يرعون الأغنام صغاراً ويرعون الأمم كباراً . وأمهر الأطباء اليوم من يجرب الدواء في نفسه ليعرف أدواره ثم يصفه في كتبه لينتفع به الناس .

هكذا هنا مرّ الإنسان على الأدوار الحيوانية وهو جنين ، لأنه (أولاً) : سيكون له بها علاقة في الحياة الجثمانية زراعة وركوباً وأكلاً وشرب لبن ولبس صوف وشعر ووبر وجلد وما أشبه ذلك واحتراساً من أسد ونمر وهكذا . و(ثانياً) : ليدرسها دراسة علمية إذا كان من أهل الحكمة ورجال العلم . و(ثالثاً) : ليدرس نفسه وأحوالها ، فإنه يجد صفات هذه الحيوانات فيه وهو يجاهد ليخرج منها إلى عالم أرقى من عالم الأرض ، إن هذه الحيوانات تارة تطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور ، وأخرى بالحيلة كالعنكبوت ، وتارة بالغلبة كالأسد ، وتارة بالفرار كالأرانب والظباء والطير . وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ ، وقد يتحصن في الأرض كالفأر والهوام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخي كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ، وفخور كالغراب ، ووحشي كالنمر ، وأنسي كالحمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغنم ، وسريع كالغزال ، وبطيء كالدب ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالحمل ، ولص كالعقعق ، وتائه كالطاووس ، وهاد كالقط ، وضال كالنعامة ، وماهر كالنمل ، وحليم كالجمل ، وحقود كالحمار ، وشموس كالبغل ، ومستحلّ كالذئب ، ومضرّ كالفأر ، وجهول كالخنزير . وغير ذلك .

فهذه وغيرها من صفات الحيوان معرّض لها الإنسان . فهو يجدّ بما أنزل من الديانات وما سطر من العلوم أن يخرج من هذه القيود الحيوانية ويتحلى بالحلية الملكية ويخرج من الدائرة الأرضية إلى الدائرة الروحية . وهناك يتجلى له قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [فصلت : ٤٧] .

إن الإنسان مادام مغرماً بالأحوال الأرضية فهو أبداً حوا هذه الأرض بعد الموت لا يبرحها ، وكيف يبرحها وهو لا يجد لذة إلا فيها ، ولا سعادة إلا في أكنافها فيصبح إليها مجذوباً مبعداً من عالم أعلى . ومعنى هذا الانجذاب أن يعذب بعذاب جهنم فيكون في حفرة من حفر النار . فإن جهنم ملازمة لمن لا يعرف إلا المادة ، والجنة ملازمة لمن يتزحزح عنها ، فيقال : إنه في روضة من رياض الجنان ، حتى

إذا تخلص من ذلك بتاتاً صار في جنة عرضها السماوات والأرض، لا ضيق جهنم الذي هو ملازم لمن كان لا يعرف إلا العالم الأرضي.

إن مرور الإنسان على العوالم الحيوانية أعطاه أنسه بالحيوان في أحواله المادية، ودراسة العلوم التشريحية والخلقية، وجهاده في الحياة ليخرج من حال الحيوانية إلى حال الملكية. وهذه نبذة من علم الساعة التي لا يعلم علمها إلا الله تعالى وإليه وحده يردّ علمها. وهذه سانحة من ذلك العلم وبارقة من سماء الحكمة.

فأما العلم الحقيقي فهو عند الله، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾[الأنعام: ٥٩]، وهذه من أسرار القرآن. وسرّ من أسرار عطف الحمل والوضع على علم الساعة. انتهى الكلام على الفصل الأول.

الفصل الثاني والثالث: في إيضاح الكلام على قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾[فصلت: ٥٣]

فلأذكر فيه نبذتين:

النبذة الأولى

ما كتبته في كتابي «ميزان الجواهر» تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

خاتمة: تتضمن فكرة المؤلف في العلوم عامة وفي فن التوحيد خاصة

مما أجمع عليه رأي الحكماء أنه يجب على الإنسان أن يجعل له في حياته غاية يسعى لها، وإلا عاش عيشة مهملة. وقد كنت في إبان تعلمي بالجامع الأزهر أتلقى العلوم الدينية وآلاتها من فنون العقليات والنقليات، وإذا ذهبت إلى بلادنا الشرقية أنظر ماذا ذرأ الله من النبات العجيب، وما أودع في الكائنات من الغرائب. وأتأمل ما في الأنهار والغدران من سيال عجيب يذهب فكري في ذلك كل مذهب، وأقارن ما أراه بما أسمعه فلا أجد مناسبة. وأقول في نفسي: لماذا لا نسمع في العلوم التي نتلقاها شيئاً يحوم حوله ما نشاهد كل يوم من المزارع الخضرة والجنات وبدائع الحكمة الربانية؟ وأجد في نفسي شوقاً وتوقاً إلى ذلك. وأتمنى أن يكون له مدخل في معارفنا الدينية، ثم أكرّ كرّة نحو ما أتلقاه من الفنون الدينية فأجدها توسع المجال جداً في أحكام المعاملات والميراث والحدود والدعاوى والبينات ولا أرى لما أشاهد في أرض الله الواسعة إلا أن العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث ونحو ذلك، وما يذكر في أبواب السلم والربا من المكيلات والموزونات والتسلم والتسليم، وذلك الكلام في بيع ما بدا صلاحه أو ما لم يبد صلاحه، ومع كونه إجمالياً فإنما يتكلم عليه من وجهة المعاملات بين الناس لا من الوجهة الإلهية.

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

وكنت أسمع كلاماً من أفواه أساتذتي، وفي كتب التوحيد، أن العالم في غاية النظام، وأن القرآن في غاية البلاغة، فإذا توجهت إلى بلاد الشرقية وخلوت بنفسي وتفكرت في العالم وفي القرآن أجد الأمر صعباً عليّ جداً، ولا أشم لهذا النظام وتلك البلاغة رائحة، فإذا نظرت رأيت بهائم ترتع، ونباتاً يطلع، وأناساً تذهب وتجيء، وبحاراً تجري من أرض عليا إلى أرض سفلى، فأقول: أين النظام

الذي يقوله العلماء؟ فصرت أجلس على شاطئ نهر جار وأتأمل في الحيوانات الصغيرة التي تختفي في الأعشاب، وأقول: لو رأيت حيواناً عليه خطوط فيها هيئة انتظام لدخل عندي شعور بهذا النظام، ثم إذا عرفت أن هذا العالم منتظم كما يقول العلماء الأخيار أكون أسعد الناس وأكثرهم نشاطاً وجداً واجتهاداً إذ يكون إيماني يقينياً.

وبينما أنا كذلك إذ فتح لي باب آيات من القرآن. ولم أكن إذ ذاك أعرف تفسيره، فاستحضرت بعض التفاسير وطالعت آيات العجائب، وكان أول ما طالعت قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[آل عمران: ١٩٠] إلى آخرها، فتأملتها تأملاً صحيحاً فانفتح لي باب الفكر، وصرت أعرض تلك الكلمات على عقلي وأنظر بنفسي في هذه الصنعة الإلهية وهكذا بقية آيات العجائب، فأخذ الفكر يطنب والمطالعة تزيد وحلا لي الفهم، ثم اتصلت بالأزهر بعد انقطاع طويل، وحضرت التفسير وغيره من العلوم حضور محب وله بل عاشق، وصرت لا أتلو القرآن إلا بتدبر وفهم، ثم ساعدتني المقادير بدخول مدرسة «دار العلوم» فتأملت علومها تأمل من يريد أن يعرف هذا العالم. فكنت أحضر تلك العلوم وأطبقها على العالم الخارجي على حسب ما سبق في النفس من الشوق إلى ذلك، حتى اتضح لي أن كل هذا العالم على غاية النظام والإحكام، وفهمت آيات القرآن في تلك العجائب فهماً يقينياً لا تقليدياً، وصار كل شيء من العالم دروساً توحيدية، وكأن المتأمل فيه يطالع عجائب القدرة الإلهية والحكم الربانية، فمن درس الهندسة والحساب والطبيعة أو التشريح أو غيرها من العلوم ولم يذق منها لذة النظر من وجهة الحكمة العلية؛ فهو صاحب صناعة يعيش بها، ولم يمتز عن العامة إلا بالمظاهر الفانية. وكذلك من قرأ دروس البلاغة والنحو والصرف في أي لغة من لغات العالم من العربية أو غيرها ثم لم يستخدمها في مطالعة ذلك الجمال الإلهي في آيات القرآن العظيم والعلوم العالية مع استحضار الذهن ووزنها بميزان العقل الغريزي فليبشر بأنه أضاع أيامه، ولم يحصل من حياته إلا على معايشه، وأنه يأكل كما تأكل الأنعام. فأفٍّ لحياة يكون القصد منها ومن تحصيل العلوم فيها مآكل ومشارب تشاركنا فيها الحيوانات والنباتات. أوَلا يرى المغرورون من ذوي القصور عن الاطلاع على ذلك الجمال أن الغذاء والتناسل عامّان في جميع النبات. فإن كنت في شك مما أومأنا إليك فاذهب إلى الحقول وتأمل زهرة من الزهر كالقطن مثلاً أو الذرة، تجد أن الذكران في زهرة الأول أربعة قد أحاطت بمحل الإناث الذي هو في وسطها وقد ألقحتها. وهكذا الذرة يلقح عاليها سافلها على منوال ما يفعله الحيوان، بحيث ترى ذلك الطلع الذي في أعلاه ينزل على شرّابة الكوز ويحصل الإلقاح، ثم تلك الحبوب من جميع الأصناف هي المقصودة للإنسان أو له وللحيوانات، إذ النبات خادم لهما، وهكذا الحيوان خادم للإنسان ويتمتع باللذتين تمتعاً حقيقياً. فإذا استعمل الإنسان عقله فيما يحصل بهاتين الشهوتين اللتين قد شاركه فيهما النبات والحيوان؛ فبئست العلوم وبئست الحياة التي ترجعه من أفق الإنسانية إلى أفق البهيمية أو النباتية، بل الحياة حياة العلوم العالية والنفوس الكاملة الشريفة التي تطالع ذلك الجمال الأبهى من هذه العوالم، وهذا الكمال يشاكلها في العوالم العلوية والسفلية.

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

ومن قرأ هذا ولم يأخذ بمجامع هواه وأعرض عنه واكتفى بما لديه من العلم؛ فذلك داخل في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾[النجم: ٢٩-٣٠] ، وقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥].

وجميع العلوم آيات ودلائل تشفّ عن حكمة عالية وقدرة باهرة وعلم تام. والذي أراه أن الشرقيين لا ينالوا مجدهم إلا إذا رجعوا إلى حالة التعليم قبل اندراس العلم لتثبت فكرة التوحيد في جميع الأذهان واستحضار الخالق في جميع الحركات والسكنات، ولا يخفى أن علم التوحيد أخذ في أدوار تعليمه أشكالاً وألواناً شتى من ابتداء الوحي إلى الآن، ففي زمن الصحابة والتابعين لم يكن فناً له قواعد وأصول وفروع، بل كان باقياً على الفطرة الإنسانية المستمدة من آيات القرآن، وكل يعطيه الله من العلم على حسب استعداده. فخلف من بعدهم خلف خرجوا عن الفطرة بما تلقوه من الجدل والفلسفة، وانقسموا إلى طوائف وحصلت مشاغبات ومنازعات وأخذ وردّ، فخاف أئمة الدين رحمهم الله على العقائد فألفوا فن الكلام ليكون حصناً يقي من تهويش أذهان الناس بالمشاغبات، فلم يكن مقصوداً لهم لذاته، وإنّما هو سلاح وجهاد، ونحن في زمان مات فيه ذلك العدو وبادت تلك المذاهب، فمن استعمل ذلك السلاح الآن فهو غرّ يقاتل في غير عدو، وكيف وقد ظهر عدو آخر للعقائد في هذه الأيام، فيجب على العلماء الآن أن يبذلوا جهدهم للنظر في كلام المادّيين الأوروباويين وجميع المخالفين ليردّوا عليهم، فإن اللغات منتشرة بين الأمم والأفكار تنتقل، وجميع ذوي الضعف في الدين يؤثر عليهم كل فكرة يسمعونها، أما المذاهب البائدة فالكلام فيها عبث ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٣٤]، فإن قلت: كيف يعلم التوحيد؟.

أقول: يجب على المعلمين في المدارس وغيرها أن يبتدئوا بذكر غرائب العالم من النباتات العجيبة والحيوانات الغريبة والنجوم ذات البعد العظيم والقدر الكبير والسرعة الهائلة، ثم ينتقلون من الأغرب إلى الغريب إلى المعتاد، وذلك لأمور:

(١) إن الفطرة الإنسانية ميالة إلى الغرائب والأحداث أكثر عشقاً لها وولوعاً بها.

(٢) إن دليل الألوهية أقرب إلى أذهان البسطاء في الغرائب كالمتوحشين، حتى إن أهل الهند على نهر الكنج يعبدون نباتاً يتحرك في الدقيقة ستين مرة لاعتقادهم أن فيه قوة إلهية، وما ذلك إلا لظهور تلك القدرة الباهرة بأعظم وضوح.

(٣) إن آيات القرآن كلها ناطقة بأن النظر في العوالم هو طريق التوحيد.

(٤) إن المعلم متى أوقف المتعلم على كل عجيبة وذكر عند ذلك القدرة والعلم وصفات التقديس والتنزيه بحيث تكون جميع صفات الربوبية تذكر تطبيقاً على تلك العجائب كان أثبت في الذهن، ورسخ الإيمان رسوخاً لا تزلزله الرياح والعواصف.

(٥) إن ذلك مع كونه علم التوحيد هو أيضاً تاريخ طبيعي وطبيعة وتشريح وفلك وهكذا، فيكون ما صرفه من الزمن في تعليمه قد اكتسب به التلميذ علوماً تنفعه في دنياه وهو لا يشعر، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾[الشورى: ٢٠]، فيكون قد أراد معرفة خالقه. وهو في الحقيقة يقرأ علوماً كثيرة إذ التوحيد هو جميع العلوم. بل مثل من يقرأ توحيداً بهذا الوصف مثل إنسان زرع أرضاً شجراً مثمراً، فإن هذا لم يفته خروج حشائش النوع البهائم، فقد جاء القصد الأدنى مع القصد الأعلى، إن الله يعطي الدنيا مع قصد الآخرة ولا يعطي الآخرة مع قصد الدنيا.

(٦) إن التلميذ إذا نظر العلوم العالية يرى في نفسه عند مطالعتها كأنه يطالع حكمة الباري في تشريحه وبيطرته وطبه وزرعه وحصاده وهكذا لاعتياده على ذلك من صغره، ولا سبب لفساد أخلاق الشبان الذين يتعلمون في المدارس إلا خلو عقولهم من استحضار الخالق فيما عرفوه من العلوم، ومن المقرر أن الحكمة لا تفيد إلا من يستحضر الخالق بسرّه ويعرفه بعقله.

(٧) إذا رأى علوم الدين التي أنزلها الله على نبيه لا تخالف الطبائع الكونية فإنه يشب على تطبيق دينه على ظواهر الطبيعة، وينغرس ذلك في نفسه، ويستشعر استشعاراً تاماً بذلك كما هو مقصود القرآن. ألا ترى رعاك الله أن آيات الرحمة والعذاب يؤتى بعدها بآيات عجائب الكون، ألم يكن ذلك ليظهر للناس أن العلمين متوافقان، ومن العجيب أن بلادنا تنقسم إلى قسمين: فبعض الذين تعلموا العلوم الدينية وحدها ينكرون العلوم الكونية من الطبيعيات والفلكيات، ويظنون أن الدين بريء منها وما هم إلا جاهلون بها. وبعض من لم يتعلم الدين ودرس في المدارس تلك العلوم ينكر موافقتها للدين، ويقول: إنها تخالفه، ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[النجم: ٣٠] و﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣]، بل كل من الحزبين مقصر لجهله بما لم يعلم، ومن جهل شيئاً عاداه، بل الواجب على كل فرد من أهلهما أن يأخذ من كل فن طرفاً، وإلا صدق عليه قول الشاعر:

ومن يك ذا فم مرّ سقيم   يجد مراً به الماء الزلالا

فالذي خلق هذا الكون بنواميس خاصة جارية على نسق بديع جعل من تلك النواميس قوانين وشرائع بين الناس، فالكون من فعله وتلك القوانين والشرائع المنزلة على خواص خلقه من قوله. وهل يناقض فعل الرب الأكبر قوله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الأعراف: ١٩٠]. فبين النواميس الطبيعية والشرائع المنزلة تطابق وتوافق لا يعرفه إلا من عرف العلمين. وأما من درس أحدهما وجهل الآخر فهو حري بأن يدّعي تنافي العلمين، بل كثير من قارئي الشرائع لقصور عقولهم يرون نصوصها متعارضة لعدم وقوفهم على أصل مأخذ النصين وما هو المقصود منهما، فكيف يرون موافقتها للأشياء الخارجة عنها من النواميس الطبيعية. فالحق أن الشرائع الإلهية والنواميس الطبيعية متوافقة متلائمة، وأن من أنكر فإنّما ينكر لقصور في عرفانه وضعف في بصيرته.

هذا ما أردت ذكره بالنسبة للإلهيات. أما النبوّات فالذي أراه أن يذكر صفات الأنبياء ومكارم أخلاق سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، وتكون المعجزات داخلة في ضمن تلك الأخلاق، حتى يشب الطفل على حبّ النبي صلى الله عليه وسلم وعلى التخلق بأخلاقه، ويعتقد فيه الصدق حين

يسمع المعجزات، وتكون الواجبات في حق الرسل قد ثبتت في الأذهان عرضاً. فهذا فضلاً عن كونه علم توحيد علم أخلاق، فيخرج قارئ التوحيد من المدارس وقد درس علوماً طبيعية وأشياء وفلكاً وأخلاقاً. ولنا أمل وطيد من المدارس التي تأسست بالقطر المصري بهمة ذوي الثروة والجمعيات أن تسعى في أن تسلك هذا المسلك الحميد وتدرس التوحيد على هذا النمط ليتم بها المقصود إن شاء الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وبهذا تم الكلام على النبذة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

النبذة الثانية

أذكر فيها ما كنت كتبته في مجلة « نور الإسلام » منذ نحو (٢٥) سنة. وسبب كتابتها أني كنت رأيت في المنام عقب قراءة كتاب نقله المرحوم فتحي باشا زغلول عن أمة الإسلام من الفرنسية إلى العربية. رأيت أن ملكاً يعرب لي: « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » ودام على هذا الإعراب والشرح طول الليل وهو يقول: قوله: « غريباً » صفة لموصوف محذوف، فالوصف ناب مناب المصدر، ثم يقول: والمعنى المقصود أنه بدأ غريباً لم يعهد له نظير، وسيعود كما بدأ، أي أنه ينتشر انتشاراً غريباً لم يعهد له نظير، وبقيت طول الليل وأنا أسمع هذا القول ويكرر كأني كنت تلميذاً يعلمني الإعراب والمعنى، ولا يفتأ يقول وأنا أسمع، وكنت أرى في هذا التفهيم استعمال الطرق التي كنت ألقيها على التلاميذ، لأني كنت أعطي السنة الثالثة والرابعة في مدرسة « الجيزة » كتاب النحو وأعطيهم باب المفعول المطلق، وكنت أقول لهم: ينوب عن المصدر وصفه وآلته وهكذا، فصرت أسمع مثل ما أعطي وهو يقول: « غريباً » وصف نائب مناب المصدر إلى آخره، وكنت وأنا نائم أعلم أني نائم وأعلم الحجرة التي أنا فيها، وأعلم أن هذا ملك وهو يلقي إلي هذا القول، فاستيقظت من النوم وقلت في نفسي: إن هذه الرؤيا عجيبة، ولكن هي أشبه بأضغاث الأحلام، ومع ذلك وجدت في النفس وجداناً غريباً، ولكن كنت أشد الناس حرصاً على أن لا أكلم أحداً، لأن مثل هذه يسخر الناس منها، فماذا أفعل؟ كتبت مقالة وضمنتها هذا المعنى باعتبار أنه جاء من عندي ابتكاراً، وعنوانها: « مما أوجب للمسلمين السقوط، جعل اقتراب القيامة سبب القنوط »، وأرسلتها إلى إدارة مجلة « نور الإسلام » التي كانت تصدر بمدينة الزقازيق، وطلبت أن لا يكتب اسمي تحتها خيفة التشنيع واللوم. ثم إني بعد نحو (٢٠) سنة بحثت عن المقالة فلم أجدها فأسفت كل الأسف، ولكني بعد بحث وجدتها في مكتبي مجموعة في ضمن أعداد هذه الجريدة فسررت سروراً عظيماً، وهاأنا ذا أكتبها هنا بنصها بعد اليأس منها.

وبعد أن سبق الكلام على هذا المعنى في سابق التفسير إذ ذكرت أني في هذه السنة اطلعت على مقالة في الأهرام لكاتب ذكر هذا المعنى وقال: إنني وأنا صغير قرأته في كلام أحد الفضلاء، وعدّد أسماء من المشهورين وقال: فلا أدري أيهم قالها، وشرح نفسي ما ذكرته لك، فعرفت أن هذا المعنى وصل إلى بعض الناس وقد انتشر في الجرائد السيارة، وإذن عرفت أن هذه الرؤيا أراد الله إظهارها للأمة وأنها بشارة لها، وأنا وإن كنت أكتمها عن الناس وقد ظهرت فإن آمالي من ذلك اليوم صارت

معلقة برقي الإسلام موقنة به، ولكن ليس من هذه الرؤيا وحدها، كلا، بل هناك ما هو أصدق وأبدع وأجمل وأعلى، وليس هذا مجال القول فيها، فإني رأيت أعجب من هذه بما لا يقاس. فهذا هو السبب في إيقاني برقي المسلمين. ولهذا ألفت هذا التفسير. وهذا كله سرّ قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]. فبذلك فليفرح المسلمون. وبذلك فليسعد المسلمون. وهاك نص المقالة المذكورة.

مما أوجب للمسلمين السقوط، جعل اقتراب القيامة سبب القنوط

سبحان من أعز وأذل وشكل الأشكال المختلفة والألوان البديعة والأصل واحد، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]، ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[الرعد: ١٧]، فازداد الحلو حلاوة والمرّ مرارة. والغذاء تغذية، والدواء مداواة، والجميل جمالاً والقبيح قبحاً، والعناصر لن تتغير. فيا عجبا لهذا الإحكام. وما أعجب هذا النظام. وكيف من الأصل الواحد تستخرج المتنافرات. وتنتج المتضادات. إن في ذلك لآيات. وينزل الخير والجود الإلهي فيكسب كلًّا ما يشاكل طبعه، فتشرق الشمس على المحموم والصحيح فتزيد كلًّا على حسب استعداده، وتجمد الطين وتذيب الجليد. فالضوء واحد والقابلية اختلفت، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ٨٣]. وهكذا العلم والهدى، يصيب القلوب، فيعطي كل قلب على حسب استعداده، فيضل ويهدي ويسعد ويشقي ويعز ويذل، والعلم في نفسه واحد والقابليات مختلفات.

جاء الدين الإسلامي والناس في جهالة وعماية، فأخرجهم من الظلمات إلى النور. ومما جاء فيه أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأنها اقتربت وحان وقتها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث هو وإياها كأنهما متلازمان، حتى قال صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

فكانت تلك الأدلة والآيات والأحاديث من أقوى ما يحث على أعمال الأمة، بل هي أكبر باعث على استنهاض همم أبطال وعزائم رجال إلى أعمال البر وترك الكسل والخمود، إذ انبهام وقت موت الإنسان وقيام الساعة التي يلاقي فيها ربه يبعث فيه روح نشاط على أن يستعد في كل نفس من أنفاس حياته للخيرات على حسب استعداده إما لنفسه أو أهله أو وطنه أو بني دينه وجنسه، ويكون أمام الخالق الأكبر كأنه خليفة على عباده يعمل لهم ما فيه صلاحهم، فمن هذا عرفنا أن انبهام وقت الساعة والموت من أجلّ سياسة إلهية كبرى. كيف لا وهي سياسة ملهم الملوك ومرشد العلماء. وعلى هذا سلف الأمة الإسلامية فجدّوا في الأعمال عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٣]، لا للمتكاسلين والعاجزين، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وكانوا يعلمون حقاً أن من طلب منه عمل الآخرة فإنه طبعاً طلب منه عمل الدنيا معها، إذ هي مزرعة لها وطريق إليها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فكأنه طلب منهم عمل الدنيا وزيادة لنفع نوع الإنسان، وقد ضربوا لذلك مثلاً رجلاً زرع أرضاً أشجاراً مثمرة، فإنه لا يعدم حشائش تخرج للبهائم، فقد جاء القصد الأدنى مع الأعلى، أما من زرع

البرسيم مقتصراً عليه فلا تخرج له الثمرات. وعلى ذلك تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[الشورى: ٢٠] فكان وعظ القرآن وحثه داعياً لعلو الهمم. وعلو الهمة من الإيمان، ومن سلفت همته فهو بمعزل عن الفهم والعلم، ولا تكمل نفس الإنسان إلا بإراقة ماء الحياة في سبيل منافع أمته وبلاده مع القصد الأعلى، وهو التقرب للخالق الأكبر.

هذه أعمالهم وهذه نياتهم، فانظروا يا قوم كيف تغيرت الأوضاع وانعكس المعنى، وأصبح ما كان وسيلة للارتقاء سبباً للذلة والهوان، ولكن لا غرابة في ذلك، فالقرآن لم يزل والقلوب تغيرت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾[الرعد: ١١]. هذه الفاتحة وأين عمر. سمع سلفنا في الدين القرآن في الساعة وقربها، فأطاعوا وصيته وحثهم على العمل، وسمعنا فعصينا وأشرب في قلوبنا حب عجول الجهل وشبان الخلاعة والأمل، ويا ليتنا اقتدينا بأسلافنا في الوطن، إذ مع كونهم عبدوا العجل سارعوا إلى العمل، وما أشبه العلم بالماء يتلوّن بلون إنائه ويتمثل على حسب ما دخله في بنيته وأجزائه، وبالنور يظهر على حسب لون الشفاف الذي هو فيه، فكما اهتدى أسلافنا بآيات قيام الساعة ضللنا نحن بها، ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦].

أصبح المسلمون الآن في كافة أنحاء المعمورة ولا أمل لهم في شوكة ولا دولة ولا عز ولا صولة حيث يسمعون من أفواه الجهال بالدين الذين يقولون ما لا يعلمون. إن هذا الدين سيمحى، وإن هذا أوانه، وإن الكفر يعلو وهذا حينه، وتمسكوا بقضايا لا يعرفون معناها إذ هي محل نظر وبحث بين أكابر العلماء، وانتشرت تلك الفكرة بين العامة والخاصة، ومما يوجب الأسف والحزن أن الأذهان تطابقت على جمع الفكرتين، وهما أن الساعة قربت جداً وأن الإسلام ينمحي، وحيث إننا في زمان كثر أنصار الجهل فيه وجب علينا أن نبين للناس فنقول ومن الله التوفيق:

أما قرب الساعة فهو لا يدل على ما يزعمه الجاهلون، إذ يجوز أن تبقى الدنيا قروناً متطاولة بل آلافاً من السنين بل ملايين، وربما استعظم هذا بعض العقلاء واستبعده جداً، بناء على ما رسخ في أذهان العموم مستدلاً بآيات كثيرة وأحاديث كما تقدم على أن الساعة قريبة. نقول له: على رسلك أيها الأخ، فإن القرب ليس من المعهود بيننا وإلا لقامت الساعة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعده بقليل، فإن أعمارنا قصيرة ونحن نرى أقل من القرن قرب، ولكن القرب على حسب علم ذلك القادر القاهر. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[المعارج: ٦-٧]، فالأرض لها ملايين كثيرة وهي سائرة في الفضاء، فإذا نسبنا مائة ألف سنة أو مليوناً إلى تلك الملايين الكثيرة كانت قرباً بتلك النسبة. فإذن لا مانع من بقاء هذه الدنيا وهذا العالم إلى آلاف من السنين والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. فكل أمة اتسمت بمكارم الأخلاق وصلحت في أعمالها وكان صلاحها أكثر من فسادها فتلك هي التي تبقى حتى تتغير النيات وتهبط العزمات، فتردّ إلى أرذل العمر. وهذه الأمة الإسلامية قد أخذت دورها في الضعف. ولقد آن أن ترجع إلى

صلاحها وتأنس رشدها وتقوم من رقدتها. ومتى برهنت أمام الله والناس أنها أصبحت صالحة للقيام بالخلافة في الأرض سلمت إليها أماناتها، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٥]. ولقد علم الله وشهد العالم المتمدين ـ أي العارفون بمقام الإسلام منهم ـ أن الإسلام أعظم نصير للمدنية كما يعلم بأدنى التفاتة للتاريخ. وإن كنت في شك مما قصصنا عليك فاقرأ كتاب «خواطر وسوانح في الإسلام» الذي ترجمه فتحي بك زغلول، تأليف الأستاذ هنري أحد الفرنساويين. أو اقرأ كتاب ذلك العالم المؤرخ الشهير «سديو الفرنسي» تر العجب العجاب من أمة ودين ومكارم أخلاق هيمنت على العالم أجمعه.

فجدّوا أيها المسلمون واعلموا أن أول ظهور مجدكم وعوده قد آن. فاسترجعوا مجدكم القديم، فقد عرف العالم المتمدين وشهدت الفطر الصادقة بل شهدت العقول ودلت التجارب أن هذا زمن ظهور الإسلام ورجوع مجده القديم، فلقد بدأ وانتشر انتشاراً غريباً لم يعهد له مثيل في تاريخ الأديان، وتم من نحو ١٣٠٠ سنة وهاهو الآن قائم يعود كما كان وينتشر انتشاراً غريباً كما انتشر أولاً، وهذا معنى ما قيل: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ»، أي كما انتشر أولاً انتشاراً غريباً لم يعهد له مثيل في الأمم؛ هكذا سيعود وينتشر بتلك الغرابة بعينها والسرعة الفائقة حتى تكون معجزة أخرى. فقوله: «غريباً» صفة لمقدر محذوف، أي: بدأ غريباً. وهاهو ذا الآن أوان رجوعه بتلك الغرابة. علم الله وشهد كل عالم من علماء الأرض المحققين أن للإسلام رجعة فجائية وتقدماً غريباً قد ظهرت بوادره وجاء أوانه، وعلى أيديكم أيها العقلاء يكون ظهوره ذلك إن شاء الله. فجدّوا لإرجاع مجدكم وحوز فخركم. ومتى صحت المقدمات صدقت النتائج.

لو تأمل علماؤنا اكتشافات القوم الحديثة وما لديهم من العلوم لعلموا أنها تفسير لما أجمل في الدين الإسلامي، وتوضيح لما غمّ علينا فيه. وبعبارة أوضح: إن تلك العلوم والأسرار إيضاح وكشف لمخبآت القرآن. وأوضح من ذلك أن ذلك مقدمات ظهور سيدنا عيسى وتمهيدات له حين يأتي والناس قد استعدت فطرهم للإسلام قاطبة، وتصير الأرض كلها إسلاماً بأمر سيدنا عيسى، وكأني ببعض إخواني يضحك من سماع مثل هذا الكلام، ونحن نقول له أعر استحضار الأرواح هناك لفتة تر العجب العجاب، وتجد مخبآت العلوم تظهر على أيدي هؤلاء، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[ص: ٨٨].

جاء وعد رسولنا الصادق الأمين بأن عيسى عليه السلام يأتي في آخر الزمان ويحكم بشريعتنا أوَيظن أن ذلك يكون بدون مقدمات للإسلام ومبشرات بين يدي ذلك النبي. كلا. ثم كلا. وهذا الظهور كل من العلماء يفهمه بما يوافق مشربه ولا نتعرض له. وإنّما علينا ذكر النص وكل يفهم ما يناسب معارفه.

انظروا إلى المستشرقين في أوروبا يقرؤون هذا الدين ويعجبون أي إعجاب. انظروا لأولئك المتعربين في أوروبا الذين يعجبهم كل شيء صدر منا، وهم نظير المتفرنجين عندنا، فالقوم في بلادهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً إلا قليل منهم، وكل من عرف شيئاً منه تشبث به. ولا بد أن يكون هذا القرن الآتي أوان ظهور شمس حقائقه في ربوع العالم المتمدين حتى تأنس ببعض معارفه الأذهان قبل مجيء

ذلك النبي في آخر الزمان يحكم بشرع خير ولد عدنان. فكيف بعد هذا كله يقنط المسلمون من رحمة الله، وهذا وعد لهم. أم كيف ثبت في عقولهم أن دولهم تنقرض وهم الذين ورد فيهم: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله»، فهذا الدين وهذه نصوصه. فمن ظن أن الساعة قد جاء وقتها وأن الإسلام سينقرض فقد جهل وضلّ وأضلّ وادّعى أنه أعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم

والله تعالى يقول: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧]. فكيف جاء قوم اليوم جعلوا أنفسهم أعلم من رسول الله وزعزعوا قلوب الناس وأرجفوا وخوفوا وافتروا على الله كذباً في أمر الساعة، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾[يونس: ٦٩]، ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[النحل: ٧٧]، ولكن إن بحثت عن هؤلاء تجد أن أكثرهم بها لا يعرفون، ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾[الشورى: ١٨]. فتأملوا يا قوم وافهموا القرآن، فإن إخفاء الساعة سرّ مكنون، ومنه أن يقيم الناس دولهم ويأملوا في بقائها ودوامها. ومتى عرفوا قربها اختلت روابط الأمم ووقفت الحركة وانتزعت البركة، ولذلك أعقب هذه الآية بما يشير إلى ذلك حيث قال: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[الشورى: ١٩].

وإذا كان إخفاء الساعة سياسة لإصلاح المعاش والميعاد معاً ولطفاً من الله بالمعاش في الدارين لا في الدنيا؛ فقد أرشدنا إلى أن الرزق المذكور يؤتى به كالتابع لأعمال الآخرة، ولذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[الشورى: ٢٠]. هذا، ورجائي من كل من اطلع على هذا أن ينشر هذه الفكرة في كافة أنحاء المعمورة حتى تنزع تلك الضلالة من الأذهان. اهـ.

تذكرة: إني قلت: «بدأ الإسلام الخ» بصفة أنها حكمة عامة.

اللطائف العامة لأقسام السورة كلها

وهي ست لطائف

اللطيفة الأولى: في تفسير البسملة وذكر الرحمة فيها، ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض وما فيها من صور جميلة وبدائع كشفها القوم في زماننا، مصداقاً لقوله تعالى في آخر السورة: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] الخ.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[فصلت: ٣]، وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[فصلت: ٤٢] وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾[فصلت: ٥٣] الخ، وفي هذه معجزتان: الأولى: أن الكشف أظهر أن الأرض لم تكوّن فجأة. الثانية: أن الأيام قد بلغت في علم الفلك مئات الملايين، وهذا يقرب من أيام خلق الأرض.

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم ﴾ [فصلت : ٢٠] ، مع قوله : ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم ﴾[النور : ٢٤] ، وكيف ظهر علم الأيدي والأرجل وكشفها للجنايات في الدنيا ، وأنها إذا قبلت شهادتها عند الله فالقضاة أحرى أن يقبلوا شهادتها ، وهذه معجزة أيضاً لأن الأيدي والأرجل اختصتا بذلك الكشف دون سائر الأعضاء .

اللطيفة الرابعة : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[فصلت : ٣٠] الخ .

اللطيفة الخامسة : في قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً ﴾[فصلت : ٣٩] .

اللطيفة السادسة : في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾[فصلت : ٥٣] .

اللطيفة الأولى: في البسملة وذكر الرحمة فيها ومناسبتها لما ذكر في السورة من طبقات الأرض وما فيها من صور كشفها القوم في زماننا

مصداقاً لقوله تعالى في آخر السورة: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ ﴾[فصلت : ٥٣]

تجلت الرحمات العامة في هذه السورة بصورتين اثنتين جميلتين بهيتين : صورة الحروف ، وصورة العناصر ، ورمز لهذين بالحاء والميم ، الرحمة وسعت كل شيء ، وتجلت في هذه السورة في الحروف والعناصر ، والحروف والعناصر يرجعان لشيء واحد هو التحليل ، اللغات التي يعرفها الناس تقدّر الآن بنحو خمسة آلاف لغة ذكرت مجملها في سورة « الروم » عند قوله تعالى : ﴿ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ ﴾[الروم : ٢٢] ، فارجع إليه إن شئت ، وكلها راجعات لشيء واحد هو الصوت ، كما أن العناصر التي وصل المعروف منها الآن حوالي الثمانين عداً منها تركبت جميع هذه المخلوقات اللغات حركات في الهواء ، وعجائب الطبيعة حركات في الأثير ، وكلها تحلل إلى أصولها الأولى ، باللغات تدرس العلوم ويتعارف الناس ، وبالعناصر وتركيبها تكون حياة الحيوان والإنسان .

تجلت رحمات الأصوات والحروف في قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ [فصلت : ٣] ، واللغة العربية كما تقدم في سورة « الروم » إحدى اللغات السامية التي تدرجت من حال إلى حال كما ستراه قريباً ، فهي أبداً متقلبة متنقلة ، فبينما ترى قدماء العرب في الجزيرة قبل تاريخ الميلاد ببضعة آلاف يكتبون بالقلم السومري الآتي بيانه وصورته ؛ إذا هم يكتبون في الجاهلية قبل الإسلام بقلم آخر ؛ إذا هم يكتبون في زمن النبوة بقلم أقرب إلينا ، وهكذا نفس الألفاظ تتغير لهجاتها تباعاً متطورات تطور الأزمان والقرون والسنين .

ولكن لما جاء الإسلام استقرت اللغة العربية لفظاً وخطاً على آساس متقاربة إلى الآن ، معجزة لهذا القرآن كما ستراه موضحاً ، إذ أنك سترى فيما يأتي سورة « الفاتحة » و« الإخلاص » مكتوبتين باللغة الصينية ومعهما اللغة العربية ، فذلك التبدل الذي يعتري اللغات لم يجر على اللغة العربية إلا في طريقة التحسين والبهجة ، أما تغير الحروف لفظاً وخطاً تغيراً جوهرياً كما يعتري جميع اللغات فهذا لم يكن .

ولما كان لهذه المعجزة آثارها التي ظهرت في المسكونة من أقصاها إلى أقصاها قال في نفس السورة: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[فصلت: ٤٤]الخ فكانت هذه الآية رمزاً إلى ما هو حاصل الآن من أن القرآن يكتب باللغة العربية وإن كان القراء له أعجميين، لأنهم لو قرؤوه بلغاتهم لورد عليهم هذا الإشكال: أنبيّ عربيّ وقرآن أعجميّ! وهذا هو السر في حفظ نفس اللغة العربية مع القرآن أينما حلّ.

هذه هي الرحمة التي تجلت في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[فصلت: ٣] لأنه لو كان أعجمياً لقيل هلا فصلت آياته بالعربية التي نزل بها، فإذا قرئ بغيرها لم يكن مفصلاً بل كان مبهماً أعجمياً. وبهذا تم الكلام على الآيات المفصلات الناجمات من الحروف.

الآيات المفصلات في المادة الأرضية والسماوية

اعلم أن القرآن لا يفرق في الآيات بين كونها متلوة بالألسنة أو بين كونها مسموعة بالآذان أو مخلوقة في الأرض والسماوات مركبات من العناصر منظورات بالعيون. الله خلق السمع والبصر. وللسمع جاءت اللغات ومنها العربية. وبالعربية سمعنا القرآن وبقي إلى الآن باللغة العربية لفظاً وخطاً. وللبصر خلق الكواكب والمركبات الأرضية والبسائط. إذن الآيات مسموعات ومبصرات. وكم جاء في القرآن ذكر السمع والبصر. ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٦]، وما الفؤاد إلا الهيئة النفسية التي بها نفهم ونتبصر فيما سمعنا وفيما رأينا، والسورة مبدوءة بالآيات المسموعة لأن الناس في أول أمرهم يعملون بما يسمعون، فإذا ارتقوا قليلاً فهموا ما يبصرون، فالناس أولاً يؤمنون بما يسمعون بسبب صدق المخبر لهم، ثم بعد ذلك يفكرون بأنفسهم فيما سمعوه، فالآيات المسموعات تكون أولاً والآيات المبصرات تتلوها. لهذا ذكر المسموعات وتفصيلها أولاً ثم تلاها بالآيات المبصرات، فماذا تلا علينا؟ تلا علينا أولاً إجمال هذه الدنيا، وأن الأرض خلقت فيها الجبال والنبات والمعدن والحيوان والإنسان، وكان ذلك كله في أربعة أيام، وأن السماوات خلقت ورتبت ونظمت وأعطيت كل سماء نظامها الخاص بها وزينت بأجمل زينة وأبهج منظر. وذلك في يومين. وكان مبدأ أمر السماء دخاناً فما زالت العناية بها حتى صارت وصارت الأرضون بالحال التي نراها عليها الآن.

ولا جرم أن المذكور هنا إجمال. فهاهنا سماء وهاهنا أرض أمرا أن يأتيا طوعاً أو كرهاً، ولكنهما أقلّ من أن يعصيا خالقهما فأطاعتا، والطاعة إنّما تكون بالخدمة، ولا خدمة إلا بحركة، والحركة دائمة من أول خلق العالم إلى فنائه، بل نفس العالم هو نفس الحركات كما قررناه في مواضع هذا الكتاب. فالعوالم كلها مسخرات جاريات متحركات وكلهن آيات. وهذه الآيات المبصرات ترجع إلى آيتين اثنتين في المشاهدات: آيات السماء وآيات الأرض.

وكما أن مبدأ السورة فيه ذكر الآيات المسموعات القرآنية في تفصيل القرآن العربي والآيات المبصرات الكونية في خلق الأرض والسماوات، هكذا في القسم الآخر منها تأييد كون القرآن لا بد من بقائه بالعربية إلى آخر الدهر كما قدمنا، وذلك في الآيات المسموعات، وتبيان الآيتين الكونيتين

المذكورتين في أول السورة، إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾[فصلت: ٣٧]، ويقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[فصلت: ٣٩]. إذن ما جاء في أواخر السورة مبين لما جاء في أولها. فكون القرآن لا يصح أن يكون أعجمياً راجع لقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[فصلت: ٣] الخ وكون السماوات من آياته، وخروج النبات من الأرض من آياته راجع لما في أولها من خلق السماوات والأرض، ومن قبل ذلك أتبع ذكر الآيات القرآنية والآيات السماوية والأرضية بإنذار المشركين وشهادة الجلود ونطقها، والنار المؤلمة لهم، والعداوة التي تقع بينهم إذ يعذبون، وتبشير المؤمنين بأن لهم ما يشتهون.

ثم ذكر علم الأخلاق، وذكر حسن المعاشرة. والصبر. وجميل الأخلاق. وختم السورة بوعد جميل قائلاً: إن الآيات بقسميها سواء أكانت في القرآن أم كانت في السماوات والأرض سأريكموها. فمن آيات القرآن المسموعة أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا قد ظهر ظهوراً واضحاً. فإن أهل أوروبا الذين كان هذا القرآن سبب نهضتهم الحديثة أصبحوا اليوم يبطشون بالإسلام وبأهل الإسلام. ومع ذلك غلبهم هذا الدين وبقي محفوظاً. والدليل على ذلك ما نراه من أنه مكتوب بالحروف العربية في بلاد الصين كما ستراه في الصورة الشمسية في هذه السورة كما ذكرت آنفاً. أفليس هذا هو نفس الوعد الذي في آخر السورة. وهل أحد ملزم أن يظهر هذه المعاني أكثر منا نحن الذين نعيش في الأرض الآن. المسلمون المتأخرون قبلنا لم تكن لديهم مواصلات مثلنا.

إذن وجب عليّ أنا أن أقول للمسلمين بعدنا: أيها المسلمون، وعدنا الله أن يرينا آياته، وهذه الآيات منها المسموع مثل أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد ظهر واتضح. وأن أقول أيضاً: أيها المسلمون، إن الآيات المبصرة التي وعدنا الله أن يريها لنا قد أراها فعلاً ونشرها في الأرض. الله وعدنا أن يرينا آياته. والآيات المبصرات المذكورات في السماوات والأرض جعلت اثنتين إجمالاً في السورة ولكن هذا الإجمال فصل. وتفصيل هذا الإجمال جاء في علمين اثنين: علم الفلك وعلوم طبقات الأرض «الجيولوجيا».

الله أكبر، هاهو سرّ القرآن ظهر، هاهي العلوم، هاهي ذه علوم الله وآياته ظهرت وبهرت، هذا وعد الله والله لا يخلف وعده، الله رحيم ومن رحمته أنه لا يدع عباده يتخبطون في دياجير الظلام تائهين حائرين لا يستقرون. الله سبحانه وتعالى لا يدع المسلم متحيراً يقول: يا رب، أنت قلت إنك خلقت الأرض ونظامها في أربعة أيام. وخلقت السماوات في يومين. فأنا يا رب في حيرة. يا رب، أنت أمرتنا بالوضوء وبالصلاة وبالزكاة وبالحج وبالمعاملات، وخلقت لنا المجتهدين كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل والإمام زيد والمجتهدين من الشيعة.

فيا رب هؤلاء ما بينوا لنا إلا الأعمال، والأعمال تصقل النفوس. والنفوس متى صقلت استعدت للعلم، وأنت أنزلت في هذه السورة آيات مسموعة وآيات مبصرة وأمرتنا بالاستقامة فيها، إذ قلت: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾[فصلت: ٦]. وبعد ذكر الاستقامة ذكرت لنا آيات السماوات

وآيات الأرض. وكما أنك أوضحت آية المبصرات وآية المسموعات في أواخر السورة بذكر كون القرآن عربياً. وبيان أن السماوات والأرض من آياتك أوضحت أيضاً نتائج الاستقامة المذكورة في أول السورة إذ قلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[فصلت: ٣٠] الخ. ففي السورة آيات مبصرة وآيات مسموعة وأعمال مشروعة بالاستقامة وكلها فصلت في السورة. وهذه الأعمال المشروعة لصقل عقولنا ما هي إلا مقدمات للتبحر في العلوم. وكيف تدخل العلوم قلوباً غير صافية لم تصقل، وصقلها بالاستقامة. ونريد يا ربنا أن نكون علماء فبالعلم نصل إليك.

يقول الله: أنا رحيم، رحمتي وسعت كل شيء، أنا رحمت الحشرات فجعلت لبعضها آلاف العيون المبصرة لتبصر فكيف لا أعلّم الإنسان. هاأنا ذا شرحت وفصلت الآيات في علم الجيولوجيا والفلك، فليقرأه المسلمون لأنه جميل ولأنه بهيج. نعم إن هذه العلوم الأرضية لم تصل إلى غاية الكمال لأن نفوسكم لا تحتمل الكمال في العلم، وأنتم الآن عندكم مبادئه يا أهل الأرض، لأنكم لا تؤتون من العلم إلا قليلاً، ومن هذا القليل علم الجيولوجيا والفلك.

أقول أنا: ولقد جاء في هذا التفسير أن اليوم إما (٢٤) ساعة وذلك بدوران الأرض حول نفسها في اليوم والليلة، وإما أن يكون أكثر من ذلك حتى يصل إلى (٣٠٠) مليون سنة وأكثر من ذلك وأقل، وهذه الثلاثمائة المليون سنة لدوران المجرة التي منها شمسنا على نفسها، فإذا سمعنا الله يقول: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[الحج: ٤٧]، أو يقول: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج: ٤] فهذا فتح باب لمعرفة دوران الكواكب وأيامها وسنيها، وبه نعرف الأيام التي خلقت فيها السماوات والأرض. وهذا كله لاتساع العلوم والمعارف، فليست الأيام قاصرة على ألف ولا على خمسين ألف و٣٠٠ مليون سنة، بل تكون أكثر وأقلّ باختلاف الشموس والمجرات والسدم. وأنا أحمد الله تعالى إذ كان هذا التفسير مملوءاً بهذه العجائب، ففيه مقنع لكل من اطلع عليه، فالحمد لله الذي ألهم وعلّم. هذا من حيث الأيام وأن علومها اتسعت في زماننا فأصبحنا نعدها بمئات الملايين.

بقي علينا أن نبحث من علم الجيولوجيا في نظام هذه الأرض والسماوات وتدرجهما من حال إلى حال، وأن السماوات كانت دخاناً وهذا بيت القصيد. فلأشرح هذا الموضوع بقدر الإمكان من علم الجيولوجيا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، ولقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾[فصلت: ٩-١١] إلى آخره.

أيها المسلمون، إن الله تعالى من عنايته بنا ذكر هاهنا عشرة أفعال في هذا المقام: خلق، جعل، بارك، قدر، استوى إلى السماء، فقال، قالتا، فقضاهن، أوحى، زينا. فهذه الأفعال العشرة جاءت على وتيرة واحدة وهي أفعاله تعالى نفسه. وإذا كان الأئمة رحمهم الله قد اعتنوا بآية الوضوء والغسل والتيمم فألفوا فيها كتباً وليس فيها إلا أفعال خمسة من أفعالنا نحن وهي: اغسلوا وامسحوا اطّهّروا

تيمموا فامسحوا . هذه أفعال خمسة من أفعال العبد استغرقت كتباً في المذاهب المختلفة ، ولـم تنـل هـذه الأفعال العشرة التي هي من أفعال الله جزءاً من ألف مما استفدته نتائج الأفعال الخمسة العملية في الوضوء والغسل والتيمم . أفليس هـذا أعظم تقصير ! أفليس من العار أن يسمع المسلم الله يقول : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ﴾[فصلت : ١١] الخ ولا يبحث ولا يفكر ، إن ذلك جهل مبين .

إذن لنبحث ونشمّر عن ساعد الجد في كسب أمرين : أمر علمي ، وأمر عملي . أما الأمر العلمي فهو الجمال والبهاء والنور والحكمة والسعادة النفسية ، لأن علم طبقات الأرض وعلم الفلك يرقيان نفوسنا ، ولا معنى للإنسانية إلا العلم ، ومتى ارتقت النفوس قربت من ربها إذ لا قرب إلا بالعلم ، وما العمل إلا صقل للنفس وإعدادها غالباً ، هذا هو الأمر العلمي . أما الأمر العملي ، فإننا لن ننال حظاً في حياتنا إلا بالعلم . وكيف نعرف خواص النبات أو الحيوان إلا بدراستهما . وكيف نستخرج الفحم من الأرض والملح والمعادن والسوائل كالبترول والغازات اللاتي عرفها أهل أمريكا فأوقدوا بها مصابيحهم من نفس الأرض إلا بعلم طبقات الأرض التي وعدنا الله بتفصيلها . فأذكر لك فيما يأتي شذرات منه . وعلى المسلمين بعدنا إتمام ما بدأناه فإن ذلك واجب عليهم شرعاً ، فأجعل الكلام على الأرض في بابين : باب العلم ، وباب العمل .

باب العلم : لأبدأ (١) بذكر معلومات عامة عن الكرة الأرضية . (٢) ثم أقفي بذكر أهمّ النظريات الحديثة من حيث إن أصل الأرض كانت سديماً أي ذرات معدنية . (٣) ثم أتبعه بذكر العصر الأول للأرض . (٤) وبعده عصر الحياة القديمة . (٥) ثم عصر الحياة الوسطى . (٦) ثم عصر الحياة الحديثة وما فيه من بقايا خشب وغابات متحجرات . (٧) وما يتبع ذلك من العصر الحجري القديم . (٨) ثم العصر الحجري الحديث . وعصر البرونز .

ثم يلي ذلك **باب العمل** ، وهو ذكر نبذة من تاريخ المعادن بالقطر المصري . فلأشرع في تفصيل ذلك فأقول ومن الله التوفيق .

باب العلم: وفيه ثمانية فصول

الفصل الأول: في ذكر معلومات عامة عن الكرة الأرضية

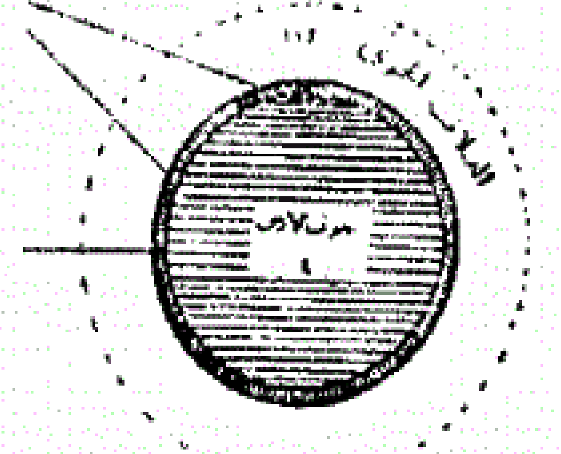
تطلق لفظ الأرض أو الكرة الأرضية على الكوكب الذي نسكنه سواء منه اليابس والماء وعلى ما يحيط به من هواء . ويمكن تقسيمها لسهولة البحث طبيعياً إلى أربعة أجزاء . (انظر الشكل ١٣) .

(١) الهواء ـ الغلاف الجوي .

(٢) الماء ـ الغلاف المائي .

(٣) اليابس ـ القشرة اليابسة .

(٤) جوف الأرض .



شكل ١٣ قطاع تخيلي يوضح أقسام الكرة الأرضية

وفي الواقع أن الجيولوجيا تبحث في تكوين وتركيب القشرة اليابسة وما تحدثه فيها العوامل الناتجة من تفاعلات الأجزاء الثلاثة الأخرى.

الغلاف الجوي

يطلق هذا اللفظ على مجموعة الغازات التي تحيط بالكرة الأرضية. ولاعتبارات عديدة يقدر سمك هذا الغلاف تقريباً بنحو ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ميل، على أنها بحكم قلة ضغطها أو كثافتها كلما بعدنا عن سطح الأرض تكاد لا تكون محسوسة على ارتفاع ٢٥ ميلاً من السطح.

يتركب الهواء من الغازات الآتية بالنسبة المئوية المبينة أمام كل منها:

آزوت «نتروجين»	٧٩ في المائة
أوكسجين	٢١ في المائة
ثاني أوكسيد الكربون	٠,٠٠٣ في المائة

وهذا عدا كميات قليلة جداً من غازات نادرة مثل الأرجون والهيليوم والكريبتون والنيون والاجزينون وكذلك بخار الماء الذي يوجد بكميات تتفاوت بتفاوت سطح الأرض من حيث الرطوبة والجفاف. وهذا عدا الأبخرة والغازات البركانية والأتربة الدقيقة، وهي مواد وإن لم تكن أساسية في الهواء لها أحياناً أهمية خاصة من حيث أثرها في العوامل الجوية.

وترجع أهمية الهواء كعامل من العوامل المؤثرة في سطح الأرض اليابسة إلى صفتين:
(أولاً) التأثير الكيميائي لبعض العناصر المكونة للهواء في المعادن والصخور التي يتكون منها اليابس.
(ثانياً) ميعة الهواء وسهولة حركته من جراء تغيير الحرارة والضغط وما ينتج عن هذه الحركة من رياح. ومن الهواء تهطل الأمطار ومن هبوبه تتكون الأمواج، وهذه كلها عوامل ذات أثر ظاهر في القشرة الأرضية اليابسة. وسيأتي وصف كل هذه العوامل وأثرها.

الغلاف المائي

يطلق هذا الاسم على ما يوجد على سطح اليابسة من ماء في المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار وما يتخلل فجواتها وشقوقها. ولو كانت الأرض كرة ملساء لا تعاريج في سطحها لغطاها ذلك الماء بغلاف سمكه ميلان، أما وسطح الأرض بين مرتفع ومنخفض فقد اجتمع الماء في مناطق الهبوط فتكونت منه المحيطات والبحار والأنهار التي تغطي ثلاثة أرباع من مجموع سطح الكرة الأرضية.

أعماق البحار والمحيطات

يختلف عمق هذا الغلاف المائي من مكان لآخر اختلافاً كبيراً، فالأنهار والبحيرات غالباً قليلة العمق. والبحار قد يبلغ متوسط عمقها بضع مئين من الأمتار، بينما المحيطات تبلغ من العمق آلاف الأمتار. وقد برهنت المقاسات التي أجرتها بواخر الاستكشاف وبواخر وضع الأسلاك البرقية البحرية أن متوسط عمق المحيطات من ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متر، وقد بلغ أكبر عمق رصدته تلك البواخر نحو ٩٤٢٠ متراً بالمحيط الهادي قرب جزائر البوليبونيز.

كذلك يستدل من نتائج أعمال بواخر الاستكشاف المذكورة أن قيعان المحيطات هي عبارة عن سهول ممتدة تكتنفها سلاسل من الجبال مغمورة تحت الماء، وقد يصل بعضها إلى قرب سطح الماء أو يعلوه، فيتكون منها بعض الجزائر في وسط المحيط كجزائر القديسة هيلانة في المحيط الأطلسي، وجزائر ساندوتش بالمحيط الهادي.

والماء هو مركب كيميائي من اتحاد الأوكسجين والهيدروجين بنسبة ذرة من الأول وذرتين من الثاني، إلا أنه يوجد في الطبيعة دائماً مذاباً فيه أملاح مختلفة تتفاوت في مقدارها تفاوتاً عظيماً. فمياه الأنهار وأغلب البحيرات عذبة. أي لأن الأملاح المذابة بها قليلة بينما مياه البحار والمحيطات مالحة أي مذاب بها كمية كبيرة من الأملاح. وتزيد نسبة الأملاح المذابة في مياه البحار المغلقة في المناطق الحارة نظراً لارتفاع نسبة البخر وعدم تعويض المياه التي تفقدها كما في البحر الميت بفلسطين. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني

في أهمّ النظريات الحديثة من حيث إن الأرض كانت سديماً

اعلم أن العلماء بحثوا في أصل الكرة الأرضية، علماً منهم بأن المركب إن لم يحلل إلى عناصره والعلم إن لم تعرف أصوله ومبادئه وأحواله الماضية لم ينتفع الناس به، كما أن اللغات لا تكون مفيدة ما لم تحلل الجمل إلى كلمات والكلمات إلى حروف، والحاء والميم المذكورتان في أول هذه السور شاهد عدل بذلك لتقوم حجة رمزية على المسلمين الذين يجهلون تحليل العلوم وأصولها، لأنهم لا ينتفعون بها ولا بالحياة على هذه الأرض. وإذن نشرع في آراء العلماء فنقول:

لقد وضع العالم الفلكي الألماني «كانت» سنة ١٧٥٥ نظرية لأصل هذه العوالم، فقال: إن الفضاء السماوي كان قبل تكوين الشموس العظيمة وسياراتها مملوءاً بسحاب عظيم جداً مركب من مواد غازية مرتفعة الحرارة جداً، ثم أخذت الجاذبية تلصق بعض أجزائه ببعض بحيث صار كتلاً، كل كتلة لها مركز خاص يدور بعضها على بعض، وتأخذ الحرارة تنقص شيئاً فشيئاً، وهذه هي الشموس التي نسميها نجوماً.

فلما اطلع على هذه النظرية «لابلاس» الفرنسي سنة ١٧٩٦ ـ ١٨٢٤ اشتق منها نظريته المعروفة، وهي: إن المجموعة الشمسية كانت سديماً حاراً يملأ فضاء واسعاً فأخذ يبرد شيئاً فشيئاً، وبعد ذلك أخذ يترك حلقات حلقة وراء حلقة، وهذه الحلقات تكوّرت وبردت وهي تدور حول نفسها وحول الشمس، وهذه هي الكواكب السيارة ومنها الأرض، فالأرض على هذا الرأي ما هي إلا من ذلك السديم وقد كانت جزءاً من الشمس، والشمس لما أخذت تتقلص وتبرد تركت أجزاء منها هي عين السيارات وعين الشمس الخ.

هذا رأي «لابلاس» الفرنسي بعد «كانت» الألماني. ومعنى هذا أن حرارة الأرض الآن أقل من حرارتها في العصور القديمة جداً «عصور الجيولوجيا» أي علم طبقات الأرض، وهذا الرأي هو الذي كنا ندرسه ونتلقاه ونحن تلاميذ بدار العلوم منذ نحو (٤٠) سنة، ولكن هذا الرأي الآن ظهر

بطلانه، لأنهم لما نظروا إلى الحيوانات التي استخرجوها من باطن الأرض ـ وسترى بعضها ـ وقد مضت عليها آلاف وآلاف من السنين، وجدوها لا تحتمل حرارة أشد من حرارة الأرض الآن، وأن حرارة الأرض الآن هي حرارة الأرض قديماً.

إذن هذا الرأي بطل الآن وحلّ محله رأي آخر، وهو أن السديم ليس غازاً بالمعنى المتعارف بل هو معدن، وهذا المعدن ذرات صلبة بينها جاذبية فتكون منها سحابة سماوية أو غبار سماوي يخضع لقانون كأنه جسم واحد.

أقول: والقول الأول والقول الثاني في نظر القرآن سواء، لأن الله يقول: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ ﴾[فصلت: ١١]، فمنظر السماء دخان، ولكن كون هذا الدخان شديد الحرارة وليس معدناً أو معدناً له أجزاء طائرة في الجو كالغبار، فهذان سيان في أن يسميا دخاناً. فالرأي الحديث الذي استقر عليه القوم أن الأصل الأول سديم، والسديم كما قلنا ذرات معدنية صلبة طائرات مرتبطات بقوانين، أو هي غبار سماوي أو دخان، وهاك صورته. (انظر شكل ١٤).



(شكل ١٤)
منظر السديم المعروف في مجموعة نجوم الجبار كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة

ثم إن هذا السديم امتدت منه أذرع أخذت شكلاً حلزونياً بسبب دوران شكل السديم، فأصبح بذلك أشبه بالسديم الحلزوني الذي يرى في مجموعة النجوم المعروفة بالسلاقي. (انظر شكل ١٥).

وهكذا أخذت المعادن أثناء الدوران تغوص وتنزل في وسط هذا السحاب. ولما غاصت تركت وراءها مادة ألطف منها. فكانت هذه هي القشرة الأرضية. وهذه القشرة لما جمدت بالبرودة انكمشت وصارت مجعدة، فهبطت منها أجزاء وهي المحيطات، وبرزت أخرى وهي القارات. وقد أحاطت بالأرض أبخرة صارت ماء. وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني، والحمد لله رب العالمين.



(شكل ١٥)
منظر السديم الحلزوني في مجموعة نجوم السلاقي كما يرى بالنظارة الفلكية المعظمة

الفصل الثالث: في العصر الأولي للأرض

جاء في كتاب الجيولوجيا ما نصه:

العصر الابتدائي للأرض

يبدأ هذا العصر وقد أصبحت الأرض وحدة كروية مستقلة ذات قشرة خارجية من صخور جرانيتية. وتجعدت هذه القشرة بالانكماش الناتج عن البرودة، فبرزت منها أجزاء هي القارات، وانخفضت أجزاء أصبحت أحواض المحيطات، بفضل ما تجمع فيها من المياه التي تقطرت بالبرودة من الأبخرة التي كانت تحيط بهذا الكوكب في حالة نشأته الأولى. وتعرضت القارات إلى عوامل التعرية، فتفتتت صخورها، ثم اكتسحت المواد المفتتة إلى البحار والمحيطات من جراء بعض العوامل التي تقدم وصفها كالرياح والأمطار والأنهار، فتكونت الرواسب على قيعان البحار، ومن ثم بدأ تكوين الصخور الراسبة.

الفصل الرابع: في الحياة القديمة

يمثل هذا الحقب جزءاً كبيراً من مجموع الزمن الجيولوجي يقدر كما قدمنا بنحو ٣٠ في المائة من مجموعه. وتدلنا الحفريات الكثيرة التي وجدت دفينة بين صفحات صخوره أن سطح الأرض وجوف البحار كانت وقتئذ مرتعاً لأنواع من الحياة تختلف كل الاختلاف عن الكائنات الحية التي تعمر وجه الأرض الآن. فكانت من بينها أجناس وفصائل ورتب قد بادت وانقرضت، فليس شيء يشابهها الآن على وجه الأرض، كما أن على سطحها الآن من الفصائل الشائعة ما لم تكن قد ظهرت بعد. (انظر شكل ١٦ اللوحة الأولى في الصفحة ١٤٢).

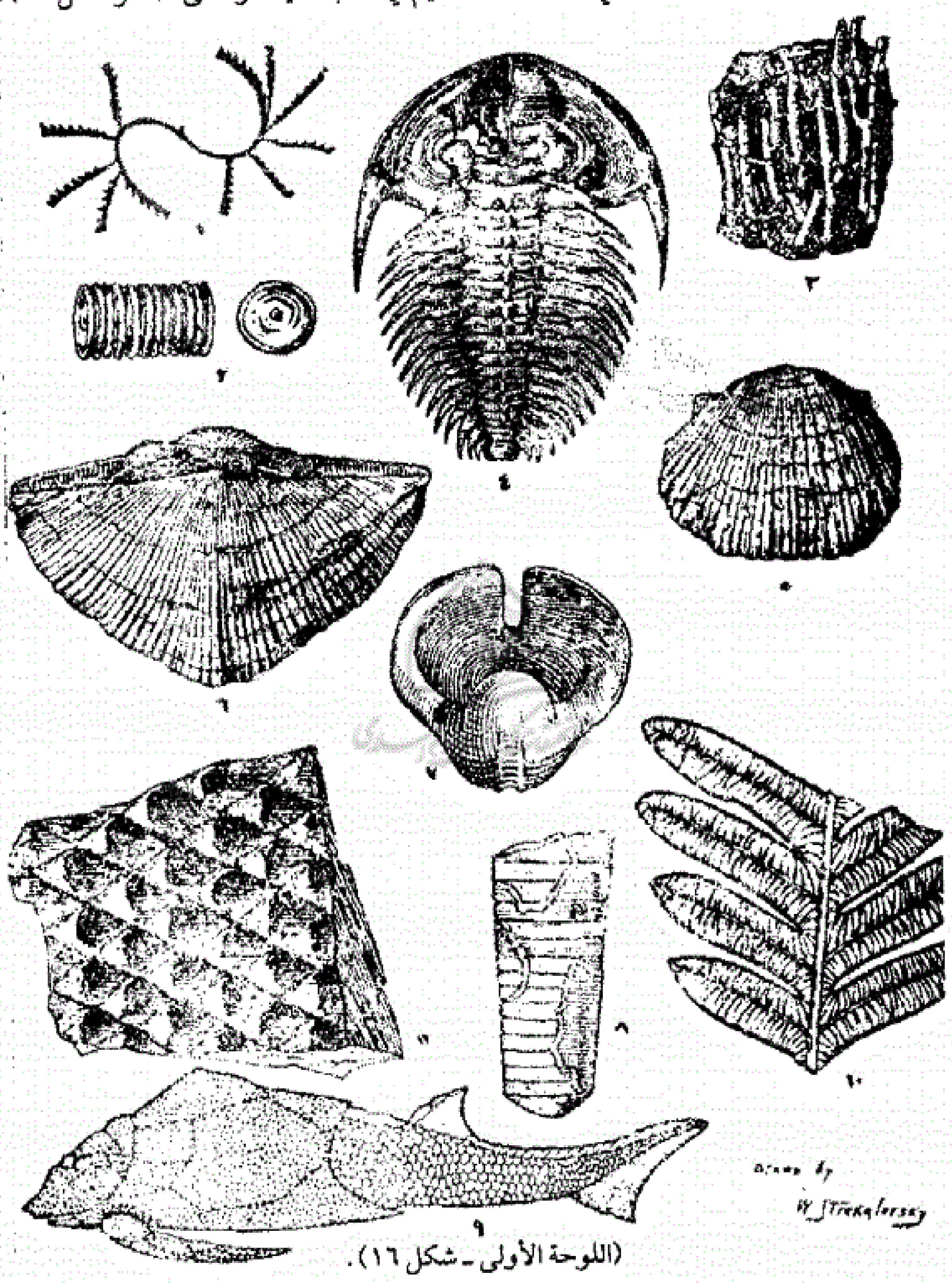
ومن أهم فصائل الحيوانات التي يختص بها هذا الحقب القديم الجرابتوليت والتريلوبيت التي عاشت واندثرت قبل انقضاء ذلك الحقب، فلا أثر لها بين صخور الحقب الذي يليه. (انظر رقمي ١ و٤ باللوحة الأولى). والجرابتوليت من فصيلة الحيوانات البحرية المعروفة بالبوريفرا. وهي عبارة عن سلسلة متصلة من الخلايا يربط بعضها ببعض عمود دقيق، وقد تكون فردية مستقيمة أو مقوسة أو حلزونية، وقد تكون متفرعة إلى فرعين أو أكثر. (شكل ١ باللوحة الأولى).

والتريلوبيت من فصيلة الحيوانات القشرية تنقسم طولياً ثلاثة أقسام هي: الرأس والجسم والذنب، وعرضياً ثلاثة أقسام أيضاً. (شكل ٤ باللوحة الأولى).

ومن أنواع الحيوانات أيضاً الشعاب المرجانية (شكل ٣ باللوحة الأولى)، والحيوانات المحارية (الشكلين رقمي ٥ و٦ باللوحة الأولى)، وكلها من أنواع وأجناس بادت قبل انقضاء ذلك الحقب، فلم يظهر أثر لها بين صخور الأحقاب التالية، وليس لها وجود في البحار الحالية.

وقد كانت الأسماك أولى الحيوانات الفقرية التي ظهرت في البحار إبان ذلك الحقب. على أنها كانت تختلف اختلافاً بيناً عن أسماك البحار الحالية، إذ لم تكن هياكلها العظمية قد تعظمت تماماً، وكان يستعيض عنها الحيوان بدرقة خارجية تغطي رأسه وجزءاً من جسمه (انظر الشكل رقم ٩ باللوحة الأولى).

ومن الأسماك نشأت أنواع الأمفيبيا أو الحيوانات البرمائية . على أن ظهورها كان قرب انتهاء ذلك الحقب ، ومنها نشأت الزواحف التي كان لها شأن عظيم في حقب الحياة الوسطى . (انظر شكل ١٦) .



(اللوحة الأولى ـ شكل ١٦) .

الحفريات المبينة بهذه اللوحة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هي :

(١) جرابتوليت . (٢) كرينويد . (٣) شعب مرجاني . (٤) تريلوبيت . (٥) برودكتوس . (٦) سبيريفر . (٧) بليريفون . (٨) ارثوسوراس . (٩) سمك بتريكثس . (١٠) نبات سرخسي . (١١) ليبدودندرون .

الفصل الخامس
في عصور الحياة الوسطى

جاء في كتاب الجيولوجيا ما نصه :

كان هذا الحقب فترة سكون وهدوء لم تتعرض القشرة الأرضية فيه لمثل ما تعرضت له من حركات أرضية عنيفة إبان الحقب . ولم تكن الأرض في غضون هذا الحقب المتوسط مسرحاً لتفاعلات بركانية شديدة .

ومع أن البحار قد عدت على بعض أجزاء من الأرض فغمرتها وألقت فوقها برواسبها المختلفة إلا أن ذلك لم يكن نتيجة حركات عنيفة من نوع التي أدت في الأحقاب الأخرى إلى رفع سلاسل الجبال العظمى . كذلك كانت هناك براكين في بقاع مختلفة ، ولكنها لم تبلغ الشأو والانتشار اللذين بلغتهما في العصور السابقة ، وليس للصخور البركانية شأن كبير بين صخور تكاوين الحقب المتوسط .

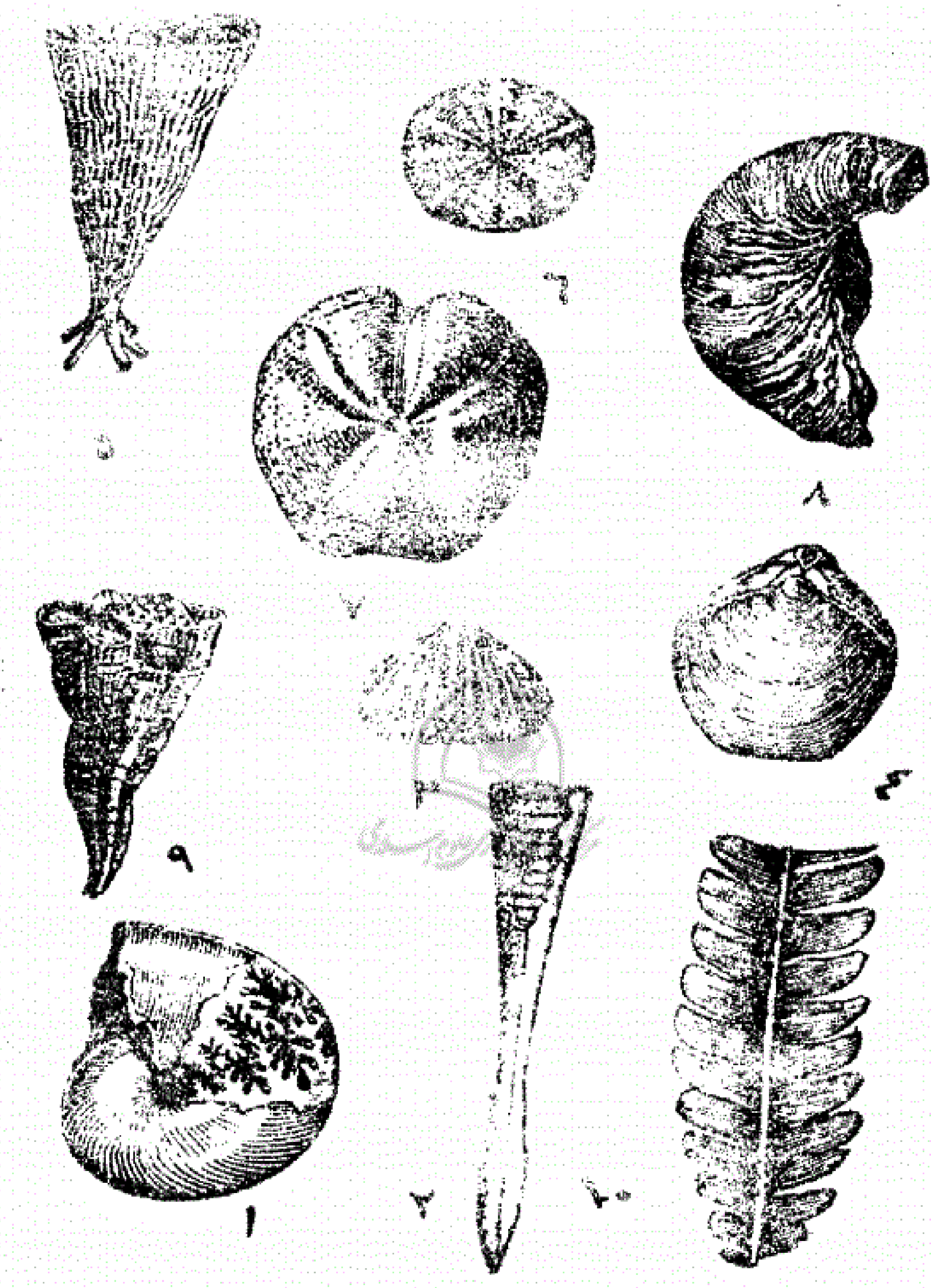
وقد كانت أنواع الحياة من نبات وحيوان تختلف في مجموعها عنها في عصور الحقب القديم . فبادت من بينها فصائل كانت قد أينعت وازدهرت في العصور الأولى كالتريلوبيت والجرابتوليت ، وانتشرت بدلاً عنها أجناس اختص بها هذا الحقب كالأمونيت والبلمنيت التي بدأت مع ابتداء ذلك الحقب واندثرت قبل انتهائه فأصبحت من أخص مميزاته .

والأمونيت (شكل ١ باللوحة الثانية) جنس من الحيوانات المحارية الرخوة ، محارته مستديرة الشكل مفلطحة في التواءات حلزونية بداخلها تجويف حلزوني مقسم إلى غرف أكبرها الغرفة الخارجية التي كان يسكنها الحيوان . وتفصل هذه الغرف بعضها عن بعض قطاعات مجعدة . وقد كان من هذا الجنس نحو أربعة آلاف نوع يختلف بعضها عن بعض في حجمها وشكلها وزخرفها الخارجي .

أما البلمنيت (شكل ٢ باللوحة الثانية) فهو حيوان ذو محارة سوداء مستطيلة أعلاها مجوف حيث كان يسكن هذا الحيوان وأسفلها ينتهي بنقطة حادة .

ومن أنواع الحيوانات التي تكاثرت في العصور الجيولوجية الوسطى الشعاب المرجانية التي كانت تشبه الشعاب التي تنمو الآن في بحار المناطق الاستوائية . (انظر شكل ١٧ في الصفحة ١٤٤) .

* * * * * *



(اللوحة الثانية ـ شكل ١٧)

مجموعة أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الوسطى بالقطر المصري

أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثانية حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هي :

(١) أمونيت . (٢) بلمنيت . (٣) رينكونيلا . (٤) تريبرانولا . (٥) . إسفنج فنتريكوليتس . (٦) هولكتييوس . (٧) هيمياستر . (٨) أوستريا . (٩) رودستا . (١٠) نبات سرخسي .

الفصل السادس
في عصور الحياة الحديثة . «الكاينوزون»

جاء في كتاب الجيولوجيا ما نصه :

ترجع تسميته إلى الشبه الكبير بين ما كانت تعيش فيه من نباتات وحيوانات وما يعيش منها الآن ، مع العلم أن كلمة « كاينوز » يونانية معناها حديث أو جديد ، وكلمة «زون» كلمة أخرى معناها حياة .

وقد بدأ ظهور الفصائل والأسر والأجناس الحالية من حيوانات ونباتات مع ابتداء هذا الحقب وصارت تتزايد نسبتها كلما تقدمنا فيه .

فكانت مجموعة الحياة تزداد شبهاً بالمجموعة الحالية . وكان في ذلك تدرج من الحياة الوسطى إلى الحياة الحالية .

وكانت أجناس الأمونيت والبلمنيت التي اختصت بها العصور الجيولوجية الوسطى قد اندثرت شيئاً فشيئاً قبل بزوغ الحقب الحديث ، كذلك بادت الزواحف الكبرى التي تفوقت في تلك العصور على باقي الحيوانات ولم تترك وراءها من تلك الفصيلة سوى أجناس قليلة الأهمية صغيرة الحجم هي التي بقيت على وجه الأرض الآن كالسحالي والتماسيح والأفاعي .

ومن أخص مميزات أنواع الحياة في ذلك العهد النوموليت والسريثيوم وهي لم تكن قد ظهرت قبل ذلك .

ومن الحيوانات الفقرية امتازت الثديية ؛ فتفوقت على باقي أنواع الحيوانات جميعاً . وبلغت المملكة النباتية ما لم تكن قد بلغته قبل ذلك من تنوع أجناسها وانتشارها وتوزيعها .

ويقدرون عدد أنواع الحيوانات التي عاشت في عصور الحقب الحديث بنحو ٢٠ ألف نوع أهمها تابع للأجناس الآتية :

النوموليت : وهي حيوانات من فصيلة الفورامينيفرا تسكن إلى هيكل جيري مستدير يختلف حجماً وشكلاً من حبة العدس إلى القطعة ذات العشرين قرشاً . وقد كانت استدارتها ورقتها التي جعلتها شبيهة بقطع النقد سبباً في تسميتها . فإذا قطعت نصفين رؤيت منقسمة في الداخل إلى خلايا صغيرة مرتبة في صفوف حلزونية يفصل بعضها عن بعض حواجز رقيقة (انظر شكل ١ باللوحة الثالثة في الصفحة ١٤٧) .

وقد اقتصرت حياة النوموليت على العصر الأول من عصور هذا الحقب وتكاثرت فيه ، وكان من جراء تراكم محاراتها أن تكونت الأحجار الجيرية النوموليتية ، ومنها أحجار جبل المقطم وهضبة أهرام الجيزة .

ومن القنافذ البحرية جنس الأكينولامياس .

ومن الحيوانات الرخوة السريثيوم، وهي من القواقع ذات المحارات الحلزونية المزخرفة من الخارج بأزرار وخطوط، وقد بلغ بعض أنواعها حجماً كبيراً.

ومنها أيضاً البلانوربس وكانت تسكن المياه العذبة.

ومن الحيوانات الرخوة ذات المحارات المزدوجة الأوستريا (شكل ٦ باللوحة الثالثة في الصفحة ١٤٧).

والبكتن (شكل ٧ باللوحة الثالثة في الصفحة ١٤٧).

واللوسينا (شكل ٢ باللوحة الثالثة في الصفحة ١٤٧).

وقد انتشرت الحشرات انتشاراً كبيراً، وذلك يرجع لانتشار النباتات المزهرة. فكان من بينها أنواع النحل والبعوض و النمل والفراش، وقد حفظت حفريات بعضها بحالة جيدة جداً داخل قطع الكهرباء «الكهرمان» الذي هو عبارة عن صمغ بعض الأشجار الصنوبرية التي كانت منتشرة في غابات ذلك الحقب.

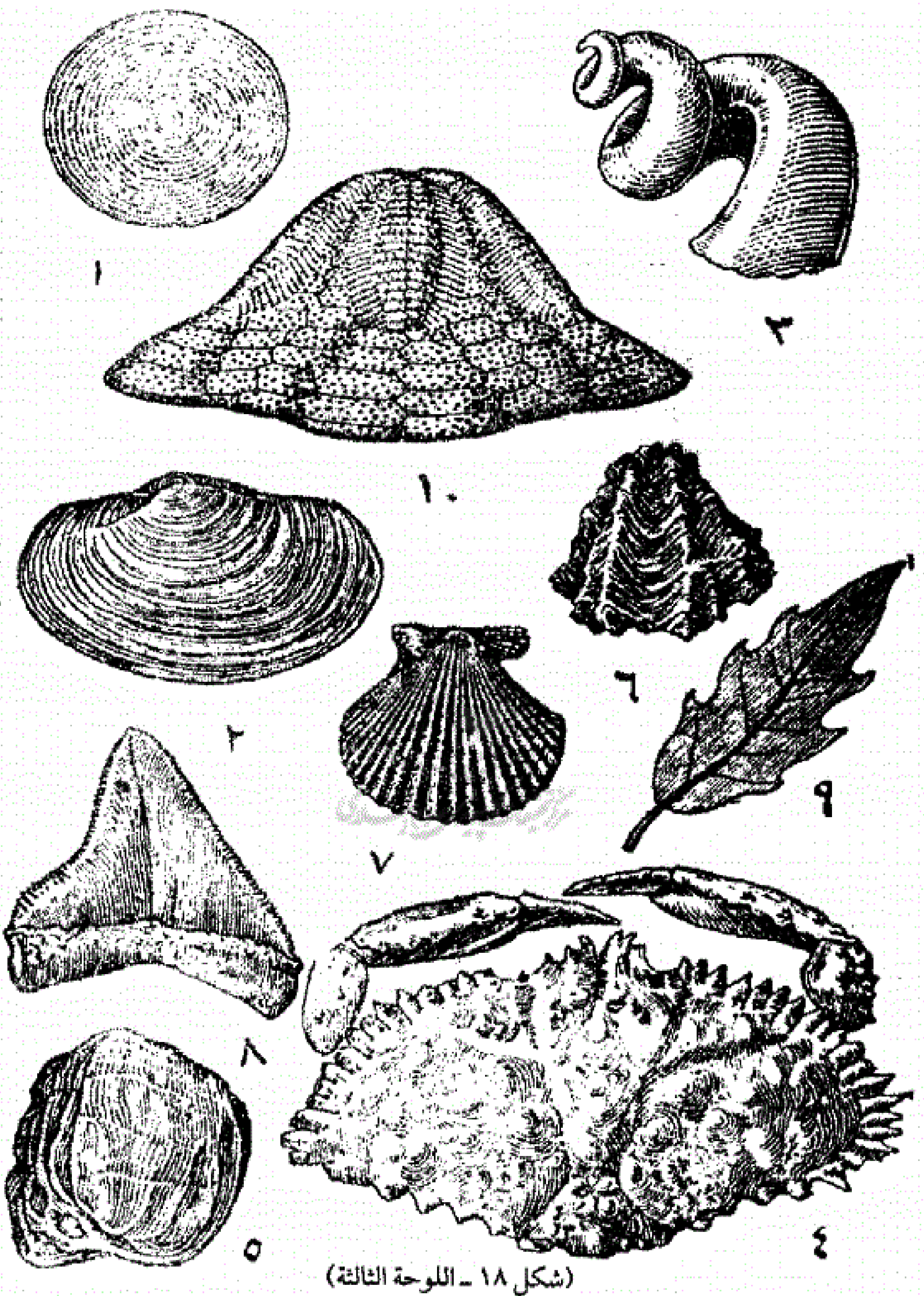
ومن الحيوانات الفقرية الأسماك. وكانت تشبه الأسماك الحالية كل الشبه. والأمفيبيا والزواحف التي كان من بينها السحالي والثعابين والسلاحف والتماسيح التي لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها في الوقت الحالي.

واندثرت الطيور ذات الأسنان التي كانت قد نشأت في أواخر العصور الوسطى وأخذت مكانها أنواع لا أسنان لها تشبه الطيور الحالية.

أما الحيوانات الثدية فقد بلغت أقصى حدود الكمال في ذلك الحقب وتفوقت على باقي أنواع الحياة جميعاً.

ومن الهياكل العظمية التي وجدت مدفونة في باطن صخور ذلك الحقب أمكن تتبع الحلقات المختلفة في نشوء بعض الأجناس التي تعيش على الأرض الآن. فالفيل مثلاً نشأ في العصور الأولى من ذلك الحقب من جنس الماستودون، وهو حيوان بلغ طوله (٥) ونصف من الأمتار وارتفاعه ٤ أمتار، وله نابان في كل من الفك الأعلى والأسفل. (انظر شكل ١٨ أي اللوحة الثالثة في الصفحة ١٤٧).

* * * * * *



(شكل ١٨ ـ اللوحة الثالثة)

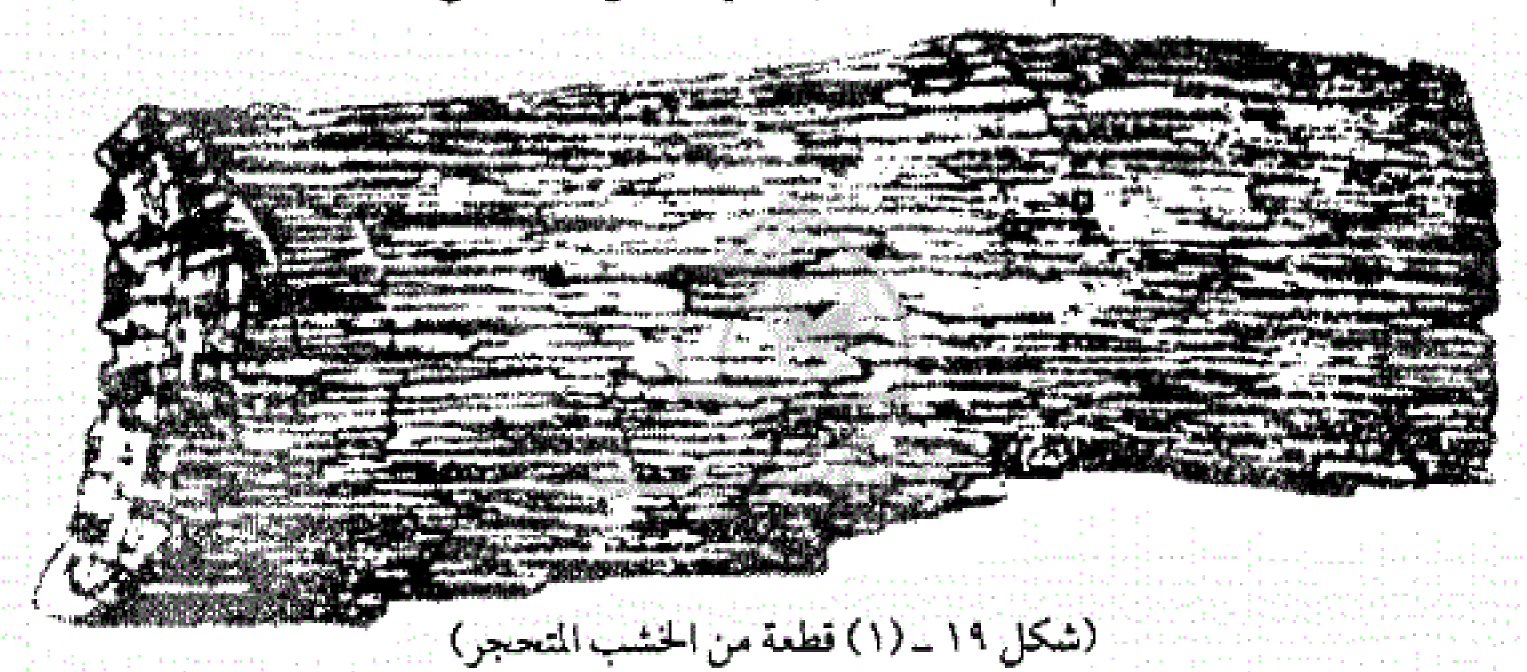
مجموعة أهم الحفريات في صخور حقب الحياة الحديثة بالقطر المصري

أسماء الحفريات المبينة باللوحة الثالثة حسب الأرقام المبينة أمام كل منها هي:

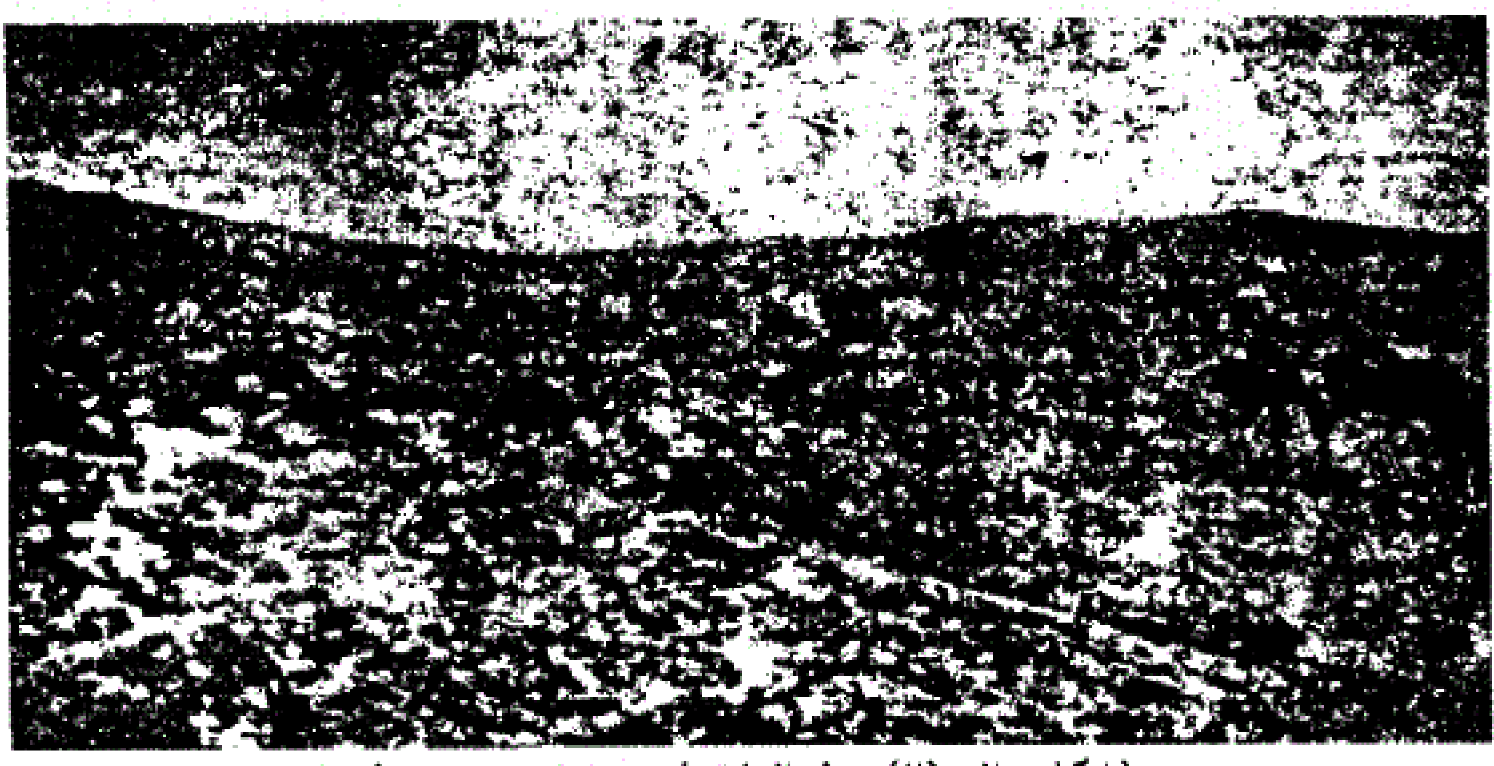
(١) نوموليت. (٢) لوسينا. (٣) ناتيكا لونجا. (٤) سرطان بحري. (٥) فاكهة متحجرة. (٦) أوستريا. (٧) بكتن. (٨) سن الحوت. (٩) ورقة شجر. (١٠) كليبياستر.

الفصل السابع: في العصر الحجري القديم

اعلم أن عصر الحياة الحديثة المتقدم ذكره قسمه العلماء إلى قسمين عظيمين: عصر ثلاثي وعصر رباعي، وفي العصرين ظهرت أنواع من الحيوانات الرخوة وهي لا تزال حية إلى الآن. وقد وجدوها ستة أنواع في أزمان مختلفة. وفي هذا العصر كانت بعض الغابات المتحجرة، وهي الأماكن التي تظهر على سطحها هذه الطبقات الرملية التي تحتوي على بقايا الخشب المتحجرة. وبتأثير عوامل التعرية فيها تكتسح الرمال وتبقى الأشجار المتحجرة ملقاة على السطح. ومن أمثلتها الغابة المشهورة الواقعة على بضعة كيلومترات شرقي العباسية، حيث ترى كثيراً من سيقان الأشجار يبلغ طول بعضها عشرين متراً. وهي محتفظة بدقيق تركيب أليافها، حتى إنها لتشبه الخشب في شكلها الخارجي إلا أنها مركبة من مادة سيليسية بدلاً من مادتها الخشبية الأصلية. وقد استبدلت بالمادة الأصلية مادة السيليس ذرة لذرة في مياه معدنية سيليسية كانت قد تفجرت من عيون في نهاية ذلك العصر. (انظر الشكل رقم (١) والصورة الفوتوغرافية رقم (٢) باللوحة الرابعة في الشكل ١٩ وشكل ٢٠).



(شكل ١٩ ـ (١) قطعة من الخشب المتحجر)



(شكل ٢٠ ـ (٢) منظر الغابة المتحجرة قرب القاهرة)

(اللوحة الرابعة)

إذا عرفت ما تقدم فلنفض الكلام على العصر الحجري، وهو العصر الذي كان الإنسان يستعمل فيه الأحجار الصلبة ليصنع منها آلاته المختلفة. ولقد كانت هذه الآلات في أول الأمر مهذبة تهذيباً بسيطاً لا تدل على مهارة خاصة، ثم تدرجت إلى أرقى فأرقى حتى بلغت في النصف الأخير من هذا العصر درجة كبيرة من الإتقان. ولذلك قسم العصر الحجري إلى قسمين:

(١) العصر الحجري القديم: وكانت فيه الآلات الحجرية بسيطة الشكل غير مصقولة، ومن أمثلتها المجموعة التي ترى في (الشكل رقم ٢١).

ومن الحالات التي توجد فيها هذه الآلات يتضح أن الإنسان كان في أول الأمر هائماً على وجهه متنقلاً في السهول والوديان باحثاً عن صيد أو هارباً من حيوان مفترس. وبعد ذلك لجأ إلى سكنى الكهوف والمغارات حيث ترك وراءه فيها هياكله العظمية وبعض آثاره من آلات حجرية.

ولقد بلغ بعض ساكني الكهوف مبلغاً عظيماً من الفن فتركوا على حيطانها رسوماً متقنة تمثل ما كان يعاصرهم من أنواع الحيوانات البائدة كالماموث وبعض أنواع الغزال.

ومن آثار هذه الكهوف يظهر أن الإنسان كان في تلك العصور النائية قد فقه فائدة النار في طهي الطعام والتدفئة. كذلك كان قد بدأ يستفيد مما عاصره من حيوانات. فكان يصنع من أنياب الفيلة ومن قرون الغزلان سكاكين ورؤوساً للرماح إلى غير ذلك من آلات بسيطة الصنع.



(شكل ٢١)

آلات من الصوان من العصر الحجري

الفصل الثامن:
في العصر الحجري الحديث ومعه عصر البرنز

تمتاز آلات الإنسان في ذلك العهد بصقلها ورقتها ودقة صنعها واختلاف أشكالها. فكان منها رؤوس الرماح والسهام والبلط. (انظر شكل ٢٢).



(شكل ٢٢) مجموعة من الآلات من حجر الصوان تابعة للعصر الحجري الحديث

ذلك لأنه كان قد تقدم درجات محسوسة في سلم المدنية فزادت احتياجاته . والحاجة كما تعلم هي أم الاختراع . ومن الرسوم التي تركها على جوانب الكهوف وعلى أيدي السكاكين يظهر أنه كان قد نجح في إخضاع بعض الحيوانات الوحشية فصارت أليفة تساعده على كفاحه في الحياة . فكان له منها الثور والحصان والحمار والكلب والقط . كذلك كان قد تعلم فنون الزراعة فزرع القمح والشعير لطعامه ، وزرع التيل ليصنع منه ملابس يتقي بها عوادي الطبيعة ، ويستعملها في الزينة . كذلك كان قد علم شيئاً عن صناعة الفخار فصنع لنفسه منه أواني بسيطة . وقد هجر الكهوف في آخر الأمر إلى بناء مساكن يأوي إليها في أواسط بعض البحيرات ليأمن فيها من اعتداء الوحوش الضارية . وقد بقيت آثار بعض هذه المساكن في بحيرات بسويسرا وغيرها من البلاد . ويظهر أنه كانت له وقت ذاك معتقدات دينية فقد ترك وراءه هياكل أو معابد مكونة من جلاميد صخرية ضخمة ، لا بد أنها تطلبت منه مجهوداً عظيماً في إقامتها .

عصر البرنز

هذا العصر يتفق في أغلب البلاد مع ابتداء العصر الجيولوجي الحديث ، أي عقب انتهاء عصر البليستوسين ، فكان فاتحة العصور التاريخية المعروفة .

ومن الغريب أن ينتقل الإنسان من صناعة آلاته من الصوان فجأة إلى البرنز الذي هو خليط من معدنين وقد يكون ذلك من باب المصادفة . وقد شذ سكان وادي النيل من القدماء عن هذه القاعدة العامة في التدرج ، فلم يمروا في عصر البرنز بل انتقلوا من العصر الحجري الحديث إلى استعمال النحاس الذي كانت لهم فيه طريقة خاصة لجعله شديد الصلابة .

أما عصور الإنسان الحجرية في القطر المصري فتوجد آثارها من آلات من الصوان في رواسب الرمل والحصى على جانبي وادي النيل وفي الوديان بالصحاري . وقد جمعت أحسن أمثلتها من طبقات الرمال والحصى بالعباسية ، فكان من بينها أنواع تمثل جميع درجات العصر الحجري القديم من ابتدائه إلى انتهائه . كذلك وجدت آثار العصر الحجري الحديث في بعض بقاع متفرقة في وادي النيل نفسه وعلى مقربة من بحيرة قارون . ويستنبط من هذا أن الإنسان في العصر الحجري القديم كان منتشراً في وادي النيل والصحاري وقد يكون ذلك لملاءمة الأحوال الجوية لتنقله في هذه المناطق . على أنه في العصر الحجري الحديث قد لجأ إلى أماكن معينة بوادي النيل ، واتخذ عيشة أكثر سكوناً من الأولى . وإلى هنا تم الكلام على باب العلم وفصوله الثمانية ، والحمد لله رب العالمين .

باب العمل

ولأذكر هنا نبذة من علم الجيولوجيا خاصة بالقطر المصري الذي هو بعض البلاد الإسلامية ، وهاك نصها :

نبذة عن تاريخ التعدين بالقطر المصري

يرجع أول اهتمام بالتعدين في مصر إلى العصور التاريخية القديمة . فقد كان قدماء المصريين يهتمون به اهتماماً عظيماً يظهر أثره فيما فتحوه من مناجم للذهب والنحاس وبعض الأحجار الكريمة .

وقد كان لما استنبطوه من المعادن بعض الفضل في المركز الممتاز الذي تبؤوه بين باقي الأمم. وقد ظهر من مسطوراتهم على البردي وعلى جدران بعض المعابد أنهم كانوا يبعثون إلى الصحراء بعوثاً مجهزة برجال الفن المعدنيين تحرسهم فصائل من الجند لتصدّ عنهم عادية أهل البدو المعادين. واستمر هذا الاهتمام بأمور التعدين طول عصر قدماء المصريين حتى عهد الرومان. ثم تولاها كما تولى باقي مرافق الدولة خمول تام لم تفق منه إلا في عصور متقطعة إبان الحكم العربي الإسلامي.

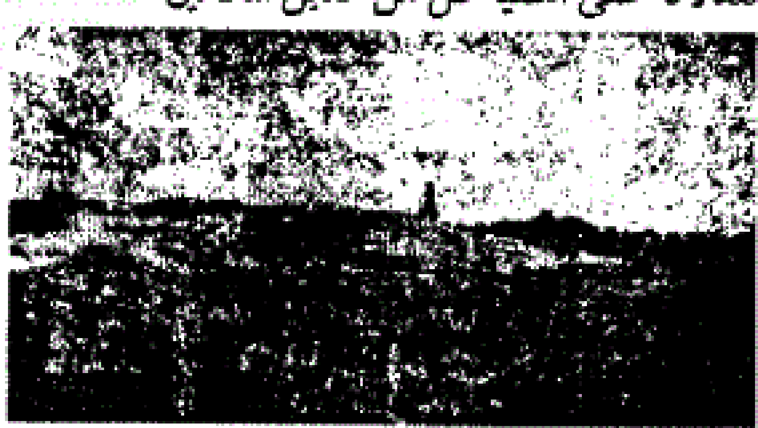
فلما أن تبوأ عرش مصر ساكن الجنان محمد علي باشا منشئ الأسرة العلوية الكريمة فقه بثاقب بصره أن المعادن هي أساس الصناعات جميعاً، فوجه عناية خاصة للبحث عنها، وندب من علماء الأوروبيين من جابوا الصحاري المصرية باحثين منقبين. على أن المنية عاجلته قبل أن تثمر جهوده الثمرة التي كان يرجوها. ولم يضع مجهوده سدى. فاتجهت الأنظار بعد ذلك إلى مسائل التعدين في مصر، وما بدأ القرن الأخير حتى كانت جهود قيمة تبذل في سبيل البحث عن المعادن بالصحاري المصرية. فأعيد فتح مناجم الذهب القديمة، واستمر استغلال بعضها سنين عديدة، وكشفت موارد الفوسفات والبترول والمنجنيز، وبلغ استغلال بعضها شأناً لا يستهان به. وسنقتصر في الكلام هنا عن أهم المعادن على حسب ترتيب أهميتها:

زيت البترول

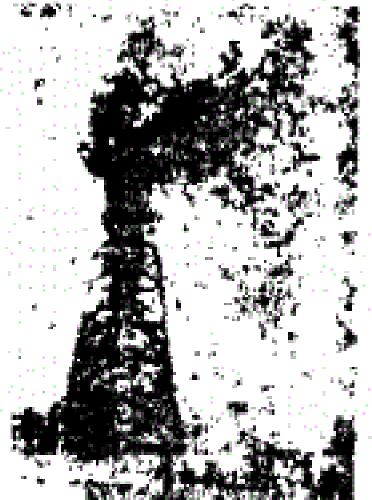
أول ما دل على وجود البترول بالأراضي المصرية ما كان ينزّ منه منذ القدم على سطح الماء عند سفح جبل الزيت على شاطئ خليج السويس. وكان هذا النزّ سبباً في تسمية الجبل بهذا الاسم.

ثم كشف بعد ذلك عام ١٨٨٥ بمنطقة الدمشة «جمسا» في مغارات كانت قد فتحت قرب الشاطئ لاستخراج معدن الكبريت. فأدى ذلك إلى البدء في عمليات البحث التي لم تثمر قبل عام ١٩١٠. ومن ذلك الوقت بدأ استغلال منطقة جمسا كحقل بترولي واستمر استغلالها حتى عام ١٩٢٧ حيث نضب أغلب آبارها فأهملتها الشركة التي كانت تستغلها. (انظر صورة أحد آبار جمسا رقم (ب) باللوحة الخامسة).

وفي عام ١٩١٤ كشفت الشركة نفسها منطقة الغردقة التي تبعد ٦٠ كيلومتراً جنوب جمسا، وقد تقدمت الغردقة تدريجياً حتى بلغت الآن درجة كبيرة من الإنتاج، وأصبحت المورد الأكبر لزيت البترول ومستخرجاته بالقطر المصري. (الصورة (أ) باللوحة الخامسة)، وسنورد بعض الأرقام للدلالة على أهمية كل من هذين المكانين:



(شكل٢٣«أ» منظر لجزء من حقول البترول بالغردقة)



(شكل ٢٤ «ب» بئر في أول إنتاجه يتدفق البترول من فوهته بقوة عظيمة جمسا)



(اللوحة الخامسة)

جمسا

بلغ مجموع آبارها ٣٤ بئراً . عدد الآبار المنتجة ١٠ آبار فقط . متوسط عمقها ٤٠٠ متر . ومجموع ما أنتجته من البترول وقت ابتدائها حتى أغلقت ١٨٢٤٨٨ طناً ، وكان البترول الذي أنتجته آبار جمسا من نوع جيد غني بالمواد الخفيفة كما يستدل من الأرقام الآتية :

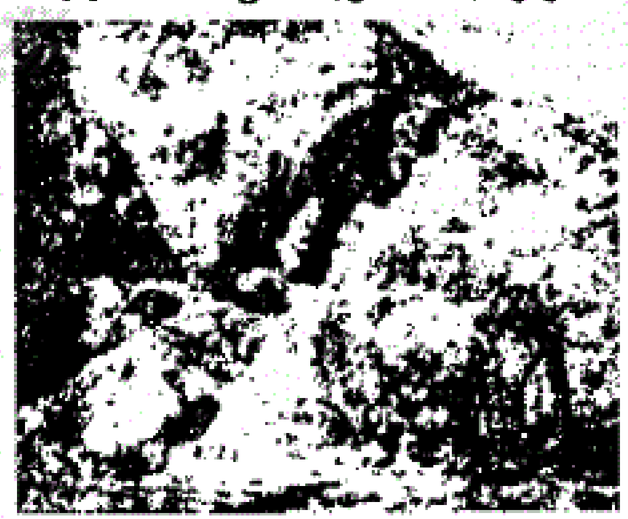
ثقله النوعي	٠,٨٢٧	نسبة البنزين	٢٨ في المائة
نسبة الكيروسين	٣٢ في المائة	نسبة المازوت	٤٠ في المائة

الغردقة

بلغ مجموع آبارها ٨٢ بئراً . عدد الآبار المنتجة ٦٩ بئراً . متوسط عمقها ٦٠٠ متر . مجموع ما أنتجته حتى نهاية عام ١٩٢٨م ٢٫٢٨٦٫٩٥٥ طناً . أما نوع البترول الذي تنتجه الآبار فهو أقل جودة من نوع بترول جمسا كما يستدل من الموازنة بين الأرقام الآتية والأرقام التي أوردناها :

الثقل النوعي لبترول الغردقة	٠,٩٢٠	نسبة البنزين	٨ في المائة
نسبة الكيروسين	١٥ في المائة	نسبة المازوت	٥٧ في المائة
نسبة الأسفلت	١١ في المائة	نسبة البارافين « الجمع »	٧ في المائة
نسبة الكبريت	٢ في المائة		

وتخرج هذه الزيوت مختلطة بمياه مالحة تحتاج لفصلها عنها إلى عمليات خاصة . كما أنه تنبعث من الآبار غازات كثيرة يقطر منها الجاسولين وهو نوع من البنزين الخفيف . انتهى من كتاب الجيولوجيا للدكتور حسن صادق . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .



(شكل ٢٥ ـ « ج » أحد عروق المرو الحاملة للذهب بمناجم سمنا بالصحراء الشرقية)



(شكل ٢٦ ـ « أ » منظر عام لمناجم الفوسفات قرب سفاجة بالصحراء الشرقية)



(شكل ٢٧ ـ « ب » منظر منطقة مناجم المنجنيز بشبه جزيرة سينا)

(اللوحة الخامسة)

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[فصلت: ٣]

وكيف بقيت اللغة العربية محفوظة مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[فصلت: ٤٢]

ولقوله تعالى أيضاً

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]

وهذه معجزة ثالثة

اعلم أيها الذكي أن في وصف القرآن بأنه عربي مبحثين: المبحث الأول: لغوي. المبحث الثاني: علمي وسياسي.

المبحث الأول وهو اللغوي

جاء في كتاب «الإتقان لعلوم القرآن» في الجزء الأول صفحة ١٢٧ ما نصه:

وأقوى ما رأيته لنزول غير العربي في القرآن وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل. قال: «القرآن من كل لسان». وقال قبل ذلك: وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[فصلت: ٣] بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية. ثم قال: وروى مثله، أي مثل ما قاله أبو ميسرة، عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه.

فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب.

ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال: من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت إليهم لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه لغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير. اهـ.

وأيضاً فالنبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾[إبراهيم: ٤]، فلا بد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه هو. اهـ.

وهاأنا ذا ملخص لك ما جاء في ذلك الكتاب مما ورد من لغات قبائل العرب المختلفة، ثم أتبعه بما جاء فيه من لغات الأمم المختلفة ليكون ذلك ذكرى لأولي الألباب.

ولقد اخترت أن يكون على هيئة جدول لطيف بحيث تكتب الكلمة وأمامها معناها وأمامهما في صفهما اسم القبيلة، ليكون ذلك أحسن وضعاً وأتم صنعاً وأقرب فهماً، وهاهي ذي في الصفحات التالية:

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
مسطوراً	مكتوباً	حمير	شاكلته	ناحيته	هذيل
السفهاء	الجهال	كنانة	رجماً	ظناً	هذيل
خاسئين	صاغرين	كنانة	ملتحداً	ملجأ	هذيل
شطره	تلقاءه	كنانة	يرجو	يخاف	هذيل
لا خلاق	لا نصيب	كنانة	هضماً	نقصاً	هذيل
وجعلكم ملوكاً	أحراراً	كنانة	هامدة	مغبرة	هذيل
قبيلاً	عياناً	كنانة	واقصد في مشيك	أسرع	هذيل
معجزين	سابقين	كنانة	الأجداث	القبور	هذيل
يعزب	يغيب	كنانة	ثاقب	مضيء	هذيل
تركنوا	تميلوا	كنانة	بالهم	حالهم	هذيل
فجوة	ناحية	كنانة	يهجعون	ينامون	هذيل
موئلاً	ملجأ	كنانة	ذنوباً	عذاباً	هذيل
مبلسون	آيسون	كنانة	دسر	المسامير	هذيل
دحوراً	طرداً	كنانة	تفاوت	عيب	هذيل
الخرّاصون	الكذابون	كنانة	أرجائها	نواحيها	هذيل
أسفاراً	كتباً	كنانة	أطواراً	ألواناً	هذيل
كنود	كفور للنعم	هذيل	برداً	نوماً خفيفاً	هذيل
الرجز	العذاب	هذيل	واجفة	خائفة	هذيل
شروا	باعوا	هذيل	مسغبة	مجاعة	هذيل
عزموا الطلاق	حققوا	هذيل	المبذر	المسرف	هذيل
صلداً	نقياً	هذيل	تفشلا	تجبنا	حمير
آناء الليل	ساعاته	هذيل	عثر	اطلع	حمير
فورهم	وجههم	هذيل	سفاهة	جنون	حمير
مدراراً	متتابعاً	هذيل	زيلنا	ميزنا	حمير
فرقاناً	مخرجاً	هذيل	مرجوّا	حقيراً	حمير
حرّض	حضّ	هذيل	السقاية	الإناء	حمير
عيلة	فاقة	هذيل	مسنون	منتن	حمير
وليجة	بطانة	هذيل	إمام	كتاب	حمير

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
انفروا	اغزوا	هذيل	ينغضون	يحركون	حمير
السائحون	الصائمون	هذيل	حسباناً	برداً	حمير
العنت	الإثم	هذيل	من الكبر عتياً	نحولاً	حمير
بيدنك	بدرعك	هذيل	خرجاً	جعلاً	حمير
غمة	شبهة	هذيل	غراماً	بلاء	حمير
دلوك الشمس	زوالها	هذيل	الصرح	البيت	حمير
أنكر الأصوات	أقبحها	حمير	كاظمين	مكروبين	أزدشنوءة
يتركم	ينقصكم	حمير	غسلين	الحارّ الذي تناهى حره	أزدشنوءة
مدينين	محاسبين	حمير	لوّاحة	حرّاقة	أزدشنوءة
ويلاً	شديداً	حمير	رفث	جماع	مذحج
بجبار	بمسلط	جرهم	مقيتاً	مقتدراً	مذحج
القطر	النحاس	جرهم	بظاهر من القول	بكذب	مذحج
محشورة	مجموعة	جرهم	الوصيد	الفناء	مذحج
معكوفاً	محبوساً	جرهم	حقباً	دهراً	مذحج
مرض	زنا	جرهم	الخرطوم	الأنف	مذحج
فباؤوا	استوجبوا	جرهم	تسيمون	ترعون	مذحج
شقاق	ضلال	جرهم	مريج	منتشر	خثعم
خيراً	مالاً	جرهم	عفت	مالت	خثعم
كدأب	كأشباه	جرهم	هلوعاً	ضجوراً	خثعم
تعولوا	تميلوا	جرهم	شططاً	كذباً	خثعم
يغنوا	يتمتعوا	جرهم	نحلة	فريضة	قيس عيلان
شرّد	نكل	جرهم	حرج	ضيق	قيس عيلان
أراذلنا	سفلتنا	جرهم	الخاسرون	مضيعون	قيس عيلان
عصيب	شديد	جرهم	تفندون	تستهزئون	قيس عيلان

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
لفيفاً	جميعاً	جرهم	صياصيهم	حصونهم	قيس عيلان
محسوراً	منقطعاً	جرهم	تحبرون	تنعمون	قيس عيلان
حدب	جانب	جرهم	رجيم	ملعون	قيس عيلان
الخلال	السحاب	جرهم	يلتكم	ينقصكم	قيس عيلان
الودق	المطر	جرهم	حفدة	أختاناً	سعد العشيرة
شرذمة	عصابة	جرهم	كل	عيال	سعد العشيرة
ريع	طريق	جرهم	فجاجاً	طرقاً	كندة
ينسلون	يخرجون	جرهم	بست	فتت	كندة
شوياً	مزجاً	جرهم	تبتئس	تحزن	كندة
الحبك	الطرائق	جرهم	اخسؤوا	اخزوا	عذرة
سور	الحائط	جرهم	ربيون	رجال	حضرموت
لا شية	لا وضح	أزدشنوءة	دمرنا	أهلكنا	حضرموت
العضل	الحبس	أزدشنوءة	لغوب	إعياء	حضرموت
أمّة	سنين	أزدشنوءة	منسأته	عصاه	حضرموت
الرس	البئر	أزدشنوءة	طفقا	عمدا	غسان
بئيس	شديد	غسان	خبالاً	غياً	عمان
سيء بهم	كرههم	غسان	نفقاً	سرباً	عمان
لا تغلوا	لا تزيدوا	مزينة	حيث أصاب	أراد	عمان
إملاق	جوع	لخم	بعد أمة	نسيان	تميم
ولتعلنّ	ولتقهرن	لخم	بغياً	حسداً	تميم
فجاسوا خلال الديار	تخللوا الأزقة	لخم	طائره	عمله	أنمار
العقود	العهود	بني حنيفة	أغطش	أظلم	أنمار

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
الجناح	اليد	بني حنيفة	لأحتنكنّ	لأستأصلنّ	الأشعريون
الرهب	الفزع	بني حنيفة	تارة	مرة	الأشعريون
حصرت	ضاقت	اليمامة	اشمأزت	مالت ونفرت	الأشعريون
تميلوا ميلاً عظيماً	تخطئون خطأً بيناً	سبأ	لينة	نخلة	الأوس
تبرنا	أهلكنا	سبأ	ينفضوا	يذهبوا	الخزرج
نكص	رجع	سليم	فافرق	فاقض	مدين
الصاعقة	الموت	عمان	أباريق	طريق الماء أو صب الماء على هينة	فارسية
ينعق	يصيح	طيئ	أبا	الحشيش	عربية
رغداً	خصباً	طيئ	ابلعي	ازدرديه	حبشية
سفه نفسه	خسرها	طيئ	أسباط	قبائل	لغة بني يعقوب وهي العبرية
يس	يا إنسان	طيئ	إستبرق	الديباج الغليظ	العجم
أفيضوا	انفروا	خزاعة	أسفاراً	الكتب	السريانية والنبطية
الإفضاء	الجماع	خزاعة	إصري	عهدي	النبطية
			أكواب	أكواز	النبطية

وجاء في صحيفة ١٣٦ من الجزء الأول من كتاب الإتقان المذكور أيضاً ما نصه : وقال أبو بكر الواسطي في كتابه الإرشاد في القراءات العشر :

في القرآن من اللغات خمسون لغة ، منها لغة قريش ، وهذيل ، وكنانة ، وخثعم ، والخزرج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عيلان ، وجرهم ، واليمن ، وأزدشنوءة ، وكندة ، وتميم ، وحمير ، ومدين ، ولخم ، وسعد العشيرة ، وحضرموت ، وسدوس ، والعمالقة ، وأنمار ، وغسان ، ومذحج ، وخزاعة ، وغطفان ، وسبأ ، وعمان ، وبنو حنيفة ، وثعلب ، وطيئ ، وعامر بن صعصعة ، وأوس ، ومزينة ، وثقيف ، وجذام ، وبلى ، وعذرة ، وهوازن ، والنمر ، واليمامة .

وفيه من غير العربية : الفرس ، والروم ، والنبط ، والحبشة ، والبربر ، والسريانية ، والعبرانية ، ثم ذكر في أمثلة ذلك غالب ما تقدم عن أبي القاسم ، وزاد الزجر والعذاب بلغة بلى ، طائف من الشيطان نخسة بلغة ثقيف ، الأحقاف الرمال بلغة ثعلب ، وقال ابن الجوزي في فنون الأفنان في القرآن بلغة همدان الريحان الرزق والعيناء البيضاء والعبقري الطنافس ، وبلغة عامر بن صعصعة الحفدة الخدم ، وبلغة ثقيف العول الميل ، وبلغة عك الصور القرن ، وقال ابن عبد البر في التمهيد : قول من قال نزل بلغة قريش معناه عندي الأغلب . انتهى .

ثم ذكر في صحيفة ١٣٨ وما بعدها الألفاظ الواردة من كلام غير العرب على حروف المعجم وهذا نصها :

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
أليم	موجع	زنجية أو عبرانية	زنجبيل		فارسي
إناه	نضجه	أهل المغرب (البربر)	السجل	الرحل	الحبشة
أوّاه	موقن أو الرحيم	الحبشية	السجل	الكتاب	فارسي معرّب
أوّب	مسح	الحبشية	سجين		غير عربي
الجاهلية الأولى	الآخرة	القبطية (فعندهم الأولى آخرة وبالعكس)	سرادق	الدهليز أو الدار	الفارسية
بطائنها	ظواهرها	قبطية	سرياً	نهراً	السريانية
كيل بعير	كيل حمار	عبرية	سقر		أعجمية
بيع	الكنائس	فارسيتان معربتان	سجداً	مقنعي الرؤوس	الفارسية
تنور		هو فارسي معرب	سكراً	الخل	الحبشية
تتبيراً		هي بالنبطية	سلسبيل		أعجمي
من تحتها	من بطنها	النبطية	سندس	الديباج	الفارسية والهندية
الجبت	الشيطان أو الساحر	الحبشية	سيدها	زوجها	القبطية
جهنم	أصلها كهنام	فارسية أو عبرانية	سينين	الحسن	الحبشية

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
حرم	وجب	الحبشية	سيناء	الحسن	النبطية
حصب جهنم	حطب جهنم	الزنجية	شطر	تلقاء	الحبشية
وقولوا حطة	وقولوا صواباً	العبرية	شهر		هي كلمة سريانية
الحواريون	الغسالون أصله حواري	النبطية	الصراط	الطريق	الروم
حوياً	إثماً	الحبشية	صرهن	شققهن	النبطية
دينار		هو فارسي	طه	هو كقولك يا محمد	الحبشية
ربانيون		هي عبرانية أو سريانية	طه	يا رجل	النبطية
ربيون		سريانية	طه	يا رجل	الحبشية
الرحمن		عبرانية أصله رخمن	طفقا	قصدا	الرومية
الرس	البئر	أعجمي	طوبى	الجنة	الحبشية والهندية
الرقيم	اللوح	الرومية	طور	الجبل	السريانية
رمزاً	تحريك الشفتين	العبرية	طوى ليلاً معرب	أو هو رجل	بالعبرية
رهواً	سهلاً دمثاً	النبطية	عبدت	قتلت	النبطية
رهواً	ساكناً	السريانية	جنات عدن	جنات الكروم والأعناب	السريانية
الروم	فهذا الجيل من الناس		كفلين	ضعفين	الحبشية
العرم	المسناة التي تجمع الماء	الحبشية	كوّرت	غورت	الفارسية

الكلمة	معناها	القبيلة	الكلمة	معناها	القبيلة
غساق	البارد المنتن	التركية	مقاليد	مفاتيح	الفارسية
غيض	نقص	الحبشية	مرقوم	مكتوب	العبرية
فردوس	بستان	الرومية	مزجاة	قليلة	العجم أو القبط
فردوس	فرداسا	النبطية	ملكوت	ملك	النبطية (ملكوتا)
فوم	حنطة	العبرية	مناص	فرار	القبطية
قراطيس	معروف	غير عربي	مهل	عكر الزيت	أهل المغرب
القسطاس	العدل	الرومية	ناشئة الليل	قيام الليل	الحبشية
القسورة	الأسد	الحبشية	ن	أصنع ما شئت وأصله (أنون)	الفارسية
قطّنا (بتشديد الطاء)	كتابنا	النبطية أو الفارسية معرّبة	هدنا	تبنا	العبرانية
قنطار	١٢ ألف أوقية	رومية وسريانية وبربرية	هودا	اليهود	الأعجمية
			هوناً	حكماء	السريانية
القيوم	هو الذي لا ينام	السريانية	وزر	الحبل والملجأ	النبطية
كافور	معروف	معرّب	يحور	يرجع	الحبشية
كفر عنا	امح عنا	النبطية	يصهر	ينضج	البربرية

قال المؤلف: هذا ما وقفت من الألفاظ المعرّبة في القرآن بعد الفحص الشديد سنين ولم تجتمع قبل في كتاب قبل هذا.

وقد نظم القاضي تاج الدين ابن السبكي سبعة وعشرين لفظاً في أبيات، وذيل عليها الحافظ أبو الفضل ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون لفظاً وذيلت عليهما بالباقي وهو بضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة.

فقال ابن السبكي:

السلسبيل وطه كوّرت بيع ... روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع ... إستبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغسا ... ق ثم دينار القسطاس مشهور
كذاك قسورة واليم ناشئة له ... ويؤت كفلين مذكور ومسطور
مقاليد فردوس يعدّ كذا ... فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقال ابن حجر:

وزدت حرم ومهل والسجل كذا ... السري والأب ثم الجبت مذكور
وقطنا وإناه ثم متكئاً ... دارست يصهر منه فهو مصهور
وهيت والسكر والأوّاه مع حصب ... وأوّبي معه والطاغوت مسطور
صرهنّ إصري وغيض الماء مع وزر ... ثم الرقيوم مناص والسنا النور

وقلت أيضاً:

وزدت يس والرحمن مع ملكو ... ت ثم سينين شطر البيت مشهور
ثم الصراط ودريّ يحور ومر ... جان أليم مع القنطار مذكور
وراعنا طفقا اهدنا ابلعي ووراء ... والأرائك والأكواب مأثور
هود وقسط وكفر زمرة سقر ... هون يصدون والمنساة مسطور
شهر مجوس وأقفال يهود حوا ... ريون كنز زسجين وتتبير
بعير أزر وحوب وردة عرم ... أل ومن تحتها عبدت والصور
ولينة فومها رهوا واخلد مز ... جاة وسيدها القيوم موفور
وقمل ثم أسفار عنى كتباً ... وسجداً ثم ربيون تكثير
وحطة وطوى والرس نون كذا ... عدن ومنفطر الأسباط مذكور
مسك أباريق ياقوت رووا فهنا ... ما فات من عدد الألفاظ محصور
وبعضهم عد الأولى مع بطائنها ... والآخرة لمعاني الضد مقصور

هذا ما أردته من كتاب «الإتقان في علوم القرآن»، وبهذا تم الكلام على المبحث الأول في اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الثاني في اللطيفة الثانية:

وهو العلمي والسياسي في قوله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]

وصف الله القرآن بأنه عربي، ولا جرم أن هذا الوصف لا يحتاج في حد ذاته إلى بيان أو تصريح لأن النبي صلى الله عليه وسلم عربي والسامعون له عرب، فهو معروف بداهة، إذن ذكر هذا الوصف

قد جيء به لغرض سام وحكمة تظهر للأمم جيلاً بعد جيل . ولقد ظهرت بعض آثار ذلك في أيامنا هذه . يا سبحان الله ! إن للغات لآثاراً عجيبة في أحوال الأمم وتطورها وترقيها من حال إلى حال .

(١) فلأذكر لك أولاً اللغة اللاتينية ، وكيف كان لها السيادة في القرون الأولى بالدول الغربية ، ثم تلتها لغات أخرى وحلت محلها ، كما يقوم الابن مقام أبيه ويرث ما يملكه .

(٢) ثم أتبع ذلك بذكر دولة حمورابي وهي الدولة البابلية الأولى من سنة ٢٤٦٠ ق . م إلى سنة ٢٠٨١ ق . م ، وكيف اقتبست القلم السومري القديم على عهد السومريين الذي كان شكله أشبه بشكل الكتابة الهيروغليفية « المصرية القديمة » ، وكيف استخدموا اللغة السومرية في المكاتبات ، ثم تركوا اللغة وأبقوا الخط ، ثم تغيرت هيئة الخط .

(٣) ثم أقفي بذكر اللغة العربية قبيل الإسلام ، وكيف كان خطها النبطي ، والفرق بين ذلك الخط والخط المسماري وبينهما نحو ثلاثة آلاف سنة .

(٤) ثم أتبع ذلك بالنسبة بين هذا الخط النبطي واللغة العربية إذ ذاك في القرن الرابع بعد الميلاد وبين ما حدث من التغير فيهما أيام البعثة المحمدية .

(٥) ثم أذكر بعد ذلك كيف نسخت اللغة العربية لغات الأمم التي حلت بها في مصر والشام والعراق .

(٦) ثم أتبع ذلك بما هو مقصود في تفسير هذه الآية من هذا الموضوع كله ، وهو أن للغة العربية سحراً حلالاً ، وبفضل القرآن دامت قروناً ، أي نيفاً و١٣ قرناً ، ولغة القرآن لم تتغير استبقاء لوصف القرآن بالعربية ، حتى إن هذه اللغة كلما حاولت الدهور والقرون تغييرها على ألسنة العامة على مقتضى قانون التطور العام ؛ أبت أن تفارق اللغة الفصحى ، واجتذبت أهل الأقطار العربية والعجمية المسلمة إلى تلك اللغة ، فأصبحت كهرباء تصل ما بين أمم وأمم في عصرنا الحاضر ، وهل أعجب من أن ترى الصورة الشمسية لسورة « الفاتحة » ، و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص : ١] مكتوبتين باللغة الصينية في نفس بلاد الصين ، واللغة العربية بالخط العربي مصداقاً لقوله تعالى هنا : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[فصلت : ٣] ولقوله تعالى أيضاً : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر : ٩] .

فهاهنا إذن ستة فصول :

الفصل الأول : في مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية وكيف محيت مع أنها كانت لغة الدين والسياسة .

الفصل الثاني : في عرب الجاهلية الأولى وهي دولة حمورابي فيما بين النهرين .

الفصل الثالث : في اللغة العربية قبيل الإسلام وكيف كان خطها النبطي .

الفصل الرابع : في النسبة بين هذا الخط النبطي وبين الخط واللغة العربية أيام البعثة المحمدية .

الفصل الخامس : في أن اللغة العربية نسخت لغات الأمم المصرية والسورية والعراقية .

الفصل السادس : في المقصود من هذا كله في تفسير هذه الآية ، وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة إلى الآن في بلاد العرب وأوروبا والصين من أكبر المعجزات .

الفصل الأول
في مقدمة هذا المقام بذكر اللغة اللاتينية وما طرأ عليها
تمهيداً لما سنذكر من اللغة العربية وما طرأ عليها تبييناً لمعجزات القرآن

اعلم أن الدولة الرومانية صاحبة السلطان في جنوبي وغربي أوروبا؛ فكانت حضارتها ولغتها ودينها وعاداتها وقوانينها ساريات في تلك الأمم.

ومن عادات الله في الأمم أنها إذا استفحلت وكمل عمرانها وعظم شأنها أخذت ترجع القهقرى كما يكون ذلك في الإنسان والحيوان والنبات، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]. وقيل: «مصائب قوم عند قوم فوائد»، فكان الرومان كلما ازدادوا في ترفهم اقتربت منهم الأمم المتوحشة حولهم، وهم سكان سواحل البلطيق وأودية الطونة والرين الذين كانوا في شمال وشرق الدولة، وما زال أولئك المتوحشون يتربصون بتلك الدولة الدوائر ويشنون الغارات تلو الغارات إلى أن كانت سنة ٤٧٦ ميلادية، إذ تمكن أدوكر ـ وهو قائد من قواد القبائل الألمانية الذين يوصفون بالمتوحشين ـ من إزالة سلطان «رميولوس» آخر إمبراطور للدولة الرومانية الغربية وجعل نفسه حاكماً لروما. وهذه الدولة الغربية غير الدولة الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية ثم احتلتها الترك بعد قرون. فلما زالت المملكة الرومانية الغربية انتشرت الفوضى والهرج والمرج والفساد، لأن هؤلاء قوم لا قوانين لهم ولا نظام، فأهملت الطرق وجهلت التجارة والصناعة والزراعة، وهنالك أصبح الناس هناك جماعات كل جماعة لهم رئيس يجمعهم ليصدّوا عنهم جيرانهم، وأصبح هناك نظام معروف باسم نظام الإقطاع وهو المعهود في تاريخ العصور الوسطى.

ومثل الألمان في الإغارة على تلك الدولة أهل فرنسا، وقد عظم شأنها حيناً من الدهر أيام شرلمان سنة ٧٦٨ إلى سنة ٨١٤، وسميت إذ ذاك بالدولة الرومانية. والذي يهمنا في هذا المقام هو اللغة اللاتينية التي هي لغة الكتابة بين العلماء، ثم انحصرت بين رجال الكنيسة، وذلك أن هناك لهجات أخرى مؤسسة على اللاتينية في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ولهجات أخرى مناسبة لها في شمالي أوروبا ترجع إلى الأصل التيوتوني. وفي آخر العصور الوسطى قد ابتدأ أولئك الأقوام يتغنون بلغاتهم وإن لم تكن مكتوبة، تغنى قوم من فرنسا باللغة الفرنسية الشمالية، وجماعة من ألمانيا بالألمانية، وظهر «دانتي» فألف كتابه المسمى «الكوميديا الإلهية» باللغة الطليانية. وكتب شوسر الإنجليزي حكايات كنتربري باللغة الإنجليزية السكسونية القديمة. وظهرت في أسبانيا أنشودة السيد باللغة الإسبانية، فهنالك تكوّنت أصول اللغات الأوروبية الجديدة، وقد ظهر أثر ذلك في ترقية معارف تلك الشعوب، ذلك لأن أكثرهم يجهلون اللغة اللاتينية التي كانت وحدها لغة العلم، فلما ألفت الكتب باللغات التي يعرفونها اتسعت مداركهم واستنارت عقولهم، وساعد على ذلك أمران:

الأمر الأول: الحروب الصليبية التي بها اختلط القوم بالمسلمين وحملوا كتبهم وعلومهم، فلما رجعوا غيّروا أساليب حياتهم وعرفوا الحقائق وتعلموا الصناعات الكثيرة، وهذا التفسير قد تقدم فيه هذا موضحاً في سور كثيرة.

الأمر الثاني : سقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٧ باستيلاء الدولة العثمانية عليها ، فلقد كانت تلك العاصمة حافلة بالعلماء ، فلما أحسوا بدنوّ العثمانيين رحلوا منها ومعهم الكتب الإغريقية العظيمة في الفنون المختلفة التي كانت تجهلها أوروبا ، ودخلوا المدن الإيطالية ، فصار هؤلاء أساتذة في مدارسهم وجامعاتهم ، وهذه أهم الأسباب في نهضة إيطاليا ومنها انتشرت في أنحاء أوروبا ، وهناك سبب ثالث لا ينقص عنهما أهمية وهو أن الأندلس كان سقوطها في نفس ذلك القرن .

وأنت أيها الذكي ربما قرأت في مواضع كثيرة من هذا التفسير أن ابن رشد لما نفي تفرّق تلاميذه اليهود في أوروبا ورحبت بهم ألمانيا ، وترجموا كتبه باللاتينية والعبرية وغيرها ، وأيضاً قد كان بعض باباوات رومة كما تقدم قد تعلم في الأندلس ، وبعض علماء الإنجليز قبل ذلك التاريخ تعلموا العلوم الرياضية وترجموا كتباً من بلاد الأندلس ومصر .

يا للعجب ! إذن هذا القرآن الموصوف بأنه بلسان عربي هو السبب الحقيقي في نهضة أوروبا الحديثة . ذلك لأن الأندلسيين المسلمين لهم يد فيه ، والحروب الصليبية ثم الترك المسلمون التابعون لهذا الدين الذي نزل باللغة العربية هم ثالثة الأثافي . إذن أول النهضة الأوروبية وآخرها هو القرآن العربي ، وهذا من أسرار وصف القرآن بأنه عربي ، وقد ثبت بهذه اللغة ولم يتغير تبعاً للتغير المستمر في جميع اللغات من قرن لآخر كما يأتي ، فإنك سترى أن اللغة العربية في مدة ثلاثة قرون قد تغيرت ألفاظها واختلفت كتابتها اختلافاً بيناً ، وهذا القرآن العربي لم تتغير لغته ، مخالفاً بذلك كل لغة كاللاتينية التي حلت محلها ألسنة أخرى مبنية عليها ولغات أخرى لا صلة بينها وبينها ، وهذا من أسرار ذكر وصف القرآن بأنه عربي ، فلغة اللاتين لغة دينية ومع ذلك تغيرت ، ولغة العرب لم تتغير ، ولو تغيرت لزال هذا الدين ، ثم إن العداوة بين أهله وبين غيرهم كانت سبباً في طرد جماعة من القسطنطينية وآخرين من الأندلس ، كان كل ذلك سبب انتشار العلم والنهضة الحديثة ، ولو تغيرت اللغة العربية كغيرها لانمحى الدين ولم يظهر فيلسوف كابن رشد ، ولا ملك يهاجم النصرانية كمحمد الفاتح ، ولا ملك يدافع النصرانية كصلاح الدين أيام الحروب الصليبية ، والترك لسانهم غير عربي ومع ذلك تأثروا بذلك اللسان العربي ، وبهذا كله كانت هذه النهضة الحديثة .

ومن آثار هذه النهضة الثلاثية في أوروبا بفضل القرآن العربي أن التعليم في تلك الأقطار كان مقصوراً على علوم الدين والقانون الروماني وقانون الكنيسة وفلسفة أرسطاطاليس ، فماذا جرى؟

(أولاً) قامت مناظرة بين العلماء أشهرها المناظرة التي بين « بطرس ابيلارد » وبين « الأب برنارد » ، فالأول يقول بأن الناس يسيرون بمقتضى عقولهم ولا يقتصرون على العلوم الدينية ، والآخر كان ينتصر للكنيسة ويحكمها في كل شيء .

(ثانياً) إن الكنيسة قوّت « برنارد » ونصرته وخذلت « ابيلارد » وحقرت تعاليمه ، ومع ذلك قامت جامعة باريس على أثر هذه المناظرة ، ثم تلتها سلونو وبولونيا في إيطاليا ، ثم إكسفورد في إنجلترا .

(ثالثاً) ظهر هنالك العلماء مثل « توماس أكويناس » وهو من ذوي الابتكار والعبقرية ، ومثل « روجربيكن » صاحب النظرية المشهورة وهي البحث العلمي واستنباط القواعد الطبيعية من المشاهدات .

ملخص ما تقدم

إن النهضة التي قامت بأوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجع للحضارة العربية الآتية من الأندلس، ومن آثار الحروب الصليبية، وآثار علماء القسطنطينية الفارّين من الترك، وكل هذا ينطوي تحت هذه الآية: ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[فصلت: ٣]، ونشأ عن ذلك:

الرقيّ السياسي

كان البابا والإمبراطور لهما السيادة ولا رادّ لقضائهما، فهذا له سيادة الدين، وهذا له سيادة السياسة في جميع العالم المسيحي، لأن هذه الأمم كانت تخضع لحكم الإقطاعات في الممالك المختلفة وكانت السلطات متشعبة في أيدي أمراء مختلفين، وكل أمير مقاطعة يناوئ الآخر ويحاربه في تلك القرون الوسطى، أي التي بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين سقوط الدولة الرومانية الشرقية المتقدم الكلام عليهما وذلك في مدة نحو ألف سنة كما هو واضح، ولكن العقول متى تحركت نشطت الأجسام وهبت من رقادها وقامت من نومتها ونفضت غبار نومها، فترى أحد هؤلاء الأمراء يقوى ويشتد أزره ويغلب الآخر، حتى ظهرت روح القومية ودبّ حب الاستقلال التام في الداخل والخارج.

(أ) فظهرت في فرنسا أسرة « هيوكايت ».

(ب) وفي إنكلترا أسرة « النرمنديين » و« الايخفن ».

(جـ) وفي أسبانيا أسرتان وهما « قشتالة » و« ارغونة »

(د) وقامت أسرة « هنستوفن » وأرادت تكوين مملكة قومية في ألمانيا في القرن الثالث عشر فعارضها البابا.

(هـ) وقام الوطني « رينزي » في منتصف القرن الرابع عشر وحاول تحرير إيطاليا وتوحيدها.

(و) وظهر « كتاب الأمير » وهو كتاب وضعه « مكيافلي »، وهو كاتب سياسي من أهل فلورنسة، شرح فيه أعمال الملوك، وبيّن أن الأمير الذي يحفظ كيان دولته لا بد أن يخالف الذمة والضمير والمروءة والإنسانية والدين في بعض الأوقات، هنالك أخذ الملوك يقاومون نفوذ البابا الذي كان إذ ذاك له النفوذ السياسي والديني.

إذن مبدأ نهضة القوم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ولكنهم اعتبروها ابتدأت في القرن الخامس عشر حينما ظهرت علوم وأدبيات قديمة يونانية ورومانية أكملت ما جاء لهم من الأندلس العربي وعلماء القسطنطينية. وإلى هنا تم الكلام على الفصل الأول، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

في عرب الجاهلية الأولى وهم دولة حمورابي فيما بين النهرين

جاء في كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » تحت العنوان التالي ما نصه:

العرب البائدة

أو عرب الشمال في الطور الأول

يقول العرب: إن هذه الطبقة تشتمل على عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت ومن ينتمي إليهم، ويسمونها العرب العاربة، وأنهم من أبناء سام.

قال ابن خلدون : وكان لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملكهم فيها إلى الشام ومصر في شعوب منهم ، ويقال إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام ، فسكنوا جزيرة العرب بادية مخيمين . ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وأطام وقصور إلى أن غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان . وقال في مكان آخر : إن قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق .

وإذا تدبرت ما نقله العرب عن القبائل البائدة رأيتهم يقسمونهم إلى قسمين : العماليق من نسل لاوذ بن سام ، وسائر القبائل البائدة من نسل أرم بن سام .

قال ابن خلدون : كان يقال عاد أرم فلما هلكوا قيل ثمود أرم ، فلما هلكوا قيل نمرود أرم ، فلما هلكوا قيل سائر ولد أرم أرمان .

فالعرب يعدّون العرب البائدة ساميين من نسل أرم ، أي آراميين ، إلا العمالقة فيقولون إنهم من نسل لاوذ بن سام أخي أرم ، ويقولون إنهم ملكوا العراق « بابل » ثم نزحوا منها إلى جزيرة العرب . فهذا القول على اختصاره يوافق خلاصة ما وصلنا إليه بعد النظر فيما اكتشفه العلماء في بابل وآشور من النقوش أو قرؤوه في كتب اليونان وغيرهم .

ثم ذكر العمالقة الذين فتحوا مصر وكانوا شمالي الحجاز مما يلي جزيرة سيناء ، وأن النسابين ينسبون العرب البائدة إلى أرم ، والعماليق إلى أخيه لاوذ .

والذي يهم في هذا المقام ذكره دولة حمورابي أو الدولة البابلية الأولى . وسنورد هنا نبذة من تاريخها . وهاك نصها :

تمدّن دولة حمورابي أو الدولة البابلية الأولى

من سنة ٢٤٦٠ ق . م إلى سنة ٢٠٨١ ق . م

إذ استولى ساموابي أولاً على شمال بابل نحو سنة ٢٤٦٠ ق . م ، وكان الجنوب في حوزة العلاميين ، وأخذ الملك ينتقل من ملك إلى ملك ، وكان السادس منهم حمورابي ، وهو الذي أخضع دولة العلاميين ، واستمر في الفتح إلى البحر الأبيض المتوسط .

والذي يهمنا في تفسير الآية أن نذكر مدنية تلك الدولة ومن أين اقتبستها ، وما قلمها الذي كانت تكتب به ، إيفاء لتفسير الآية .

فنقول ومن الله التوفيق :

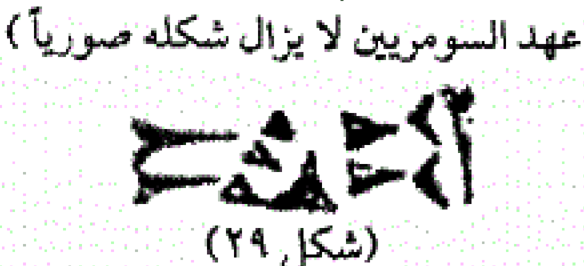
كان السومريون قبل هذه الدولة قد اتخذوا ديناً ووضعوا شريعة واخترعوا كتابة ولهم لغة خاصة . فلما غلبهم الحمورابيون اقتبسوا تمدنهم ونظاماتهم كما فعل العرب المسلمون بعدهم بدولة الفرس .

وكان الحمورابيون في أول دولتهم يستخدمون اللغة السومرية في المكاتبات ثم أهملوها بالتدريج حتى ذهبت وذهب معها العنصر السومري وبقي العنصر السامي ، كما تغلب العنصر العربي بمصر والشام بعد الإسلام بتغلب اللغة العربية .

ولكن الحمورابيين استبقوا الخط السومري وهو القلم المسماري لأنهم استخدموه في تدوين لسانهم، وزادوا فيه أحرفاً لم تكن في السومرية. (انظر شكل ٢٨).

(شكل ٢٨ـ القلم المسماري القديم على عهد السومريين لا يزال شكله صورياً)

وكان القلم المذكور في أصل وضعه صورياً مثل الهيروغليف المصري كما ترى في شكل ٢٨، ثم تشوّه شكله بالاستعمال وباستخدام المسامير في طبعه على الطين فصار على هذه الصورة:



(شكل ٢٩)

أما المسلمون فأهملوا الأقلام التي كانت شائعة قبلهم في العراق وفارس والشام ومصر، وهي الفهلوي والكلداني والقبطي وغيرها، ونشروا قلماً حملوه معهم كان يستخدمه عرب مشارف الشام وأعالي الحجاز هو الحرف النبطي، وتكيف بتوالي الأجيال حتى صار إلى الحرف العربي المعروف، وعمّ العالم الإسلامي العربي وغير العربي.

أما تمدين السومريين فاقتبسه الحمورابيون ورقوه وزادوا فيه، كما فعل المسلمون بتمدن الروم والفرس، وأكثرهم عناية في ذلك حمورابي، فإنه جمع الشرائع ونظمها وبوبها فعرفت باسمه، وقد رتبها في ٢٨٢ مادة. وجدوا نسخة منها سنة ١٩٠١ في بلاد السويس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب وطولها سبعة أقدام، وتدل تلك الشريعة على تقدم تلك الأمة في سلم الاجتماع إلى أرقى ما بلغت إليه تلك العصور، ولا سيما في شروط الزواج والطلاق والتبني والإرث. انتهى الكلام على الفصل الثاني.

الفصل الثالث والرابع
في اللغة العربية قبيل الإسلام وكيف كان خطها النبطي
وفي النسبة بين خطها النبطي ولهجاتها
وبين خطها ولهجاتها في أيام البعثة المحمدية

جاء في كتاب آداب اللغة العربية تحت العنوان التالي ما نصه:

العصر الجاهلي قبيل الإسلام من القرن الخامس للميلاد إلى ظهور الإسلام

إن الحكم على ما تقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبني على الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضياع أخبار تلك الجزيرة بتمادي الأيام. ولعلهم إذا نشطوا للحفر والتنقيب كشفوا عن حقيقة هذه الظنون الستار.

الفرق بين لغة الجاهلية الأولى والثانية

وفي كل حال أن عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب الجاهلية الثانية قبيل الإسلام لغة وديناً وأدباً وخلقاً. فالحمورابيون كان أكثرهم أهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن. وأما عرب الجاهلية الثانية فأكثرهم أهل بادية ونجع، وكانت لغة الحمورابيين أقرب إلى الآشورية منها إلى العربية.

فلغة أيوب إذا كانت عربية فهي غير عربية مضر التي وصلت إلينا من عرب قريش وسائر الحجاز. وقد يكون الفرق بينهما كثيراً جداً أكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر أو الشام الآن، لأن أهل هذين المصرين قيدوا أنفسهم بالمحافظة على لغة القرآن وأساليبه. فكلما ساقتهم طبيعة النشوء نحو التغيير أعادهم التقليد إلى الأصل. ولولا ذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى أبعد من ذلك كثيراً.

قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذي وجدوه بين لغة عرب الشام في أوائل القرن الرابع للميلاد مما قرؤوه على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة وبين لغة مضر عند ظهور الإسلام. وذلك أنهم عثروا في أطلال النمارة في حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطي نقشت في أوائل القرن الرابع للميلاد أي قبل الإسلام بثلاثة قرون، وهذه صورتها (انظر شكل ٣٠).

١
٢
٣
٤
٥

(شكل ٣٠ ـ رسم كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨م)

وإليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة:

(١) تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج.

(٢) وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء

(٣) يزجو(؟) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

(٤) الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعدُ ذو ولده.

هذا لسان عربي تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها إلى إيضاح، وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى وهو:

(١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج.

(٢) وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقاد

(٣) الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدًا واستعمل بنيه

(٤) على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

(٥) إلى اليوم. توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ أيلول «سبتمبر» وفق بنوه للسعادة.

وكان أهل الشام وحوران وما يليهما يؤرخون في ذلك العهد القديم بالتقويم البصروي نسبة إلى بصرى عاصمة حوران، وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد، فإذا أضيفت إلى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك.

انظر إلى الفرق بين الأصل وتفسيره ، والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون فكيف تكون وبينهما بضعة وعشرون قرناً؟ والتغيير طبيعي في كل لغة عملاً بناموس النشوء . اعتبر ذلك في الفرق بين اللغة اللاتينية الأصلية وما تخلف عنها من الإيطالية والأسبانية وبين اللغة الإنكليزية القديمة والحديثة وغير ذلك .

فآداب العرب في جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبيل الإسلام وهم أهل بادية لا يقرؤون ولا يكتبون . وإنّما جمعت هذه الآداب بعد الإسلام بالأخذ عن الأفواه . انتهى الكلام على الفصل الثالث والرابع ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الخامس

في أن اللغة العربية نسخت لغات لم تقم لها قائمة إلى الآن

فقد جاء في كتاب تاريخ أدب اللغة العربية « لجورجي زيدان » تحت العنوان التالي ما نصه :

الدولة الأموية واللغة العربية

أما الدولة الأموية ؛ فالهمة كانت متجهة فيها على الخصوص إلى الآداب العربية الجاهلية . لأن الأمويين كانوا شديدي الحرص على منزلة العرب ، كثيري العناية في حفظ الأنساب ، وهم الذين جعلوا الإسلام دولة فأيدوها ونشروا اللغة العربية في المملكة الإسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية . وبعد أن كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية أصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة ، وتنوسيت لغاتها الأصلية وهي تعدّ الآن من البلاد العربية . وإذا نزلها التركي أو الإفرنجي أو غيرهما من أي أمة كانت وتوالد فيها عدّ نسله عربياً . وظل العرب في أيام بني أمية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم إلى البادية لإتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم . وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة في أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العمومية ، فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون إلى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس . وأهل البصرة يخرجون إلى المربد لهذه الغاية كما سيجيء ، كأنهم رجعوا بعصبيتهم إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا إليه في أيام هذه الدولة . وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الأرض . انتهى الكلام على الفصل الخامس ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل السادس:في المقصود من هذا كله

في تفسير هذه الآية وهو أن بقاء اللغة العربية محفوظة إلى الآن في بلاد العرب وأوروبا والفرس والهند والصين وبلاد جاوة معجزة من أكبر المعجزات

انظر إلى هذه اللغة التي تغيرت لهجاتها وصور أشكالها من كتابة السومريين الأولى ، ثم إنها تغيرت ثم تحورت إلى أن صارت قبل الإسلام ، كما رأيت في (شكل ٣٠) المتقدم قريباً . ثم انظر إلى طورها الرابع وهو ما كتبت به المصاحف ، وكيف بقيت الحروف محفوظة ، وهيئاتها متقاربة نيفاً وثلاثة عشر قرناً .

ومن أجلى الأدلة وأنصعها ما تراه في هذه الكتابات التي أمامك، فهاهي ذه الحروف العربية واضحة مكتوبة في بلاد الصين، ومعها الخط الصيني لسورة « الفاتحة » وسورة « الإخلاص ».

(انظر شكل ٣١، وشكل ٣٢ وشكل ٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

其意我奉普慈今世獨慈後世真主的尊名起又接唸法體哈

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين

قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

其意你說此是主命說聖事情如此主是獨一的主是無求祈的他不生人人不生他無有一物與他為對。

(الشكل ٣١ و٣٢ و٣٣)

فهاهنا تعاون الصيني والألماني والفرنسي والإنكليزي والتركي والهندي والأسباني والقازاني والعربي والعجمي والأمم كلها على حفظ اللغة العربية والخط العربي، فلم يدخله ولم يدخل لغته ذلك التحريف الذي حلّ بساحة لغة وخط العرب البائدة أيام حمورابي، ولا أيام الجاهلية في القرن الرابع الميلادي قبيل البعثة المحمدية بل هو باق

كما هو، فهذا معنى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[يونس: ٦٤]، ومعنى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]. وبهذا كله تفهم أيها الذكي لماذا وصف القرآن بأنه عربي، والحمد لله رب العالمين. كتب ليلة الاثنين (٢٠) أكتوبر سنة ١٩٣٠ الساعة العاشرة مساء. تمت اللطيفة الثانية. ويتبع هذه اللطيفة الثانية جوهرتان:

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[فصلت: ٦]

جاء في مجلة «النهضة النسائية» تحت العنوان التالي ما نصه:

في وجود الله تعالى

للكاتب الأمريكي الشهير آرثر برزيابن

يزعمون أن العقل البشري موجه اهتمامه بالأكثر إلى المسائل الاجتماعية التافهة مثل جمع الأموال وكيفية عقد الزواج وما شاكل، أما نحن فعلى غير هذا الرأي ونعتقد أن العقل البشري لا يوجه أخص اهتمامه إلى هذه المسائل دون سواها، لو أن محرر جريدة ألقى على قراء جريدته سؤالاً عن الزواج هل هو أفضل أم العزوبة، لوردت عليه الأجوبة الكثيرة بضعة أيام أو بضعة شهور. ثم يضجر الناس من هذه المناقشة وتنقطع الكتابات. وكل سؤال يكون نصيبه الإهمال بعد اشتغال الناس به زمناً معلوماً محدوداً، وأما مسائل خلود النفس ووجود الله ومصير الإنسان بعد وفاته فإنها ما برحت تشغل أذهان الناس منذ البداية، وسوف تبقى موضوعاً لاهتمامهم العظيم الدائم.

تأتينا الرسائل في هذه المواضيع كل يوم من كل سنة في مسائل تشغل خواطر الناس على الدوام. يتساءلون: هل يوجد إله وهل تكون النفس خالدة؟ وهذه الكتابات الكثيرة الدائمة تختلف في لغتها ولهجتها وهي الدليل على مبلغ إيمان كاتبها، وبعض هذه الرسائل تأتينا من المرتابين المتشككين والملحدين والكتاب ومن سائر الذين أسكرتهم تلك المعرفة القليلة التي جعلوها حكمتهم ودينهم بدلاً من ثقة الأجيال الكثيرة، تلك الثقة بوجود الله وخلود النفس.

ويظن بعض هؤلاء أنهم اهتدوا إلى طريقة جديدة مبتكرة تساعدهم على الحياة بالاستغناء التام عن الله، وأن العلم قد وفقهم إلى هذه الطريقة الجديدة. ولكن العلم لم يفعل شيئاً من ذلك، بل إن العلم فعل ما هو مخالف على خط مستقيم لظنونهم وأوهامهم. العلم أثبت وجود الإله وخلود النفس، وليسمح لنا القارئ أن نضرب لذلك مثلاً صغيراً:

رجل عنده صندوق ووضع فيه بعض قطط فقدت أمها وهي صغيرة جداً ولم تفتح عيونها بعد. اعتنى هذا الرجل بالقطط المذكورة وأحسن معاملتها، وجعل للصندوق عجلات، فكان يجره إلى ضياء الشمس لتتمتع القطط بحرارة الشمس. كان يغذيها باللبن في مواعيد معينة بمزيد التدقيق كان يطرد الكلب الشرير إذ يحاول الاعتداء عليها ويخيفها ويرعبها كثيراً، كانت هذه القطط تثق بالرجل وشعرت أنها في حاجة إليه وأن لا غنى لها عنه، وكان هذا دور الإيمان.

وحدث ذات يوم أن كلباً توصل إلى قطة منها فقتلها بعد أن قطعها بأسنانه وشوّه جسمها. ذلك لأن القطة قد خالفت القوانين والشرائع التي سنّها لها الرجل، خرجت من صندوقها فحلّ بها ذلك المصاب. وكانت إحدى القطط قد بدأت تبصر قليلاً بإحدى عينيها فقالت مغرورة بالقليل التي تراه: أنا لا أعتقد بوجود الرجل، فإذا كان موجوداً حقيقة فهو ظالم، إذ سمح أن تقتل أختي الصغيرة وأن يمزقها الكلب، لا أصدق ما تزعمونه من أن أختي قتلت بذنبها لأنها خرجت من الصندوق، والحقيقة أن الرجل غير موجود، فإنّما نحن القطط أولياء أمورنا وسادة الكيان، وعلينا أن نحارب عدونا وندافع عن أنفسنا. هذه القطة هي قطة «أنجرسول» الملحد الأمريكي الشهير.

ثم إن قطة أخرى بدأت تبصر وهي أرقى من رفيقتها الأولى فقالت: أنا عالمة. وقد وجدت أنني غير مدينة للرجل وعنايته بشيء، وإنّما الشرائع والنواميس ولية أمورنا. هذا الصندوق قائم على عجلات يدور في نور الشمس بمجرد إرادته، لا أنكر أنني أجهل ما هو الذي يدفعه ولكن أعلم أن الرجل لا يستطيع دفعه، وعلمت أيضاً أنه لا وجود لناموس توزيع اللبن علينا، فإنّما يأتينا اللبن في مواعيد معينة بحكم الدور، ومجيء اللبن ناموس طبيعي، فقد كان يجيء من قبل وهو يأتي الآن وسيأتي كذلك بعد. دعوني من دعاويكم الفارغة فأنا منقلبة إلى فراشي لأنام، ولكن لا تذكروا على مسمع مني أمر رجل محب يعتني بنا. الأمر كله نواميس طبيعية، وأنا عظيمة في ذاتي لأنني أول من اهتدى إلى هذه النواميس. هذه القطة هي قطة «إسحاق نيوتن»، ولكنها لم يكن لها إيمان نيوتن.

ويضيق بنا المجال لو أردنا أن نذكر ما قالته قطة «داروين»، فقد كانت طويلة اللسان. ولكن إليك ما جرى بعد ذلك.

كبرت القطط التي بقيت حية بعد أن ماتت تلك التي أصابها الموت جزاء مخالفتها وشرودها عن الصراط المستقيم، وانفتحت عيونهن جميعاً فصارت تبصر جيداً، فرأت الرجل عياناً وعرفته واعترفت به وتوسلت إليه أن يسمح لها بالإقامة في منزله. قالت القطط للرجل: لا تؤاخذنا يا سيدي واغفر لنا حماقتنا إذ كنا صغيرات جاهلات، ولكنك تعلم بأن بصرنا كان ضعيفاً وأننا كنا لا نبصر ولا نعلم. فقال الرجل الكريم: لا بأس انصرفن إلى البدرون في أسفل المنزل وتمتعن بالراحة والقوت هناك.

انتهى المثل الذي ضربناه. وإنّما نحن قطط عمياء، فكلما حاولنا التعمق في اكتشاف أسرار الطبيعة وعجائبها نزداد توغلاً في خفايا جديدة لا ندركها، نكتشف أن الأرض تدور حول الشمس، ولكن لا بد لأعظم عالم من الاعتراف بعجزه عن الاهتداء إلى سبب دورانها.

يقول هذا العالم: أعطني المحرك الأول وكل شيء سهل بعد ذلك. وهكذا قالت القطط العمياء في صندوقها قالت: ادفع صندوقنا دفعة واحدة وعلينا فهم الباقي. واطلعت القطط على ناموس توزيع اللبن فجعلته بدلاً من عناية الرجل بها. شأن الذي ادعى التمسك بناموس الجاذبية فظن أنه يقدر بواسطته على جحود الله.

ولكن العقل الكبير الذي اهتدى إلى ناموس الجاذبية العام كان عقلاً متديناً نقياً، علم أنه ضعيف في ذاته لا قدرة له على إدارة كل شيء.

إن نيوتن لم ينكر وجود الله . وكان أدرى الناس بغموض أسرار حكمته ونواميسه . علم وعلم الناس أيضاً أن ذلك الناموس ما يبرح عاملاً منذ الأزل . وهذا كل ما ادعاه وكل ما يقدر أن يدعيه سواه .

والعالم العصري « لورد كلفين » من أشهر أتباع نيوتن قيل له : ما هو سر الجاذبية ؟ فأجاب : لا يحق للعالم أن يحاول كشف أسرارها فإننا نجهلها تماماً ولا نعرف عنها شيئاً .

لذلك نقول للمرتابين : ارتابوا إذا كان لا بد لكم من ذلك ، ولكن اجعلوا الحكم أساساً لريبكم وارتابوا أولاً في حكمتكم التي لا تزيد عن حكمة تلك القطط العمياء .

اذكروا أنكم لا تعرفون شيئاً ، طالعوا كثيراً ، ولكن لا تسمحوا لآراء غيركم القاصرة أن تسطو على عقولكم وتجعلكم آلة للريب والشكوك ، مهما فعلتم لا تتعرضوا لعقائد الآخرين وإيمانهم ، انشروا المعرفة وأذيعوا الحقائق . وأما الريب التي تزعج الآخرين وتذهب بسعادتكم فاحفظوها لأنفسكم ، أذيعوا ما تعرفونه عن يقين واكتموا ما دون اليقين فهل يسمع الملحدون . وبهذا انتهت الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ [فصلت : ١٠]

وهي الجبال ، ولقد تقدم الكلام على الجبال في مواضع كثيرة مثل ما جاء في سورة « الرعد » عند آية : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ [الآية : ٤] الخ ، وهكذا سيأتي في آية : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧-١٩] الخ ، ولكن نذكر هنا عجيبة جاءت في مجلة « اللطائف المصورة » ، فقد جاء فيها تحت العنوان التالي ما نصه :

في أميركا الجنوبية غنى طبيعي
هناك جبل من فضة لا ينضب له معين

بوليفيا جمهورية صغيرة من جمهوريات أمريكا الجنوبية ، كانت فيما مضى مستعمرة أسبانية لكنها استقلت سنة ١٨٢٥ بعد حروب دموية بينها وبين الجيوش الأسبانية ، وهي صخرية جبلية يتراوح ارتفاع جبالها بين ٣٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ متر ، وفي وسطها أكمات تسمى لايونا فيها ثروات معدنية لا يحصى لها عدد ، يقدر ما فيها بمئات بل بألوف الملايين من الجنيهات ، من بينها جبل كله من فضة يطلق عليه اسم « سيرودي بوتوزي » ظل مئات السنين يدرّ الأموال الطائلة على الدولة الأسبانية ، فكان لها المورد الأكبر الذي يأتيها من كل مستعمراتها الواسعة .

وقد اكتشف هذا الجبل رجل هندي من هنود أميركا الملقبين بذوي الجلود الحمراء يسمى جوالكا . فقد كان مسافراً في أيام الشتاء الباردة فحط رحاله فوق هذا الجبل ، ولما قرسه البرد أشعل ناراً تصطلي ، فما كان أشد دهشته عندما أبصر الصخور تذوب تحت تأثير الحرارة وتسيل معدناً أبيض جميلاً ، فتأمله طويلاً لكنه لم يدرك كنهه ، فأسرع إلى سيده القبطان « جون دي فيللارويل » وأطلعه على الأمر ، فاستحوذ هذا على جبل الفضة باسم مليكه الإمبراطور شارل كان في يوم (٢٢) أبريل سنة ١٥٤٥ .

ولما ذاع خبر هذا الاكتشاف في أسبانيا تقاطر إلى بوليفيا كل مغامر وأخذوا يتقاتلون ويتناحرون في سبيل الاستحواذ على جزء من هذا الجبل الذي كان يدرّ أموالاً يكلّ عن إدراكها الحصر لا سيما في ذلك الزمن الذي كان أقل مبلغ فيه يعدّ ثروة. وقد استخرج من جبل سيرودي بوتوزي من سنة ١٥٤٥ أي منذ اكتشافه حتى سنة ١٨٢٥، وهي السنة التي خرجت فيها بوليفيا من أيدي الدولة الأسبانية (١٦) ألف مليون ريال طليطلي، أي ٥١٢٠ مليون جنيه في ٢٨٠سنة، فيكون معدل غلته في كل سنة من هذه السنين (١٨) مليون جنيه وثلث. وقد بلغ ما ناله التاج الأسباني من هذا الإيراد (٦٤٠) مليون جنيه. وقد دفع أصحاب منجم واحد من هذا الجبل للحكومة بصفة جزية (١٦) مليون جنيه وثلاثة أرباع المليون.

وقد أراد الإمبراطور شارلكان يوماً ما أن يكافئ سكرتيره الخاص الدون فرانشيسكو دي لوس كوبوس فطلب منه أن يتمنى عليه ما يريد، فغمغم الدون فرنشيسكو بين شفتيه: أريد يا مولاي «ريل» واحداً على كل رطل، والريل يساوي مليمين ونصف من عملتنا. فأجاب الإمبراطور منذهلاً: أهذا كل ما تطلبه؟ ولما رآه مصمماً على طلبه هذا الذي صغر في عيني شارلكان وقع له على الأمر وناوله إياه، وبعد ثماني سنوات أي في سنة ١٥٦١ مات الدون فرنشيسكو وترك ثروة تقدر بأكثر من (٧) ملايين من الجنيهات، جمعها مما عاد عليه من المليمين ونصف التي كان يأخذها على كل رطل فضة يستخرج من جبل سيرو المذكور.

ولم يزل هذا الجبل إلى الآن مملوءاً بالفضة لكنها تخرج ممزوجة بالقصدير. ولم تمض على اكتشاف جبل الفضة سنوات حتى أقيمت بإزائه مدينة بوتوزي. وقد بلغ عدد سكانها في القرن السابع عشر ٢٠٠,٠٠٠ نسمة فكانت أكبر مدينة في أميركا الجنوبية وأكثرها سكاناً.

وكان لكل أسباني «هيدالجو» أي منحدر من صلب أسباني صميم ليس في عروقه دم يهودي أو عربي مغربي أن يكون له حق بأن يستغل جزءاً من هذا الجبل. والعادة المتبعة في ذلك والتي لم يزل معمولاً بها إلى الآن أن يأخذ الواحد له ركناً ويحفر فيه نفقاً ويستولي على كل ما يجده فيه، حتى أصبح في الجبل أكثر من ثلاثة آلاف نفق.

وكان الهنود الحمر هم القائمون بالحفر يشتغلون في الأنفاق المظلمة التي ليس فيها نور ولا يتخللها شعاع من الشمس، وسياط أسيادهم الأسبانيين تنهال على أجسامهم إذا بدا منهم أقل وهن وأدنى ضعف. وكان المتزاحمون على استغلال جبل الفضة يتقاتلون حتى أدى بهم التناحر إلى الانقسام إلى حزبين كثر بينهما الاغتيال ثم القتال في صفوف مرصوصة.

أما اليوم فمدينة بوتوزي التي كانت منذ مائتي سنة زاهرة زاهية لم يعد فيها غير ١٥,٠٠٠ أو ٢٠,٠٠٠ شخص، لأن سعر الفضة انخفض كثيراً في أوروبا وقلّ الطلب عليها وكثر من جهة أخرى على القصدير، ولكن من سوء حظ البلاد أن الأرض لم تعد تغل من هذا الصنف إلا كميات أقل مما كانت تغله فيما مضى. وبهذا تمت الجوهرة الثانية، وبها تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٠) وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ (٢٢) ﴾

قد تقدم في سورة «يس»: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[يس: ٦٥] فهاهنا ذكر الجلود مع الأسماع والأبصار، وهناك خصص الجلود بالأيدي والأرجل، وفي هذه معجزتان أظهرهما الكشف الحديث، فتكون معجزات هذه السورة بالكشف الحديث خمساً.

ولقد ذكرت لك هناك أيها الذكي حكاية القاتل الياباني الذي قتل معشوقته التي رغبت عن زواجه، وعرف بعد مدة بسبب آثاره، وهذه مشروحة هناك بإسهاب وإيضاح تام، ولكن هنا أذكر ما جرى من المحادثة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير. قال: كيف تنطق الجلود وتشهد؟ وما معنى كون الأيدي والأرجل تشهد عند الله؟ فالله تعالى يقول في «يس»: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ﴾[يس: ٦٥]، فلم خص الأيدي والأرجل بهذه الشهادة؟ وكيف تقول الجلود: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾[فصلت: ٢١].

فقلت: اعلم أن هذه المخلوقات المادية المشاهدات على قسمين: قسم لنا القدرة على التصرف فيه، وقسم لا قدرة لنا على التصرف فيه. فالذي لنا القدرة على التصرف فيه: شهوات الطعام والشراب والشبق والكلام، فهذه خلقت فينا لأجل حياتنا وبقائنا، وهذه تأتي بالحق وبالباطل، فإن الإنسان قد يجوع فيأكل والأكل يضره، ويعطش فيشرب والشرب قد يضره، ويشتهي الوقاع والوقاع قد يضره، ويتكلم والكلام قد يضره. ذلك لأن من شهوات الطعام ما تكون شهوات كاذبة، ومن شهوات الشراب ما تكون كاذبة، ومن شهوات الوقاع ما تكون كاذبة، ومن الكلام ما يكون كذباً لا صدق فيه. إذن أحوالنا الحيوانية يعتريها الصدق والكذب. فمن الكلام صادق وكاذب. ومن الجوع والظمأ وشهوات الوقاع ما يصدق وما يكذب. فكثيراً ما نرى أنفسنا بعد الطعام بمدة يسيرة نطلب الطعام، وقد نطلب الشراب قبل مضي ساعة أو ساعتين وقد نتكلم كذباً. هذا هو القسم الأول وهو الذي لنا القدرة على التصرف فيه. أما ما لا قدرة لنا على التصرف فيه من الفاكهة والحب والخضر والمعادن والحجر والشجر. فهذه صوادق في أفعالها ناطقات بالحق، فلم نر حبة القمح أنبتت ذرة أو برسيماً، ولم نر بذرة القطن أنبتت كلأ أو باذنجاناً، ولم نر المشمش أصبح تيناً، ولا التين أصبح عنباً، بل هناك نظام، ولم نر الدواء أصبح غذاء، ولا الغذاء صار سماً، بل هذه كلها نواطق بالحق، لا عوج ولا كذب ولا خداع. وإذا رأى الناس أن في الطبيعة ما لم يعهدوه كحوادث الزلزال والبراكين فذلك ليس من أكاذيبها، بل هذه المفاجآت جاءت لغايات صادقة، وإن أخذت الناس بغتة فغاياتها شريفة. فأما غايات العواطف الناقصة في الإنسان فإنها تكون شراً، فالأكل بشهوة كاذبة والشراب والوقاع كلها مقصرات للحياة جالبات للمرض، بخلاف حدوث البراكين في الأرض من حيث لا يشعر الناس

بها، فقد تكون لها منافع تربو على مضارها مثل انبعاث بخار الماء وغاز الهيدروجين المكرر وغازات أحماض كبريتية أخرى، فإنها تكون هناك رواسب منها معدن الكبريت حول فوهة البركان. وقد تصير طبقات سميكة تصلح للاستغلال، كما نرى براكين كثيرة في جنوب إيطاليا إذ هي أغنى مورد لمعدن الكبريت، وتنتج كل عام منه (٢٠٠, ٠٠٠) طن، فهذه النعم الكبريتية إنّما جاءت بفضل البركان. إذن مفاجآت البراكين ليست كمفاجآت الكذب وأمثاله. ومن ذا يقول إن شرور شهوات أنفسنا وغضبنا الغضب المفضي إلى القتال والدمار والهلاك والتقاطع، كغضب الطبيعة بحدوث البراكين. وهل الحرارة الناجمة في «بزولس» بالقرب من نابولي بجنوب إيطاليا البالغة (٣٦٠) بميزان سنتيجراد التي حوّلها القوم إلى قوة كهربائية يستعملونها في الصناعات المختلفات. وكذلك نظائر هذه براكين في جزائر «ليباري» وفي «شيلي» يرسب بسببها الكبريت والبوريك والشب.

أقول: هل هذه التي وجهت للمنافع العامة بالمعادن النافعة والأعمال المفيدة تشبه شرور أنفسنا بالكذب وآثار الشهوات الكاذبة، فالجوع كاذب، والعطش كاذب، والعداوة المبنية على سوء الظن، كلهن جالبات لنا السوء بخلاف ما نراه في الطبيعة، فهو على قسمين: قسم نتائجه واضحة لا خلل فيه كالفاكهة والأب، وقسم لا تعرف أحواله لاشتباهه علينا، كسكون الأرض فنظن أن لا براكين فيها، إذا هي ثائرة، فهذه ظاهرها شر ولكن باطنها نعمة. أما نتائج الكواذب من طبائعنا فهو شر محض.

هذه أيها الذكي مقدمات لمطلوبك، فألسنة الناس تصدق وتكذب، ولكن لسان الطبيعة صادق غير كاذب. فإننا لم نر الذهب يوماً زاد وزنه أو نقص فهو (١٩) بوزن حجمه من الماء، وهكذا الزئبق (١٣) تقريباً.

واعلم أنه لا معنى للكلام إلا حركات في الهواء، وتلك الحركات مختلفات باختلاف المخارج وباختلافها امتاز بعضها عن بعض، وبانضمام صوتين أو ثلاثة أو أكثر تكون كلمة، وبانضمام الكلمات تكون جمل، والجمل تدل على المعاني، وهذه الدلالة تارة تصدق وتارة تكذب، إذن فائدة الكلام أنه يدل على المعاني، ولكن هذه الدلالة قد تخالف الواقع. فلننظر في المخلوقات أمامنا نرى الماء ونحن ظمأى فنحس في أنفسنا بمعنى. وما هو المعنى؟ هو أنه يبل ظمأنا. ومثل ذلك الفاكهة والخضر والحب وما أشبه ذلك. فكل هذه لها دلالات، ولكن دلالتها صادقة لا كذب فيها، بخلاف الكلام الصوتي فيدخله الكذب. إذن الدال إما بحرف وصوت وفيه الصدق والكذب. وإما بلا حرف ولا صوت وهذا لا كذب فيه. وكلام المخلوقات ليس بحرف ولا صوت. وكلام الإنسان بحرف وصوت.

واعلم أن الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت قسمان: قسم قدسي وهو كلام الله القديم. وقسم مخلوق وهو كلام هذه العوالم. فأما كلام الله فهو فوق عقولنا ولا نسبة بينه وبين كلام المخلوق بحرف وصوت. وبلا حرف ولا صوت فهذا فوق متناول عقولنا. ولكن لما تناهت عظمته وجلت قدرته أبرز لنا في الوجود عوالم تكون نتائجها صادقة بدون كلام حرفي أو صوتي، حتى سمعناه يقول: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]، كيف كلمته الأيدي وكيف شهدت الأرجل؟ كلامها ليس بحرف ولا صوت ففيها دلالات ثوابت.

ومن باهر الصنع ودلائل الاتفاق وبواهر الرحمة والحب أن الله تعالى لما احتجب عنا فلم نعرف كيف يتكلم بلا حرف ولا صوت ؛ وكان رؤوفاً بالعباد ؛ أراد أن يضرب مثلاً بالمخلوقات . فكما عرفنا علمه وقدرته بضرب مثل بما نحس به من علمنا وقدرتنا . وإن تكن النسبة مفقودة بين صفاتنا وصفاته تعالى ، هكذا عرفنا كون كلامه ليس بحرف ولا صوت كما نشاهد في هذه المشاهدات من الدلالات الصادقة : (١) على حكمته وقدرته وعظمته . (٢) وعلى معرفة الجانين بالطرق العلمية في بحث خطوط اليدين والرجلين . (٣) وبما ننتفع به من خواص ما نأكل ونشرب ونتداوى وهكذا . فهذا عرفناه بلا حرف ولا صوت . ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[النحل : ٦٠] .

فقال صديقي : لقد فهمت من مقالكم أن هذه العوالم صوادق في دلالتها ، والإنسان قد يكذب وأن هذه الأيدي وهذه الأرجل دلائلها صادقات ، وفيها علامات مثبتات جرائم أصحابها وليست كاذبة ، بخلاف ألسنة الإنسان في الأرض فهي كاذبة . ولكن هل علم الله تعالى بأعمالنا في حاجة إلى أمثال الأيدي والأرجل؟ فقلت : كلا ، هو يعلم ذلك ، ولكن هذه الآيات موجهات لإصلاح نفوسنا ، ولها دلالتان : أولاً أن الله عليم بأعمالنا . ثانياً أنه ضرب لنا مثلاً بأن أيدينا وأرجلنا فيها علامات . ولصدق هذه العلامات الدالات على أفعالنا نسب إليها أن تخاطب بلا حرف ولا صوت من كلامه ليس بحرف ولا صوت . وإذا سمع الله منها أفلا يسمع القضاة نطق هذه الأيدي فيحكمون بما تدل عليه؟ فقال : عجب ! ما لنا وللقضاة؟ فقلت : القضاء قضاءان : قضاء الله يوم القيامة . وقضاء القضاة في الدنيا . فإذا كان الله يوم القيامة وهو العليم بأفعالنا يقول على سبيل المجاز أو الحقيقة أن الأيدي والأرجل تكلمنا وتشهد بأعمال العباد وقد قبل شهادتها وسمع كلامها ، أفلا يقبل شهادتها ويسمع كلامها قضاة الأرض؟ فهاهنا علمان جليلان : علم الطبيعة الموزونة الجميلة التي تعبر عن جمال مبدعها الذي أبدعها وجعلها بهجة صادقة . وعلم القضاء الذي يترتب على صدق مقدماتها . فإذا سمع المسلمون وقضاتهم الله يقول : ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[الطلاق : ٢] ويقول : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾[البقرة : ٢٨٢] فليس معنى هذا أنه لا بينة إلا على هذا المنوال ، فقد أجمع علماء الإسلام قاطبة أن حكم القاضي مبني على الظن ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يحكم بحسب الظاهر والله يتولى السرائر ، لأننا لا نزال في الأرض . وإذا وجدنا أن الظن جاء معه يقين ظاهر ألغينا هذا الظن . ألم يقل الله تعالى في سورة « النجم » : ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[النجم : ٢٨] .

فإذا سمع القاضي رجلاً يقول إن الشمس لم تطلع مع أنها هي طالعة ، فهذه الشهادة لا تقبل ، لأنها خالفت الحق ، هكذا إذا دلت أصابع المجرم على أنه هو القاتل ، وأن آثار الأصابع ظهرت على صنجة السيف ، والسيف وجد على رقبة القتيل وجاءت شواهد أخرى على ذلك ، فإنا إذا سمعنا شاهداً ينفي هذا نقول له : كذبت أيها الشاهد . إن هذه الآيات أيها الصديق نزلت في القرآن ليفتح لنا بها في القضاء باب كان مقفلاً إلا قليلاً . فإن الحنفية يقولون : إن القرائن لها دخل في إثبات الجرائم . ولكن هذا الزمان الذي ارتقت فيه الأمم ارتقت فيها أسباب الجرائم ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات تقرأ في كل حين

تديناً وذكراً لله، ثم استنباطاً يعقله ذوو العقول الكبيرة. ولقد تقدم في سورة «الكهف» في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ما ملخصه أن قتل الخضر للغلام وخرقه السفينة راجع إلى إتلاف النفس وإتلاف المال، وهذان أهم حقوق الناس. وإذا وجدنا ذلك في القرآن وعلمنا أنه قدّم الحقيقة على الظن لأنه عرف أن هذا الفعل المخالف لظواهر الظنون أفضل وأحسن. وهذا على طريق الكشف، ونحن لا كشف عندنا، بل لو كان عندنا كشف لم نحكم إلا بالظاهر، فلنا طريق آخر وهو أننا متى تحققنا بطرق علمية أن هنا ضرراً محققاً قام عليه الدليل الظاهر لأهل الحل والعقد؛ فإننا نقدمه على الحكم الذي عرفناه بطريق الظن، فارجع إليه فالمقام هناك موضح بكلام الأئمة وأكابر علماء الإسلام مع دلائل العقل، وعليه وجب على علماء الإسلام في الأرض قاطبة أن يجدّوا في جميع العلوم، ومن أهمها أدلة اليدين والرجلين التي ورد ذكرها في القرآن لصدق دلالتهما. فقال: يا عجباً! ولماذا خصصت اليدين والرجلين؟ أليس جسم كل امرئ فيه علامات تدل عليه؟ فلا فرق بين الأيدي والأرجل وغيرهما. ثم كيف تقول لنا إن لساننا يكذب واليدان والرجلان لا كذب فيهما، كما هو شأن العوالم المشاهدة من صدق شهاداتها، مع أن الله سوّى بينهما وبين اللسان، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النور: ٢٤]. فقلت: الجواب على هذا يرجع لفصلين اثنين: الفصل الأول: في قيمة شهادة اللسان. الفصل الثاني: في اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة.

الفصل الأول: في قيمة شهادة اللسان

يقول الله تعالى في سورة «يس الآية ٦٥»: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فهاهنا أخرس الله اللسان وأنطق اليدين والرجلين وقبل منهما الشهادة. ويقول الله في سورة أخرى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، فهاهنا سوّى الله بين شهادة الثلاثة. إذن هنا اللسان يصدق تارة ويكذب أخرى بدليل أنه ختم على الفم تارة وأنطق اللسان تارة أخرى. فإذا كان الإنسان بعد الموت ويوم الحساب لا يزال مالكاً لقواه وعواطفه كما كان في الدنيا بحيث يتصرف كما يتصرف في هذه الحياة ويقدر أن ينطق بخلاف ما في ضميره، فهناك يختم على لسانه وتبقى شهادة الأيدي والأرجل. فأما إذا أصبحت عواطفه غير خاضعة لإرادته وليست تحت تصرفه كما نرى في المنوم المغناطيسي ونحوه فهذا لا ينطق إلا بالحقائق فهنالك يطلق اللسان فينطق كما تنطق الأيدي والأرجل. إذن اليدان والرجلان لهما مزية ليست للسان. فما ظننته يا صاح مقتضياً المساواة أراه أنا مانعاً منها. وبهذا تم الكلام على الفصل الأول، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

في السبب في اختصاص اليدين والرجلين بالشهادة دون باقي الجسم مع أن الأعضاء كلها متساوية في أنها لا يظهر تغير في هيئاتها الأصلية مدة الحياة

اعلم أن الإجابة عليها ترجع لعلم اسمه التحقيق الجنائي. وهذا العلم حديث النشأة لم يظهر ولم يبرز لعالم الوجود إلا في هذا القرآن، أي في الزمن الذي يؤلف فيه هذا التفسير كما ستراه.

وأمامي الآن كتاب في هذا العلم ومؤلفه الأستاذ « محمد بك شعير » وكيل إدارة التفتيش بوزارة الداخلية ، وهو مدرّس بكلية الحقوق . فهاك ما قاله في ذلك الكتاب :

بصمات الأصابع والأيدي

ليس ما نقرؤه من الوقائع المدهشة عن « شرلوك هولمز » و« كارتر » وأمثالهما وما يكتبه الروائيون أمثال « كونان دويل » و« ليكوك » وغيرهما ؛ وما نراه يشخّص ـ بتشديد الخاء ـ في دور الصور المتحركة من الروايات البوليسية الغريبة التي يتعقب فيها البوليس السري الجناة ويتعرف شخصهم ويظهر حقيقة أمرهم من إناء لمسوه أو وعاء أمسكوه أو كوب شربوا منه أو خزانة فتحوها ؛ ليس كل هذا حديث خرافة وإنّما هي ثمرة العلم الحديث ونتيجة مجهودات العلماء الذين أتوا بالمعجزات في فن بصمات الأصابع والأيدي . إلى أن قال :



(شكل ٣٤)

وكان الصينيون والهنود من قديم الزمان يستعملون البصمة في العقود والمشارطات لتقوم مقام الختم والإمضاء . وقد أحسنوا في ذلك لأنها لا تتشابه ولا تقبل التغيير والتزوير . فلو أمعنا النظر في باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع وباطن القدم وجدناها مكسوة بخطوط بارزة دقيقة يتخللها فراغ . ترسم هذه الخطوط أشكالاً وتعاريج وانحناءات مختلفة لا تتطابق في شخصين قط ، كما نجد ثنيات تحت عقل الأصابع وتجعدات ناشئة من إطباق اليد وفتحها . (انظر شكل ٣٤)

وهذه الرسوم والأشكال تتكون والجنين في بطن أمه من الشهر السادس للحمل ولا تتغير أبداً ، وتبقى حافظة شكلها واتجاهاتها في سن الطفولة والشباب والرجولة والهرم ، بل وبعد الممات إلى أن يتحلل الجسم ويبلى ، كما شوهد ذلك في الموميات المصرية القديمة وفي بعض أجسام القردة المحنطة . وكل ما يبدو عليها أنها تنمو وتكبر وتتسع تبعاً لنمو الجسم كلما تقدم الإنسان في السن إلى أن يصل إلى الواحدة والعشرين . وقد ثبت ذلك من مباحث كثير من العلماء وأخصهم « السير فرنسيس جالتون » الذي له فضل كبير في هذا الباب ، ومن المجموعات الهائلة المحفوظة بإدارات تحقيق الشخصية بأغلب البلاد الراقية .

والبصمات هي الوحيدة في جسم الإنسان التي لا تتغير طول حياته بل تبقى حافظة شكلها في أية سن وفي أية حالة كان عليها . اللهم إلا ما يطرأ على الجلد من العوارض كالقطع أو الحرق والمؤثرات الأخرى والنعومة بعد أن يصل الإنسان إلى سن الستين . وذلك بخلاف باقي أجزاء الجسم فإنها كلما

نما الشخص وترعرع تتغير بسرعة وبدرجة كبيرة يتعذر معها معرفته بعد بضع سنين، فالسحنة وتقاطيع الوجه والأسنان ولون البشرة والشعر ولونه وكميته حتى لون العينين يتغير. لذلك كانت خاصية البقاء على حالة واحدة في بصمات الأصابع ـ مع اختلاف شكلها ليس في مجموع الأصابع فقط بل في كل إصبع ـ الأساس الذي بني عليه علم تحقيق الشخصية، وهو أساس متين غير قابل للنقض ولا للطعن بأي وجه. ويشبهون بصمات الأصابع بأوراق الشجر، فإنها قد تتشابه في شكلها العمومي ولكنها تختلف في تركيبها وتفاصيلها.

أما حكمة وجود هذه الخطوط وما يتخللها من الفراغ وما يقاطعها من التجعدات والتثنيات في راحة اليد وباطن القدم فلم يمكن تعليلها بشكل صريح. وقد اختلف علماء وظائف أعضاء جسم الإنسان في ذلك. فبعضهم يرى أن مهمتها تسهيل خروج الإفرازات المكوِّنة للعرق، والبعض الآخر يرى أن لها دخلاً باللمس والحساسية.

ولم يكن استخدام بصمات الأصابع في الجنائيات للتعرف على شخصية تاركها وترتيبها بطريقة ثابتة للاستعانة بها في استخراج السوابق معروفاً في أوروبا إلا حديثاً، فقبل سنة ١٨٩٠ لم يعرف عنها شيء في الحياة العلمية، ولو أن بعض علماء الألمان بحثوا فوائدها في أوائل القرن التاسع عشر، وفعلاً ألقى الأستاذ « بوركنجي » مدرّس علم وظائف أعضاء جسم الإنسان بجامعة برسلو محاضرة نفيسة في سنة ١٨٢٣ باللغة اللاتينية عن بصمات الأصابع وفوائدها، وقسمها إلى تسعة أنواع، واقترح إيجاد طريقة لترتيبها وحفظها والاستعانة بها، ولكن مجهوداته لم تلق ما تستحقه من القبول في ذلك الوقت، على أن ما تؤديه من الخدمات في الوقائع الجنائية وفي تحقيق الشخصية وإرشاد المحققين والقضاة عن سوابق الجناة واضح لا يحتاج إلى برهان، ولا أدل على ذلك من تقارير فطاحل هذا العلم المقدمة للمؤتمر الجنائي الدولي الذي عقد بمدينة « تورين » سنة ١٩٠٧، فقد وفى الموضوع حقه الأساتذة « لوكار » و« ريس » و« داسكاريللي » و« دي جاستي » و« دي فيري » وغيرهم. انتهى من كتاب التحقيق الجنائي.

فاعجب لأمرين اثنين أيها الصديق:

الأمر الأول: قول المؤلف: إن باطن اليد وأطراف الأكف والأصابع وباطن القدم، كل هذه مكسوة بخطوط تختلف باختلاف الأشخاص.

الأمر الثاني: أنها تلازم الإنسان من المهد إلى اللحد، وأن غيرها مما على جسم الإنسان يتغير. حينئذ ظهر أن اختصاص اليدين والرجلين في الآية دون بقية الجسد أصبح معجزة في القرآن، فاليدان والرجلان فضلاً عما ذكرته سابقاً من أنهما نافعان في أعمال القضاة هما معجزة قرآنية أنزلها الله في القرآن وأبرزها فعلاً في الزمان الذي كنت أتعلم فيه في مدرسة دار العلوم، وملأ بها الكرة الأرضية في أثناء طبع هذا التفسير، لأن سنة ١٨٩٠ المتقدم ذكرها هي مبدأ تعلمي في مدرسة دار العلوم، وهذه السنة التي أكتب فيها هذا القول سنة ١٩٣٠ وبينهما (٤٠) سنة. وفي هذه الأربعين سنة ظهر هذا العلم وعملت به الأمم، فمبدأ الظهور سنة ١٨٩٠، وفي هذه المدة انتشر حتى وصل إلينا.

ومن العجب أن مؤلف الكتاب المذكور كان أحد تلاميذي في اللغة العربية قبل سفره إلى أوروبا وذلك في المدرسة الخديوية في أول هذا القرن في العشرة السنين الأول منه .

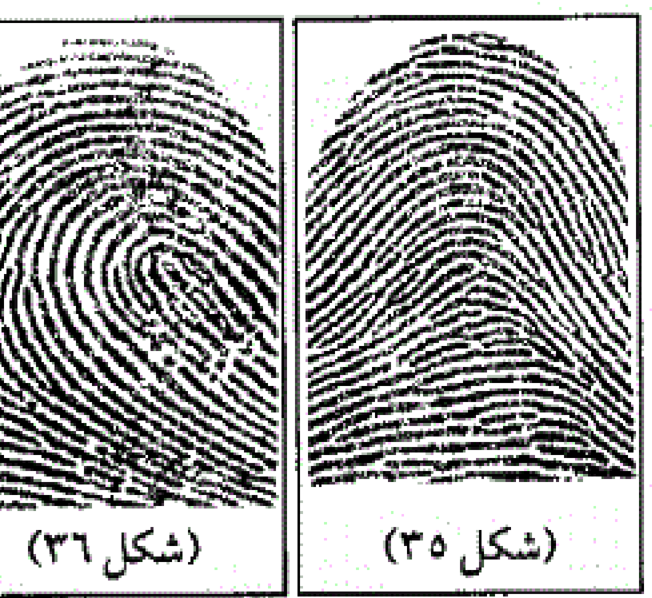
ومن أعجب العجب أن تختم هذه السورة بما يفيد ذلك ، إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] الخ ، كأنه يقول : اختصاص شهادة الأيدي والأرجل دون بقية الأعضاء أمر يشكل عليكم ، ولكن سأظهر لكم بعض سره في الدنيا ، وقد أظهره في زماننا ولم يظهره في غيره ، فوجب علينا أن نقول للمسلمين ونخبرهم بهذه المعجزة التي لم يظهرها الله إلا في زماننا . فهي معجزة من وجهين : أولاً اختصاص اليدين والرجلين ، ثم ظهور ذلك فعلاً لمكان : ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣] الخ . وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثاني ، والحمد لله رب العالمين .

وظهر لك أيها الذكي ظهوراً واضحاً علمياً أن اليدين والرجلين اختصت بخاصية لم يتشرف بها بقية الجسم ، وأنهما أيضاً أصدق من اللسان ، فلم يبق إلا شرح خصائص خطوط اليدين والرجلين وكيف كانت الخطوط فيهما لا مشابهة فيهما بين رجل وآخر . فأقول : جاء في الكتاب المذكور أيضاً تحت العنوان التالي ما نصه :

البصمات الخفية وطرق إظهارها وحفظها

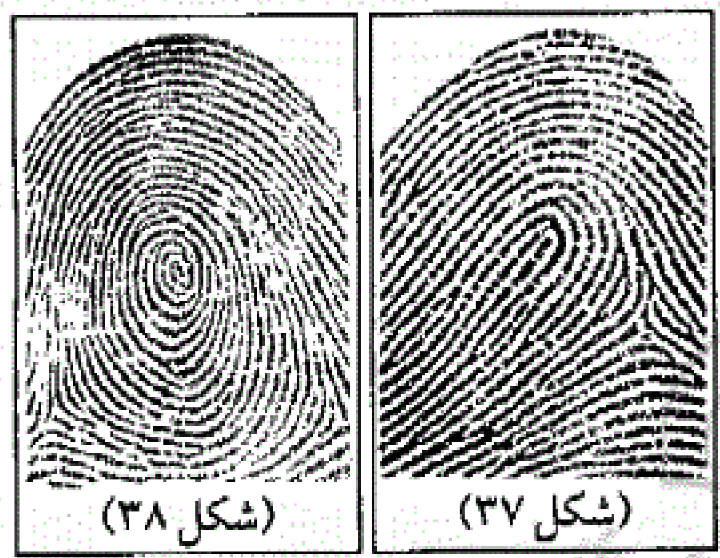
يكاد الإنسان لا يصدق أن أطراف الأكف ، وأجزاء راحة اليد ، أو باطن القدم ، إذا لامست جسماً مستوياً أملس كالورق أو الزجاج أو الصيني أو المرآة أو المعادن والأخشاب المصقولة على العموم تترك عليها بصماتها بكل تفصيلاتها ورسومها ، لأن هذه البصمات تكون غير ظاهرة وغير مرئية للعين المجردة وبخاصة إذا كانت على الورق ، أما على الزجاج وبعض المعادن المصقولة ، فإذا دقق الإنسان النظر فيها ونداها بقليل من البخار الذي يخرج من الفم فإنه يرى بعض شعاع منها لا يلبث لحظة حتى يزول ، وليس تعليل ذلك من المعضلات العسيرة التي لا يمكن تصورها بسهولة بل الأمر أبسط وأسهل مما تظن ، فإن بشرة الجلد مغطاة بطبقة دهنية خفيفة ناشئة من إفرازات العرق ، فإذا لامست الأنامل أو راحة اليد جسماً مما سبق ذكره تركت عليه بصمتها وانطبعت عليه الخطوط والرسوم باتجاهاتها ومميزاتها ولكون تلك المادة الدهنية عديمة اللون تبقى البصمة مستترة غير ظاهرة ، لكن قليلاً من المواد الكيمائية على شكل مسحوق أو سائل يظهرها للعيان ويخرجها من سترها واضحة جلية ، كالبصمة المأخوذة بالطرق العادية بحيث يمكن استخدامها والاستفادة منها في التحقيقات الجنائية . إذ ليس من المقبول عقلاً أن الجناة لا تلمس أيديهم بعض هذه الأجسام أثناء ارتكابهم الجرم ، فتترك عليها أثراً غير ظاهر إلا إذا احتاطوا لذلك من مبدأ الأمر بلبس قفاز مثلاً ، أو تعمدوا إزالة ذلك الأثر بعد انتهاء عملهم . ولا نكون مبالغين إذا قلنا أنه لا تخلو حادثة من الحوادث التي تقع في الأماكن المتحضرة من وجود تلك البصمات ، التي لو عني بالمحافظة عليها وعدم اختلاطها بغيرها أو إزالتها بواسطة تعريضها للمؤثرات الخارجية لكانت من أثمن الأدلة المحسوسة وأرجحها .

واعلم أن خطوط الأصابع أربعة أنواع رئيسية ولكل منها فروع ، فهي منحنيات ومنحدرات إلى اليمين ومنحدرات إلى اليسار ومستديرات .


(شكل ٣٥) (شكل ٣٦)

النوع الأول: المنحنيات أو المقوّسات بحيث يكون شكل البصمة فيه عبارة عن خطوط أفقية منحنية أو مقوّسة الأعلى على الأقل وليس فيه زاوية ولا نواة له، وإذا وضع فيه زاوية لا يتخللها خطوط. (انظر شكل ٣٥). وهذا يرمز له بهذه العلامة (٨) في مصر.

النوع الثاني: المنحدرات إلى اليمين ورمزه في مصر (١)، وهو ما تكون فيه نواة بشكل قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة، وهذه القناة تنحدر من اليسار إلى اليمين وبه زاوية واحدة إلى اليسار وقد يكون داخل القناة خط منفصل أو خطان أو أكثر. (انظر شكل ٣٦).


(شكل ٣٧) (شكل ٣٨)

النوع الثالث: المنحدرات إلى اليسار يرمز له بهذه العلامة (-) وهو ما تكون فيه نواة البصمة عبارة عن قناة ذات حافتين متصلتين من ناحية واحدة وهذه القناة منحدرة من اليمين إلى اليسار وبه زاوية واحدة إلى اليمين بعكس النوع الثاني. (انظر شكل ٣٧).

النوع الرابع: المستديرات، ويرمز له عندنا بمصر بعلامة (٥) وهو ما تكون فيه نواة البصمة على شكل دائري أو بيضاوي أو حلزوني بين زاويتين متقابلتين إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار كما في (شكل ٣٨).

ولما كانت آيات القرآن وتفسيرها يوجب علينا أن نستوفي هذا الموضوع وجب أن نذكر ما ظهر من آثار الرجلين في العلم الحديث كما ذكرنا آثار اليدين فنقول ومن الله التوفيق:

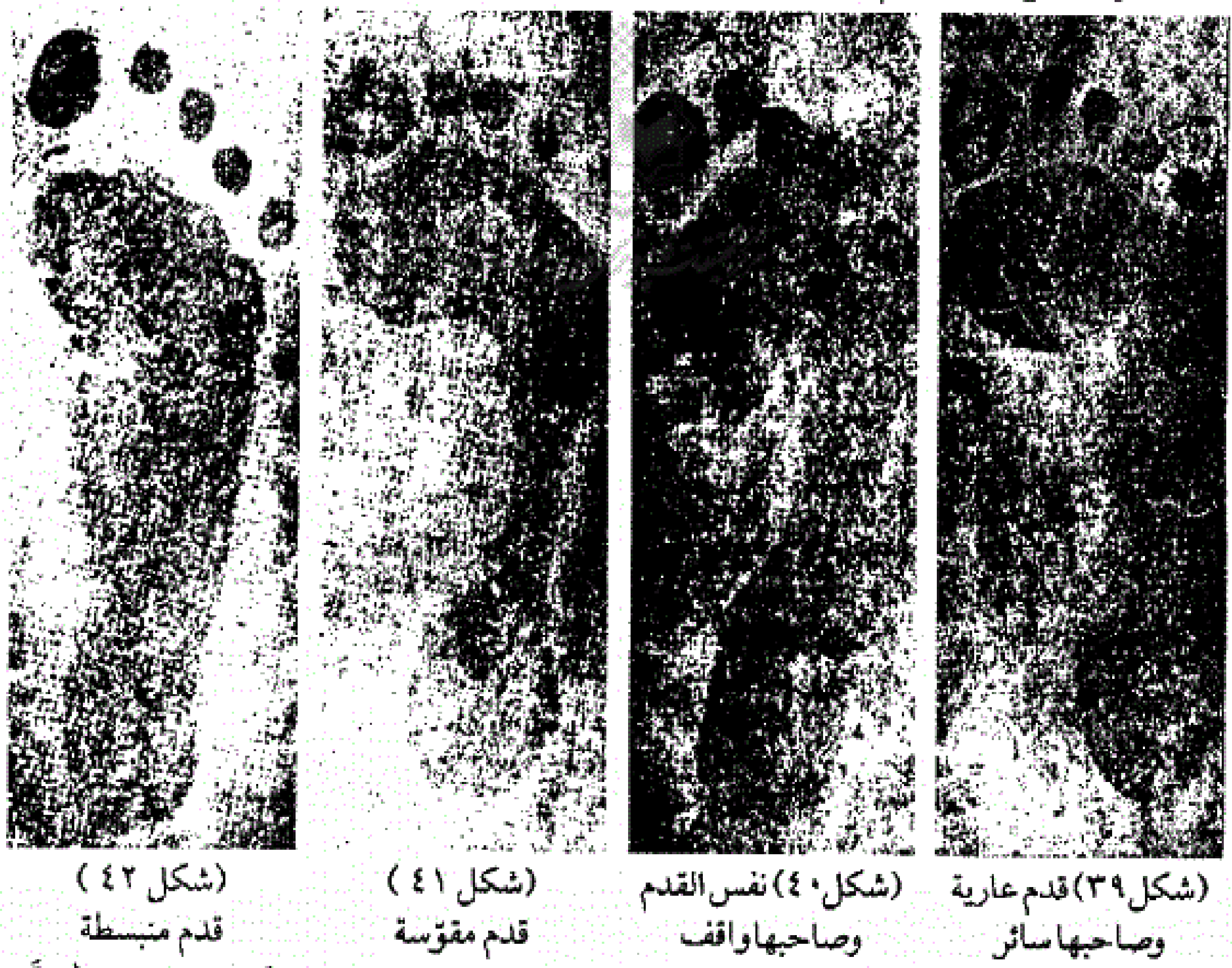
جاء في كتاب «التحقيق الجنائي» تحت العنوان التالي ما نصه:

آثار الأقدام

قص الأثر معروف عند العرب من زمن بعيد. فإنهم كانوا وما زالوا يتتبعون الإبل والمواشي المسروقة في الصحاري والقفار، ويستدلون على محل وجودها ولو كان على مسافات بعيدة ومراحل شاسعة. وجلّ اعتمادهم في ذلك على قوة الباصرة والخبرة والتمرين، وقليلاً ما يخطئ بصرهم، فقد أتوا في هذا الباب بالمدهشات التي يحار في تعليلها الإنسان، فينبئك الواحد منهم بما إذا كان تارك الأثر ذكراً أو أنثى، طويل القامة أو قصيرها، سليم النظر أو به مرض بإحدى العينين أو ببعض أجزاء جسمه حاملاً شيئاً أو غير حامل، وفي النساء ما إذا كانت إحداهن حبلى أو غير حبلى وهكذا. ولا غرابة في ذلك، فإن الإعرابي معتاد منذ الصغر على التجوال في الصحراء وهي أصلح مكان تنطبع عليه القدم وتترك أثرها بشكل واضح يمكن قراءته كما يقرأ الإنسان في كتاب.

ومما يساعد على بقاء هذه الآثار وعدم محوها واختلاطها بغيرها اتساع تلك البقاع وقلة السكان وندرة المرور فيها، وعدم وجود أسباب الرفاهية والعمران بها. فعلى مر الأيام يعرف سكان كل ناحية بعضهم بعضاً كما يعرف كل منهم أولاد الآخر وناقته وماشيته. ويمكنه في غير عناء معرفة مشية كل منهم وتمييز آثاره. ويستشهدون بها عند حدوث سرقة أو ضياع ماشية. وهذه قاعدة متبعة للآن في جميع أنحاء السودان وفي الجهات النائية كالواحات ومصلحة أقسام الحدود. ولما كان هؤلاء القوم ما زالوا على الفطرة ولم ينالوا من العلم قسطاً يمكنهم من التعبير عن أفكارهم وتعليل استنتاجاتهم وإقناع الغير بصحتها، كما أن كل عمل من هذا القبيل مهما بلغ صاحبه من دقة النظر وإصابة الرأي عرضة لخطأ، لذلك وجب أن لا يعتمد على أقوالهم اعتماداً كلياً. ولا بأس بأخذها بتحفظ تام وعلى سبيل الاستئناس فقط. وهذا لا يمنعنا من الاعتراف بفضلهم وخصوصاً في الإرشاد عن الاتجاه الذي سار فيه الأثر والطريق الذي سلكه الجناة.

ولم تكن الاستعانة بآثار الأقدام بطريقة علمية معروفة في أوروبا إلى عهد قريب. فأول حادثة اكتشفت فيها فائدة آثار الأقدام العارية وقعت في (٢٧) نوفمبر سنة ١٨٤٦م، وسترى في الأشكال الآتية صور بعض آثار الأقدام المختلفة. (انظر الأشكال ٣٩ و٤٠ و ٤١ و٤٢).



(شكل ٣٩) قدم عارية وصاحبها سائر — (شكل ٤٠) نفس القدم وصاحبها واقف — (شكل ٤١) قدم مقوّسة — (شكل ٤٢) قدم منبسطة

هذا ما أردته من كتاب «التحقيق الجنائي» لمؤلفه محمد شعير بك تفسيراً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠] الخ. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: آراء حكماء الأمم وعلماء الإسلام في الأخلاق

تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾[فصلت: ٣٠] إلى قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[فصلت: ٣٦].

ولأجعل الكلام على هذه الآية في خمس أمور:

(١) الكلام على الإيمان بالله والاستقامة.

(٢) إلهام الملائكة المؤمنين بالخيرات.

(٣) مساعدتهم في الحياة وبعد الموت.

(٤) محاسن الأخلاق وملاطفة الأعداء.

(٥) الالتجاء إلى الله في كل شيء.

في يوم الجمعة (٢١) نوفمبر سنة ١٩٣٠ بينما أنا جالس أفكر في معنى هذه الآية، وأنا أعجب من أن الإنسان يحس في نفسه مذكراً يذكره بأمور علمية أو أخلاقية وهذا شائع بين الأمم، وكيف كان هذا من مضمون الآية، إذ جاء فيها: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[فصلت: ٣١] على لسان الملائكة.

أقول: بينما أنا كذلك إذ أخذتني سنة فخيل إلي أني في روضات بهجات مزينات بأجمل الزينات والرياش الفاخر في جو بهيج مضيء مشرق في قصر منيف، فيه فرش مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وهناك من الجواهر ما لا أقدر وصفه وأدرك كنهه. فبينما أنا في دهش مما رأيت وفي عجب عجاب؛ إذ أقبلت فتاة أشرق نورها وأضاءت المكان ببهجة جمالها وما تحلت به من أجمل الحلي، وما لبست من أبدع الحلل، وقد عطرت أرجاء القصر بالروائح العطرية، فسلمت وحيت. فهنالك نسيت جمال القصر وبهجة الزينة والرياش، وأخذ الجمال ببصري وبصيرتي حتى نسيت كل شيء إلا ما رأيت من منظر ناضر وطرف ساحر وجمال باهر ونور زاهر، فما كان إلا كلمح البصر حتى خررت صعقاً وغابت الذاكرة ونامت الباصرة وأخذت فؤادي تلك النظرات الساحرة، فصرت كالمسحور الذي لا يعي ما حوله ولا يدري كيف يقول. وهكذا بقيت على هذه الحال مدة.

فلما أفقت من غشيتي وقمت من غفوتي رأيت الفتاة أمامي وهي تبتسم، فكدت أخرّ صعقاً كرّة أخرى، إذ لم أر مثل هذا الجمال في الأرض أمد الحياة، وخطر لي خاطر قديم. ذلك أني يوماً كنت دخلت دار الصور المتحركة بمصر فرأيت من تلك الصور التي تظهر فيها صورة «كليوبترا» ملكة مصر من دولة البطالسة وقد لبست أفخر الملابس التي يقال إن ثمنها يبلغ آلافاً مؤلفة. فقلت في نفسي إذ ذاك: يا حسرة على مصر. مصر التي انتهكت حرمتها الدول وأبقوا فيها امتيازات الأجانب فأدخلوا صوراً تفسد الأخلاق وتثير الشهوات.

فأما في بلادهم فإن الأكثر من مشاهد دار الصور أن تكون معلمة للشعب الفنون والعلوم وأحوال الحياة بأتم مظاهرها. فهذا الخاطر الذي خطر لي قبلاً تجدد لي، إذ رأيت هذه الفتاة. فقلت: يا ويلتي، ماذا أقول الآن؟ وهل مثلي في هذه السن يلعب الجمال بعقله أو يخطر الغرام بلبه. إن ذلك

مزر بالمشيب. وإذا كنت أخاف على الشبان من هفوات الأجسام؛ أفلا أخاف على أدبي وعقلي من زلات الضمير وفتنة القلوب والصبوة ولو بالخواطر والهفوة ولو بالنواظر.

وبينما أنا كذلك إذ رأيتها ازدادت ابتساماً وقالت: سلاماً سلاماً لا تثريب عليك ما هذه بصبوة ولا أنت الآن في غفلة. إنك الآن مكين أمين لا إثم ولا حرج. أنت الآن في عالم المثال لا في عالم الأجسام. فأنت روح وأنا مثلك. ثم أمسكت بيدي فكان نوراً قبض على نور. ولم أحس بتلك العظام ولا العضلات ولا ثقل الأعضاء الغليظة، فقضيت العجب وقلت في نفسي: أهذا كله في عالم الخيال؟ ولم أكد أتم هذا الخاطر حتى أخذت تقول: هذا العالم هو الجمال الحقيقي، ألم تقرأ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[العنكبوت: ٦٤]. فقلت في نفسي: يا ليت شعري ما اسم هذه الروح؟ فقالت على الفور: أنا اسمي البصيرة، فتذكرت قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[القيامة: ١٤-١٥]، وخطرت لي خواطر الآية التي نحن بصدد الكلام عليها، وأن الذين يعرفون الله واستقاموا يبشرون ويلاحظون في حياتهم الدنيا وبعد الموت وتلهمهم الملائكة، وقلت في نفسي: هل هذه صورة روحية لبصيرة الإنسان؟ ويا ليت شعري أهذه تشاكل بصيرتي أنا أم بصائر جميع الناس في الأرض؟ وهل بصائر الناس جمال فاتن على هذا المنوال؟ فأجابت بلا تردد ولا توان وقالت: إن جمال أرضكم جزئي، إنه جمال نزل إلى الأرض بقدر. ألا ترى أن جمال الرجل أو المرأة لا يبقى إلا ريثما يلدان الذرية. فإذا أسنّا ذهب الجمال وعوّضا بدل الجمال الظاهري محبة ومودة ورحمة بها يشتركان في تربية الذرية وفي المنافع المنزلية والأمور المادية.

إذن الجمال في الأرض ليس مقصوداً بالذات وما جاء لسبب فهو لا محالة ذاهب بذهاب سببه. أما الجمال هنا فهو أرقى من الجمال في الأرض من جهتين: أولاً: إن نسبة جمال أهل الأرض إلى جمال عالمنا كنسبة نور السراج في الأرض إلى نور الشمس. ثانياً: إن نسبة دوام الجمال عندنا إلى دوامه عندكم كنسبة دوام نور الشمس إلى فناء نور السراج.

الجمال عندكم مقدمات وعندنا مقاصد وغايات وسعادات. ولقد أخبرتك بأني أنا البصيرة. إن بصائر أهل الأرض جميعاً قد جعلتني الله مثلاً لها، فأنا مثال البصيرة الكلية وعنوان لها ودليل عليها، بل أنا هي ولست تتمكن من رؤيتي إلا على هذه الحال. هنالك قلت: هذا مقام العائذ بالله وبك، ألا تدريني أتخبط في ظلام الأوهام، إني أود المقام بجوارك أمد الدهر. فلقد قضيت دهري في حياة كلها غرام بك وحب للنتائج الخلقية والعلمية التي أنت المبرزة لها، فقالت: إنك لا تطيقني الآن. أولاً لأن مظهري الآن ربما لا تحتمله إذا طال مقامك هنا، ألم تر أنك خررت صعقاً حين لاقيتني. ثانياً إنك الساعة كما ذكرت لك في عالم الروح. ولقد قضت العناية أن ترجع إلى عالم الأجسام باليقظة، وعينك هنا ترى ما لا ترى عينك هناك، وهذا الجمال الذي ظهر لك إنما هو جمال الكاسب لهذه الدرجة الروحية. ووراءها درجات متتابعات تخلق لها عيون على مقدارها في عالم الأرواح العالية. ولو أن درجة من درجات الجمال ظهرت لأرواح لم تستعد لمشاهدتها لأهلكتها، فإذن لا بد من رجوعك إلى عالم الحس المادي زمناً ما لكي تكمل نفسك فلا تصعق كما صعقت الآن حين رأيتني.

قلت: ولكن لا صبر لي على فراقك. فقالت: إن لكل مقام مقالاً، فارجع إلى الأرض عالم المادة واشهد مزارعي التي زرعتها في الأرض. فقلت: أي مزارع؟ فقالت: مزارع القلوب، قلوب الحكماء والعلماء والأولياء، فاقرأ ما ألقيته على قلب كونفوشيوش حكيم الصين وقلب أفلاطون وسقراط وقلوب الرواقيين وقلب الأستاذ «كنت الألماني»، فهؤلاء وأمثالهم الذين برعوا في علم الأخلاق قديماً. وهكذا قلب الغزالي والرازي وأمثالهما من علماء الإسلام، بل أمثال الشعراني من الصوفية. فهذه مزارعي التي غرستها في قلوب هؤلاء في علم الأخلاق. فتذكرت أني قرأت في «جريدة الضياء» مقالاً يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه:

المذهب الذي يعتنقه ٥٠٠ مليون من الناس

الكونفشيوشية هي مجموعة التعاليم التي دعا إليها كونفوشيوش منذ ٢٥٠٠ سنة، ورواها عنه أقدم حكماء الصين، ولم يكن كونفوشيوش يميل بطبيعته إلى التغلغل فيما وراء الطبيعة والتعمق في التأملات الدينية، ولكنه كان شديد العناية بالفضائل والخلقيات. فهو يوجه جلّ اهتمامه إلى دراسة المسائل العملية الخاصة بالعلاقات الإنسانية، ويدعو إلى اتباع السبيل القويم في المعاملات. وكان في حياته الخاصة شديد الاعتقاد بالقضاء والقدر، والإيمان بأن الله منه الحياة، وحدد له المهمة التي يؤديها، وأنها تحميه كيد أعدائه.

ومن قوله: ما أعظم قوات الأرواح، إذا نظرنا لا نراها وإذا أنصتنا لا نسمعها، ولكنها تدخل مع ذلك في كل الأشياء ولا يوجد شيء بدونها. وكان لا يصرح بمثل هذه الأمور إلا لخاصة أتباعه في خلواته، أما تعاليمه فكانت كلها عملية، لأنه كان معلم أخلاق ورجل سياسة. وكان يعتقد أن معرفة الله شيء يفوق قوة تصوره. ومع ذلك فإنه اعترف وهو يعزي نفسه بقوله: إنه ولد في السماء وإن الله أوجد الفضيلة التي فيه. وإن ثقته بالله لا حد لها، فهو لا يتذمر من الفضلاء كما أنه لا يتبرم بالناس. وقوام عقيدته الاعتراف بضعف الإنسان وحاجته إلى مساعدة الإله، ومحاولة التمتع بمباهج الحياة ومزاياها عن طريق الاتصال المباشر بالله.

وتكاد الكونفشيوشية تكون طريقة مرسومة للحياة فهي الصفة الدينية لأنها تحض متبعيها على عدم مخالفة قوانين الطبيعة والتآلف مع بقية الناس، وتنهى عن حب الذات وتأمر بتضحية النفس في حب الآخرين. وقد نجح كونفشيوش في اكتساب العقلية الصينية، بفضل شخصيته القوية، ومحافظته على التقاليد، ولأنه اتخذ لنفسه صفة القيادة والزعامة فأمست تعاليمه مسلّماً بها من الجميع، وأضحى الخارجون عليها في حكم الكفرة.

وأساس فلسفة كونفشيوش «التاو» وهي نقطة الابتداء، والطريق الذي يتحرك فيه الوجود، والنظام الذي يسير عليه العالم، أو النظام الطبيعي. وهو السبيل الذي ينبغي أن يسلكه الناس جميعاً. والاتجاه الخلقي لكل إنسان. وهناك طرق ثلاثة: طريق السماء وطريق الأرض وطريق الإنسان وهو أهم الطرق الثلاثة. ولكن الطريق شيء غير منظور لا يرى إلا في أعمال الناس، فهو مبدأ خلقي مستور تتفرع منه فضائل الحياة اليومية.

ويؤمن كونفشيوش بثبات الطبيعة على مبدأ خلقي واحد، فهو يقول بأن السماء والأرض قد أظهرتا ثباتاً معنوياً في طرقهما المطردة. والكون نظام وليس فوضى. وتتجلى في كل أعمال الطبيعة مظاهر الإخلاص التي يجب أن تعتبر نقطة السير للحياة الخلقية.

ويعتقد الكونفشيوشيون بأن الطبيعة هي خير في ذاتها، وأن مبادئها وقوانينها إنّما وضعت لإرشاد الناس إلى التصرف الواجب. ومع ذلك فإن تصرفات الطبيعة غامضة ولا يمكن كشفها. وهذا ما جعل تصرفات الناس خاضعة لأحكامها المقدرة من قبل. فسعادة الإنسان وشقاؤه، وتوفيقه ونحسه كلها مقدرة، وإذا كانت لا توجد علوم تمكن الإنسان من السيطرة والتحكم في الحوادث الطبيعية، فإن وقوع هذه الحوادث يصبح لذلك لا محيص عنه ولا مفر منه.

ومع أن وقوع هذه الحوادث التي لا مفر من وقوعها، ومع ما يبدو لنا من قسوتها وشدتها أحياناً، كان وقوعها مرهوناً في الغالب بتصرفات الناس أنفسهم. لأن الطبيعة ليست شريرة في أعماقها. وكل ما هنالك أنها عادلة وهي تصنع دائماً الخير مع الخير، والشر مع الشر، فالطبيعة شريفة وتتصرف بطريقة خلقية سامية. وكونفشيوش مثل لوك وعلى عكس هوبز، يعتقد بأن الأصل في طبيعة الإنسان الخير، وأنها تلتمس الخير كما يلتمس الماء الانحدار. وأول ما يتعلمه التلميذ الصيني في كتابه الديني الصغير: الناس عندما يولدون يكونون خيرين بطبيعتهم.

ويفسر أئمة الكونفشيوشية هذا المبدأ بأن كل إنسان يملك في صميم نفسه مبدأ خير، يسوقه إلى العطف على الآخرين ومساعدتهم، ومبدأ عاد لا يشعره بالخجل من كل ما يثير الخجل، والكراهية لكل ما يستحق الكراهية. ومبدأ للياقة يحمله على احترام وتمجيد من يستحقون الاحترام والتقدير، ومبدأ حكيماً يعرف به الحق ويؤيده، ويدرك به الباطل ويزحزح عنه.

وهذه المبادئ ليست مخالفة للطبيعة الإنسانية، ولكنها مركبة في غرائز العقل الإنساني ولا غنى للبشرية عنها. وليس على الإنسان إلا أن يطيع هذه المبادئ الكامنة فيه ليأمن العثار ويسلك الخبب الذي لا غبار عليه. ويصبح إنساناً كاملاً. إن الناس يولدون أطهاراً بطبيعتهم، غير أنهم إذا طعموا غذاء دسماً، واكتسوا ملابس تشيع الدفء في أجسامهم، وسكنوا أماكن مريحة، فإنهم يصبحون كالبهائم تقريباً. فغاية التعليم القصوى هي استرداد العقل المفقود، وأغلب الناس قد فقدوا عقولهم.

ومن مميزات الثقافة الصينية العناية بآداب اللياقة، وهي ظاهرة الأثر في النظام الكونفشيوشي ويضع كونفشيوش نظاماً خاصاً من العوائد والأقيسة لكل العلاقات الأساسية بين الناس. وكل ما يشاهد في الصينيين من مظاهر اللياقة وحسن التصرف إنّما منشؤه من هذه العادات. فالاتزان الذي يقابلون به أي موقف من مواقف الحياة يرجع إلى استعدادهم الداخلي الذي جرى منهم مجرى الغرائز بفضل مرانهم الطويل مدى العصور المتعاقبة. لذلك لا يحتاج الصينيون إلى كتب في اللياقة لأنهم نشؤوا منذ نعومة أظفارهم على اتباع أصولها المتبعة في تقاليدهم الدينية المنسوبة إلى كونفشيوش. حتى أصبح الثبات واللياقة طبيعة ثانية فيهم. فأنت لا تلمح أثراً للجلافة عندهم حتى في أحط الطبقات الجاهلة، بل تراهم جميعاً قوماً يحسنون التصرف بلباقة في الأحوال.

ويفضل كونفشيوش في كتابيه الثالث والرابع المعروفين بتعليم الوضعاء ؛ الكيفية التي يستطيع بها الإنسان أن يتمشى في قوانين الطبيعة لكي تظهر عناصر الخيرية المركبة في طبيعته. وهاك بعض فقرات من الكتابين :

التناسب طريق الطبيعة. والوصول إلى التناسب هو طريق الإنسان. فالذي يتمشى مع الطبيعة يصيب الهدف من غير نصب، ويفهم الحقيقة بدون تفكير، والحكيم من يهتدي بفطرته إلى الطريق القويم من غير عناء.

والتناسب أو التمشي مع طبيعة الكون هو فعل العليم بآداب الكونفشيوشية، فالرجل الذي يصل إلى هذه الدرجة من التناسق يصبح إنساناً كاملاً. ويدعو كونفشيوش إلى الاهتمام بالأمرين «شو» ومعنى الكلمة الحكم على الغير باختبار الإنسان الشخصي. لأن التشابه بين الناس في تفكيرهم يمكن الفرد من الحكم على الآخرين، فلو أنني عاملت كلباً أو جواداً بما لا أحب أن أعامل به، فليس معنى ذلك أن هذه المعاملة لا تليق بالكلب أو الجواد. ولما كنت أنا إنساناً وإخوتي الآخرون هم أيضاً من بني آدم أعرف ما يسبب لي الألم ؛ فإن أمكنني أن أعرف أن الآخرين عندما يتأثرون بنفس العامل يتألمون مثلي. وإذا اتخذت قلبي دليلاً لي فإني لا أعمل لغيري ما لا أرضاه لنفسي.

ويعرف كونفشيوش الرجل الراقي بأنه الشخص ذو الفضيلة الكاملة، الإنسان الذي رفع نفسه إلى مستوى الكمال الخلقي. بعكس الرجل الضيق العطن العادي التفكير، ومجمع الصفات التي تتألف منها أخلاق الإنسان الكامل هي : الإحسان والإنسانية والإيثار وإنكار الذات والروحانية والمحبة. أما المحبة فهي في عرف كونفشيوش غاية الحياة الإنسانية. ومن رأيه أن الإنسان الكامل يجب أن لا ينسى هذه الغاية ولو مرة واحدة. أثناء تناول وجبة واحدة. أو في ظرف يكون فيه مشغولاً جداً أو عندما يفشل في عمل فشلاً واضحاً.

ويأمر كونفشيوش بحب الناس. أي أن يشعر الفرد بمحبة النوع الإنساني وينظر إلى البشر جميعاً كأنهم أخوته، ويعتبر الإنسان اجتماعياً بالطبيعة. ويحلل النظام الاجتماعي إلى خمس علاقات : الملك ووزيره، والأب وولده، والزوج وزوجته، والأخ الأكبر وأخوه الأصغر، والصديق وصديقه. فالإنسان بطبيعته مغمور في نظام من العلاقات ولا يستطيع أن يعرف نفسه إلا داخل هذا النظام. وهذه العلاقات تتضمن فوارق، فالخضوع ليس معناه تحديد الحرية الطبيعية. ولكنه شيء طبيعي لا بد منه. اهـ.

فلما قرأت هذا وهي مصغية لي ـ وعجبت إذ رأيت المقالة أمامي كأني أشاهدها ـ قالت : انظر في الآية التي تفسرها أنت الآن. ألم تر أني ألهمت حكيم الصين أن يقول : إن الله منحه الحياة وحدد له المهمة التي يؤديها وأنه يحميه كيد أعدائه؟ قلت : بلى. قالت : أليس هذا بعينه ما في هذه الآية : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : ٣٠] إلى قوله : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ [فصلت : ٣١]. ثم قالت : ألم تر أن ملخص كلامه عن نظام السماوات و الأرض أنه في غاية الكمال، وأن نظام النفوس الإنسانية في الأعمال يجب أن يكون على مقتضى هذا النظام. وبعبارة

أخرى : إن النفوس الإنسانية يجب أن تكون مخلصة وصادقة كالإخلاص والصدق في نظام الأرض والسماء، وهذه المعاني هي التي برزت في تفسيرك للقرآن لأن هذا التفسير سيكون نموذجاً يؤمه أمم في الشرق والغرب يسيرون على النظام الطبيعي في أعمالهم بإخلاص وأمانة وحب لربهم. ثم إن تعريف كونفشيوش للرجل الراقي هو عين قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وأما الحب العام الذي ذكره فهو مضمون نفس هذه الآية ومطلوب القرآن: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

إذن آراء كونفشيوش هي مقاصد القرآن، والله أعثرك عليها الآن لتكتبها فيعلم المتعلمون من المسلمين الذين قرؤوا العلوم الفلسفية الأوروبية. إن آيات القرآن المبذولة للجهال والعلماء على حد سواء ليست هي كما يظنون غير مستحقة عنايتهم بدعوى أن قراء القرآن أكثرهم جهلاء فقراء، فإن هذا القرآن من عند الله كما أن الماء المبذول لجميع الناس من عنده، وهكذا الحب المبذور أو النوى في الأرض الذي تطؤه البهائم هو هو نفسه الذي يصير حباً وثماراً جنية، فليس عموم النعمة دلالة على نقصها، ولا شمولها الجاهل والعالم عنواناً على هوانها. كلا. فليعلم أولئك المتكبرون أن كبرهم في غير محله، وأن القرآن تفسره الفلسفة في الشرق والغرب وحكمة الحكماء وعلم العلماء، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ثم إني تذكرت بعد ذلك بعض آراء أفلاطون من المقدمة التي كتبها الأستاذ «بارتملي سانتهلير» أستاذ الفلسفة اليونانية في الكولج دي فرنس، ثم وزير الخارجية الفرنسية التي ترجمها الأستاذ «أحمد لطفي السيد» مدير دار الكتب المصرية، فأسمعتها ما نصه، قال:

(١) وقد استحار أفلاطون استعارة أخرى ليجوّد بيان هذا الطبع المزدوج للإنسان، فقال: فلنتصور أن كل واحد منا هو ماكينة حية خارجة من يد الإله. فالشهوات التي نحسها هي كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل إلى ناحيته، ويتعاكس حركاتها تجذبنا إلى أعمال متضادة. وهذا هو ما يقرر الفرق بين الرذيلة وبين الفضيلة. ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبنا أن لا نطاوع إلا أحد هذه الخيوط ونتبع اتجاهه ونقاوم شديداً كل ما عداه من الخيوط الأخرى: ذلك هو خيط الذهب المقدس. خيط العقل الذي هو القانون العام للممالك وللأشخاص. ينبغي أن يكون الحكم للعقل ما دام أنه هو محل الحكمة وأنه مكلف بأن يسهر على النفس بتمامها، ولا ينبغي البتة أن يصغي المرء في نفسه إلا إلى صوت العقل، لأن العقل المستقيم إنّما هو صوت الله يخاطب به أنفسنا، ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمو بالمعارف أو بالثروة أو بالجاه والسلطان، ذلك ليس إلا نقصاً فيما يجب من تشريف ما في نفسه من الجهة القدسية، وتفريطاً منه في إكرام نفسه، فإن إكرامها الحقيقي ينحصر في الدأب على تنمية الفضيلة فيها وحمايتها من الكبرياء واللذات، ومن الترف الذي يجعلها تجبن عن احتمال المشقات الضرورية ومن الجزع عند لقاء الموت بل حمايتها أيضاً من جواذب الجميل، فإن الجميل لا ينبغي أن يؤثر على الخير، بل يلزم أن يقال: إن كل ما على سطح الأرض وما في باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة. وإن المرء إن لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه، كان مورداً نفسه ذلك الكائن القدسي موارد العار والاحتقار.

(٢) وقال المترجم أيضاً : وبمقتضى ذلك كان الواجب الأول على الإنسان ، بل الواجب الوحيد الذي يشمل جميع الواجبات الأخرى هو أن يسلك في الحياة سبيل العقل المستقيم . وإن أكبر خطيئة يرتكبها ، وأكبر جهالة يقع فيها إنّما هو أن يعصي العلم والحكمة والعقل وهي ثلاثتها سادته الحقيقيون . إنّما هو أن يكره شيئاً حكم هو بأنه حسن جميل بدلاً من أن يحبه . إنّما هو أن يحب ويعانق من يحكم هو أنه رديء . على أن النفس تجد طمأنينة تامة ، وقوة أيما قوة حينما تتفق احساساتها وأعمالها ، فتغتبط بأنه ليس لها أن تعود باللائمة على نفسها في فكرة أو عمل ظالم في حق الله أو في حق الناس . وإن أكبر حرب في الحياة هي الحرب التي تقع بصدد صيرورة المرء فاضلاً أو شريراً . وقد يقع المرء في الضلالة إذا هو ظن أنه الرجل الذي له قيمة تقضي عليه أن يحسب حساباً للموت أو للحياة ، بدل أن يقصر سعيه على البحث فيما إذا كان ما يعمل هو خيراً أم شراً ، وما إذا كان عمله عمل رجل صالح أم عمل رجل سوء . كل امرئ اختار مركزاً ، لأنه رآه أشرف من سواه ، أو لأن رئيسه وضعه فيه ، يجب عليه أن يقيم فيه ثابتاً ، ولا ينظر إلى الخطر ولا إلى الموت ، ولا إلى شيء آخر غير الشرف .

كذلك كان سقراط ، لما جيء به ليحاكم أمام الشعب اللاتيني على تهمة كبرى ، لم يتأخر البتة عن تنفيذ هذه المبادئ بالعمل . فلما كان يخدم وطنه في ميدان القتال ، احتفظ كما يحتفظ الجندي الباسل بجميع النقط التي وضعه فيها القواد في بوتيدة وفي أنفيبوليس وفي ديليوم ، كذلك لم يكن ليتحول عن المركز الذي خصه الله به . بل دأب على درس الفلسفة على رغم الخطر الهائل الذي كان يتهدده ، حتى إنه لما مثل أمام القضاة ، لم يخطر بباله ليتقي الموت أن يتنازل إلى التخضع بسؤال العفو ، ولا إلى التمليقات العادية التي اعتاد الناس أن يستدروا بها شفقة القضاة . وما كان الكلام هو الذي يعوزه في هذا الصدد . بل الذي كان ينقصه هو عدم الحياء من نفسه . فلم ينزل عن عزته إلى سكب الدموع . وما يستبيحه المتهمون المستهينون بكرامتهم من الدنايا ، كأن الخطر الذي هو فيه لم يكن في رأيه داعياً إلى إتيان ما هو غير خليق برجل حر . فالشأن أمام المحاكم كالشأن في ساحة القتال ، لا يسمح للمرء أن يتذرع بأي وسيلة من الوسائل المختلفة لحفظ حياته . فكما أنه في الحرب لا ينبغي البتة أن يلقي المحارب سلاحه ، ولا أن يطلب الأمان ، كذلك لا ينبغي البتة تلقاء غيرها من الأخطار أن يتسفل إلى حد أن يقول كل شيء .

كذلك مضى سقراط ، من غير أن يخسر من شرفه شيئاً إلى الموت الذي حكمت عليه به المحكمة ، وترك الذين اتهموه ملطخين بوصمات الظلم والعار التي حكم عليهم بها الحق . لزم عقابه كما أنهم لزموا عقابهم . والشأن في ذلك كما يقول هو : إن كل شيء هو على أحسن ما يكون . ليس المهم أن يعيش المرء ولكن المهم هو أن يعيش عيشة حسنة . ذلك المعنى هو الذي حمل سقراط على أن يرفض خدمة المخلص « كريتون » ، فلم يشأ أن يهرب من السجن ليخلص من حكم ظالم لأنه يعلم أن هذا الهرب مهما برره الظاهر ، فإنه ليس في الواقع إلا مخالفة لقوانين الوطن .

ذلك هو إذن المبدأ الأول الذي قرره سقراط ، وأيده بالمثل الفعلي . هو أنه لا ينبغي البتة إتيان الشر بأية حجة كانت ، بل ليس سائغاً أن يدفع الشر بالشر ، ولئن قيل : إن العدل إنّما هو إيتاء كل إنسان

ما له، فليس معنى ذلك في عرف الحكيم أن الرجل العادل يجب عليه لأعدائه الشر. كما يجب عليه لأصدقائه الخير، فليس عمل السوء لأي إنسان من العدل في شيء.

من هذا المبدأ استنبط سقراط نتيجة ضرورية ثابتة لم تكن من قبل، وهي أن النفس متى كسبت السيئة بعامل الجهل أو الضعف، على الرغم من شدة تحفظها، فأول ما يجب الاهتمام به هو شفاؤها من المرض الذي أصابها، والذي يمكن أن تشفى منه. وعلاج الخطيئة إنّما هو العقاب، فلا ينبغي للمذنب أن يتذمر من العقاب الذي أصابه إما بيد الله وإما بيد الناس، بل يجب عليه أن يغتبط بالبلاء الذي يكفر سيئته ويخلص نفسه مهما كان مؤلماً. إن العقاب ضرب من الطب المعنوي. وشأن المذنب الذي يحاول اتقاءه شأن المريض الذي قد يؤثر المرض المهلك على أن يذهب إلى الطبيب الذي يعيد إليه الصحة بالحديد أو النار. ولا يعزب عن سقراط أن هذه المبادئ يبين عليها بادئ بدء أنها تصادم الرأي العام. وفي الحق أن من النادر في الواقع أن يوجد جناة يأتون ليسلموا أنفسهم إلى العدل الذي يقتص منهم، ولكن قد يكون ذلك مما لا يعبأ به، فإنه يلزم أن لا نهتم بما ستقوله عنا الغوغاء، بل بما يقوله الذي يعرف العدل والظلم. وهذا القاضي الوحيد لأعمالنا إنّما هو الحق، إنّما هو الله. فإذا جهد المذنب ـ كما هي العادة ـ ليخلص من العدل، فإنّما هو حقيق بان يرثى له، حيث يضيف إلى سيئته الأولى التي هي الجناية سيئة أخرى شراً منها، وهي بقاء تلك السيئة من غير عقوبة تكفرها. لكن القلب المستقيم متى كسب الخطيئة بالمصادفة عجل إلى طلب العقوبة راغباً فيها، لأنها هي التي تصلح بينه وبين نفسه وبين الفضيلة.

(٣) وقال في صحيفة ٣٩ وما بعدها ما نصه: الخير الأكمل كما عرفه أفلاطون في كتابه « فيليب أو اللذة » ليس كله في العقل ولا في اللذة، بل هو مزيج منهما جميعاً. ونسبته فيهما مما يدق تعيينه. لكن الفيلسوف مع تقييده للذة لا يريد إهدارها كما حاولت مذاهب الغلاة من بعده بزمان، فإن لديه سعادة العيش وشقاءه مسألة كبرى ليس عنده همّ أشد من حلها على الوجه الحسن، لذلك كان شديد الرغبة في أن يبين أن الفضيلة لا يقصر شأنها عن أن تكون أجمل شيء في ذاتها. كما هو مسلم به، إلا عند العقول المريضة، بل هي أيضاً أنفع وأسعد ما يكون. تلك هي نقطة من الأهمية بأعلى مكان. ولما كانت شرائط الفضيلة في هذه الدنيا لا تتغير. كان توضيح سقراط إياها يهمنا كما يهم معاصريه تماماً. فإننا لا نزال نشكو من المحن المؤلمة الفضيلة كما كانوا يشكون. وإليك ما ارتأته نفس الحكيم الكبيرة التي زهقت فريسة الظلم الصارخ.

إنه يستشهد فيها التجربة. أجل، متى أراد المرء تذوّق الفضيلة والتزامها منذ حداثة سنه، لا يتركها كما يفعل المرتد عن مذهبه، فإنها تقر في القلب. أجل إنها تولد لنا كثيراً من اللذائذ وقليلاً من الآلام في جميع مدة الحياة. من ذا الذي يفكر حقيقة ويستطيع أن يؤثر الجنون والجبن والإفراط والمرض على العقل والشجاعة والاعتدال والصحة؟ من ذا الذي تلقاء مشهد الأحوال الإنسانية يستطيع أن ينكر على العموم بعد الموازنة، إن الفضيلة ليست أشمل سعادة من الرذيلة، إنها فوق ما تحفظ على نصرائها من النعم النفيسة الباقية تكتسب مكافآت الرأي العام وتوزعها عليهم. إنها لا تخدع البتة من

يعتنقونها بإخلاص، فإن الملائكة لا يتخلون عن أي كان يحاول بالمرون على الخير أن يتشبه بهم في الحدود الممكنة، إذ ليس من الطبيعي أن كائناً على هذا الخلق يتخلى عنه الموجود الذي به يتشبه. فالفضيلة إذن مكفولة بحماية الله. أما من جهة الناس. أفليس الأمر كذلك أيضاً؟ أليس ما يحصل للخبيثين والأشرار هو عين ما يحصل لهؤلاء المستبقين الذين يجرون سراعاً عند صدورهم عن مقرّ حفلة السباق لكن لا عند رجوعهم إليه، يثبون أولاً بالسرعة ولكن على آخر الشوط يصيرون في حال تعسة. آذانهم بين أكتافهم. ينزوون سراعاً دون أن يتوجوا. في حين أن العدائين الحقيقيين يصلون إلى الغرض حائزين قصب السبق ويتوجون بتاج النصر. أليس حظ العادلين عادة هو كذلك؟ أليس حقاً أنهم متى وصلوا إلى آخر مشروع من مشروعاتهم، يكتسبوا من سلوكهم وعيشتهم اسماً حسناً. ويحصلوا من الناس على المكافآت الواجبة لهم؟ أليس أنهم يصلون متى بلغوا سن الرزانة إلى ما يرجون من علو المناصب؟ أما الأشرار فإنهم وإن أخفوا أمرهم على العيون في شبابهم. فإن أكثرهم ينفضح أمره ويرتدي بالسخرية في أواخر أيامه. ومتى صاروا أشقياء في شيخوختهم؛ باؤوا بمسبات الأجانب والمواطنين. بل ما يلحقهم من المثلات التي كانت تصيبهم دائماً في هذه الحياة الدنيا. وما يتلقاهم يوم القيامة من عدل الله، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[فصلت: ٤٢].

إن أفلاطون مقتنع بصدق هذه المبادئ في العمل إلى حد أنه كان يظن أنه مستطيع أن يعين بالأرقام المضبوطة مقدار المقارنة بين سعادة الرجل الفاضل وبين الشرير. وجد بحساب له خاص أن أولهما أسعد من الثاني بسبعمائة وتسع وعشرين مرة. وإنه ليريد فوق ذلك أن يسحر بهذه القواعد الجميلة التي هي ثمرات تجربة يؤيدها العمل اليومي نفوس الصبيان وهي لا تزال لينة مطيعة. ثقة منه بأن هذا الكلام يقر في عقولهم بأسهل من كل ما عداه. ولما أقنع قلب شاب شريف مثل «غلوكون» كاد يطلق منادياً ينادي بأعلى صوته في الناس جميعاً بهذا الحكم الذي أصدره ابن ارسطون: إن أسعد الناس أعدلهم وأفضلهم، وإن أشقى الناس أظلمهم وأشرهم. إلى هذه المشجعات التي لم تكن لتحط مقام النفس أضاف سقراط نصيحة من شأنها أن تطمئنها وتكبرها.

إن حوادث الحياة لا تستحق منا مثل هذا الاهتمام العظيم. العقل يهدي إلى أن من الجميل الاحتفاظ بالبشاشة عند المصائب، وأن لا يدع المرء نفسه إلى الشهوة تلقي به في اليأس. وذلك لأن الإنسان يجهل ما إذا كانت هذه العوارض في حكمة الله خيرات أم شروراً. ولأنه لا يكسب شيئاً من وراء الحزن لها، ولأن الألم ليس إلا عائقاً عما يلزم المبادرة بعمله في هذه المواقف. فالرجل العاقل المستقيم الأخلاق إذا حلت به مصية كفقد ولد له أو ضياع شيء آخر عزيز عليه يحتمل المصيبة بصبر لا يطيقه أي رجل آخر. وليس هو في ذلك البتة عديم الشعور، لأن عدم الشعور في مثل ذلك الموقف حديث خرافة. ولكنه يضع حدوداً لألمه سواء أكان في جمع من أمثاله أم كان منفرداً بنفسه. فماذا يلزم إذن عمله في هذه المحن؟ أن يستشير المرء عقله فيما وقع. وأن يصلح سوء حظه بأحسن الوسائل التي يحكم بها العقل. وأن لا يروح للصدمة الأولى واضعاً يده على جرحه كالأطفال يضيع الوقت بالصراخ. بل أولى به أن يروض نفسه على علاج الجرح بأسرع ما يمكن. وأن يرفع ما سقط. وأن يتداوى بدلاً من أن يتطير. ذلك هو خير ما يستطيع عمله في المصائب التي تحل به.

(٤) وقال أفلاطون: وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة إلا بين الأخيار. وإن الفضيلة التي هي شرط للسعادة الفردية هي كذلك شرط للسعادة في الجمعية. إن الأشرار لا يستطيعون أن يأتلفوا زمناً طويلاً. فإذا قاربت المنفعة بينهم لحظة؛ فلا تلبث أن تباعد بينهم. بل المنفعة التي تساعدها الرذيلة ـ وما الرذيلة إلا أسرع منها انتقالاً ـ تسلحهم بعضهم على بعض وتصبح الجمعية وليس فيها إلا الأشرار، غير مستطيعة أن تبقى يوماً واحداً. إن هذه القاعدة العتيقة «الشبيه يبحث عن الشبيه» ليست صادقة إلا بالنصف. فإن الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير. أما الشرير فإنه لا يستطيع البتة أن يعقد صداقة حقيقية. لا مع الخير ولا مع الشرير شبيهه. ولما كان الشرير لا ثبات له على حال متغيراً متخالفاً مع نفسه مضاداً لها؛ كان بعيداً عليه أن يشابه غيره ويحبه. وحيثما اقترب الشرير من شبيهه واشترك معه، صار عدوه حتماً، لأنه سيعتدي عليه بعض الشيء. وكيف يكون ممكناً أن يبقى المعتدي والمعتدى عليه صديقين.

(٥) وقال عن سقراط ما نصه: ولما كان محظوراً عليه البتة أن يأتي الشر. كان لا يعمل السيئ لأعدائه كما لا يعمله لأصدقائه. ذلك منه بعيد. فإنه يعرف أن الشر الذي يقع منه على الأشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم. شأن تلك الدواب الشمس يضربها السائس الأخطل، فتصير بذلك غير قابلة للتذليل. وما فعل الشر حتى بالأشرار إلا قاعدة لا يجري عليها غير الطغاة أو السمجانين أمثال «فرديكاس» و«بريندر» و«اكزركسيس». أما الرجل الحكيم فإنه على الضد من ذلك يلطف الشرير بما يعمله له من الخير. أو على الأقل بما يضربه له من المثل الصالح من عدالته. إن الشرير أولى الناس بالشفقة. لأنه مريض النفس قد اعتراه المرض في جزئه الأنفس، حقاً أن من القلوب ما قد بلغ في الفساد حداً لا يمكن معه شفاؤها. بل أخذت منها الرذائل مأخذاً أصبح معه علاجها عسراً جداً أو مستحيلاً. ولكن هذه هي الاستثناءات التي يندر وجودها. أما أكثر الشريرين وفي شفائهم بقية من الرجاء؛ فيلزم أن يكظم الغيظ في حقهم، وأن لا يؤخذوا بالعقوبات القاسية التي لا يكون من ورائها إلا أن يركبوا متن الحدّة ويبتعدوا عن الدواء الشافي.

إن ما يكسب مبادئ سقراط هذه من رفعة وميزة خاصة بها أنه لم يقصر أمره على تقريرها. بل كان يعاني تطبيقها. وما كانت حياته إلا وقفاً على هذا التطبيق الطويل الشاق. فإنه منذ تلقى من إله «دلفوس» رسالته المقدسة؛ واستنارت نفسه بنور الحق؛ ما زال يعلم مواطنيه بأكمل ما يكون من الرعاية التي قد لا تخلو من التقريع يمحض لهم أنفع النصائح. ويحمل إلى السرائر الخالصة نور سريرته الساطع. وقد كان يرى أن نفع الناس وتخليصهم مما هم فيه من الشرور واجب عليه إلى حد أنه لو استطاع أن يخلصهم بتقديم حياته قرباناً؛ لما تأخر في ذلك. فلو قال له أهل آتينا: يا سقراط إنا نطرح رأي «أنيتوس» ونحكم ببراءتك. لكن على شرط أن تكف عن الفلسفة وعن أبحاثك التي اعتدتها. وإنه إن وقع منك ذلك واكتشف أمرك عوقبت بالقتل؛ لما تأخر عن أن يجيبهم: يا أهل آتينا إني أحترمكم وأحبكم ولكني أطيع الله لا أطيعكم أنتم. وما بقيت أنفاسي تتردد في صدري؛ وبقي لي حظ من القوة؛ لا أفتأ أنذركم وأنصح لكم وأدعو كل من لقيته باللسان الذي عرفتم مني. ولو أني

كففت في هذه الساعة لما كان هذا خوفاً على نفسي كما قد يبدر للأذهان، بل خوفاً عليكم أن تحاربوا الله بالحكم علي. هذا هو اعتقاد سقراط وذلك هو إحسانه إلى الناس. فلا يعجب من يسمع تقريظه من أن يراه قد تقدم المسيحية نفسها، إذ يقول لأهل جمهوريته: يا أيها الذين تتألف منهم المملكة كلكم إخوان. لأنه هو نفسه لم يغفل لحظة عن الاعتقاد بأنه أخو قاتليه.

كفى بالمذاهب الأخلاقية التي من هذا النوع دليلاً على المذاهب الدينية التي تتوجها. فمن السهل استنباط المعتقدات الدينية لأفلاطون وسقراط من مذهبهما الأخلاقي. فإذا كان الصوت الذي يخرج من أعماق ضميرنا هو صوت الله؛ وإذا كان الله هو الشارع الذي تجب علينا جميعاً طاعته؛ وإذا كان الناس لا يؤلفون فيما بينهم إلا عشيرة واحدة؛ فمن البديهي أن أباهم العام إنّما هو الله الذي رضي لهم أن يحبوه كما يحبون أنفسهم بعضهم بعضاً. وإن الصلة بينه وبين الإنسان دائمة فلا يستطيع أن يفر منه أبداً. ولو صغر حتى نفذ في باطن الأرض أو كبر حتى عرج في جوف السماء وأبعد من ذلك؛ أن يستطيع التغلب على الإله أبداً. أو يتخلص من هذا النظام الثابت الذي شرعه والذي يجب احترامه إلى ما لا نهاية. ومن الكفر البين بعد إنكار وجود الله أن لا يعتقد بالعناية الإلهية. فإن ذلك يستتبع القول بأن هذه العناية يمكن أن تتخلى عن الإنسان لحظة فلا ترعاه. وتسلمه بغير حساب إلى صورة رذائله أو عجز فضائله. إن أجمل ألقاب الإنسان وأحسنها أنه صنعة صنعها الله بيديه، فلا شيء لدينا إلا وهو من فيض إحسانه. ولا نستطيع أن نوفيه الشكر على نعمائه بصلواتنا وما نقرّب من القرابين وما نأتي من العبادات المستمرة. إنه هو قوتنا ولولاه لم تكن شيئاً مذكوراً.

إن الله على حسب التقاليد القديمة هو الأول وهو الوسط وهو الآخر لجميع الموجودات. وهو يسير على خط مستقيم تبعاً لناموسه في حين أنه يحيط بالعالم. ووراءه العدل المنتقم في الجرائم التي تقع ضدّ شريعته. فأيما امرئ شاء أن يكون سعيداً؛ فليتصل بهذا العدل الإلهي ويقتف أثره خاضعاً متواضعاً. أما من انتفخ كبراً، وأسلم قلبه إلى نار الشهوات، وظن أن لا حاجة له بسيد ولا هاد، فإن الله يتركه إلى نفسه. ولا يلبث أن يدفع الدين إلى العدل الإلهي. وينتهي أمره بأن يهلك هو وعشيرته ووطنه.

مادام هذا هو النظام الثابت للأشياء. فيم يفكر الحكيم وماذا يعمل؟ بديهي أن كل إنسان عامل يفكر في أنه ينبغي له أن يكون من الذين يتقربون إلى الله. لكن ما هو السبيل المقبول عند الله؟ هو طريق واحد. لأن الله بالنسبة لنا هو المقياس المضبوط لجميع الأشياء. لا الإنسان كما زعموا باطلاً. فلا سبيل إلى أن يحظى الإنسان بقرب الله حتى يعمل كل ما في وسعه ليتشبه به. أعني بمقدار ما أتيح للإنسان أن يبلغ من التشبه بذلك المثل الأعلى الذي لا يبلغه أحد. ومتى أمن الإنسان على هذا الاتصال و ذلك النسب الإلهي واقتنع بأن عناية الله تحرسه بلا انقطاع كما تحرس بقية الدنيا. وأيده ضميره الذي يرضى عنه لحسن طاعته للنظام العام فماذا عسى أن يخيفه في العالم بأسره؟ وكيف يمتنع قلبه عن الإيمان بهذه الحقيقة المعزية: إن الإنسان الخير لا خوف عليه في حياته ولا بعد مماته. فإذا مسه في هذه الحياة سوء. فكيف لا يحفظ الاعتقاد الراسخ بأن الإله سيهب له ما لا يزال يهب للأخيار من لطف في المصائب

التي تصيبهم، وتغيير في حالهم الحاضرة إلى خير منها، على أن النعم المعنوية التي اكتسبوها والتي ليست نعماً زائلة أو منتقلة تبقى لهم إلى الأبد، على أمثال هذه الآمال وفي أمثال هذه الأفكار يجب أن يقطع المرء عمره، يذكر بها نفسه وغيره في كل فرصة وفي كل مقام من مقامات الجد واللهو.

(٦) وقد قال عن سقراط ما نصه: أظن أن سقراط هو أول من حاول من الحكماء إثبات صبغة الله في الطبع الإنساني بطريق البحث والتنقيب، وقد صدر في ذلك عن هذا المعنى العميق الذي قرره «انكساغوراس» وهو أن العقل أصل كل شيء في العالم؛ فاستنتج منه كما ذكر في «فيدون» هذه النتيجة، وهي: أن عقلاً مدبراً خالقاً يجب أن يكون قد أعد كل شيء على أحسن ما يكون. وليس على الباحث لمعرفة طبع أي شيء إلا أن يبحث أحسن حالة يمكن أن يكون عليها ذلك الشيء، فليس على الإنسان في كل ما يتعلق به إلا أن يبحث، كما هو الحال في بقية الأشياء. عما هو الأحسن والأكمل ولقد كان «هرقليت» يقول من قبل سقراط: إن أجمل القردة إذا قورن بالإنسان ظهر قبيحاً. كذلك الإنسان الحكيم لا يظهر بجانب حكمة الله وجماله إلا كالقرد، ولكن سقراط عز عليه أن يقف بحثه على درس الجسم كما فعل «هرقليت» فيلسوف يونيه. فمشى مع مبدأ الأحسن في درس الروح التي جعلها الجهة الوحيدة لدرس الطبع البشري. اهـ.

هذه هي المقالات التي تذكرتها في حضرة تلك الروح الشريفة الجميلة، فلما سمعت هذه المقالات من كلام أفلاطون وسقراط وأرسطاطاليس؛ قالت: نعم هذه من أجمل مزارعي في الأرض فيما بلغكم من العلم منذ ٢٥٠٠ سنة إلى الآن. وكل هذه هي التي توضح هذه الآية، وقد تطابقت كلها على أمرين: الأول: الوازع الداخلي والقانون الوجداني وهو. . . فتبسمت بوقار. فقلت: البصيرة. قالت: نعم، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[القيامة: ١٤-١٥]. والثاني: إن هناك قوة عليا تساعد من أطاع هذا القانون وسار عليه. وللناس في أمرك أنت مذكر وموعظة حسنة. ألست تحس في نفسك بما يشدّ عزيمتك في أوقات الشدائد. قلت: بلى والله. قالت: ألست في أثناء هذا التفسير تحس في نفسك بسعادة وهناء لم تر لهما نظيراً مدى الحياة. قلت: بلى. قالت: أليست المعاني والمساعدات العلمية لا تفتأ تترادف عليك وكلما ازددت في التأليف إيغالاً ازددت مدداً وعلماً وانشراح صدر وسروراً. قلت: بلى. قالت: فهذا هو الذي يقوله كونفشيوش وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس، ويقوله بعدهم الرواقيون الذين جاؤوا بعد أرسطاطاليس وأغرموا بعلم الأخلاق وقالوا: إن سعادة الإنسان في الأخلاق وجمالها. ولهم مذهب خاص بها تقل أهمه علماء الإسلام من الفلاسفة والصوفية، وقد ملأ الغزالي من علمائكم كتاب الإحياء بعلم الأخلاق وهو معروف مشهور، هاهي ذه بعض مزارعي التي زرعتها في القلوب، فإذا رجعت إلى عالم المادة فاستوعب ذلك كله وأدخله في تفسير الآية حتى يعلم المسلمون أن كلام الحكماء تفصيل وتفسير لآيات القرآن، وأن آية: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾[القيامة: ١٤]، وآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾[فصلت: ٣٠] إلى آخره؛ تفسران بعلوم الفلسفة. اليوم يشهد المسلمون أن دينهم ألقيت علومه على عقول الحكماء قبل نزول القرآن، فهذه من إعجازه العجيب. إذن أنا أظهر في

كل قلب بحسب درجته، وتكون الجمل والإنشاء على مقتضى اختلاف العقول والأمم. فانظر إلى الشيخ الشعراني رحمه الله الذي جاء في القرون المتأخرة. فهذا قد ظهرت آثاري على قلبه بهيئة أخرى أنا واحدة ومظاهري كثيرة، كالشمس تختلف أضواؤها فينمو بها كل نبات، والاختلاف يكون على حسب القوابل قوة وضعفاً، وإذا كان في العوالم المادية نظام جميل:

(١) كقوانين الجذر والتربيع في امتداد النور والحرارة والكهرباء والجاذبية وفي قوانين الحجر الساقط في بئر. هذا في سورة «الرعد» عند آية: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[الآية: ٨].

(٢) وكقوانين الذكور والإناث في تلقيح الزرع والشجر، وفي نظام أوراق الأشجار من حيث هندستها وحسابها. هذا في سورة «الحجر» في آية: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[الحجر: ٢٢]، وآية: ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩].

(٣) وكنظام ممالك النحل والنمل والأرضة وغيرها. في سورة «النحل» و«النمل» و«سبأ».

(٤) وكجمال الأزهار والثمار ووجوه الإنسان.

وإذا كان ذلك كله جميلاً وبديعاً بحساب عجيب كحساب العناصر من حيث وزنها وترتيبها في جداول منتظمات؛ هذا في سورة «العنكبوت»؛ أفلا يكون عالمنا الروحي الذي هو أصل تلك العوالم وهو سيدها أجمل وأبهى وأبدع نظاماً وحساباً من عوالم المادة. إذن فلتعلم أن لنفوسكم نظاماً لا تدركون كنهه ولا نفتأ نصلحه أمد الدهر، فتارة نظهر في عقول الفلاسفة، وآونة في عقول رجال الدين، ووقتاً نظهر بهيئة صوفية، والمبدأ واحد والمظاهر مختلفات، فهل تذكر شيئاً من آراء الشيخ الشعراني رحمه الله؟ فقلت: نعم، قال في المنن الكبرى ما نصه: ومما منّ الله تبارك وتعالى به علي عدم تكدّري على شيء فاتني من الدنيا، وتكدري ممن صدّها عني، وذلك لعلمي ويقيني بأن كل شيء فاتني فليس هو برزقي ولا قسم لي، فكيف أحزن على شيء لم يقسمه الحق تبارك وتعالى لي؟ أو أتكدّر ممن صدّ ذلك عني بالوهم، وهذا خلق غريب في هذا الزمان، وغالب الناس يحزن ويتكدر ممن سعى في قطع رزقه أو خروج وظيفته عنه، وربما عادى من عارضه في رزقه الذي كان يتوهم أنه له أبداً ما عاش.

وقد رأيت خطيباً كان يخطب في الجامع الأزهر، فلما دخل السلطان سليم مصر وصلى في الجامع الأزهر قال الناس: لا يخطب اليوم إلا فلان لفصاحته ومعرفته بالوعظ المناسب للسلطان، ومنعوا صاحب النوبة تلك الجمعة لعجزه عن مثل ذلك. فلما خطب رسم له السلطان بخمسين ديناراً فقال: هذه لي ولم يعط صاحب النوبة منها شيئاً، فمشيت في الصلح بينهما فلم أقدر، ولم تزل العداوة بينهما إلى أن ماتا على العداوة، فقلت لصاحب النوبة: أين قولك في الخطبة؟ والله ثم والله ثم والله ما يعطي ويمنع ويضع ويرفع إلا الله تعالى، فما دري ما يقول، وبالجملة فلا يقع في مثل ذلك إلا جاهل محجوب عن الله تعالى، فإن كان ولا بد للمؤمن من أن يحزن؛ فليحزن على ساعة مرت به لم يذكر الله تعالى فيها، فإن ذلك محمود، ولو لم يمكن تداركه لما فيه من التعظيم لجناب الله تعالى والحزن على فوات مجالسته تعالى والوقوف بين يديه جل وعلا، كما هو شأن كل محب مع محبوبه، ومن لم

يحزن على فوات مجالسة محبوبه فليس له في مقام المحبة نصيب. واعلم يا أخي أن الحزن على ما فات من الطاعات إنّما هو محمود للعبد مادام محجوباً يختار خلاف ما يختاره له ربه جل وعلا، فإذا رفع عنه الحجاب لم يجد شيئاً قسم له ثم فاته أبداً، لأن ذلك لا يصح عقلاً ولا شرعاً. وكان الشبلي رضي الله تعالى عنه يقول وهو في بداية أمره: اللهم إن عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب. فلما كمل حاله صار يقول: الحمد لله الذي حجبني في الوقت الفلاني عن شهوده، فإنه تعالى ما حجبني عنه إلا رحمة بي، خوفاً أن لا أقوم بأدب الشهود. وتارة يقول: إني لا أشتهي رؤية الله عز وجل أبداً. فقيل له في ذلك، فقال: أنزه ذلك الجمال البديع عن رؤية محدث مثلي انتهى ولكل مقام رجال. فافهم يا أخي ذلك، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك. والحمد لله رب العالمين. اهـ.

وقال أيضاً في صحيفة ١٨٨ من الكتاب المذكور ما نصه: ومما منّ الله تبارك وتعالى به علي عدم قطع بري وحسنتي للناس إذا كفروا وساطتي في ذلك، فإني عبد ليس لي فضل على أحد، وإنّما أنا مستعمل فيما أمرني الحق تبارك وتعالى به، وليس لي معه ملك أرى به فضلاً على أحد من عبيده مطلقاً، وبتقدير رؤيتي الفضل على العباد، فكلما كفروا وساطتي توفر لي الأجر بخلاف ما إذا مدحوني، فربما كان ذلك المدح يرجع على ذلك العطاء فلا يبقى لي حسنة. وقد كان سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: أعظم الناس أجراً من يحسن إلى من لا يشكره أو إلى من يؤذيه من الأعداء. انتهى.

وسمعته أيضاً رضي الله تعالى عنه يقول: من أراد النصرة على أعدائه فليحسن إليهم، وليتأمل في نفسه الذي يعاقب ولده وتلميذه مثلاً بقطع الإحسان إليه يجد الحق تبارك وتعالى يرزقه ليلاً ونهاراً مع كونه مخالفاً له. فينبغي للعبد أن يعامل عبيد سيده بالحلم والعفو والصفح وعدم المعاجلة بالعقوبة كما يعامله سيده. ثم لا يخفى أن الإثم الواقع لمن يعاقب ولده مثلاً بقطع رزقه إنّما هو من حيث قصده هو، وإلا فالعبد لا يقدر أن يرد ما قسمه الله تبارك وتعالى لغيره أبداً. انتهى. فافهم يا أخي ذلك واعمل على التخلق به ترشد، والله تبارك وتعالى يتولى هداك. والحمد لله رب العالمين. اهـ.

وقال أيضاً في صحيفة ١٨٩ من الكتاب المذكور ما نصه: ومما منّ الله تبارك وتعالى عليّ حضور قلبي مع الله تبارك وتعالى حال أكلي وشربي وشهودي. إن ذلك من فضل الله تعالى عليّ لا أستحق ذرة منه، بل لا أقوم بواجب حقه تبارك وتعالى عليّ لو سففت الرماد، ثم إذا وقع لي أنني أكلت غافلاً عن ذلك المشهد أو شربت استغفرت الله تبارك وتعالى حتى يغلب على ظني أن الله تبارك وتعالى قبل استغفاري فضلاً منه، وإنّما لم أقل أستغفر الله مرة فقط، لأن مثلنا ربما لا يقع له حضور في استغفاره إلا بعد سبعين مرة وأكثر. وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله تعالى عنه يقول: ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالأصالة ليمكر بنا، وإنّما أسبغها علينا ليجمع قلوبنا عليه، ولا نخرج من حضرته تبارك وتعالى إلا لعذر شرعي، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول: من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التي تحجبه عني بما سخرته له من الرزق على يد عبادي من حيث لا يحتسب ولا تتشرف نفسه إليه، فلأي شيء يخرج من حضرتي.

وسمعته رضي الله تعالى عنه أيضاً يقول : تيسير استعمال الطعام نعمة كالصلاة ، فكما أن الصلاة ما شرعت إلا لحضور العبد فيها بقلبه مع ربه تبارك وتعالى ؛ فكذلك الحكم في مشروعية الأكل والشرب ما شرعا إلا ليحضر العبد فيهما مع من أحسن بهما إليه . انتهى . واعلم يا أخي أنه ما واظب أحد على الحضور مع الله تبارك وتعالى حال أكله وشربه إلا أورثه الله تبارك وتعالى القناعة والزهد في الدنيا وكفاه شر نفسه . انتهى من كتاب « لطائف المنن الكبرى » .

فلما سمعت ذلك قالت : أي فرق بين هذا القول وما قبله إلا في العبارة على مقتضى الأحوال واختلاف الأمم ، فكل ذلك الإذعان لله والحب للناس . ثم قالت : بقي أن تذكر ما تعلمه من كلام علماء أوروبا في هذا المقام . فقلت : قال الأستاذ « بارتلمي سانتهلير » المذكور في كتاب « علم الأخلاق » ما نصه : حينما يريد الإنسان أن يختبر نفسه ويدخل أعماقها ، فهناك المشهد الكبير الوحيد الذي يكتشفه فيها عند الفكرة في بعض الأفعال التي فعلها ، بل التي ينوي فعلها ، يسمع في أعماق عقله صوتاً يمدحه تارة ويلومه تارة أخرى ، ويقطع النظر عن أمثاله الذين يمكن أن يجد لديهم أحياناً صدى هذا الصوت الداخلي ؛ فإن من المستحيل عليه أن لا يلقي إليه سمعه . ونظراً إلى أنه يحمل في نفسه هذا الصوت فلا يستطيع أن ينكره ولا أن يلزمه الصمت . متى ائتمر بأمره يشعر بأنه عمل صالحاً . ومتى عقه يشعر بأنه عمل سيئاً . وإنما في هذا الترديد بين الطاعة وبين العصيان تنحصر كل حياته الأخلاقية فاضلة في حال ورذلة في الحال الأخرى ، ولأن يسلم المرء نفسه وبلا رجعى إلى خدمة هذه الأوامر الداخلية ويخلص لتنفيذها بجميع امتداداتها من غير أدنى اعتبار للأشياء الخارجية ، وأن يكون دائماً مستعداً لأن يضحي لها بكل الضحايا التي تقتضيها ، ذلك هو القانون الأعلى الذي يشعر الإنسان بالخضوع له ، ولو أنه لا يعرف إلا نادراً أن ينفذ مع التحرج أحكامه الصارمة . ذلك هو المثل الأعلى الذي لا ينال ، والذي تتطلع إليه أنظار نفس الإنسان ، وإن كان يحيد عنه في الغالب ؛ إلا أن مرجعه إليه على الدوام . ذلك هو الأمر الواقع المسلم به الذي هو بسيط وجليل معاً والذي يكوّن الأخلاقية كلها . هل الإنسان وحده هو الذي يعرف هذا القانون ويملكه ؟ كل ما يهم من هذا هو أن الإنسان يملكه حقاً ، وذلك هو ما يميزه عن سائر الخليقة التي يعيش فيها والتي لا تتمتع بهذه الميزة .

إلى هذا الأمر يضاف أمر آخر ليس أقل منه وضوحاً ولا أقل منه عجباً . إن الإنسان حيال هذا القانون الذي يناجي ضميره مناجاة علو وقدرة في بعض الأحيان يشعر دائماً أنه يستطيع مقاومته ، فعبثاً يوصيه هذا القانون أن يلزم العدل في فعله ، وعبثاً يزكي العقل هذه الوصية . فالإنسان قادر على أن يرفض تحت مسؤوليته هذه النصائح القوية الحقة . ذلك لأن له بجانب ذكائه وعقله ملكة أخرى أقوى منهما بوجه ما ، لأنها تستطيع دائماً متى شاءت أن تكسر نير طاعتها للعقل . تلك هي الإرادة التي لا تخضع لشيء إلا لنفسها . فوجود مثل هذه الملكة فينا وحلولها محلًا من الاستقلال والسيادة في الدائرة الثانوية التي تخصها هو ما تستطيع اللاأدرية التحدي بها حينما تتهجم على الحق وعلى الذوق العام غير أن ما نقوله هذا مجمع عليه من الجنس البشري بل معترف به من جانب اللاأدرية نفسها إن لم يكن بأقوالها التي كان للسفسطة فيها شأن عظيم ، فبأفعالها التي منها ينبجس على رغمها وضوح

المبدأ الذي تنكره الإرادة في الإنسان. هذه هي القدرة التي يستعملها للتصميم على وجه أو على آخر من غير أن يقدّر شيء في الدنيا على إكراهها ما دامت لا تقبل هي نفسها ذلك الإكراه، وبين أن هذه القدرة هي كل الإنسان وهي التي تقوّم ماهيتنا، إن هذا الصوت الذي يناجي ضميرنا هو فينا ولكنه ليس إيانا ما دام أنه قانون يلزمنا، نحن لم نضعه ما دمنا غير قادرين على تغييره على رغم وحي المنافع وعمايات الشهوات، إما الإرادة فعلى ضد ذلك هي نحن نحن وهي شخصنا، هي نحن وحدنا بعظمنا وضعفنا وبقدرتنا المزدوجة على الطاعة والعصيان.

ذلك هو ما يسمى بالحرية، تلك الهبة المعجزة المخيفة التي هي قوة الإنسان والتي يترتب على قدر ما يحسن أو يسيء في استعمالها سعادته أو شقاؤه، علوه أو سقوطه، ذلك هو ما يسمى بلغة «كنت»: حياد الإرادة، لا من جهة أن إرادة الإنسان كما كان يعتقد «كنت» تضع لنفسها قوانينها، بل من جهة أن الإرادة يمكنها دائماً أن تطيع أو تعصي القوانين التي يمليها عليها العقل والضمير، فمعنى حياد الأفراد هو أنها تستطيع أن تقرر ما يعجبها حتى ضد كل عقل وكل منفعة.

يتضح بهذا أن القانون الذي هو في ضمير الإنسان يناجي عقله هو المبدأ الأسمى وفوق الإنساني. والإرادة الحرة التي تنفذ هذا القانون أو تخالفه هذه هي المبدأ الإنساني والتابع، وهما اثناهما مصدر علم الأخلاق ومفتاحه. فالإنسان يحمل في نفسه قانوناً ومحكمة بوجه ما تحكم ببراءته أو بإدانته بحسب الأحوال، ولها من القوة التنفيذية إما الرضا الجميل بأنه عمل خيراً، وإما الندم ووخز الضمير على كونه عمل شراً. و الإنسان يحس نفسه رعية لقوة هي أعلى منه، منعمة لطيفة إذا أطاعها منتقمة جبارة إذا عصاها. ومتى اقتضى العدل عجلت له العقاب الخارجي بما تسومه من سوء العذاب الداخلي الذي يعرف الأثيم سره الأليم حتى لو تملص من انتقام الهيئة الاجتماعية.

هذان الأمران: القانون الأخلاقي والحرية، هما فوق كل مناقشة ممكنة، ومن ينكرهما ينزل بذلك عن اسم الإنسان وينحط بنفسه ـ علم أو جهل ـ إلى ما تحت منزلة البهيمة، وإن كان أذكى منها بلا شك، إلا أنه فاسد الأخلاق، والبهيمة ليست كذلك.

ليست النتائج هاهنا بأقل وضوحاً من المبادئ ولا بأقل عجباً، فإن الإنسان متى قبل بإرادته نير القانون فذلك يرفعه ويشرفه، وبعيد أن يكون سبباً في خفضه. إنه بطاعته الاختيارية يشرك بمحض إرادته شيئاً أكبر منه ويحس أنه مرتبط بنظام أعلى منه يشد أزره. وقلما يخسر بهذه الطاعة شيئاً بل يكسب بها من العظمة والوقار ما لم يكن له من قبل بدونها. إن العالم الأخلاقي الذي يدخل فيه على بينة من تحديد حريته هو العالم الحقيقي الذي يجب أن تعيش فيه روحه، في حين أن جسمه يعيش في عالم مخالف تماماً، حيث توشك الحرية أن لا يكون لها عمل. إنّما هو فلك من الطهر والسلام حيث لا أرجاس ولا زعازع إلا ما يسمح لها الإنسان بالدخول فيه. فالسكينة والنور فيه لا تتعلق إلا بالإنسان وحده، ومتى شاء استطاع أن يبسط في هذه السماء الداخلية صحواً لا يكدر. وبمقدار ما يوغل عقله في الطاعة يكتسب من القوة، وتصير الأرض التي يرتكز عليها كذلك أكثر ثباتاً وخصباً. إن اعتقادات الضمير تزداد ثباتاً بالمران، وإن بهذه المعارضة بين الطاعة الاختيارية من جهة والقوة المكتسبة من جهة

أخرى تكبر قيمة الإنسان في عينه إلى حد لم يكن يعرفه من قبل كبراً لا يأباه عليه تواضعه، لأنه ينسب أصله إلى قوة أسمى منه. من ذلك يستمد ذلك الإحساس الشريف العجيب الذي يسمى احترام الذات، وهو الكفيل للمرء بأن يؤدي له أمثاله الاحترام الواجب عليهم، والذي يؤديه هو لهم في دوره، ولو عودل بين هذه الخيرات الداخلية التي هي فوق كل ثمن هذه الفيوض القدسية ـ كما كان يقول أفلاطون ـ وبين الخيرات الخارجية لقلت قيمة هذه بالنسبة لتلك، ومع ذلك فإن هذه الخيرات الداخلية يضحى بها من غير تردد بل من غير ألم في سبيل خيرات لا قيمة لها، على أن الثروة والصحة والمحبة والحياة نفسها لا بقاء لها، فليضحَّ بها عند الحاجة قرباناً للاحتفاظ بما هو أسمى منها، إذ لا يستطاع إيثارها على الأمر الوحيد الذي يجعل لها شيئاً من القيمة.

وقال في صحيفة ١٧ وما بعدها ما نصه: لا يمكن القوانين الإنسانية أن تكون أساساً لقانون الأخلاق لأنها تستمد منه، وهو الذي يقضي عليها ويدينها حينما تنحرف عن جادة أوامره الواجبة الاتباع، كذلك التربية التي يتحدى بها بعض الفلاسفة لا تفسر قانون الأخلاق الذي هو أكبر سلطاناً عليها من القوانين العمومية، والواقع أن التربية مهما كانت ممتازة فليس لها من صورة إلا التشريع المسنون للطفل بدلاً من أن يكون مسنوناً للناس، وهذا التشريع الضيق ليس له قواعد إلا التشاريع المدنية، فمن أي ناحية نظر إلى علم الأخلاق لم يوجد له من حيث أصله أثر بشري، وإنه ليدبر شؤون الإنسان ويلي أمره بسبب أنه ليس من عمله، ومتى أراد الإنسان أن يدرس فيه سبل الله عرف منه بوضوح وجلاء أن الله قدير وأن الله لطيف.

في العالم المادي بأسره مهما كان جميلاً ومهما كان منتظماً لا يجد المشاهد اليقظ شيئاً يؤتينا أقل فكرة من قانون الأخلاق، وإن الآثار التي نصادفها أحياناً عند الحيوانات الأرقى تركيباً ونظنها آثاراً لقانون الأخلاق ليست إلا تخيلات، فإننا نعيرها ما نحن عليه، نفترض أن لها طبعنا إما الجهل منا قد يكون إثماً متى كان يرمي إلى الخفض من مستوانا الإنساني، وإما لنوع من العطف التافه، ولكن الحق أن قانون الأخلاق ليس له محل إلا قلب الإنسان، وأن الذي خلق العوالم والقوانين الأزلية التي تسيرها لم يخلق شيئاً يضارع ضميرنا في العظم، فإن الحرية مع ما بها من ضعف هي أحسن من الطبيعة كلها مع ما بها من ثبات لا يتزعزع، بل إن المقارنة لا محل لها من الإمكان لدى عقل قد فهم ذاته، لأنها مقارنة سخيفة، إذ أن رفعة العالم المعنوي لا تقاس بها رفعة على الإطلاق، وأن قدرة الله تظهر حينئذ فينا بمظهر أجلى من مظاهرها في الخارج، وأن في إقامة الدليل على وجود الله بهذا القانون الذي نحمله في قلوبنا وتعترف به عقولنا بالاستدلال إلى أجلّ البراهين وأرفعها، غير أن حلم الله يساوي على الأقل قدرته، تنظر في هذه القوانين عير الكاملة التي يسنها الناس مسوقين بدافع الحاجة لاستعمالها، فترى دائماً في أوامرها وزواجرها شيئاً من الغلظة والوحشية، حتى متى كانت غاية في العدل فإن العقوبة التي تقع على المجرم يمكن أن تعدمه، ولكنها لا تمس نفسه، تخيفه من غير أن تصلحه، الإرهاب يحوله دون أن يحسن حاله، أما هنا فلا شيء من ذلك، في شرع الله المرء هو قاضي نفسه مؤقتاً على الأقل، ومن أجل أنه يمكن أن يحكم على نفسه يمكنه أيضاً أن يتقي الوقوع في الخطيئة

التي يشعر بأنها كبيرة من الكبائر، فإن الصوت الذي يناجيه من داخل نفسه قد أنذره بادئ الأمر أنه يمحض له النصح قبل أن يقرّعه باللوم وإنّما هو يعاقبه حينما يصمّ أذنيه، ولو أن قانون الأخلاق سلك في التأديب سبلاً غير معنوية محضة لكان في ذلك من التناقض ما فيه، فكم من هذا التأديب من مجاملة تراعى في حق الجاني ! وكم من مجهود ينفق في سبيل ردّه إلى الخير، ولا يشعر بهذا المجهود إلا هو، ولا يذاع خبره في الخارج . تحفظ ورصانة أيما رصانة، ولا شك في أن الإنسان يجاوز غير مرة حدود الاعتداد بهذه الرحمة، غير أن الشكوى منها إنّما هي الجمع بين كفران النعمة وبين سوء الخلق . حسب الإنسان استهانة برحمة الله أنه لا ينتفع بها، فإن كل قلب مهما قسا يعجب بها ويشكر الشارع الأسمى على لطفه في جانب عظيم قدرته .

إليك نتيجة أخرى لهذا النظام القدسي ليست أقل من الأولى صدقاً ولا أخف منها وزناً . وهي أن الإنسان متى أحس من نفسه الاختيار في طاعة قانون العقل أو في عصيانه أحس بذلك أنه مسؤول عن أعماله أمام القدير الصانع لهذا القانون ولهذا الاختيار، فليس عليه البتة أن يخافه الخوف الذي لا يليق إلا بالعبد، لأن طبيعة طاعته قد تجعله يعامل أباً رحيماً لا سيداً، لكنه يجب أن يتقي غضبه بتعدي حدود القانون الذي يعترف هو نفسه به أنه غاية في العدل، ولئن كان الإنسان يغضب في قلبه من الخطيئة التي وقع فيها، فمن باب أولى يجب أن يعتقد أن الشارع يغضب على من يرتكب الخطيئة وهو في مكنة من اجتنابها، وأن الإنسان الذي له بقانون الأخلاق في هذه الدنيا حظ ممتاز يجب عليه أن يؤدي الحساب عما يكون قد أنفق فيه هذا الحظ، ليس عليه حساب لأمثاله، لأن غاية ما يعرفون هي أعماله التي يعاقبونه عليها أحياناً، ولأنهم رعية مثله فما هم وهو إلا على حد سواء، لا يستطيعون أن يكونوا قضاته الحقيقيين، لأنه يعزب عن علمهم ما تجيش به الصدور من نيات جميع الأفعال ومقاصدها، على أن النيات والمقاصد وعلى جملة من القول كل ما يخفى بحكم الضرورة على العدل الإنساني هو مورد الحكم، فإما أن ننكر قانون الأخلاق وحرية الإنسان ومسؤوليته، وإما أن نقبل كنتيجة لازمة حياة أخرى تتلو هذه الحياة الدنيا، فيها يقيم الله الوزن بالقسط ويرتب الجزاء الذي أعده للذين عملوا الصالحات وللذين كسبوا السيئات ثواباً وعقاباً تفرّد وحده بعلمها . غير أن علم الأخلاق لا يتعدى حدوده إذا هو قرر أن هذا العدل النهائي لا محالة واجب . وأن حياة الإنسان الدنيا لا يمكن أن تفهم بدون الحياة الأخرى التي يجب أن تتلوها .

إلى أن قال : فعلم الأخلاق بمجاوزته هذه الحياة الأرضية يتجه من الإنسان إلى الله، ويثبت وجود الحياة الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب كما يؤكد نظام هذه الحياة الدنيا . ليست هذه فروضاً محضة لا سند لها، ولا هي من مسلمات العقل العملي كما قد يقول الأستاذ « كنت » بلهجته الشاذة، بل هي نتائج صادقة لازمة عن مقدمات صادقة لا جدال فيها . وفوق ذلك فإن هذه النظريات في غاية الوفاق مع الاعتقادات الغريزية للجنس البشري تؤيدها الديانات المبينة وتوضحها الفلسفة .

وقال في صحيفة ٢٢ من المقدمة ما نصه : فحمل الجسم على الاعتدال ورياضته إلى حد ما وإيتاؤه حقه من حاجاته وحبسه عن كل ما يتعداها، وعلى جملة من القول جعل الجسم آلة ممتثلة

وخادماً مطيعاً، تلك هي إحدى القواعد الأصلية للحياة الأخلاقية، وبالنتيجة أحد الأجزاء الكبرى للعلم. إن اجتماع الروح والجسم أعني العقل والمادة هو مسألة خفية ليس لعلم الأخلاق أن يثير ثائرها لاختصاصها بعلم ما وراء الطبيعة. غير أن من واجبه أن يبحث عن ظروف هذا الاجتماع ويفسرها على نور القانون، إنّما هو عمل يدرسه كأعمال الضمير وليس بأقل أهمية منها، فإغفاله نقص عظيم، وحذفه من علم الأخلاق قد يعرض إلى عدم فهم الحياة الأخلاقية حق فهمها، مع أن هذه الحياة الأخلاقية ليست في الحقيقة إلا ضرباً من المبارزة بين هذين الأصلين المتقابلين.

وقال في صحيفة ٢٤ وما بعدها من المقدمة أيضاً ما نصه: إن النقطة الأساسية لهذا العلم هي أنه يبين للإنسان أن قانونه هو عمل الخير دائماً مهما وقف في طريقه من العقبات التي يسببها تعقد الأشياء الإنسانية، وأن عمل الخير هو طاعة لا محدودة ولا مقرونة بالتذمر مع استسلام، بل مع ثبات وبسالة إذا اقتضى الحال ذلك، طاعة لأوامر العقل المنشورة في الضمير، والتي قبلتها إرادة لها من سلاسة القياد ما لها من حدة الذكاء، الأوامر التي يمكن أن تتمثل أمام الشخص بأنها أوامر الله. ذلك هو مركز الحياة كما هو مركز العلم. ولكنه مع ذلك أيضاً ميدان التقاتل في النظريات وفي العمليات. فإن الفرد يأتي الشر على العموم إما عن عدم التفات وإما عن جهل، ولا يكاد يقارف الأمم أبداً بعد تدبر وروية عالماً بأنه يرتكبه وإن كان من الطبائع ما هو من الشقاوة بحيث إن أجمل مواهبها لا تخدم إلا الرذيلة. غير أنه في العلم لا عذر بالجهل ولا بعدم الالتفات. وإذا كان التسامح في مجريات الحياة يلزم كثيراً حتى بالنسبة للجناة؛ فإنه لا يلزم أبداً بالنسبة للنظريات الفاسدة، بل يجب دحضها بلا شفقة وإيضاح خطئها ليقل خطرها، وتجب مداعاتها أمام محكمة الضمير النزيه وإدانتها نهائياً بلا استئناف، وليس بجانب نظرية الخير الذي هو الواجب الوحيد على الإنسان، إلا حل آخر ممكن وهو نظرية المنفعة مع ما يقترن بها من التيه والحنايا التي تتشعب فيها شخصيتها وتضل طريقها، فإن المنفعة تظهر على صور عديدة، تظهر أولاً على صورة من الخشونة بمكان، وتلك الصورة هي الثروة مع كل الخيرات الثانوية التي تؤلفها ثم على صورة مصقولة نوعاً، وهي صورة اللذة مع جواذبها التي لا تقاوم، ثم على صورة أقل تعيناً وأكثر قبولاً تبدو في رواء حسن خدّاع وهي السعادة. إنه يجب على القانون الأخلاقي وبالنتيجة أيضاً على علم الأخلاق؛ أن ينكر المنفعة ويحاربها على أي شكل كانت عليه من الثروة أو من اللذة أو من السعادة نفسها، وأن لا يقبل أي واحد من هذه العوامل على أنه عامل لسلوك الإنسان لا شك في أن هذه العوامل هي المتسلطة فعلاً في الغالب، بل قد يكون من الحسن أن تتسلط إلى حد معين، ولكن ليس لواحد منها أن يدعي السلطة ولا أن يغتصب لنفسه السيادة دون مبدأ الخير صاحب السيادة وحده. إن قانون الأخلاق الذي تتمثله القلوب الجاهلة أو الضعيفة بألوان قاسية، هكذا لكي تسهل مخالفته لا يحرم الإنسان من الثروة التي هي ثمرة عادية يستحقها لعمله، ولا من اللذة وهي حاجة طبيعية له، ولا من السعادة التي هي رائد جميع مجهوداته، ولكنه يهديه إلى أنه يجب عليه في بعض الحالات على ندرتها أن يضحي للخير بالثروة وباللذائذ وبالسعادة، بل بالحياة ذاتها. وأنه إذا لم يعرف أن يقرب هذا القربان فإنّما هو يعبد الأصنام لا يعبد الله الحق، وأن هذه التضحيات على ندرتها

عند الذي يفهمها تكفي لكشف القناع عن قانون الأخلاق في أسنى بهائه. وبما أن الخير هو الذي ينال الظفر عند أكبر المنازعات وأشدها علانية يكون بذلك هو السيد الحقيقي للإنسان. ولا تكون جميع العوامل الأخرى المتولدة عن المنفعة على درجات مختلفة كالثروة واللذة والسعادة إلا كما يكون الطاغية والظالم لرعيته. انتهى ما أردته من مقدمة المترجم لكتاب «علم الأخلاق» وهو الأستاذ بارتلمي سانتهلير، والحمد لله رب العالمين.

فلما ألقيت عليها ذلك قالت: فهذه أنوارنا ألقيت إليكم، وأنا أهنيك بها إذ تطلع المسلمين على خلاصات علم الأخلاق فتشرح صدوركم، وبها تعلمون أن حكماء أمم الشرق والغرب مجمعون على فحوى هذه الآيات القرآنية. فعلماء اليونان والفرنسيين وحكماء الصين جميعاً أيقنوا بأن لهم داعياً في نفوسهم يحاسبهم إذا قصروا ويبشرهم إذا أطاعوا، وبهذا يعرف الناس عظمة القرآن، وهذا الزمان مبدأ ظهوره لحكماء الأمم شرقاً وغرباً، فهذه هي آثاري، أنا البصيرة والقرآن بصائر للناس. فهذه المقالات التي قرأتها علي من هؤلاء الحكماء هي آرائي، وهذا الجمال الذي شاهدته فِيّ وراءه ما هو أجمل منه، وهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولن يرى الله إلا نفوس حازت صفتين: علماً كاملاً بهذا الوجود. وإخلاصاً وخدمة لنوع الإنسان مع أخلاق كاملة. الجمال يحيط بالناس في المادة وفي النفوس. وما أسعد من اعتاد النظافة والاتساق والنظام ودرس فنون الجمال في الكواكب والبحار والأنهار و الزروع والأشجار. فهذه المناظر كلما ازدادت عنده تمكناً ازدادت نفسه شغفاً بالجمال الحقيقي. وهنالك يشتاق للذات الروحية وهي أبهى وأبهر وأجمل وأكمل وهذه الطائفة أقرب الناس إلى طبيعتي، فإذا أسديت لهم النصائح استمعوا لها بلا توان. لقد شاهدت في قلبك أنت ثلاث صفحات مكتوبات: صحيفة الكواكب في سمائها، وصحيفة الزروع والأنهار والأشجار والعوالم الأرضية، وصحيفة آراء العلماء والحكماء قديماً وحديثاً، فاقرأ علي من صحيفة الحكماء ما منه يكون القبس، ثم تبسمت، وهذه الابتسامة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[طه: ٩-١٠] ـ وقد كنت في الليلة السابقة أرددها في الصلاة ولها صلة بآراء الفلاسفة سأوضحها ـ فأسمعني من اللوحة الثالثة من قلبك آراء حكماء بعد من ذكروا الآن، ومتى أتبعته بالقبس يتضح المقام أتمّ إيضاح. فقلت:

آراء الحكماء بعد أرسطاطاليس

أولاً: آراء أتباعه مثل «فاوفرسطس» المتوفى سنة ٢٧٨، «واسترافون» المولود سنة ٢٨٨ المجهولة وفاته وغيرهم ممن كانوا خلف أرسطو في رئاسة دار التعليم بأثينا، فهؤلاء عدلوا عن الإلهيات ذلك لأن أرسطو اعترض على أفلاطون أستاذه وقال له: إن المثل التي استدللت عليها بأدلتك العقلية وقلت إنها معان معقولة تكون أصلاً لكل موجود في الخارج؛ غير واضحة ولا ظاهرة هي خفية، وخير لنا أن نبدلها بما هو خير منها من المادة والصورة وأنهما أصل العلم، لأن الصورة في المادة أقرب إلى الفهم من تلك المثل والمعاني التي لا نعرفها. فردّ هؤلاء العلماء التابعون لأرسطاطاليس قوله وقالوا:

إن الصورة متغيرة لا ثبات لها في المادة، فكيف نسند العلم إلى ما هو متغير؟ وأدلة كثيرة من هذا القبيل أوجبت رجوعهم عن الإلهيات.

ثانياً: هنالك ظهرت فرقتان: فرقة «أبيقورس» وهؤلاء قالوا باللذة. أي أن الإنسان يقرأ الفلسفة لأجل اللذة المستفادة من فهمها، وهو مولود سنة ٣٤١ ق.م ومات سنة ٢٧٠ ق.م. وفرقة الرواقيين ورئيسهم زينون توفي سنة ٢٦٤ ق.م، وكريزيبوس المتوفى سنة ٢٠٩ ق.م، ومذهبهم أنه ليس هناك إلا جوهر واحد هو المادة والله يلقي عليها شعاع نوره، والإلهيات والطبيعيات عندهم علم واحد. فهناك عقل يضبط المادة ألطف جداً له قوة تحرك العالم. فالعالم كحيوان وهو كروحه، والإنسان عالم صغير في مقابل العالم الكبير. والإنسان له من ذلك النور الإلهي أكثر من غيره. والأخلاق عندهم عليها مدار الفلسفة. وإذا كان نور الله مشرقاً على الإنسان أكثر من غيره وجب عليه أن يتلقى ذلك بالترحاب. وهل يكون ذلك إلا بالأخلاق الشريفة. وما الفلسفة إلا بستان. المنطق سياجه، وعلوم الطبيعة أشجاره، ومحاسن الأخلاق ثمرته. فلا علم إلا بعمل، ولا حكيم إلا من بلغ من العلم والعمل الدرجة العليا. ولا قصد للحياة إلا التخلق بأخلاق الله. ولكنهم جعلوا الإنسان مجبوراً لا مختاراً فصار مذهبهم فيه بعض الانقباض. وأيضاً رجعوا إلى غيبوبة النفوس وأهملوا الأعمال الظاهرة نوعاً ما، وأخذوا يبحثون في معرفة ما وراء الحس والكشف. وتبعهم في ذلك بعض الأمم الإسلامية وهم كثير من فرق المتصوفة. ولم يحدث بعد هاتين الطائفتين ارتقاء في العلم هناك.

ثالثاً: ثم جاء في أواخر القرن الثاني للمسيح أمثال «نيقوماخس الجهرسيني» الذي عاش إلى سنة ١٤٠ بعد المسيح القائل بأن الأعداد هي أصول الموجودات، وهو صاحب كتاب الارتماطيقي، ومن فلاسفة هذا العصر جالينوس الطبيب. ولقد ظهر بالإسكندرية إذ ذاك «امونيوس سكاس» ومعنى سكاس: الحمال، لأنه كان في أول نشأته يحترف بتلك الحرفة، وكان نصراني الأصل ثم انتقل إلى ملة اليونان العتيقة وهي الوثنية، وتعاطى الفلسفة واشتهر بها. وقد ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد وتوفي سنة ٢٤٢، وجاء بعده تلميذه أفلوطين المتوفى سنة ٢٦٩ ب.م، وبعد أفلوطين تلميذه بروفيريوس ولد بصور الشام سنة ٢٣٢ب.م وتوفي سنة ٣٠٤ب.م، وهؤلاء ومن تبعهم يسمعون الفرع الإسكندري. وبعدهم يبليخوس ومن تبعه ويسمى الفرع الشامي إشارة إلى مولد يبليخوس إذ كان بإحدى بلاد الشام، وتوفي سنة ٣٣٢ ب.م. ثم سريانوس وبرفلس ومن تبعهم وهم يسمون الفرع الأثيني لكون دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت إلى أثينا. ولد بروفلس سنة ٤١١ م وتوفي سنة ٤٨٥ م. كل هذا من كلام «ستلانة التلياني» في كتابه «تاريخ الفلسفة» وإلى هنا انتهى دور اليونان ومن تبعهم.

فهذه أمم خلت ثم جاء الإسلام وكان عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبني أمية. ويحسن أن نذكر هنا نبذة من كتاب «مبادئ الفلسفة» المترجم من اللغة الإنجليزية بقلم الأستاذ أحمد أمين في الكلام على عصر العباسيين، فقد جاء فيه ما يأتي:

فلما جاءت الدولة العباسية ١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ، عظمت حضارة المسلمين، وهضموا ما أخذوه ـ بالفتح ـ عن الفرس والروم والهند، ونقلوا علوم الأمم التي سبقتهم في المدنية ولا سيما الهند

واليونان . وفي زمن أبي جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومن بعدهم ، ولا سيما المأمون توسع الناس وخاصة السريانيين في ترجمة علوم اليونان على اختلاف أنواعها : من طب وهندسة وهيئة وتقويم بلدان ، وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق إلى اللغة العربية ، فترجموا في القرن الثاني والثالث للهجرة كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس وجالينوس وغيرهم ، وبحثوا فيها وتداولوها يشرحونها مرة ويختصرونها أخرى ، وخصص كثير من المسلمين حياتهم لدراسة الفلسفة وتفهمها فكانوا بعد فلاسفة .

وكان أغلب مؤسسي الفلسفة عند العرب ومؤيديها أطباء وعلماء في الطبيعيات أكثر منهم رجال دين ، وعلى العكس من ذلك فلاسفة الغرب في القرون الوسطى فقد كان أكثرهم قساوسة . ولهذا لم يقصر المسلمون نظرهم على الإلهيات ، بل كان البحث في الطب القديم والعلوم الطبيعية عندهم يسير جنباً لجنب مع البحث في الإلهيات وما وراء الطبيعة ، وترجموا كلام جالينوس في الطب ، وإقليدس في الهندسة ، كما ترجموا كلام أرسطو في الإلهيات . غير أنه يظهر أن ما ابتكروه من عند أنفسهم قليل إذا قيس بما نقلوه من اليونان ، نعم إنهم في بعض فروع العلم كالكيمياء وعلم المعادن والطب وعلم وظائف الأعضاء كان لهم أثر ظاهر ، واستكشفوا من القوانين ما لم يصل إليها اليونان قبلهم ، ولكنهم في غير ذلك من فروع العلم كالمنطق والنفس والأخلاق كانوا نقلة أكثر منهم مبتكرين وكانوا في طريقتهم العلمية ونظامهم في البحث وأنظارهم إلى العالم وترتيب فلسفتهم وقواعدهم متأثرين تأثراً عظيماً بفلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة .

ولهم الفضل على الغرب بكل ما نقلوا أو ابتكروا ، فكثير من كتب اليونان وأبحاثهم ما كان يصل إليها الغربيون لولا حفظ العرب لها ودراستهم إياها . كما أن كثيراً من مبتكراتهم واختراعاتهم تعد بحقٍّ من أسس المدنية الغربية .

ابتدأ المسلمون لأول عهدهم بالفلسفة يدرسون الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وهي مذهب مزيج من الفلسفة والدين ، ظهر في أواخر القرن الثاني للميلاد ، وكان مقره الأصلي الإسكندرية ، حاول مؤسسوه التأليف بين الدين المسيحي والمذاهب الشرقية ومذاهب اليونان ولا سيما أفلاطون ، وأطلق عليه فلسفة أفلاطون الحديثة ، ومن أشهر دعاته « أفلوطين » ولد في مصر سنة ٢٠٤ م ، قيل إنه رحل إلى فارس ودرس الفلسفة الشرقية وعلم في رومة من سنة ٢٤٤ م ومات نحو سنة ٢٦٤ ، وكانت تعاليمه مزيجاً من الفلسفة العلمية والتصوف الديني ، والذي دعا المسلمين إلى اعتناقهم هذا الضرب من الفلسفة أنها كانت فاشية لعهدهم في الشام ، وأنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، ثم ارتقوا منها إلى النظر في فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ولكن كانت قد غلبت عليهم فلسفة أفلاطون الحديثة ، فلما أن نظروا بعد في فلسفة أفلاطون وأرسطو ؛ نظروا إليها بعيون متأثرة بالأفلاطونية الحديثة .

وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة يعقوب الكندي ، ويلقب بفيلسوف العرب ، لأنه عربي صميم تبحر في الفلسفة ، وقد كان تابعاً للأفلاطونية الحديثة وتعاليم أرسطو أكثر منه فيلسوفاً مستقلاً . وأكثر ما له من الفضل من ناحية الترجمة والنقل ، وقد ظهر له في عهد المأمون والمعتصم كتب كثيرة

بعضها ترجمة وبعضها تأليف، وصل إلينا من أسمائها نحو ٢٥٦ كتاباً عدها صاحب أخبار الحكماء، وفهرست ابن النديم، ومات نحو سنة ٢٦٠ هجرية.

وجاء بعده أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ، عاش تحت كنف سيف الدولة بن حمدان، وكان يعرف لغات كثيرة، وبرز في الموسيقى والرياضيات وعلم اللغة والفلسفة، درس فلسفة اليونان ومهر فيها، وقد كان كالكندي تابعاً للأفلاطونية الحديثة ـ وإن لم يعرف هو هذا الاسم ـ وتعاليم أرسطو، وكان معشوقه من فلاسفة اليونان أرسطو، حتى قيل: إنه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط الفارابي: إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة. وقد لقب بالمعلم الثاني ـ والمعلم الأول هو أرسطو ـ لحله معميات الفلسفة اليونانية، وكان الفارابي كسائر فلاسفة المسلمين يرون أن الإسلام من قرآن وسنة حق. وأن الفلسفة حق. والحق لا يتعدد. فوجب أن يكون الفلسفة والإسلام متفقين. غير أنه يؤخذ على فلاسفة الإسلام أنهم لم ينظروا إلى الفلسفة اليونانية ـ كما ينبغي أن ينظروا إليها ـ من أنها مجموعة أقوال ومذاهب قد يناقض بعضها بعضاً. وأن ما يذهب إليه أرسطو في مسألة قد يكون مناقضاً لما يذهب إليه أفلاطون فيها، بل نظروا إليها كأنها حقيقة واحدة ملتئمة، وقالوا: إن أفلاطون قد يختلف مع أرسطو في طريقة البحث أو التعبير عن المقصد، ولكن آراءهما في الفلسفة واحدة، وصلت إليهم تعاليم أفلاطون كما حكماء فورفريوس ـ وهو من أصحاب مذهب الأفلاطونية الحديثة ـ وتعاليم أرسطو كما حكاها متأخرو المشائين ودخل عليهم فيما نقل إليهم من فلسفة اليونان، ولا سيما فلسفة أرسطو، خلط وتشويش. يدل على ذلك أنه في زمن المعتصم ترجم أحد نصارى لبنان جزءاً من أنيدة أفلوطين إلى العربية وسماه «لاهوت أرسطو»، وتلقى المسلمون كل ذلك بالقبول، وعدوا أقوال الفلاسفة المختلفة شرحاً لحقيقة واحدة، فبذلوا جهداً عظيماً في التوفيق بين أقوال أفلاطون وأرسطو، وزاد عليهما المتدينون «القرآن»، وهذا ما فعل الفارابي، فقد كان مؤمناً بأقوال أرسطو وأفلاطون منزهاً للقرآن عن الخطأ، فمزج اللوح والقلم والكرسي والعرش والملائكة والسماوات السبع بتعاليم اليونانيين الوثنيين مع ما بين أجزائها من التناقض، ومحاولة ذلك تستدعي ذكاء نادراً وتصوفاً وكشفاً وغموضاً وسبحاً في الخيال.

وبحث الفارابي كذلك في السياسة في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة»، واختار من أشكال الحكومة الحكومة الملكية الدينية، ومزج في هذا الكتاب بين آراء أفلاطون في «الجمهورية» وبين أقوال الشيعة في الإمام المعصوم، إذ كان سيف الدولة بن حمدان مقرب الفارابي وحاميه شيعياً.

وممن لهم أثر كبير في الفلسفة الإسلامية جمعية شبه سرية تسمى «إخوان الصفا»، اجتمعت في البصرة نحو منتصف القرن الرابع للهجرة، ودعاهم إلى جعلها سرية كره عامة الناس وعامة المتدينين للفلسفة ومن اشتغل بها، ومحاولتهم إيقاع الأذى بالفلاسفة، وقد عد القفطي في أخبار الحكماء أسماء خمسة من أعضائها، وكان قصدهم نشر المعارف بين المتعلمين في جميع الأقطار الإسلامية وتغيير أفكارهم الدينية والعلمية. قالوا: إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، فألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة أنواع العلوم المعروفة لعهدهم في دائرة معارف تشمل على معارف العرب إذ ذاك باختصار.

قالوا في أول هذه الرسائل: إن الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الإسلام تكلموا في علم النفس، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها؛ ونقلها من لغة إلى لغة من لم يكن قد فهم معانيها؛ حرفها وغيرها حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها، ونحن قد أخذنا لب معانيها وأقصى أغراضهم فيها، وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ والاختصار في إحدى وخمسين رسالة. اهـ.

وكانت تعاليمهم فيها كذلك مزيجاً من أبحاث «الأفلاطونية الحديثة» والتصوف، وما قاله أرسطو في العلوم الطبيعية، وما قاله الفيثاغوريون في العدد «الرياضة»، وقد كان لها أثر كبير في العقول بانتشارها بين الناس، ولكن فيها من الخلط والتشويش ما ذكر قبل. وقد ظن بعض الباحثين أن هذه الجمعية باطنية «إسماعيلية» لما بين ما يجيء فيها أحياناً وبين تعاليم الباطنية من التطابق، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت ـ وكانت في يد الإسماعيلية ـ على كثير من نسخ الكتاب.

وكان لأبي علي بن سينا البخاري ٣٧٠ ـ ٤٢٨ شهرة فائقة في الفلسفة، وفلسفته تقرب من الفلسفة الأرسطاطاليسية الصرفة، وربما كانت أقرب فلسفات المسلمين إليها، وكتابه «القانون» كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين معاً، وله فضل كبير في نشر الفلسفة بين الناس بمؤلفاته العديدة ولا سيما الإلهيات والمنطق. هذا إلى كثير من أمثال هؤلاء الفلاسفة كالبيروني وابن مسكويه وابن الهيثم.

وقد كان انتشار الفلسفة بين المسلمين في القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة سبباً في حركة جديدة قام بها المتكلمون «علماء الكلام»، يريدون بها مقاومة تعاليم أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الحديثة المتعلقة بالإلهيات أو الرد عليها ودحضها، فنشأ من ذلك أبحاث كلامية كثيرة، فبحثوا بالعلة والمعلول والزمان والمكان والحركة والسكون والجوهر الفرد والدور والتسلسل ونحوها، ولم تكن ردودهم موجهة إلى الفلاسفة فحسب بل إلى كل من خالف سنتهم من معتزلة وزنادقة وفلاسفة ظاهرية وحنابلة، ومن أعلام هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري وإمام الحرمين والباقلاني، ولكن أحداً منهم لم يخص الفلسفة بالطعن ولا رد عليها من جميع جهاتها حتى جاء الغزالي ٤٠٥ ـ ٥٠٥ هـ، فدرس الفلسفة اليونانية درساً دقيقاً ـ كما حدث هو عن نفسه ـ ثم حمل عليها حملة شديدة من جميع جهاتها، وألف في ذلك كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة»، وكفر الفلاسفة لبعض تعاليمهم، وأظهر منافاة الفلسفة لتعاليم الدين، ودعا الناس إلى الرجوع إلى دينهم الصحيح الخالي من الفلسفة، ورغب في التصوف وأبان أنه الطريق الحق إلى الله، وكان بليغاً في قوله مخلصاً في حديثه سهل العبارة قوي الحجة، فأثر ذلك في المسلمين أثراً كبيراً، وكان من آثاره أن حول الناس عن الاشتغال بالفلسفة، ورجّعهم إلى الكتاب والسنة، وأعلى شأن التصوف والصوفية وحبب ذلك إلى الناس. وسار على طريقة الغزالي كثيرون من بعده.

هذا مجمل حال الفلسفة في الشرق، أما في الغرب أعني في الأندلس وشمالي إفريقية، فقد أظهرت الفلسفة « حيناً » أكثر من أزهارها في الشرق. وكان فلاسفة الأندلس والمغرب أكثر ابتكاراً من فلاسفة المشرق، وكان يندر بين مسلمي الأندلس الخلاف في العقائد والمذاهب كالذي كان عند المشارقة فكلهم إلا القليل مالكي سني، أخذوا الفلسفة عن أهل المشرق، فقد كان منهم رجل إليه رحلوا عن طريق القاهرة وأمعنوا في الرحلة إلى فارس وانتفعوا بعلومهم. وجاء الحكم الثاني ٣٥٠ ـ ٣٩٦ هـ، فبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار فجمعوا إليه كتباً جمة، فاشتغل الأندلسيون بالرياضة والعلوم الطبيعية والتنجيم والطب بعد أن نقلت إليهم كتب الفارابي ورسائل إخوان الصفا وطب ابن سينا. وقد تعاون المسلمون واليهود معاً على الاشتغال بالفلسفة في الأندلس. ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون، مع مقاومة العامة وأشياعهم مقاومة أشد من مقاومة المشارقة.

ومن أشهرهم: (١) ابن باجة وقد اتبع تعاليم الفارابي. (٢) وأبو بكر بن طفيل مات سنة ٥٣١ وصل إلينا من تآليفه رواية « حي بن يقظان »، وكان بطله « حي » يعيش في جزيرة لا يسكنها أحد من الناس، وليس له علاقة بأحد من أهل الجزائر الأخرى. بحث بعقله منطقياً متدرجاً من البسيط إلى المركب حتى وصل الاعتقاد بالله. وغرضه فيها أن يبين أن الشرع يتفق مع العقل. وقد ترجمت إلى اللاتينية وظهرت سنة ١٦٧١م وسنة ١٧٠٠، ولم يمض على ظهورها عشرون سنة حتى ظهرت رواية روبنصو كروسو. و(٣) ابن رشد وهو أشهر فلاسفة الأندلس على الإطلاق ٥٢٠ ـ ٥٩٥، كان يعد أرسطو أكبر الفلاسفة. وقد شرح تعاليمه حسبما وصلت إليه. ودافع عن الفلسفة وألف كتابه « تهافت التهافت » رداً على الغزالي في طعنه على الفلسفة، وأبان في كتب أخرى أن الفلسفة لا تناقض الدين. وألف في ذلك كتاباً صغيراً سماه « فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال »، وأكثر مؤلفاته لا توجد بالعربية وإنّما موجود ترجمتها. من ذلك شرح أقوال أرسطو مع الرد على الغزالي. رتبت وطبعت باللاتينية في البندقية سنة ١٥٦٠ م في أحد عشر مجلداً. وترجم له كتاب في الطب طبع كذلك في البندقية. وله كثير من المؤلفات مترجم إلى اللغة العبرانية. وكان لفلسفته شهرة في الكنائس والمدارس الأوروبية منذ القرن الثالث عشر الميلادي، السابع الهجري.

وبانتهاء القرن السادس الهجري تقريباً وقف المسلمون عن البحث الفلسفي والنظر في العلوم الكونية. ولم يكن العلم إلا نقلاً. فالمؤلف ينقل عمن قبله فحسب، حتى لا تكاد تجد في كتاب جملة ذات معنى جديد، والمعلم إنّما يعلم ما سمع من أساتذته، والاختلاف الذي يظهر بينهم هو اختلاف في الشكل لا في الجوهر، وليس ثمة مجال للبحث في أسباب ذلك.

ولم ينبغ منهم نابغ مبتكر ذو شخصية ظاهرة إلا ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ، فإنه بإجماع الشرقيين وكثير من الغربيين مخترع فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع، وأكبر الباحثين فيه في الشرق والغرب إلى القرن التاسع عشر الميلادي، فبحث في أحوال العمران، في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية، وكما قال هو في مقدمة كتابه: إن كثيراً قبله حوموا على الغرض ولم يصادفوه ولا تحققوا قصده ولا استوفوا مسائله.

وأمل ممن يأتي بعده أن يستمروا في البحث ويضعوا ما فاته من المسائل وقد تحققت أغراض ابن خلدون ولكن لم يكن الذي حققها هم المسلمين، بل أوجست كومت وسبنسر وأمثالهما. وكما كان ابن خلدون في هذا الموضوع هو السابق فلم يكن له بين المسلمين لاحق.

وأما من عداه فداروا في دائرة ضيقة، وكانت عنايتهم بالمسائل اللفظية تفوق العقلية، قصروا نظرهم على كتب للمتأخرين محدودة لا تبعث شوقاً إلى علم ولا تهيج إلى بحث، قد ألغزوا في معانيها وركزوا ألفاظها، فوجه المتعلمون أعظم جهدهم إلى حل معمياتها وتفسير أغراضها، وقليلاً من الجهد - إن كان - إلى نفس الموضوع. وكان العلم والفلسفة قد سارا شوطاً بعيداً في الغرب، والشرق جامد في مكانه، وبدأ الشرق يغالب النوم والنوم يغلبه، ويصارع الكسل والكسل يصرعه، حتى أزعجته الحوادث وأقلقت راحته ضوضاء احتكاك الشرق بالغرب، فانتبه متأخراً وأحس بتأخره ونقصان علمه وضرورة التعلم حتى يستطيع مشاركة غيره في شؤون الحياة، وما أحوجه اليوم إلى هداة يضيئون له السبيل. ويأخذون بيده في هذا المعترك اللجب. وينقلون إليه زبدة ما وصل إليه من الغرب فيمعن النظر فيها ويهضمها بعقله الشرقي. ويكوّن له مدنية وعلماً تتفق مع ذوقه وجوّه ودينه. ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور: ٤٦]. انتهى من الكتاب المذكور.

فلما سمعت ذلك قالت: لقد أجدت في اختيار النقل وحسن الاختيار، ولكن للكلام بقية لا بد من ذكرها. فقلت: وهل بعد ما أجملته قول في هذا المقام. فقالت: لا تنس أنك تفسر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[فصلت: ٣٠] الخ، وأن المواضيع هنا ثلاثة: معرفة الله، والعمل الصالح، والمكافأة عليه بالآخرة. وأنت تعلم أن معرفة الله لا بد منها أولاً بطريق علمي حتى يعرف العاقل أنه في هذه الحياة له مشرف يشرف عليه، لا أنه مطلق من كل قيد، ومجرد السماع من الكتب الدينية ليس يكفي العقلاء، فوجب عليهم البحث بأنفسهم، وما تقدم من تاريخ الفلاسفة إنّما هو تمهيد وتوطئة للمقصود، وهل المقصود إلا تبيان الحقائق واضحة، أزل الأشكال لجميع الناس ولكل الأمم، اذكر لهم أمثلة من أنفسهم، بيّن اختلاف المذاهب أولا في معرفة الله وفي الأخلاق، أوضحه إيضاحاً تاماً، لا تقصر في الإيضاح، بيّن آراء الملحدين و آراء الموحدين. وبيّن آراء من يقول: إن أصل كل شيء هو المادة، وإنه لا إله لهذا العالم». وبيّن آراء من يقول: إن العالم له إله، وأوضح مذاهبهم. ثم اذكر مذهب من يقول: إن الإنسان خلق لمصلحة نفسه وحده. ومن يقول: إن الإنسان خلق لمنفعة غيره وأن ذلك سعادته. وبعد هذا البيان أوضح برهانك أنت بحيث تظهر الحقيقة لكل عاقل في هذه الأرض، لأنك إذا لم تظهر هذه الحقيقة بالبرهان الذي يدركه كل امرئ متوسط العقل من نفسه يبقى الناس حيارى، فيقولون: من نتبع؟ أنتبع من يؤمن بالمادة وينفي وجود إله؟ أم نتبع من يؤمن بإله؟ وعقلي لا يفرق بين البراهين وأيهما هو الحقّ؟ أأعمل لنفسي فقط وأترك الناس؟ أم أعمل للناس وأضحي ببعض مصالحي؟ فإذا برهنت على الحقيقة في الأمرين: أمر معرفة الله. ومعرفة العمل الصالح؛ ظهر معنى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾[فصلت: ٣٠]، ومتى ظهر ذلك المعنى بوجه علمي صحيح أخرجت العقلاء في هذه الأرض من حيرتهم وأصبحوا موقنين

بالحقائق، وهناك يفهمون معنى: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[فصلت: ٣٠]، بسبب الإيمان والعمل الصالح، بل يصبحون فاهمين هذا التنزل ويحسون به من أنفسهم.

فكر في هذا الموضوع وأنا سأعينك، لأني أطلع على قلبك وأشاهد فيه اللوحتين تتقابلان: لوحة الكواكب وأنوارها وجمالها وهي اللوحة الأولى. ولوحة آراء العلماء، وقد ارتفعت الثانية من أحد طرفيها وتقابلت مع الأولى بهيئة نورية مشرقة، واتحاد المناظر السماوية المشرقة مع المعارف القلبية التي هي مزارعي في القلوب ينجم عنه اليقين، وهذا اليقين الذي تحس به الآن وأشاهده في قلبك بعد امتحانك لآراء أوروبا في القرون الحديثة سينتقل منه إلى قلوب شريفة في الشرق وفي الغرب، وبه يخرج الناس من التخبط والانحلال في الأخلاق الخالصة وفي السياسة العامة. واعلم أن قولك هذا سيكون له أنصار في كل مكان. فقلت: إني منشرح الصدر لما أمرتني به، ولكن المقام يطول. فقالت: ليكن القول مختصراً والمهم هو برهانك أنت عند الفصل بين علماء الأمم في العلم النظري والعملي بعد أن تبين للناس القبس الذي قبسته.

فقلت: سأذكر ذلك بغاية الاختصار، وليكن في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في آراء علماء أوروبا في الحكمة العلمية والحكمة العملية.

الفصل الثاني: في القبس الذي في آية: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾[طه: ٩] الخ، لشدة مناسبته لهذا المقام، وكيف فهمته أثناء الصلاة ليلاً.

الفصل الثالث: في تبيان الحقيقة في الحكمتين العلمية والعملية، وبهذا يظهر معنى قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾[فصلت: ٣٠] الخ.

الفصل الأول
في آراء علماء أوروبا في الحكمة العلمية والحكمة العملية
القائلون بالمادة. والقائلون بالروح. والقائلون بالمادة والروح معاً

إن الإنسان إذا خلا بنفسه وأخذ يفكر في هذه الدنيا لا يخرج تفكيره عن واحد من ثلاثة لا رابع لها. إما أن يقول: إن أصل العالم مادة. وإما أن يقول: إن أصله روح. وإما أن يقول: إن أصله الروح والمادة معاً.

(١) ذلك أن كلًّا منا ينظر فيرى له جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وعضلات وشحم ودم وأعضاء مختلفات، ثم ينظر حوله فيرى الأرض والحجر والشجر والماء فيقول: أنا لا أشك أن هذا هو الأول وهذا هو الآخر، وما هذه الحركات ولا العقول ولا الإحساس إلا نتائج هذه المادة، وهل الفكر إلا حركات في المادة كحركات النمو والذبول، وهل الموت والحياة إلا أحوال تعتري المادة، وبالتأمل في تاريخ الفلسفة نرى أن هذا الرأي دائماً يكون مبدأ التفكر عند الأمم سواء في ذلك اليونان والعرب والأوروبيون.

(٢) وتارة يقول القائل: كلا. ما هذه المادة؟ إن هي إلا عدم محض، وكيف لا تكون عدماً محضاً وقد عرف الناس اليوم أن العلم لا مادة فيه، وهل المادة إلا وهم وكذب صراح، من أين جاءت

هذه المادة؟ المادة لم توجد ولن توجد، نحن لا شيء عندنا سوى الأثير وهو ليس مادة، والأثير إن هو إلا عالم أشبه بخيالنا لا نحس به وإنّما أدركته عقولنا، وهذا الأثير بالحركات المتتابعات فيه المختلفات كثرة وقلة يكون ضوءاً وحرارة وشجراً وحجراً وشمساً. فالضوء يحتاج إلى حركات في الثانية من (٤٠٠) مليون مليون إلى (٧٠٠) مليون مليون، والجوامد تحتاج إلى نحو ستة آلاف مليون مليون حركة في الثانية. هذه هي المادة أولها وآخرها ما هي إلا حركات في شيء يشبه خيالنا. إذن العقل هو المسيطر على هذا العالم. فجسمي والأجسام حولي نتائج حركات ظهرت لحواسنا فسميناها بأسماء مختلفات ـ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾[النجم: ٢٣] ـ لا غير، وإلا فهي لا وجود لها ولا دوام.

(٣) وتارة يقول الإنسان: الحق أحق أن يتبع، إن هنا مادة وروحاً تدبرها، والعالم كله لم يخرج عن مادة وعن شيء آخر يحركها.

هذه هي الصور التي تجول بأفكار الأمم كلها قديماً وحديثاً. وإذا كانت العوالم لا تخرج عن هذه الثلاثة فلا جرم إن اختلفت العقول باختلاف أنظارها. ولأذكر هنا ما كتبته في كتابي « جوهر التقوى » في علم الأخلاق، وأنا أدرس هذا العلم لطلبة دار العلوم أولاً، وأتبعه برموز المصريين ورموز الرومانيين في هذا المعنى:

(١) فأما ما كتبته في ذلك الكتاب فهذا نصه:

تحليل الأخلاق والأمور النفسية

التربية الجسمية

لقد أفضنا فيما سلف في إثبات النفس، وأبنا كيف باينت الجسم، وأن جوهرها أشرف وأعلى وأجل وأغلى. فلنبين في هذا الفصل امتزاجها بالجسم وعلاقة أحدهما بالآخر وظهور آثار فعله فيه حتى عسر التمييز بينهما، ودق الفارق على الناظر الحاذق. فتشابها وتشاكل الأمر حتى ضربهما الشاعر مثلاً لتزاوج المعنى بالكلم في قوله:

وكم معنى بديع تحت لفظ   هناك مزاوج كل ازدواج
كراح في زجاج أو كروح   سرت في جسم معتدل المزاج

ولم يقف أمد تزاوجهما وتعسر التمييز بينهما على خيال الشعراء، بل تخطى إلى أفكار الحكماء فتفرقوا طرائق، ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣]، ففريق أهمل أمر الجسم وعكف على إصلاح النفس وقال: ما الإنسان إلا نفسه فهي القوامة عليه المدبرة له الحافظة لشكله الساعية لتنميته، تدبر أحشاءه وتغذي أعضاءه وتتولى شأنه، وإن هو إلا عناصر مؤلفة، وعما قليل يلحقها الردى، ويعروها البلى، ولقد يموت المرء بكلمة تؤذيه ويفرح ويبش بخبر يسره ويرضيه، فالجسم وجوده عدم. وآخرون نبذوا الروح وراءهم ظهرياً كأنهم لا يعيشون، واتبعوا في سيرهم أمر جسمهم، وقالوا: ما الإنسان إلا الجسم، وما الروح إلا عرض من أعراضه كسواده وبياضه، ولئن لحقه مرض أو ألمّ به ألم أو نقص أو تلف تعدى للنفس أثره، فهو حاملها وحافظها، بل جوهر هي عرضه.

وجاء قوم آخرون وهم المستبصرون وقالوا بالجوهرين وآمنوا بالزوجين، وجمعوا بين الدليلين ونظروا بالعينين فلم يغمطوا الروح حقها، ولم يسلبوا الأجسام حظها، بل راعوا الجانبين، وتربصوا الحسنيين، ونظموا إدارة الجسم كما أدركوا مملكة الروح، وإنا لذلك مختارون. لذلك نظمنا جوهر الجسم في سمط عقد الأخلاق لئلا نبخسه حقه، فلا يقولن امرؤ: إني إذا هذبت نفسي وجعلتها عنوان درسي كفاني ذلك في التهذيب. إلا أن له أثراً في نفوسنا وسلطاناً في عقولنا، ألا ترى أن المرضى أسوأ الناس أخلاقاً، وأن للأغذية والماء والأجواء الممدة لأجسامنا آثاراً تصل لنفوسنا، كالقبض والبسط والفرح والحزن، فإنها إذا كانت رديئة وصل للجسم انحراف على مقدار رداءتها، وإن كانت صالحة فالصلاح إليه واصل وعليه وارد. سر في نظام جسمك على قانون الصحة يعتدل مزاجك وتصفُ روحك. فلعمرك ما العلوم التي بها جلب الغذاء من صناعة وتجارة وزراعة، ولا نسلك الذي ترجو به بقاء ذكرك وظهور أثرك بنوع ما، ولا نظام أمتك في اجتماعها وسياستها، إلا بعد حفظ صحة جسمك وإدارة نظام هيكلك في الرتبة، وما الأموال المجموعة ولا الإخوان المحبوبة بمغنية عن المريض شيئاً، وإنّما من ذلك مدده وإصلاحه، فلا وربك لا أمة إلا من الأسرات، وإنّما الأسرات مركبات من أفراد، فإذا اعتلت الأجسام فلا اجتماع ولا ائتلاف ولا أخلاق ولا آداب. تهذيب النفس شرع لتجاذب القلوب. وتحابّ النفوس وائتلاف الأفراد. ونظام الجمعية وتعاونهم أجمعين. فالتهذيب مؤخر وجوده عن وجود الأفراد، والأفراد قوامها الصحة.

وإياك أن يلج في خاطرك غرابة الكلام على صحة الأجسام في علم الأخلاق. أو تقول: تتركه لعلم قانون الصحة. فإنك عرفت قبلاً علاقتهما وآثار أحدهما في الآخر، فلئن ذكره الأطباء فإنّما ذلك لأنه مقصود في علمهم بالذات والنفس تبع. فأما علماء الأخلاق فإنهم يبحثون عنه كمركب للنفس وسفينتها السائرة في بحر الحياة اللجي. ودابتها التي تركبها، فالجسم فرس والنفس راكبها والسعادة قنيصتها، ولا قنيصة لمن كلّت فرسه، كما لا سعادة ولا أخلاق لمن ضعف جسمه إلا من رحم ربك.

ولقد أودع الله في فطرة الإنسان من الغرائز والمشاعر والإدراكات، وأحاطه بالمنذرات للتهلكة، ما إن عمل به وسار في سبيله بنظام هدي إلى طريق رشاده. ألا ترى إلى الحر والقر والجوع والعطش، وما جبل عليه الأطفال من حب اللعب، وتنشيط الأعضاء بالحركة، ومصادمة الأجسام ومقارعة الأبطال. إن كل ذلك إلا مرشد للعاطلين. كم من امرئ جهل أمره واستسهل الأمر اليسير من شأنه كاللقمة يزدردها بلا كثير مضغ، والحجرة يسكنها رديئة الهواء أو ضئيلة النور، والبيت يقطنه تحيط به الروائح الكريهة، فأحاطت به خطوب الزمان ومزعجات الأمراض. أولم يعلم ما للإنسان من الحكمة وما لآلام الحر والبرد من الإنذار والإعلام، إلا أن الغفلة عن الصغائر في أمور الأجسام تجر إلى الكبائر في أمر النفوس والعقول.

فكم يحدث فساد الصحة من تغير في طباع المرء كسرعة الغضب والتهيج المزري، ويقعد به عن تأدية الواجبات الاجتماعية، والمرض إذا حل بالجسم فزال أبقى له أثراً خالداً فيه حتى يحين أجله ويذهب عمره. لا بد من إرادة قوية يصد بها الشهوات البهيمية، وعزم صارم يكبح به تلك الضاريات

الهائجة حتى لا نشتري الذي هو أدنى من اللذات الخسيسة بالذي هو أعلى من الصحة وسعادة الحياة والفرح بالإخوان، وبهجة الجمعية القومية ونعيم العباد في البلاد.

فاعتدل في مأكلك ومشربك وملبسك ومسكنك ونومك ويقظتك واجعل لكلٍّ وقتاً خاصاً به، ونظم أوقات أكلك كما نظمت الأفلاك في سيرها والنجوم في جريها والشمس في أبراجها، وأقلل من الشرب وحرّمه بعد انقضاء الأكل حتى يهضم الطعام. واجعل لك وقتاً للرياضة الجسمية كالمشي والأعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات عطلتك، ليكون أجم نشاطاً لعقلك وأتم قوة لجسمك، وكالحركات الرياضية في المدرسة فلعمرك إنها تحرك من نشاطك وإنها تفتح لك شهوة الطعام.

إلا أن المستبصر الحاذق من سار على منهج قانون الصحة فقل مرضه. فذلك خير ممن يهمل الجسم فيقع في قبضة المرض فيضطره لتعاطي الدواء، فالخير كل الخير في تدبير الطعام والشراب في الصحة. وقد أثنى الله على بعض عباده الأصحاء العلماء فقال: ﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾[البقرة: ٢٤٧]. انتهى ما أردته من كتابي جوهر التقوى.

(٢) وأما ما كان بمصر فإنه قد كان بها هرم في هيكل «ايزيس» وهي إلهة مصرية زوجة «اوزيريس» انتشرت عبادتها من مصر إلى اليونان وروما، وكانت عبادتها تنافس النصرانية. وكانت في بلدة «صالحجر» من أعمال مركز كفر الزيات تبعد عن رشيد قليلاً.

وقد كتب على ذلك الهرم ما يأتي: أنا كل شيء كان وكل شيء يكون، ومحال على من يفنى أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفنى.

(٣) وأما ما كان من رموز الرومانيين فذلك أنه كان في إحدى حجر الفاتيكان صورة شهيرة في حائط صوّرها «روفائيل» اسمها مدرسة أثينا، وفي مركز هذه الصورة أرسطو وأفلاطون، ومع كلٍّ أتباعه، وأفلاطون يشير إلى السماء بإصبعه، وأرسطو يصغي بفتور مشيراً إلى الأرض بيده اليمين، والحق أن هذه الصورة وإشاراتها تمثل جميع أفكار الإنسان من أوله إلى الآن.

فإذا عرفنا أن أفلاطون قد قال: إن الشمس المشرقة المضيئة سبب ظاهري لما على الأرض من نبات وحيوان الخ، من حيث إيجادها، ومن حيث هداية الحيوان والإنسان بها إلى السير في الأرض، وأن ذلك يهدي الإنسان إلى أن هناك إلهاً للعالم في مقابلة الشمس، وقد خلق عالماً لطيفاً في مقابلة هذا العالم الكثيف، وألقى من لدنه نوراً على ذلك العالم فعرفناه، وهو متعلق العلم، وبه عرفنا الكليات في عقولنا وصور الجمال المجردة والكمال والحكمة والعدل، كما ألقت الشمس نورها على حواسنا فعرفنا طرقنا وسرنا في الأرض.

وإذا عرفنا أن أرسطو يقول: كلا؛ فنحن لا نريد قط أن نجعل العوالم المعنوية وهي المثل الأفلاطونية متعلق العلم لدوامها، بل نقول: العلم يتعلق بالصورة والمادة، والقواعد المستنتجة من ذلك هي كليات قائمات بالذهن ليس لها وجود في الخارج. أقول: إذا عرفنا ذلك عرفنا أن هذين الرأيين هما أول العلم وآخره لا غير. فإما أن نعوّل على المادة وإما أن نعوّل على الروح، وأما المذهب الثالث فقد جمعهما.

القائلون بالمادة منهم الأستاذ « كارل فخت » ، ومن قوله : إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التي يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول . ومنهم الأستاذ « بخنر » الألماني ، وقد ألف كتاباً اسمه القول الفصل في المادة . وهؤلاء لا يقولون بالروح ولا بالملائكة ولا بالشياطين ولا بإله .

(١) وعلماء الجوهر الفرد قديماً من أنصار هذا المذهب مثل ديموقراطيس سنة ٤٢٠ ق . م ، وهو من الايونيين ، يقول : إن المادة تتحرك من نفسها .

(٢) وجاء أبيقور سنة ٣٤٠ ق . م وقال : إن النفس والفكر والعقل والقوة أعراض المادة . ومثله ليوكاروس سنة ٩٩ ق . م المؤلف الروحاني الشهير ومن أنصار هذا المذهب .

(٣) ثم توماس هويز سنة ١٥٨٨ ـ ١٦٧٩ في إنكلترا وهو يقول : إن الروح جسم طبيعي ارتقى ولم تدركها حواسنا .

(٤) ثم « لامتريه » في فرنسا سنة ١٧٠٩ ـ ١٧٥١ .

(٥) ومثله « باردن هليك » .

(٦) ومثله « كاياني » أيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٥٧ ـ ١٨٠٨ .

(٧) وفي ألمانيا ظهر « مولشت » في القرن التاسع عشر وقال : لا قوة بلا مادة ولا مادة بلا قوة .

(٨) وتبعه « كارل فجت » ولد ويج بخنر المتقدم ذكره .

فأما القائلون بالروح ، والقائلون بالروح والمادة معاً . فالأولون منهم يقولون : إن المخ آلة الفكر ولكنه هو ليس سبب الفكر . وقالوا : ليس من المعقول أن يكون الفكر الإنساني العجيب مستنتجاً من مادة ميتة لا تحس ولا تعقل . فالشاعر يفكر في المادة ، والحكيم كلاهما لا يمكن أن يكون فكرهما مادة . فهل مادة تفكر في مادة ؟ . وقد قال شاعر فرنسي ما يأتي :

إن امرأ ظن المعارف أشرقت   أنوارها من مظلم لجهول

وهذا المذهب الروحاني ظهر بعد المادي .

(١) وقد أوضح أفلاطون نظرية المثل ، وقال : إن لها وجوداً حقيقياً والظواهر تتبعها .

(٢) وجاء « ديكارت » فأحيا عقيدة الروحانية .

(٣) ثم « لبينتز » سنة ١٦٤٦ ـ ١٧١٦ ، وهو الذي ضبطها ، يقول : إن أساس الموجودات شيء واحد وهو الروح ، وهناك نقط روحية لا عدد لها ، وكل نقطة من هذه تسمى الذرة الروحية ، وهذه الذرة خلقها الله ، وكل جوهر فرد مركب من مجموعة من هذه الذرات ، وعدم قبول الجوهر الفرد للقسمة أمر ظاهري لا غير ، وإلا فهو يقسم إلى ما لا نهاية لأنه مركب من أرواح حية ، وكل جسم مركب من ذرات روحية . وهذا الامتداد الذي نراه في الأجسام ناشئ من اجتماع ذرات روحية ، وحقائق الأشياء هي هذه الذرات الروحية ، وقد جعل الله تلك الذرات مراكز للقوة ومنحها قوة إدراكية ، وهي مختلفة الأشكال والأحوال كثيرة التغير .

فلا تدوم على حال تكون به   كما تلون في أثوابها الغول

وهذه الذرات مرآة العوالم الحية ، وهي إن شعرت فهي الحيوان ، وإن لم تشعر فهي الجماد . وقال : كل ذرة لها جسم وروح ، فالروح هي الحقيقة والجسم مظهرها .

(٤) ومثل هؤلاء «جورج بركلي» سنة ١٦٨٥ ـ١٧٥٣، وهو مؤلف جرماني يقول: المادة لا وجود لها في الخارج، وإنّما ذلك خيال، ولا وجود إلا للروح والعقل، ولا فرق بين الصور التي نتخيلها والتي نراها، والعقل يتصور الشيء فيبرزه في الخارج، وليس هناك شيء خارج عن العقل. ويقول: إن الشمس والقمر والجبل والشجر لا وجود لها إذا لم يكن هناك عقل يدركها، وإدراك الإنسان مستمد من الله. ومتى طبعت هذه الصور في عقولنا سمينا ذلك أشياء حقيقية. وله كتاب سماه «السلسلة» جعله خاصاً بمنافع القطران، وتكلم في نهايته على الموجود المطلق، قال: لم تكن المعاني التي ندركها أوهاماً بل هي حقائق لا تتغير، ألا ترى أن وجودها أثبت في نفوسنا من الأشياء الخارجة. المحسوسات الظاهرة تتغير وهل المتغير يصلح مناطاً للعلم. وكما لا تصلح موضوعاً للعلم لا تصلح للإدراك.

(٥) وقفى على آثار هؤلاء «هرمان لوتز»، فشرح في كتابه المسمى «العالم الصغير» هذا المذهب.

(٦) ومثله «شوبنهور» إذ يقول: إن الإرادة هي حقيقة الأشياء.

(٧) وهكذا فختر إذ يقول: إن كل شيء في الوجود حيّ.

والذين يقولون بالروح والمادة معاً هم مثل:

(٨) انكساغورس سنة ٤٥٠ ق.م.

(٩) وأرسطاطاليس.

(١٠) والرواقيون.

وقد يعد هوبارت ولوتز وفخته من هؤلاء. وهناك طوائف يسمون «المؤلهين» يعتقدون بالله وبالأنبياء. وآخرون يسمون «العقليين» يرون أن الله يعرف بالعقل وحده ولا يحتاجون إلى وحي. وآخرون يعتقدون الحلول الذي برهنا على منافاته للعقل فيما تقدم في تفسير البسملة في السور السابقة والعالم عندهم مظهر الله.

وآخرون يسمون أصحاب مظهر الجوهر الفرد. إذن المذاهب المذكورة أربعة: (١) مذهب جوهر الفرد. (٢) مذهب المؤلهين. (٣) مذهب العقليين. (٤) مذهب الحلول.

فالأول قال به ليوسيبس وتلميذه ديموقراطيس، وقال بالثاني أرسطو وأفلاطون الخ، وقال بالثالث تولاندوم وتندال وستانتسيري، وهم يقولون: إنه يدير العالم بنظام، وقال بالرابع كتاب «ريك فيدا» وهو كتاب الهنود المقدس. وهكذا جيوردانو برونو وسبينوزا من أمستردام ٢٦٣٢ ــ ٢٦٧٧، وهذا أعلن إعلاناً مدهشاً فيه إغراق وغلو، فقال: إن في العالم جوهراً واحداً وهو الله، وهو مطلق لا يحدّ، وكل الجواهر الأخرى المحدودة منبعثة منه ومظروفة فيه، وليس لها إلا وجود زائل صائر إلى الفناء. ولله صفتان يظهر بهما لنا نفسه: الامتداد والعلم. فبالامتداد المتنوع تتكون الأجسام. وبالعلم المتنوع تتكون العقول. وهاتان الصفتان ثوبان لله نسجتهما المكوك الدائمة الحركة في نول الزمن العاصف. وتبعه شلو وجوتيه وهرد وشلوماكر وهيني وشلي ولسنج.

صمت طويل وضيق صدر وألم نفس. كل هذا حصل لي بعد هذا الحديث الطويل. فلما لمحت ذلك تبسمت ونظرت لي طويلاً وقالت: لقد قرأت في صفحات قلبك أنك الساعة مشمئز من سرد هذه

المذاهب المختلفة وضاق صدرك. فقلت: حقاً. إنني حالما شاهدت جمالك أذهب عني الحزن وشرح صدري ونسيت كل ألم وبه نلت كل أمل، فكل ما فاتني غير قربك لا قيمة له وطلبت البقاء لديك. فقلت لي: كلا. إنك سترجع إلى عالم الحس، وأنت الآن في عالم الخيال، فوطن نفسك على أن تدرس مزارعي في القلوب، فهاهي ذه مزارعك في القلوب قرأت منها صفحات، فرأيت تناقضاً في الآراء، وتباعداً في المعاني، فعهدت في صدري انقباضاً لم أعهده، فأين صحائف هذه القلوب التي بها ظهر تاريخ الفلسفة في العالم من صحائف هذه الدنيا، تلك الصحائف التي أقرؤها متى خلوت بنفسي وأنا مستيقظ، فأشاهد جمالاً بارعاً وحسناً باهراً وبهجة في النجوم، وفي مناظر المواليد الثلاثة. وقد أصبحت في الحال الاعتيادية أطرب لتمايل الأغصان وترنح العيدان وغوير الأعشاب وخرير الماء وصرير الباب، وأشاهد في الليل إذا عسعس أوانس الكواكب ونواعس النجوم، وألحظ في الليل البهيم سكوناً مهيباً ولألاءً بهيجاً في مناظر السماء، وآنس في النهار نضرة النعيم في كل ما دبّ وطار، وهل الحشرات المنبوذات اللواتي يحمل بعضها من العيون مئات في نظري إلا لآلئ وقناديل وحسن جمال، ألا ليت شعري هل تحسن أقوال هؤلاء الفلاسفة واختلافهم في الغباوة، وقول «اسبينوزا» قولاً موهماً في المقام الأعلى الأقدس كما تقدم: إنه ظرف العالم ومنه الامتداد ومنه العقول، وبالأول كانت الأجسام، وبالثاني كانت العقول. نعم. إن العبارات ضيقة عند أهل الأرض حين يعبرون عن ذلك المقام القدسي. ولكن أليس هذا بعينه هو الحلول؟ والحلول معلول مملول.

يغرم الإنسان بربع غراماً لا حد له فيصل للتطرف والإغراق والإفراط ويقول هو كل شيء. نعم إذا أصبح الإنسان في حال لا صحو فيها فإنه لا يعي ولا يعقل ولا يفهم ولا يدرك ولا يبصر ولا يسمع إلا ما يذكره بربه. ولكن لن يكون ذلك للعاقل. إن العاقل لا يسعه إلا أن يفرق بين الخالق والمخلوق. أما هذا التهويش والإغراق والتطرف في القول فهو مخل محزن، وهو في ديننا الإسلامي كفر وأي كفر! ألم أكذب هذه النظرية فيما تقدم في موضعين بالبرهان العقلي. وكيف يكون الرب هو نفس العبد؟ نظرية خضع لها كثير من علماء أوروبا والهند والمسيحيين وبعض الصوفية، وهؤلاء كلامهم موهم أيما إيهام.

أقول: هل يقوم كلام هؤلاء في نفسي مقام الجمال الذي ألحظه في بهجة الكون والشمس عند شروقها وغروبها والنجوم إبان طلوعها، والنجم إذا هوى، ما حلّ تاريخ الفلسفة الحديثة ولا القديمة في قلبي محل هذا الجمال المنصوب، والطراز الممدد في السماء والأرض.

إن قراءة علم ما وراء الطبيعة والفلسفة الطبيعية وعلم النفس وعلم المنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وتاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية والفلسفة الحديثة والفلسفة الإسلامية والوقوف على ذلك كله ـ وهذه هي أقسام علم الفلسفة المتعارف الآن ـ ليس ينتفع به إلا أفراد يقودون الأمم، وهم قليل جداً ولن ينتفعوا بهذه إلا بشرطين اثنين:

الأول أن تكون قلوبهم قد أحست بالجمال في هذه العوالم الأرضية والسماوية مع الذكاء المتوقد. الثاني أن يكونوا قد درسوا جميع علوم الطبيعة والعلوم الرياضية أتم دراسة على أحسن

نظام. فهؤلاء إذا قرؤوا تلك المذاهب الفلسفية ودرسوا فروع الفلسفة فإنهم يكونون قادة لأمم الشرق.

فأما قراءة كتاب مختصر أو مطول في تلك العلوم؛ والاطلاع على أقوال الماديين كالذي قلته أنا الآن؛ وأقوال الروحيين، وأقوال الذين يجمعون بين الروح والعقل؛ وهكذا يرون قوماً عقليين لا يهتمون بالوحي. وآخرين إلهيين يهتمون بالوحي. وآخرين يقولون بالجزء الذي لا يتجزأ، وغيرهم يقول: إن الله حل في كل شيء، فإنها لا تفيد إلا ضياع الذهن وتشتيت العقل والكفر الصراح والشك المستمر. وكيف لا يكون ذلك والشاب حين يسمع ذلك وهو جاهل بعلوم هذه الدنيا. ويرى أن هؤلاء يسمون فلاسفة. يقول: فإذا كان الفلاسفة أصبحوا مختلفين إذن المسألة ترجع للشك. فأنا أيتها المحبوبة أقول هذا رأيي في قراءة المذاهب الفلسفية. إنها تضل كثيراً ولا تهدي إلا قليلاً. فكيف أمرتني أن أرجع عن الصور الجميلة في السماوات والأرض التي أنا بها في أنس وحبور، وأن أفكر في أقوال متضاربات وأحوال متضادات لا سيما أني آليت على نفسي أن لا أكتم عن أحبابي قراء التفسير جملة واحدة، وكيف أكتم أعظم محاورة وأعجبها بيني وبين محبوبة جميع النفوس وقرة عين الفضلاء والحكماء والأنبياء، ألست أنت قرة كل عين، ألست جمال النفوس، ألم أكن ألحظك في كل ذرة وقطرة وكوكب ونجم وشجر، ألست أنت رفيقة قلبي وشارحة صدري، ألست أجمل ما في الوجود. وكيف أكتم جمال علمك عن أعز الناس عندي قراء التفسير، ومتى استيقظت من هذا الخيال كتبت ما دار بيننا، ومما دار بيننا حديث الفلاسفة واختلافهم وأنهم فرق متشاكسون، نعم إنك لما أمرتني أن أقرأ آراء القوم قام بنفسك أنني الآن لا أصلح لمجالستك ولا أقوى على محادثتك طويلاً، وأن نفسي لم تزل يعوزها التصفية كما قلت لي من قبل، ولكن ألا أستحق مساعدتك والأخذ بيدي وشد أزري والقيام بنصري، ألست اليوم في جهاد؟ ألست اليوم في أمم أريد أن تستيقظ، وخير العلم ما جاء في دور الانتقال، والشرق الآن قد جاء دوره، فهل من نظرة بها أسعد ومنك الجمال والكمال، وإذا كان الله جعل صور الجمال في أرضنا سريعة الزوال وأوقات اللذات كبرق خلب، وكانت الحكمة في ذلك أن يذكر قلوبنا بالجمال الدائم والحسن الباقي الأكمل، فالظهور للذكرى وسرعة الزوال لنكون في مأمن من تعلق القلب بها والعكوف عليها والحنين إليها، وذلك في صحيفتي السماء والأرض، فهل هكذا الصحيفة الثالثة وهي صحيفة القلوب وآراء الفلاسفة، إذ نرى في القول جمالاً ثم يعقبه الاضطراب والاختلاط والتهويش وضياع الوقت. إن طريقتي في العلم أن أقرأ صحيفة الوجود ثم صحيفة نفسي، فهناك أرى إشراقاً وجمالاً. أما صحائف القلوب فإنها تجمع الغث والسمين والصحيح والهزيل. وبعبارة أخرى: إني أخاف أن قراء التفسير بعدي يسوؤهم ما ساءني ويؤذيهم ما آذاني. وأنا أحب أن يكونوا في بهجة وجمال.

سمعت ذلك كله وهي صامتة تبتسم، وهنالك رأيت وجهها قد ازداد جمالاً ونوراً وبهجة. فلم أقو على النظر إليها كما أن عيني لا تقوى على التحديق في ضوء الشمس. وهنالك أخذت تقول: لقد قلت قولاً جميلاً ونطقت بالصدق. إن الفلسفة وتاريخها لن يعقلها إلا أناس صفت نفوسهم وهم

أذكياء، وقد قرؤوا علوم الرياضيات والطبيعيات بحب وشغف. إن الفلسفة لا يهنأ بها إلا أفراد قلائل في الأمم. وما قلته في الجمال الأرضي وسرعة زواله حق. وهكذا ما أبديته في جمال العلوم المنزلة على أفئدة العلماء. كل هذا أقرك عليه وأنا معينة لك، فكن منشرح الصدر قوياً متيناً.

أما أمري لك بقراءة آراء القوم فإن أمم الإسلام إذا اطلع خواصهم على آراء العلماء في الأمم انقشعت عن قلوبهم سحائب الجهالة وأضاءت نفوسهم بأضواء الهداية وحلوا المبهمات وأنسوا بجمال المدركات.

ولولا أني مطلعة على قلبك وأنك في الفصل الثالث ـ الذي بعد فصل القبس وهو الثاني ـ ستحل المشكلة العلمية أحسن حل وتقيم الدليل الذي يعرفه كل امرئ من نفسه في القوة العلمية والقوة الخلقية، ما أمرتك بقراءة الآراء المتضاربة، فإذا لم تقدم هذه الآراء أولاً لا يكون للفصل الثالث كبير مزية. وكيف تفصل في مشكلة قامت في أعظم العلوم النظرية وأعظم العلوم الخلقية من غير أن تقدم ذكر ذلك الخلاف وكيف يقضي القاضي في نزاع بين الخصوم وهم لم يطلعوه على وجوه الدعوى وهيئة النزاع.

فكن اليوم أيها الجوهري ممتحناً لمختلف الآراء. وإنك قد أسمعتني آراء العلماء في معنى قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فأسمعني خلافهم في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠] ومتى تم هذا الفصل بقسميه فحدثني بالفصل الثاني؛ وهو القبس الذي خطر لك وأنت في صلاة التراويح قبل الفجر، لأنه أشبه بضرب مثل لآراء الفلاسفة في الأرض.

فقلت: لأجعل الكلام على ذلك في مقامين: المقام الأول: في مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة. المقام الثاني: في الغاية من سلوكنا الأخلاقي.

فقالت: قل وأنا أحادثك. فقلت:

المقام الأول: في مذهب الغريزة الخلقية ومذهب التجربة

كما أن شعور النفوس الإنسانية بالجمال غريزي في كل الأمم هكذا شعورهم بالحسن والقبيح في الأخلاق، إن الجمال وإن اختلفت مظاهره لاختلاف الأذواق والأشخاص والأمم والأحوال والبيئات ثابت الأصل في النفوس. فإذا تعددت المظاهر واختلفت فالغريزة حية ثابتة ثبات الحياة. فكما اختلفت أحوال الأحياء وهي ثابتة هكذا اختلفت مظاهر الجمال والغريزة ثابتة. ومثل ذلك يقال بالحسن والقبيح. فأهل الشرق وأهل الغرب كل يعرف الحسن والقبيح في الأفعال الإنسانية وإن اختلفت المظاهر. وهذا المذهب قال به كارليل وبطلر. وقال به من الألمان فخته والأستاذ كنت. وقال آخرون: كلا. إن الحسن والقبيح في الأفعال لا سبيل لمعرفته إلا بالتجربة. وإذا كان مذهب النشوء والارتقاء ظاهراً في الحيوان والنبات أفلا يكون كذلك في الحسن والقبيح؟ أفنعيش على آراء من سبقنا في معرفة الحسن والقبيح. كلا. بل ننظر إلى الفائدة من أعمالنا ونحكم عقولنا وتكون أعمالنا على مقدار فوائدنا. هذا هو السبيل الأقوم.

وقال بهذا القول وهو مذهب التجربة كارنوي ومل وبين وهربرت سبنسر. تم الكلام على المقال الأول، والحمد لله رب العالمين.

المقام الثاني:في الغاية من سلوكنا الأخلاقي

هل الغاية من سلوكنا سعادتنا الذاتية ؟ أم السعادة العامة ؟

يقول قوم : إننا لم نخلق في هذه الأرض إلا لمنفعتنا الخاصة ، فكل امرئ إنّما خلق لإسعاد نفسه هو ، والمسالة كلها هي حب الخير لنفس الإنسان . ومن هؤلاء « هوبز » .

ويقول آخرون : كلا . ثم كلا ، « مثل هيوم وآدم سميث » ، إن في الإنسان عاطفة الحب العام ، ومن ذا الذي ينكرها في نفسه . لقد غرست في نفوسنا عاطفة حب الناس وإسعادهم وحب الخير لهم وتكميلهم . وهذه تسمى نظرية الإيثار .

ومن أتباع المذهب الأول « ماكس سترنر » و« نيتشيه » ، ومن أتباع الثاني وهو الإيثار « كنت وفخته وشوبنهور » ، وفوق ذلك يقول آدم سميث وجون ستورت ميل : إن الإنسان عليه أن يضحي بنفسه إذا كانت تلك التضحية سبباً في سعادة غيرنا .

ويقول الأستاذ « مل » : ما أنقص هذه الدنيا وما أخل نظامها إذ كان من سننها أن أحسن طريق في تحصيل السعادة هي التضحية التامة . وإذا كان هذا هو شأنها فإني أقر بأن الاستعداد للتضحية أكبر فضيلة يتصف بها الإنسان . وهنا مسألة ثالثة وهي :

ما الذي يسوقنا لحسن السلوك؟

عرفنا أن هناك غرائز أو تجارب للتمييز بين الخير والشر . وعرفنا ما الذي نقصده من السلوك . ولكن ما الذي يبعث فينا النشاط لحسن سلوكنا ؟ ويكون مهمازاً يسوقنا إلى الغايات ؟ فقال الأستاذ « مل » : إن القانون الأخلاقي مقيم في أعماق نفوسنا يساعدنا على كشف حجب الأمور حتى نصل إلى إدراك ما يجب علينا ، وله سلطان قوي وتأثير وجاذبية . وهذه نظرية القانون الذاتي ، وهذا سموه صوت العقل ، ومن القائلين بهذا القول الأستاذ « كنت » .

وقوم يقولون : إن الشعور والعواطف لها سلطان أيضاً . وهذا قول هيوم وشوبنهور وآدم سميث . فالعقل والشعور يرجعان إلى القانون الذاتي .

ويقول آخرون : إن الخوف من الله . أو من الناس . أو من الذم . أو الرغبة في المدح . أو تحصيل الثواب . كل هذه قوى خارجية لها السلطان علينا تسوقنا إلى فعل الخير .

وأنا أرى أن هذه كلها لها سلطان بدرجات مختلفات ، وتختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والتربية . وإلى هنا انتهى الكلام في ذكر الآراء في علم الأخلاق ومناهج السلوك . وبه انتهى الفصل الأول في معرفة معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾[فصلت : ٣٠] ، وبه فهمنا آراء الأمم في معرفة الله وآراءهم في الاستقامة .

الفصل الثاني:في القبس المذكور في سورة طه

هاهنا أذكر ما وعدت به مما فهمته أثناء قراءتي آيات من سورة « طه » في صلاة الوتر بعد نصف الليل منذ أيام إيفائي بوعدي لك وقياماً بحقك وليكون ذلك مثلاً مضروباً لاقتباس عقولنا من آراء عقول العلماء والحكماء من الأمم جمعاء .

كنت أقرأ قوله تعالى كما قدمت: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ ﴾[طه: ٩-١٢] الخ، فأخذت أكرر هذه الآيات مراراً، وقد استحضرت في ذهني الحجر والشجر والبر والبحر والإيقاد واللهب، كل ذلك حصل في نفسي كلمح البصر، وهذه المظاهر أصبحت كأنها مشاهدات أمام بصري وأنا أكرر الآية، وكأني في عالم غير عالمنا، عالم الجمال، عالم الحكمة، وخيل لي أني خرجت من كل هم وغم وحزن وألم لأن هذه عوارض عالم الحس، والآية أحضرت لي عالم الخيال، أو عالم المثال، أو عالم البرزخ، عالم لا كدر فيه ولا شقاء ولا أعداء ولا منافسين. وما أجمل قيام الليل، فإذا لم يكن فيه إلا هذا الجمال كفى، وما أحسن الصيام فهو يصفي النفوس ويذهب عنها البؤس. وما أجمل الذكر. وما أحسن الفكر.

فنظرت في الأحجار إذا هي لا تقبل الالتهاب مع أنها مشحونة بالنار. كيف لا وفي كل مائة رطل من الأحجار (٤٨) رطلاً من الأكسوجين، ولن تكون نار ولا لهب إلا بالأكسوجين، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[البقرة: ٢٤]. وإنّما لم تحترق الأحجار لصلابتها ومتانتها. ثم نظرت في نحو الحديد من كل جسم يعلوه الصدأ فوجدت أن ذلك فيه احتراق، فإن الأكسوجين يأخذ في التزاوج والاتحاد والائتلاف مع الحديد، ولكن ذلك الاتحاد والائتلاف والزواج لا تصحبه زينة ولا فرح. فالزينة هي اللهب والفرح هي الحرارة، وهذه هي التي اعتادها الإنسان متى أراد البناء بعروس أظهر الزينة والسرور والفرح. هكذا إذا أراد إيقاد النار زوّج الأكسوجين بعروس، فتلك العروس إن كانت عجوزاً شمطاء كالحديد لم يكن فرح ولم تكن زينة، بل يتم الزواج ببطء فيكون الصدأ وذلك كمعاشرة هذه العجوز. وإن كانت العروس خفيفة الروح شابة فهناك الحرارة وهناك اللهب. وإنّما يحصل اللهب بازدواج الأكسوجين مع الأودروجين ومع الفحم. وهذان العنصران يقيمان معاً في كل نبات وكل حيوان. فهما في الحطب والخشب والفحم الحجري والزيت والدهن والورق. فمتى قربت النار من الورق اشتعلت الحرارة وظهر اللهب وأخذ الأودروجين والكربون الساكنان يظهران ويريدان التخلص، ولكن هيهات هيهات، فيقعان في قبضة الأكسوجين ولا يفلتان وهناك يتم الزواج.

الأودروجين المذكور جزء من أجزاء الماء وهو متحد مع الأكسوجين فيه، فهو يحبه إذا صادفه في الورق والخشب وغيرهما. والأيدروجين أيضاً داخل في تركيب الغاز «الأيدروجين المكربن» أعني أودروجين مزدوج بالفحم واسمه غاز الاستصباح، وهو الذي تنار به الشوارع والأزقة والحارات والمخازن والحوانيت، وهو يجري في أنابيب تستمد من احتراق الفحم في أفران معدّة لذلك، وهذا معروف مشاهد. والأودروجين أخف من الهواء (١٤) مرة ونصف مرة، ولذلك يجعلونه في الطيارات فتخف وتطير في الجو لأنها أخف من الهواء. هذه هي النار وهذا سرها. والنار من أعجب العجب في هذه الدنيا والناس يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون جمالها وبهجتها. والسبب في ذلك أنها مبذولة لهم بلا تعب ولا نصب، مع أن ما تقدم في آخر سورة «يس» من الصور المرسومة لقوم متوحشين

يوقدونها بشق الأنفس يدل على أنها كانت مستعصية على النوع الإنساني، وكانت أثمن مما على الأرض وما في باطنها من جواهر وما في البحار من لآلئ، حتى إن زرادشت قال إنه جلبها من السماء. ومر في طريقه بجبال هماليا وكانت هذه معجزة له عند أتباعه في بلاد الفرس. وأخذوا يعبدون النار وهي مقدسة. لماذا هذا؟ لعزتها ونفاستها إذ ذاك. وهكذا زعم الروم أن بروموطيه اختلست النار من عبّادها ـ بتشديد الباء ـ وسترتها عن أعينهم وأهدتها لأناس غيرهم، فكان الرومانيون يقدسون النار كما يقدسها الفرس، ولها سدنة يقومون بخدمتها ويحافظون على دوامها، فلما أن صارت اليوم سهلة الحصول زالت تلك الهيبة من النفوس والعظمة.

هذه هي النار، وهذا تاريخها، تاريخ النار تاريخ الحياة، فلهب النار وحرارتها يرجعان للتفاعل والتزاوج، ونتيجة اتحاد العناصر أن يكون هناك نبات وحيوان وإنسان كلهن ناشئات من ذلك الاتحاد، ويدوم ذلك التفاعل مدة، ومتى بطل التفاعل بطلت الحياة. إذن النار سر الله في أرضه.

العلوم والمعارف

ليس في الأرض علوم ولا معارف إلا على نمط إيقاد النار، وهل المعارف إلا ازدواج بين القضايا الذهنية إذ تكون مقدمتان ومنهما تكون النتيجة، أليس ازدواج القضيتين في النفس يعطي فكرة كأنها حرارة وتكون النتيجة كاللهب. وبعبارة أقرب لما نحن فيه: إن آراء علماء الغرب والشرق متى ازدوجت في نفوسنا حصل لعقولنا نتائج، وهذه النتائج يصحبها نشاط في مقابلة حرارة النار، ويكون سرور في مقابلة اللهب. إن انشراح الصدر بالمعارف خير من الدنيا وما فيها، وإذن يكون ما في الأرض من دهن وزيت وحطب كل هذه نشبه بها آراء علماء اليونان والرومان والألمانيين والفرنسيين والإنجليز الذين تقدم ذكرهم.

ثم إن تقليب هذه الآراء وبحثها واستخراج نتيجة تفهمها العقول واحدة ويفرح بها أهل العلم في العالم. كما سيأتي في الفصل الثالث إن شاء الله أشبه بازدواج هذه المواد وظهور الحرارة واللهب منها وإشراقها للعيون.

ثم إني بعد أن فرغت من فهم هذه المعاني في الآية، أخذت وأنا لا أزال أكررها في الصلاة أفكر في معناها وأقول: إن موسى قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً، ورجا أن ينال منها أحد الأمرين: الأمر الأول لأهله، والثاني له هو. فأما الذي لأهله فهو القبس لأجل الاستدفاء بالحرارة. وأما الذي له هو فهو أن يرى هادياً يهديه للطريق في الجبل ولله، فيعرفه طريق الوصول إليه كما قال بعض المفسرين.

إذن موسى عليه السلام قسم فوائد النار بينه وبين أهله، فهكذا المفكرون في المسلمين بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله، عليهم أن يتخذوا علوم الأمم كلها مباحث لهم، ويستخرجوا منها: أولاً المنافع المادية في مقابلة القبس الذي ذكره موسى، وثانياً المنافع العلمية والهداية الخلقية في مقابلة هداية موسى. ونتائج ذلك لأمم الإسلام أن يعيشوا بسلام سعداء، وإذا ماتوا لقوا ربهم وقد أتموا ما عليهم، وهذا في مقابلة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[طه: ١١-١٢].

كل هذا أقوله وهي مصغية إلي سامعة لي، وكلما ازددت إيضاحاً ازداد وجهها إشراقاً. هنالك قالت لي: هل هذه المعاني تفسير للآية؟ وضح هذه الفكرة. قلت: كلا. إنّما هي معاني تخطر للنفوس عند قراءتها، وإلا فمعنى الآية يعرفه العامة والخاصة، وهذه تسمى المعاني الإشارية أو الرمزية التي تخطر للنفوس على حسب استعدادها. وإذا كان هارون الرشيد قتل البرامكة وأمعن في ذلك حينما سمع المغني يقول:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدّت مرّة واحدة إنّما العاجز من لا يستبد

فهكذا تفهم العقول الحكيمة المعاني التي تناسبها حينما تسمع القرآن من باب أولى، والقرآن أولى من كتاب «كليلة ودمنة» بالحكمة والعلم. وهذا أمر واضح لأولي الألباب. وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في القبس وفهمه من الآية في الصلاة، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث: في جلاء الحقائق العلمية
وتبيان الصواب في آراء هؤلاء العلماء العلمية والعملية
أي النظرية والخلقية أي معرفة الله تعالى وعلم الأخلاق وبعبارة أخرى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] الخ

وهي آيتنا التي نحن بصدد الكلام عليها

هاهنا أخذت أستعرض آراء علماء أوروبا الحديثة وآراء القدماء، وأفكر في الماديات والروحيات. وكيف نسمع قوماً يقولون: لا وجود إلا للمادة. ويقول آخرون: لا بل الموجود هي الروح.

وبينما أنا أفكر وهي إلي شاخصة إذ لاحت لي التفاتة إلى وجهها الجميل فأخذتني الدهشة واعترتني الغشية وغابت عني الحواس ولم أشعر بما حولي، فلعمرك ما أدري كم ساعة قطعتها وأنا في غشيتي، ثم أحسست بيد ناعمة تمر على وجهي، ورائحة عطرية لم أشم مثلها مدة حياتي عطرت المكان، إذا هي قد أخذتني بين يديها لتوقظني، فما آنستها بعد الغشية حتى قلت ما قاله ابن الفارض:

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا قتيل بلا إثم ولا حرج

ودعت قبل الهوى روحي لما شهدت عيناي من حسن ذلك المنظر البهج

قالت: نعم. لا إثم ولا حرج، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]. فقلت: يا سيدتي أخبريني بالحق، أأنا الآن في عالم الآخرة، أنا لا أعرف ما أنا فيه، إن هذه المعاني التي تجول بخاطري لم أعهدها في أيام حياتي، فلعلي مت؟ فقالت: هذا صفاء نفس لا موت، وعند الموت تكون حالك أرقى من هذه الحال بما لا حد له. فقلت: ولكن ما هذه الحال؟ قالت: ألم أقل إنك في حال البرزخ والمثال والخيال. فقلت: وهل هذه الحال لها وجود؟ قالت: هي أصل الوجود والصور الأرضية فرع. فقلت: أنا إذا استيقظت وأخبرت الناس بذلك طالبوني بالبرهان. فقالت: أتذكر أنك أيام الشباب رأيت صوراً جميلة. قلت: نعم. قالت: فهل ذوو تلك الصور الآن لا يزالون يحملونها. قلت: كلا. فمنهم من أصبح في القبر رميماً ومنهم من أصبح عجوزاً وشيخاً هرماً

أكل الدهر عليه وشرب وابيض شعره ويبس جلده وانحلت عراه. قالت: فهل تغيرت هذه الصور الجميلة في خيالك؟ قلت: كلا. إني أراها في نفسي تامة الجمال كما كانت لم تتغير. فقالت: هذا مثل واحد ضربته لك لتعلم أن جميع الصور التي ترونها في المادة التي تتخيلونها باقية في عقولكم إلى أمد الدهر، وبتراكمها تنتج أخلاقاً وعوائد وسعادة وشقاء على حسب ما تصورت، ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤]، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾[القيامة: ١٤]. وهنا ابتسمت ابتسامة وأضاء المكان بالنور وعبق العنبر.

ثم قالت: إن الوجود الأصلي إنّما هو ما حفظته النفوس، فأما وجود المادة فهو تبعي لا أصلي، ألم تر كيف لا يكون عمل إلا بعد فكر، فهل الهرم ظهر في الوجود إلا بعد رسم في الخيال، وهل الكرسي والباب والشباك والآلة البخارية والقطار السائر في الأرض والسفن في البحار والمنطاد في الهواء وكذا الطيارات والجيوش المنظمات في الجو وفي الأرض وفي البحر برزت في الوجود إلا بعد أن رسمت في صحائف الفكر فكان إبرازها للعيان بعد ظهورها في الأذهان. فإذا حرق الكرسي والباب والشباك وحطمت الطيارة وهزم الجيش وتفرقت جموعه فإن صورها تبقى في الأذهان. ألا ترى أن أخبار معارك هنيبال وحروب رومة وقرطاجنة تتناقلها القلوب وتتداولها الألسنة وتتلقاها الأجيال؛ مع أن تلك الأمم قد زالت من الوجود وخلفتها أمم آخرون من نسلهم أو من أمم أخرى، إذن الأشباح المنظورة نتائج الصور المعقولة لا فرع لها، أولست أنك قد ذكرت في التفسير في غير ما موضع أن هذا العالم كله حركات في عالم يسمى الأثير، وما الأثير إلا اسم تجهلون معناه، وما هو إلا أشبه بالخيال، ويؤيد هذا نظرية «انيشتين» إذن لا مادة، وغاية الأمر أن هنا حركات مختلفات الأعداد والأحوال، بها ظهر للعيون وللحواس أشباح. فقلت: إذن هذا تأكيد لمذهب الروحانيين. قالت: هنا أرواح وهنا أجسام، إن المواد لها وجود في درجة الحواس فهي موجودة معدومة وهي مترددة بين الوجود والعدم، فأما عالم الصور العقلية فهي موجودة أبداً، ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[العنكبوت: ٦٤]. فقلت: وهل هذه آخرة؟ فقالت: إن عالم المثال الذي أنت فيه الآن مقدمة لعالم الآخرة، ثم تبسمت وقالت: ولكن أنت الآن لم تمت فأنت حي.

ثم إنها فجأة قالت: أستودعك الله، فراعتني هذه المفاجأة وقلت:

ألمت فحيت ثم قامت فودّعت ... فلما تولت كادت النفس تزهق

فقالت: أنا ما ودّعتك إلا وأنا واثقة بما لديك من الهبات العلمية، وما منحك الله من الحكمة، وإنك ستلقي للناس حقائق ورقائق حتى يعلموا أن آراء الفلاسفة ليست مقدسة، وأنا مطلعة على قلبك أقرؤه كالصحيفة أمامي، وأنك ستقول للناس قاطبة: إن كل فيلسوف له رأي. فهذا الرأي راجع لحال خاصة. وبعبارة أخرى: إن أنظار هؤلاء الفلاسفة جزئية لا كلية، ومتى أوضحت كل قول وأوضحت سببه عرف الناس أن كل واحد له حق من وجه واحد ولكنه باطل من وجوه عدة، هذا كله ستقوله أنت، فانصرافي الآن يكون بعد ما خبرت قلبك، وإنك ابن بجدتها وأخو عذرتها، وجذيلها المحكك، وعذيقها المرجّب. فقلت: ولكني لا أطيق فراقك، ومتى قمت وأنا لم أتمم ما شرعت فيه من

أني أسمعك ما سأكتبه في هذا المقام ينالني ما لا يطاق من الهم، وإن إصغاءك لي وسماعك لكلامي وإن كنت مطلعة على ما في قلبي يحدث فيه مسرة، لأن إصغاء المحبوب لقول المحب أشهى إليه من الحياة وأعز عليه من روحه، كما فرح موسى عليه السلام لقوله لرب العالمين وهو يعلم ما في نفسه: ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾[طه: ١٨]، ويجدد في قلبي حكمة إذ أطمئن على ما سأكتبه وأثق بما ألقيه في هذه المسألة التي حار فيها أهل الشرق وأهل الغرب. فقال: لا ترع، قد أجبنا طلبك ورحمنا تضرّعك فأتمم ما شرعت فيه. وهاهنا حرت من شدة الوجد والهيام، كأني في أضغاث أحلام، وتذكرت قول ابن المعتز في الشرق:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً ... على الجو دكناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأصفر ... على أخضر في أحمر تحت مبيض
كهيئة خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقول إبراهيم بن سهل الإسرائيلي في الأندلس:

أشمس في غلالة أرجوان ... وبدر طالع أم غصن بان
وثغر ما أرى أم نظم درّ ... ولحظ ما حوى أم صارمان

وقلت في نفسي: هذا أوان الجذل والغزل في صور لا تفنى ولا تزول، فأما في الأرض فإنها صور زائلة، وهذه هي السعادة التي لا نهاية لها، فإن هذه الحسناء الهيفاء قد ازداد جمالها بضع مرات، وهي تزداد بهجة وجمالاً وحسناً وبهاء ورقة.

إن الجمال في أهل الأرض لم يجتمع لامرئ قط، فإذا أشرق وجه الشباب بالجمال، فالهيام إنّما يكون بالظواهر غالباً فيه، وإذا أضاء قلب الحكماء والعلماء أحبهم تلاميذهم وأغرموا ذلك الغرام ببواطنهم لا بظواهرهم، لأنهم لا يستأهلون لذلك الهيام والحب إلا بعد استكمال قواهم الداخلية وتمام عقولهم وعلومهم، ولكن لم ير أحد من أهل الأرض جمالاً كما أرى أنا اليوم، فالوجه مشرق والروائح عبقة لم أر لهما نظيراً على الأرض، والجمال يزداد على مدى الساعات، والحكمة والعلم يضاهيان حكمة أكابر الحكماء وعلم العلماء.

هنالك أشارت لي أن أشرع في تحقيق الحق في الآراء المتقدمة كما تقدم. فقلت: إن الناس أرادوا أن يقفوا على جلية الحق فلينظروا لأنفسهم، وذلك من وجهين: الوجه الأول: من جهة الحواس الخمس والعقل و ذلك للمعرفة. الوجه الثاني: من جهة العواطف والشعور وذلك للأخلاق.

الوجه الأول: معرفة الإنسان من جهة حواسه الخمس والعقل

إن حواسنا خمس: أدناها اللمس، وأعلاها البصر، وفوقها كلها العقل:

(١) **أما اللمس:** فإنّما يستمد معرفته من المواد المحيطة به مباشرة، فهو إذن كالأعمى يتلمس ما يحيط به.

(٢) **وأما الذوق:** فإنه وإن كان كاللمس ففيه مزية أرقى، وهو أنه يصطفي ما هو أليق للغذاء، ولا يقبل إلا ما اختاره بخلاف اللمس فهو أعمّ.

(٣) **وأما حاسة الشم:** فهي أبعد مدى وسلطانها يكون على المسموعات اللاتي هي ذرات منفصلات من المواد والهواء السفير بين حاسة الشم والمشموم، إذن هذه واسعة الأفق ممتدة الأكناف شريفة فيها لطف به اقتربت من عالم الأرواح.

(٤) **وأعلى منها حاسة السمع:** فهي أبعد مدى وأشرف مرتبة، وأعلى مزية، وسلطانها يحكم في الهواء وحركاته لا في ذرات متناثرات من المادة، فهي إذن أقرب من الشم إلى عالم الأرواح.

(٥) **وفوقها حاسة البصر:** فهي لا سلطان لها على عالم المادة ولا صلة بينها وبينه، فلا تتصل بنفس المادة كحاستي الذوق واللمس، ولا بذرات طائرات منها كالشم، ولا بلطيف الهواء كالسمع، بل سلطانها في عالم متوسط بين المادة وبين الروح، وهو عالم الأثير الذي يحمل الصور الضوئية من المادة ويوصلها إليها، فترى الأشباح والصور والأشكال قد امتد سلطانها إلى أبعد غاية. فإذا كان السمع لا يعلم إلا ما كان في عالم الهواء، والهواء محدود لا يتجاوز (٥٠) ألف كيلو متراً، فإن البصر يمتد سلطانه إلى أبعد ما كان في هذا الجو الفسيح. فهو يرى الشمس على بعد هائل عظيم، بحيث تصل القنبلة لها في ١٢ سنة، ويصل لها القطار السريع في (٣٥٠) سنة، وبعد الشمس الهائل لا يقطعه النور في أكثر من (٨) دقائق و(١٨) ثانية. ووراء الشمس كواكب وشموس وسدم رأت العين أنوارها في أبعاد شاسعة تقدر بسير النور لا بسير القطار ولا بسير قلة المدفع مائة ألف سنة بل مائة مليون سنة وأكثر. إذن تبين أن العين أعظم الحواس سلطاناً، وهي تحكم في عالم الأثير الحامل للنور، فعالمها أقرب إلى عالم الأرواح.

قاعدة: وهاهنا ظهرت لنا قاعدة هامة جداً: إن كل حاسة وهبت لنا لن تنفصل عن عالمها فهي به متصلة اتصالاً يناسبها، فاللمس متصل بعالم عظيم وهي المواد المحيطة بنا، وهكذا الذوق وهكذا الشم دائماً ملاصق للهواء. وكذا العين والبصر يشرف على عالم أوسع وأوسع. وكلما ارتقت الحاسة عما قبلها اتسع عالمها. والعين بلغت النهاية في اتساع عالمها حتى أننا بالمناظير المعظمة لم نقدر المدى الذي تراه العين في الاتساع والعظمة واللطافة المتناهية وهي لطافة النور في عالم الأثير.

(٦) **العقل:** وهاهنا آن أن نبحث في حاسة فوق هذه الحواس. نعم هذه الحواس تحضر الصور، وهذه الصور تخزن في خزائن الدماغ وهناك يحصل ازدواج الآراء وتحصل نتائج. فيا ليت شعري أي علم أعطاه الله للعقل، أعطاه نور المعارف الخاصة به وقال له: خذ الظواهر البسيطة الآتية من الحواس الخمس، واستخرج في الحساب وفي الهندسة وفي الجبر وفي الكيمياء آلاف القوانين.

إن هذه القوانين ليست في صور المادة الواصلة للحواس الخمس. فمن أين أتى ذلك العلم للعقل؟ أجاء له من تلقاء نفسه؟ كلا؛ فلماذا نرى الحواس كلها لا علم لها إلا مما حولها ولكل حاسة عالم يناسبها ويشاكلها وهي درجات بعضها فوق بعض، وأرقاها البصر وعالمه وسط بين المادة والروح ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، إن العقل حقاً له اتصال حقيقي بعالم عقليّ، وهو أوسع من عالم النور بما لا حد له، بل هو عالم لا نهاية له قياساً على ما قدمنا، إذن الإنسان يجلس وقد وضع القلم في يده وأخذ يكتب ما يملي عليه عقله، فالقلم متصل باليد، والعقل

متصل بعالم عقلي وينبوع منه يستمد الفكر ، واتصال العالم العقلي بعقولنا كاتصال القلم بأيدينا ، وكما أن اليد جسم كثيف اتصلت بجسم كثيف يليق لها وهو القلم ؛ هكذا عقولنا متصلات بعالم لطيف تستمد منه استمداد العين من الضوء والأذن من الصوت وحاسة الشم من الروائح في الهواء .

وهذا البرهان لا يرد عليه ما ورد على أفلاطون ، إذ استدل على عالم المثال ووجوده كما تقدم بأنه مقيس على المخلوقات الأرضية التي كانت الشمس سبب وجودها وسبب ظهورها لعيوننا وهدايتنا لها . فالله في مقابلة الشمس ، وعالم المثال في مقابلة المحدثات بسبب ضوئها ، وهداية الله لعقولنا كهداية الشمس لعيوننا ، وعالم المعاني كالجمال والخير والعدل والعظم والقوة وغيرها ، عالم لا يتغير باق ، كما أن الله لا يتغير وباق ، والحوادث الأرضية تفنى لأنها وجدت بواسطة عالم يفنى ويتغير وهي الشمس . وهذا البرهان الذي قاله أفلاطون لم يكن مقبولاً عند أرسطاطاليس ، فنفى عالم المثال كما قلناه فيما تقدم . وقال : كلا . ثم كلا . إن عالم المثال لا وجود له والعالم العقلي غير موجود ، وإنّما الموجود عالم المادة ، ومجرد النظر للمادة والصورة كاف في أن عقولنا تدرك القوانين ، وهذا هو السبب فيما وجد مرسوماً في الصورة التي رسمها الرسام الإيطالي التي تقدم ذكرها من أن أرسطاليس يشير إلى الأرض وسقراط يشير إلى السماء ، وبسبب هذا اختلف الأحزاب بعد أرسطاطاليس . وقد تقدم الكلام على الرواقيين والأبيقوريين وكيف وقع هؤلاء في الحلول وشكّت ـ بتشديد الكاف ـ طائفة ، وألحدت أخرى ، وهكذا مما تقدم في هذا المقام .

وبقي العلم على هذا المنوال حتى جاء العصر الحديث وظهر العلماء في أوروبا ، وفيهم يقول الأستاذ « بارتلمي سانتهلير » مترجم أرسطو من اليونانية إلى الفرنسية في القرن الماضي وهو القرن التاسع عشر في صحيفة (١٠٣) من المقدمة المترجمة ما يأتي :

بعد الرواقية وبدون أن أقف على شيشرون ولا على سنيك الروماني أقتحم عشرين قرناً وأمضي إلى « كنت » أكبر أخلاقي في الأزمان الأخيرة ، إننا نجد من نظرياته خليطاً من المذاهب الثلاثة الخ . أي مذهب أفلاطون ، ومذهب أرسطو ، ومذهب الرواقيين .

أقول : ولقد قدمت في هذا التفسير مراراً أن الأستاذ « سنتلانة التلياني » ومثله « سبنسر » الإنجليزي يقولان كما يقول جميع العلماء منهم : إن فلاسفة القرون المتأخرة بالنسبة لسقراط وأفلاطون كالبقة بالنسبة للفيل في مثل هذه المواضيع الشريفة الراقية . وهذا هو الأستاذ « بارتلمي » يقول كذلك في مواضع كثيرة من كتابه ، حتى جعل علماء أوروبا مدينين لليونان . كما أن العلامة « سديو الفرنسي » المؤرخ جعلهم مدينين للأمم العربية الإسلامية ، وكل قال على مقدار ما وصل له من العلم . إذن « بارتلمي » لا يرى علماء نبغوا في علم الأخلاق بعد عشرين قرناً إلا الأستاذ « كانت » فماذا يقول فيه؟ يقول في صحيفة (١٣٦) ما نصه :

إذا كان من اللازم ترتيب هؤلاء العظماء الذين حللت أفكارهم فإني لا أتردد في أن أضع العلامة أرسطاطاليس في الصف الثالث والأستاذ « كنت » في الثاني وأفلاطون في الأول . وبنى ذلك الترتيب على الاعتقاد لأن أرسطو لم يتكلم في مستقبل الروح ولا في علاقتها بالله ، وجعل لسعادة

الإنسان مدخلاً كبيراً في الأخلاق مع أن الفضيلة وعمل الواجب هو الأولى بالمراعاة. وقال: إن « كنت » وإن اعترف بالله وببقاء الروح فإن دليله ضعيف جداً أقل من دليل أفلاطون، فإن « كنت » يقول: إذا كان الإنسان يسعى لإسعاد نفسه من جهة ولعمل الواجب لغيره من جهة أخرى؛ فإن العمل للواجب قد يتعارض مع العمل لنفسه، وهنالك لا ينال مطالبه في الحياة الدنيا. إذن الحياة قاصرة هنا فلا بد من حياة أخرى يرقى فيها ويكون الخلود، وهناك يكافئ الخالق كلًّا بما فعل.

إذن الأستاذ « كنت » جعل الإقرار بالله وببقاء الروح تابعين للقانون الأخلاقي، وهذا ضعف ظاهر، ولكنه على كل حال أرقى من آراء أرسطاطاليس، وإن كان أقل من آراء أفلاطون. هذا مجمل الكلام الذي ذكره وأوضحه أيما إيضاح في المقدمة المذكورة.

وأنا أقول: هاهنا آراء أفلاطون وهي الصف الأول، وآراء « كنت » في الصف الثاني، وآراء أرسطو في الصف الثالث. وقد عرفنا فيما تقدم أن آراء أفلاطون وهو في الصف الأول لم يعبأ بها أرسطاطاليس. وبسبب ذلك تخبطت الإنسانية نحو عشرين قرناً من رواقية وأبيقورية وملاحدة أوروبية، وظهر أمثال « ليوكاروس » و« توماس هوبز » في إنكلترا و« لامتريه » في فرنسا وهكذا من الماديين، لماذا ظهر هؤلاء؟ لأن العلماء تخبطوا من أيام أرسطاطاليس وهاموا فلم يجدوا من يحدثهم عن الحقيقة بأكثر مما قاله أفلاطون، وأفلاطون عارضه أقرب الناس وهو تلميذه، فأين يذهب الناس؟ فلما جاء « كنت » أتى بمذهب وسط وترك برهان أفلاطون وتنزّل إلى برهان ضئيل.

هذه هي الآراء المنتشرة في أمم الأرض، وهذا آخر العلم فيها. فأما البرهان الذي قلته أنا الآن فليس يرد عليه من الطعن ما ورد على برهان أفلاطون فضلاً عن « كنت ».

لقد برهنت ببرهان لا يقبل النقض وأقل ما فيه أنه برهان الاستقراء، فقد استقرينا الحواس فوجدناها متصلة بعوالم تحس بها، فلماذا يكون العقل وحده هو الذي يقوم بعملية الإحساس من ذاته بلا عالم يمده مناسب له؟ وهل يمد العقل إلا عقول تماثله وتناسبه، ونسبته إليها نسبة الشم إلى الهواء والسمع إلى الهواء والعين إلى الضياء.

وأزيد عليه برهاناً آخر وهو أن الأرض لم يكن في استطاعتها وعجزت أن تعطي النبات نمواً والحيوان هداية. إن النبات لن ينمو إلا بحرارة وماء، والماء لن يكون إلا بالبخار، ولا بخار يثور إلا بحرارة، وهذه الحرارة لم تستطع إبرازها الأرض فأرسلتها الشمس. ثم إن الحيوان محتاج إلى أن يرى سبله في الأرض. والأرض لم تقدر أن تهديه نوراً من لدنها. إذن الأرض قد برهنت على عجزها في الحرارة وفي الضوء لنمو النبات والحيوان ولهداية الأخير. وللضوء أيضاً مساعدة في نمو النبات ـ كما تقدم في سورة « يس » عند آية: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾[يس: ٣٦] ـ لأن ضوءها يساعد المادة الملونة في تعاطي الغذاء من الهواء.

وإذا عجزت الأرض عن أخس الأمرين أي الحرارة والضوء لتربي أبناها فهي عن أشرفهما أعجز وهو الإدراك والعقل وغرائز الحيوانات. فإذا كان الضوء استعارته من عالم السماء فهي إلى استعارة العقول والغرائز أحوج من عالم ألطف من عالمنا.

فهذان برهانان قطعيان يثبتان عالم الأرواح الثابتة، ويرفعان هذا الإنسان من الحضيض الذي وقع فيه، وإذن لا يرد على هذين البرهانين ما أورده أرسطاطاليس على أفلاطون، ويبقى هذان سليمين من الطعن. وإذا كانا أثبت من برهان أفلاطون فهما من برهان « كنت الألماني » أكثر متانة وقبولاً. وإذن ظهر معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[فصلت: ٣٠] الخ. وثبت بالبرهان العقلي الركن المهم في علم الأخلاق وهو بقاء الأرواح ووجود الله تعالى. وذلك أن هذه النفوس الأرضية متى ثبت اتصالها بعوالم روحية تناسبها فإنا نقول هذه العقول الروحية لا بد من اجتماعها كلها بوجود أعظم منها، ولابد أن يكون واحداً، كما أن أضواء الشمس مهما تكاثر عددها فلها منبع واحد.

وهاهنا تسقط تلك المذاهب المادية لأول وهلة، ونقول لأمثال الأستاذ « كارل فخت » القائل: إن المخ يفرز الفكر بعين الطريقة التي يفرز بها الكبد الصفراء والكلية البول.

لقد أخطأت المرمى ولم تصب المحز، لقد نسيت أن المخ عضو الإحساس الأعلى، والأعضاء الحساسة لها أحكام غير أعضاء التغذية، ذلك أن أعضاء الحس متصلة بعوالم خارجية وهذا عضو في داخل البدن. ثم نقول له ولأمثاله: نحن لا نكذبكم لأنكم أشبه بحاسة اللمس، فأحكامكم موجهة إلى الدرجة التي وقفتم عندها، والرجل الأصم الأعمى ينكر الصوت والضوء.

إذن ظهر أن فلاسفة الأمم كلّ يقول ما وصل إليه عقله لا غير، وعلى الحكماء في الإسلام أن يدرسوا هذه العقول في هذه الأمم ويستخرجوا الزبد ليرفوا هذه الإنسانية المسكينة.

فقالت: لقد أحسنت كل الإحسان وأجدت كل الإجادة، وبهذا ثبت البرهان على أساس متين فشكرتها. وإلى هنا تم الكلام على الوجه الأول وهو معرفة الإنسان من جهة الحواس وما يتعلق بها. وبه ثبتت المعرفة النظرية، وهذا المقام سيزيد إيضاحاً في سورة « محمد » صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩]، في الرسالة التي سميتها « مرآة الفلسفة ».

الوجه الثاني: البحث في الإنسان من جهة عواطفه وشعوره

وهاهنا أقول: قد تبين بالوجه الأول أن حواس الإنسان وعقله أشبه بمدرسة يتعلم فيها الناس الارتقاء في الأحوال والسعادات، فمن وقف عن الطعام والشراب وحب المال فهو من الطراز الأدنى لأنه لم يجاوز حاسة الطعام. ونرى الناس يسارعون إلى السفر براً وبحراً، لماذا يهجرون الأوطان ويتجشمون المشاق؟ ليطلعوا على عجائب الأمم والبر والبحر، وآخرون يتركون الفراش الوثير والطعام اللذيذ والروائح العطرية في بساتينهم ودورهم ويترددون على دور الصور المتحركة ومحال الغناء مفضلين لذة البصر والسمع على لذات اللمس والشم والذوق. إذن المحسوس كلما كان ألطف كان أشرف وألذ. إذن المحسوسات بالعقل ألطف المحسوسات وأشدها وأشرفها، فمن قصر في فهمها ولم يشتق إلى ذلك العالم الأعلى فهو غبي لم يدرس نفسه.

بهذا وبهذا وحده يفهم النوع الإنساني كله أن الآخرة والأولى ندرسهما من أحوال أجسامنا، وهذا من سر قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، وهذا الذي عرفناه في الوجه الأول نتبعه بما وعدنا به في الوجه الثاني فنقول:

إن الطفل بعد ولادته نراه لا يعرف إلا نفسه، ويظن أن كل من حوله مسخرون منه، ثم يأخذ جسمه في النماء وشعوره وإدراكه في الازدياد. فإذا تكامل شعوره وتم نماؤه أدرك أن له أماً وأباً وإخوة ومدينة، وأن عليه حقوقاً وواجبات، فيكون له ذرية وتلاميذ وعشيرة وأمة، ويحس في نفسه بحب لهم غريب، وكلما ازداد عقلاً ازداد شعوراً بحب الناس، حتى إن الفلاسفة والحكماء بعد الأنبياء أحب بني آدم للناس، يحبون لهم الخير على مقدار علمهم. وعلى مقدار ازدياد العلم يزداد الحب. وعلى مقدار النقص يكون نقص الحب للناس. ونرى هناك تناسباً عجيباً بين الأم نحو أبنائها وبين النبي والحكيم نحو أمتهما. فهذه تحنو على طفلها وتسهر عليه وتعطي للطبيب ما تملكه من مال وما عندها من حلي ولا تنام ولا تأكل ويلحقها الضنى وتبيت على الطوى مع أنها قد تكون شابة فتية جميلة. ولولا هذا الطفل لأخذت زينتها وتبرجت بحلاها، ولكن الرحمة الآخذة بفؤادها قهرتها وأخضعتها لهذا الطفل.

ومحبو الأمم من الحكماء يعطفون عليهم هذا العطف عينه. وهكذا القواد الصادقون يفدون أوطانهم بأنفسهم. وترى العالم يزهد في لذيذ العيش ويبيت ليله ساهراً ونهاره عاملاً ليفرح بإسعاد أمته ورقي أبنائها ونجاحهم وفلاحهم. ولقد كنت في أول زمان شبابي أقول في نفسي: أتمنى أن أقف على الحقائق وأكون مجهولاً لا يعرفني أحد ويكون ذلك مسرة لي. ولما صارت سني أربعين سنة فأكثر كنت أتمنى لو أني جلست في مكان وسمعت الأمة حولي فرحة قد أقامت الأفراح لانتصارها وارتقائها وأنا جالس لا يعلمون مكاني، وتكون غاية أمنيتي أن أعلم ذلك وأستلذ به وإن كانوا لا يعلمون.

وعلى هذا الذي ذكرناه الآن تعرض آراء الفلاسفة. فإذا سمعنا «كارليل» يقول: إن الإنسان يعرف قيمة الخير والشر بمجرد الإلهام والشعور بدون حاجة إلى تمرين؛ فذلك حال المرأة إذ تربي طفلها، وفي حال الحكماء وعظماء الرجال. وما من رجل أو امرأة إلا وعنده أثر من هذه الغريزة قليلاً أو كثيراً، فيقلّ في الجهلاء ويكثر في العلماء غالباً. فإذا رأينا «كارنري» و«مل» و«بين» يقولون ذلك إنّما يكون بالتجربة والتمرين، فنقول: نعم. إن معاشرة الكرماء وقراءة تواريخهم وما أشبه ذلك وكذلك التعود على الكرم. كل ذلك يزيد فيما اتصف به الإنسان بفطرته وهكذا بقية الأخلاق.

وإذا قيل إن المقصد من الأخلاق هو سعادة الإنسان نفسه وهي الأثرة كما يقول: «ماكس سترنو ونتشه» قلنا لا غرابة في ذلك، وهذا حق لأن الطفل هذا شأنه، ولكن المرأة تفدي طفلها بنفسها، والحكيم والقائد كذلك. إذن هذان نظرا نظراً جزئياً، كما نقول لأمثال «كارل فخت» القائل فيما تقدم: إن المخ يفرز المعقولات كما تفرز الكبد الصفراء والكلية البول. إنك صادق بحسب ما وصل إليه عقلك، وعقلك لم يترقّ عما تلمسه الأيدي بحاسة اللمس. ولو كنت مبصراً أو سميعاً لعلمت ما علمنا. فأمثال «ماكس سترنو ونتشه» نظروا نظر الصبي في أول حياته يرى أن الناس مسخرون له.

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل

هذه هي أخلاق الإنسانية وآراؤها، ذكرنا نموذجاً لتحليل قضاياها العلمية والعملية، ورددنا كل رأي إلى مقرّه، فآراء العلماء في هذه الأرض أكثرها راجعات لأحوال خاصة.

أما النظر العام فهو الذي يكون على نسق ما بيناه . (وما كل مصقول الحديد يماني) .

وإذا قيل : إن السائق لسلوكنا في أعمالنا هو الخوف من التعيير والذم أو حبنا مدح الناس ، فذلك نقص . وإذا كان الخوف من الله أو الرغبة في ثواب الآخرة فهو أكمل ، ولكنه ليس في المرتبة العليا . أما إذا كان العمل لأحد أمرين إما لحب العمل نفسه مع النية من حيث إنه جميل ومحبوب ونافع ، كأولئك الذين يفدون الوطن بأرواحهم ، فهؤلاء يجدون في هذا الإقدام سعادة ، فهاهنا اجتمعت سعادة الناس مع سعادة الإنسان نفسه . والمرأة تسهر ليلاً على ابنها ترى في ذلك أنها عملت واجباً أرضاها ولا ترضى به بديلاً .

وأما لحب الله وطاعته بدون نظر إلى ثواب أو خوف من عقاب . فهذا العامل هو الذي يكون كأنه في جنة عرضها السماوات والأرض ، لأنه في كل حين يكون مستحضراً ذلك المقام الأقدس فرحاً به في غدوه ورواحه لا يبالي بالمستقبل ، بل يفرح بأنه قائم بواجب في حضرة ربه ، ويكون إذ ذاك كأنه بين يدي الله تعالى ، وتحدثه نفسه أن رب الدنيا هو نفسه رب الآخرة . ومثل هذه النفس تعجل لنا السعادة في هذه الحياة الدنيا فتكون الأعمال ممزوجة بالسعادة . وهذا الفريق موجود في الأرض الآن ولكنهم مجهولون ، يحسون أن الله ناظر إليهم ، وإذا وقفوا في العراء ظنوا أنه أغرى النجوم الثاقبات لتنير الأرض فتذكرهم بجماله فيكونون حالاً في حضرته وإن كانوا في أجسامهم الظلمانية . فالسالكون للخوف عبيد مسخرون ، والسالكون للحب هم المقربون . هذا تحقيق المقام . كل ذلك وهي صامتة لا تبدي حراكاً .

فلما أتممت هذا المقال قالت : لقد أجدت ووفيت المقام حقه على قدر ما يسعه ، وقد أذن الله بظهورها في هذا الزمان ، لأن الأمم منذ أكثر من عشرين قرناً لم تكن تستعد لها . أما الآن فإن الإنسانية أخذت تقترب ، والعقول أخذت تستيقظ . وأنت من الممهدين لرقيها والمجدّين لإسعادها ، ثم قالت : أستودعك الله . ووضعت يدها على صدري وقرأت كلمات فلم أحس بشدة ألم فراقها . ثم غادرت المكان وأنا لا أزال في عالم الخيال ، وهنالك استيقظت فألفيتني في مكاني لم أبرحه ، وقضيت العجب مما رأيت ، وكتبته ليلة أول ديسمبر سنة ١٩٣٠ م .

وفي صباح يوم الاثنين أول ديسمبر حضر صاحبي الذي اعتاد أن يباحثني في هذا التفسير واطلع على ما كتبته ، فقال : حيا الله هذه الروح التي ساعدتك على إبراز هذه المعاني ، فلقد حوت كل ما يعوزنا من الحكمة ، فهاهي ذه جمعت آراء علماء اليونان وعلماء أوروبا وأدركنا ما وصل إليه فلاسفة العالم أجمع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، وبهذا فهمنا معنى ما ورد : « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » . فإذا كانت هاتان كلمتان لم نفهمهما إلا بعد أن درسنا آراء أفلاطون مع سقراط ثم أرسطاطاليس ؛ ووجدنا الآخر يعوّل على المادة في العلم والأخلاق ، ولكني أسألك في معنى السعادة عند أرسطاطاليس . فإذا كان وهو لم يسلم بنظرية العالم المجرد وخالفه الأستاذ « كنت » الألماني بعض المخالفة ، إذ أثبت الثاني العقل المجرد ورتبه على أن قانون الأخلاق والسلوك يؤدي في نتيجته إلى أن هناك عقلاً مجرداً لينال جزاءه جزاء وفاقاً ،

فهل يكتفي الأول في السعادة بمجرد عمل الواجب واللذة العقلية به؟ قلت: كلا. إن أرسطاطاليس يقول: إن السعادة يلحظ فيها جانب الأهل والأصحاب حتى جمال الإنسان نفسه. فالسعادة عنده رأسها سلامة العقل ووفور الحكمة. ويداها ورجلاها الزوجة والولد والأصحاب والمال.

وقد قرر ذلك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه «الإحياء»، وفصل السعادة إلى ستة عشرة نوعاً، وجعل للعقل أربعة، وللأصحاب والولد والأهل أربعة، وللأمور الخارجة عن هذا كله أربعة كالتوفيق والتأييد وما أشبه ذلك. ولا جرم أن ذلك يرجع إلى رأي أرسطاطاليس. فقال: وما الرأي في هذا؟ فقلت: إن الرأي عند الفلاسفة قد قدمته، وهو أن الفكرة العامة الإيثار، وأن يجعل المرء نصب عينيه إسعاد المجموع. فأما هذه الأقسام التي زادها هو على السعادة النفسية وتبعه الإمام الغزالي فيها فهي صالحة للسعادة والشقاء. فالولد والمال والأصحاب، كل هذه صالحات لخير الإنسان وشره، وهي تعين على عمل البر كما تعين على عمل الشر. إذن هذه آلات صالحات للسعادة فتزيدها، وصالحة للشقاوة فتزيدها. وخير من أفصح عن ذلك هو «لغز قابس» الذي لخصناه في مواضع من هذا التفسير.

وعلى ذلك لا تصلح هذه الخيرات الأرضية للفرح بها. وكيف يفرح الإنسان بها وهي معرضة للزوال، فيكون الحزن والحزن شر، وهذا سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[القصص: ٧٦]، لأن الفرح يدل على قلة المعرفة بالحقائق. وهذا هو السبيل الذي انتقد بسببه بعض فلاسفة أوروبا الأخلاق عند أرسطاطاليس، فنجد أن «بارتلمي» الذي تقدم ذكره في صحيفة (٩٨) من المقدمة التي ذكرها في النسخة المترجمة يقول: إني أضع أخلاق أرسطو مع ما بها من عظم في مقام أنزل بكثير من أخلاق أفلاطون وسقراط. وأن «بروكر» أقسى منا في حكمه، إذ يرى أن أخلاق أرسطو إنّما جره إليها مظهر معيات الملوك التي عاش فيها، وليس صالحاً إلا إلى تكوين بطانة تهمهم ثروتهم أكثر مما تهمهم سعادتهم، أو أمراء كالاسكندر أشغف بالمجد منه بالفضيلة. اهـ.

وأقول أنا: فما ذكره الإمام الغزالي في الإحياء تابعاً أرسطاطاليس قد لطفه هو في الإحياء كثيراً واضطر لذلك فيه، لأن فلسفة أرسطاطاليس هي الشائعة إذ ذاك. ثم إن أرسطو كما تقدم جعل العلم ليس راجعاً إلا إلى المادة لا إلى المثل الأفلاطونية. وقد تقدم شرحه مراراً. وهذان سببان فيما تقدم من أن روفائيل المصوّر صوّره في الفاتيكان مشيراً إلى الأرض كما صوّر سقراط مشيراً إلى السماء. إذن أرسطو كما أنزل العلم النظري إلى عالم المادة وجعله مرتبطاً به جعل السعادة في الأخلاق لها ارتباط بالمادة، وأذكرك أيها الذكي بما كتبته في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٦] الخ، فهناك ترى ملخص «لغز قابس» اليوناني الذي عاش في زمن سقراط قبل أرسطاطاليس بزمن، وكان ذلك في نحو القرن الخامس قبل الميلاد.

ويقرب منه من حيث هذا المعنى كتاب «الكوخ الهندي» المؤلف في القرون الأخيرة بالفرنسية وقد لخصته سابقاً في هذا التفسير. فقال: أي الفريقين يؤيد القرآن؟ أفريق القائلين بأن السعادة مادية، أم

القائلون بأنها معنوية؟ فقلت: الفريق الثاني. فقال: ما دليلك؟ فقلت: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]، فقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ الخ؛ هو عين ما يقوله علماء الفرنجة فيما تقدم «التضحية». ومن هذا القبيل الجهاد في سبيل الله، ومنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة: ١١١] الخ. وكيف يكون المال والولد سعادة ـ كما يقوله أرسطاطاليس ـ في القرآن، والله يقول: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥] فإذا كان المال والولد عذاباً كما في القرآن وفي صريح قول سقراط وقابس فكيف يكون سعادة؟ فقال: يا للعجب إن حكم القرآن وأسراره هي نفس آراء أعظم الفلاسفة. وهنا أودّ إن سمحت أن أسألك في معنى بقية الآية، فإن ما تقدم كله في معنى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ [فصلت: ٣٠] الخ، لأن النظريات العلمية ترجع لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، والنظريات الخلقية كقضية أرسطاطاليس وكنت وغيرهما ترجع إلى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾، فما معنى قوله تعالى: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]. قلت: هذا المعنى تقدم في أول هذه المقالات. ألا ترى ما يقوله حكماء الأمم قبل الإسلام وبعده وقد نقلناه قريباً، والمنقول عن علماء الصوفية بحر لا ساحل له في مساعدة الله تعالى للصالحين.

والمسلمون قد برعوا في هذا. والسبب في تلك المساعدة والمدد لهؤلاء الصالحين أنهم متى صلحت أعمالهم، واستنارت عقولهم، وعرفوا أن نفوسهم متصلة بعوالم مجردة غير مادية، صاروا أقرب إليها، وأصبحت عند عقولهم قريبة كقرب المادة من أجسامهم، فهنالك يحسون بإلهام وبترحاب وبشائر، ولا يعرف هذا إلا هم، أما غيرهم فهم محرومون من ذلك، فمثلهم كمثل أكثر النوع الإنساني من حيث مشاهدة الجمال، فالجمال حولهم ولكنهم لا يفرحون به، لأنهم محجوبون عن جمال النجوم والشجر والأنهار والبحار والأزهار، ذلك لأنهم من يوم أن أتوا إلى الأرض لم يسمعوا عن سعادة إلا سعادة المال والسلطان، ولم تفتح لهم أبواب سعادة الجمال، فأغلب النوع الإنساني محروم من هذا الجمال والإحساس به مع أنهم يرونه بعيونهم وهم محرومون منه. ولا ريب أن المحسوسات بالحواس أقرب إلى عقول الجمهور.

فإذا كان الأقرب إلى عقولهم وهو الجمال ولم يدركوه ولم يسعدوا به فكيف بما هو أبعد من حواسهم وإن قرب من عقولهم وهو عالم الإلهام والبشارة في عوالم عقلية متصلات بعقولهم، وهذه العوالم صلة بينهم وبين ربهم. فهؤلاء هم المحجوبون بسبب أن أبواب عقولهم أقفلت بينهم وبين الأرواح العالية.

فإذا أحسوا بإلهام أو رأوا رؤيا فرأوها صباحاً مثل فلق الصبح ثم رأوا مثلها مراراً وتكراراً فإنهم يقولون هذه مصادفات. وإذا أغيثوا في حال الضيق أو ألهموا أمراً نافعاً فإنهم قلما يكترثون له ويقولون هذه مصادفات، وهم يجهلون أنهم مغمورون في رحمة الله وهو قريب منهم، وهذه علامات

قربه، ولكن استعدادهم الناقص حجبهم عن ربهم فلم تفتح لهم أبواب السماء. وهذا الباب يفتح للعامة بطريق الذكر والتقوى، وللخاصة بذلك وبالتفكر والعلم.

واعلم أن كثيراً من قراء هذا التفسير سيفتح لهم هذا الباب، وهم المتوسطون في الفهم الذين لهم صفاء به يدركون البرهان الذي فتح الله به علينا، فإن أحدهم يجلس وقد أغمض عينيه وفكر فيرى أن روحه لطيفة متصلة بعالم روحي تستمد منه. وهنالك يحس أحدهم بأنه في عالم قدسي. وهؤلاء هم الفريق الذي ورد فيه الحديث: «اعبد الله كأنك تراه» الخ، فهذا باب من أبواب كأنك تراه. وهذه من أعظم درجات الناس في الدنيا. فنحن لا نرى الله بعين البصرة ولكن بهذا البرهان نراه بالبصيرة. وهناك درجة أقل من هذه وهي أن نعبد الله ونعلم أنه هو يرانا. وهذه درجة أقل من تلك، لأني إذا كنت ألحظ الله وجماله في نفسي وفي كل ما هو حولي فإن ذلك أشرف من أن أكون عبد سوء فأعبده خوفاً من ناره أو طمعاً في جنته، وتكون عبادتي مبنية على تلك الأسباب مرتقباً منه إزاحة ناره عني أو أن يدخلني جنته. وخير من هذا أن أكون كأني أراه في الحياة فإذا مت فإني أراه بعد موتي، ورؤيتي له في الآخرة أجلّ من الجنة، وهو المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق: ٣٥]، والمقول فيه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣].

ولما وصلت إلى هنا قمت وتوضأت وسجدت لله شكراً على نعمة العلم في هذا المقام وصاحبي يشاهد ذلك، فقال: لقد شرحت صدري، وصرت موقناً إيقاناً تاماً، وأصبح المعسور ميسوراً، والمجهول معلوماً، وعلمت أنا ما لم أكن ولا كثير من أمثالي نعلم، وكان فضل الله علينا كثيراً. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

تذكرة: إني غادرت القاهرة وتوجهت إلى مزرعتنا بالمرج يوم الاثنين أول ديسمبر سنة ١٩٣٠م وسرت على قدمي نحو أربع ساعات لمجرد الرياضة، وهنالك خطرت لي هذه الخواطر فكتبتها يوم الثلاثاء ٢ منه وهي:

نواضر الجواهر، لنفائس العرائس

في خلاصة ما تقدم هنا من الحكمة العلمية والعملية

ذلك إنّما مثل النفس الإنسانية مع حواسها كمثل الشمس مع سياراتها، فكما أن للشمس سيارات عليا كزحل والمشتري تدور حولها، وسيارات سفلى كالزهرة وعطارد، وهكذا للنفس مدركات عليا كالعقل والعين، ومدركات سفلى كاللمس والذوق، وباعتبار آخر إن المدركات ثلاثة أقسام: قسم أعلى كالعقل. وأوسط العين. وأدنى كبقية الحواس، فباعتبار التقسيم الأول كان الفلاسفة على قسمين: قسم أقرب إلى المادة وهم الماديون، وقسم أقرب إلى العقل وهم الروحيون، وكل لم يقل إلا ما وصل إليه جده واجتهاده لا أقل ولا أكثر، فالماديون أشبه بالصم العمي لم يعرفوا إلا ما تلمسه أيديهم ويشمونه ويذوقونه، والآخرون لهم عيون ولهم عقول. والصورة التي رسمها روفائيل في الفاتيكان مظهر لذلك التقسيم. فأرسطو للقسم الأرضي وسقراط للقسم السماوي. وباعتبار التقسيم الثاني يكون أفلاطون كالعقل، والأستاذ كنت كالبصر، وأرسطو كالحواس الملابسة

لعالم المادة. ذلك أن برهان الأول في إثبات وجود الله وخلود الروح أرقى من برهان الثاني، وبرهان الثاني لا يحتمل المصادمة لأنه علقه على قوانين الأخلاق، وأن من الناس من لا ينالون مكافآت في الحياة، فلا جرم تكون للناس حياة أخرى وإله يجزي بالعدل. برهان أفلاطون رجع إلى الشمس وما خلقه الله بسببها وهدايتها للحيوان، وأن ذلك يقاس عليه وجود الله ووجود عالم المثال.

وهذا هو خلاصة عقول الناس منذ (٢٥) قرناً، فأولهم أفلاطون مع سقراط، وهذا هو برهانه الذي نبذه أرسطو وعوّل على المادة والصورة في برهانه فخالفه تلاميذه، فأخذت الإنسانية كلها تتخبط إلى وقتنا هذا، فكان الرواقية والأبيقورية قبل الميلاد، فالرواقية وقعوا في الحلول، والأبيقورية قالوا باللذة الروحية بالفلسفة. وتغالى الرواقية في الفناء وفي البحث عن كشف ما وراء الحس.

فأما بعد الميلاد فقد نشأت الفرق الثلاث: الإسكندرية والأثينية والسورية. وأشهرهم أفلوطين وشيعته بمدينة الإسكندرية، وهؤلاء هم الأفلاطونية الحديثة.

ثم انتقلت الفلسفة إلى الأمم الإسلامية والأمم الأوروبية ولم يظهر بعد الرواقيين في الأخلاق عند أوربا إلا الأستاذ «كنت».

هذه خلاصة الأمم تجلت واضحة جلية، وقد عرفت أهم آراء هذه الأمم كلها، وعرفت براهينهم بغاية الجلاء والوضوح.

أما تفسير الجواهر فقد أتى ببرهانين:

الأول: المدركات كلها مغموسة مغمورة ومتصلة بعوالم تناسبها، وهذه العوالم تكون أعظم وألطف وأجمل وأوسع كلما كانت أرقى، فإذا وصلنا من أدنى الحواس إلى أعلاها وهي الخمس؛ وجدنا هذه القاعدة مطردة، فمن الجهل ومن الحمق أن نحرم المدرك السادس وهو أعلاها بل سيدها من هذه المزية، وأن يكون متصلاً بعالم يشاكله، ويكون أعظم وألطف وأجمل وأوسع من العالم المتصل بالمدرك الذي يليه مباشرة وهو العين. وهذا البرهان حديث النشأة لم يذكره أحد من هؤلاء الفلاسفة، ولن يرد عليه أي اعتراض مما ورد على الأستاذ «كنت»، ولا مما ورد على أفلاطون وسقراط. وإذن تستأنف الإنسانية اليوم دوراً جديداً في العلم والحكمة بعد هذا البرهان.

البرهان الثاني: يساوي البرهان الأول في القوة إن لم يكن أقوى منه، وذلك أن نقول: إن الأرض عجزت عن إيجاد حرارة بها تثير البخار من البحار وتثير الرياح فيكون مطر من السحاب المحمول بالرياح، وعجزت أيضاً عن ضوء يساعد النبات على التغذية، والحيوان على الاهتداء في فجاج الأرض ومسالكها، والانتفاع بالحياة فيها، ونجدها استعارت الحرارة واستعارت الضوء من الشمس، فإننا نجد الحيوان لا يرى غذاءه ولا يميز عدوه من حبيبه إلا بالضوء، ونرى المطر والرياح لا يكونان إلا بحرارة باعثة، ونرى أوراق النبات لا تجتذب غذاءها من المواد الغذائية في الهواء إلا بمساعدة ضوء الشمس لها.

انظر ما تقدم في سورة «يس» عند آية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦] الخ، فهناك ترى الأوراق مرسومة مشروحة وتفهم ذلك هناك فهماً تاماً.

فإذا رأينا أرضنا عجزت عن إمداد أبنائها بالحرارة وبالضوء؛ واحتاجت إلى الشمس في ذلك؛ فهي عن إمداد ما يكون عليها من حيوان بالإدراك والغرائز والعواطف والعقول أولى، ومن عجز عما هو أسهل وهو المحسوس بحواسنا من الحرارة والضوء فهو عما فوق ذلك مما تدرك عقولنا أشد عجزاً. فثبت بهذا البرهان أن المادة لا تقوى على إحداث نفس أو عقل أو غريزة أو شعور في الحيوان، لأننا وجدناها قد أظهرت عجزها ولم تسعفنا بما هو أسهل وأقل عناء.

فهذان البرهانان اللذان وضحا وضوحاً تاماً، بهما طاحت تلك المذاهب البائدة، وبهما تخرج هذه الإنسانية من خطل الرأي والاغترار بالألقاب الفخمة العريضة الطويلة التي يغتر بها الأحداث في المدارس فيظلون يعمهون بسبب سوء التقليد بلا عقل ولا هدى ولا كتاب منير.

هذا هو نهاية الكلام على الحكمة العلمية، ومما يلحق بهذا مسألة الحرية، وهل نحن أحرار في أفعالنا؟ وإذا لم نكن أحراراً فلم العقاب؟ وإذا كنا أحراراً فأين هي تلك الحرية؟ أفلاطون أجمل في هذا، وآخرون استدلوا على وجودها بما اتفق عليه العقلاء من التمييز في العقاب بين العاقل وغير العاقل وهكذا، فدل ذلك على أن هناك حرية نتمتع بها، ولا أطيل في هذا الآن.

الحكمة العلمية

ملخص ما تقدم

أولاً: إن في الإنسان إلهاماً يميز به بين الحسن والقبيح في الأعمال كما يميز بين الجميل وغير الجميل في الأجسام، والتجربة تعين الإنسان على ذلك.

ثانياً: إن غاية سلوكنا إما أن يكون نفعنا الخاص بنا وهي الأثرة وإما أن يكون النفع العام.

ثالثاً: ما الذي يحبينا إلى تلك الأخلاق؟ أهو صوت باطني في نفوسنا؟ أم هو أمر خارجي كالخوف من الله أو من الناس، أو حب المدح، أو حصول الثواب.

هذه آراء الأمم، أما ما جاء في تفسير الجواهر فهو إننا كما فعلنا في القسم النظري إذ عوّلنا على النظر في المدركات الست للإنسان. هكذا فعلنا في القسم العملي الخلقي، وقلنا: لننظر الفرق بين طفل يستخدم جميع مواهبه في الاستعانة بما حوله وبين حكيم ومحب لوطنه، وأم ترضع ولدها وأب ينفق عليه، فهؤلاء في الذروة العليا من العطف والإشفاق والرحمة والإيثار، وذاك في الدرك الأسفل في الحياة، وعلى ذلك يزول خلاف الفلاسفة إجمالاً. فمن قال: لا أعمل إلا لنفسي، قلنا له: هاأنت عرفت درجتك، فأنت إما طفل، وإما صبي، وإما مراهق، والناس درجات لا حصر لها كدرجات الإنسان في حياته، فهذا المثال لا يذر مذهباً إلا دخل فيه، فمن قال بالهداية الذاتية فهي مشاهدة، ومن قال بالتجربة فكذلك، ومن قال: أخدم المجموع. فهاهي ذه الأم مع ولدها وهكذا، فالمثال واضح جليّ، وقيمة الفلاسفة تختلف باختلاف معارفهم. وأذكياء قراء هذا التفسير هم الذين يكونون شهداء على الناس. ذلك لأنهم يقرؤون علوم الأمم، لكنهم هم الذين يحكمون على الفلاسفة بعقولهم على منوال ما جاء هنا في تفسير الجواهر. أما ترك هذه الإنسانية تتخبط في ديجور الظلام فهذا لا يجوز ولا يصح فنحن خلفاء الله في أرضه.

جمال العلم في الحكمة العلمية والحكمة العملية

لقد ضربنا المثل بالإنسان في الحكمة العلمية والحكمة العملية، ورأينا أن قوته العقلية كما تتخذ الحواس الخمس آلات لها في اكتساب المعارف الجزئية؛ تستمد من العالم العقلي الكليات. والكليات هي العلوم الحقيقية. أما مدارك الحواس فهي قليلة جزئية ويعتريها الخطأ، فإن العين قد ترى الكبير صغيراً كالشمس. وترى الصغير كبيراً كالإصبع في الماء. وكم للحواس من خدع ولا يصلح تلك إلا العقل السليم. إذن كل ما عندنا من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها مستمد من عالم عقلي، وهو مستمد من المبدأ الأعلى الفياض القدسي كما تشرق الشمس بأنوارها على أرضنا وعلى السيارات الأخرى. فهكذا في أخلاقنا وأعمالنا وشعورنا وعواطفنا نقول ما قلناه في القسم النظري: إذا عجزت المادة عن أن تمد الأجسام بالحرارة والعيون بالضوء فما أشد عجزها وأضعف قوتها، وما أوهى حيلتها في إلهام الأم حب ولدها، وإلهام الأستاذ حب ارتقاء تلميذه، وشوق نفوس الحكماء إلى التآليف للأجيال المقبلة التي لم يروها ولن يروها، فمن أين أتت محبات الأقارب والأصدقاء والأزواج والذرية. بل من أين أتت هذه الشهوات الطالبات ملابس وأغذية وأزواجاً وذرية ومساكن وملكاً عظيماً، ومن أين أتت هذه البواعث الشديدة في نفوسنا من المحافظة على العرض والشرف والنجدة وحماية الذمار، فإذا قلنا: إن ذلك من نفس المادة التي خلقت هي فيها، وإن تلك العواطف والحب والغرام والشوق كلها ناجمات من نفس الطبيعة، يكذبه أن هذه الطبيعة الميتة عجزت عن إحداث الحرارة اللازمة لها، وعن إحداث الضوء، وبالأولى عجزت عن إحداث عقل وإدراك، فهكذا هي أشد عجزاً عن إثارة الحب والغرام والعواطف والشهوات.

فثبت إذن أنه كما أن الحرارة تثير البخار من البحار وتثير الرياح ويحمل الأخير الأول، فيكون مطر، ويحدث نبات وحيوان. هكذا هناك فينا شهوة في مقابلة الماء وغضب في مقابلة الرياح، وهناك باعث من أعلى لا من الطبيعة يثير أنواع الشهوات لنتغذى ونلد ونلبس ونسكن، ويثير الحمية فنحافظ على الشرف والمال والعرض، وهذا الباعث المسلط على نفوسنا آت من العالم الأعلى، كما أن الإدراك في القسم النظري صدر منه، فصدور هذا الباعث هنا من العالم الأعلى القدسي في مقابلة صدور الحرارة من الشمس في العالم الحسي والضوء وإثارة السحاب والرياح ثم هداية الحيوان على الأرض، ونتيجة ذلك كله البهجة والجمال والحسن والكمال. فإذا جلست أيها الذكي في خلوتك وفكرت في نفسك؛ وأيقنت أن عقلك وجميع علومك لها اتصال بعالم عقلي أنت فرع منه؛ وهذا العالم العقلي أوسع من عالم النور، وهو مستمد من الله، فهنالك تحس بأنك في عالم جميل بهيج، وإذا لم تبتهج بذلك ففكر حالاً في جمال النجوم ليلاً والشجر والزهر والأنهار نهاراً، وهكذا ترجع إلى ما ألهمت من عواطف، وما منحت من شرف وحماسة وعفة وكمال وحب عام لرقي نوع الإنسان ورقي أهلك وعشيرتك. وقد علمت أن هذه إن هي إلا قبس من ذلك الفضل العميم والحب الأعلى والإحسان الكامل، وأن إحسانك وحبك وعطفك كل ذلك مقتبس من العالم القدسي، وأن العوالم التي يستمد منها عقلك هي نفسها التي تستمد منها عواطفك الحب والإحسان والرفق والغرام

بالنفع العام. فترى نفسك إذن كأنك عالم صغير، وتفرح بأن لك صلة بجمال لا حد له وكمال لا نهاية له، فترتقب الموت ارتقاب الفرح بالكمال المقبل على سعادة لا نهاية لها. ولن يتم ذلك الحب والغرام إلا بإطالة التفكير والبحث وتصفية النفس وكثرة الصيام والقيام. هذا هو سر هذا الإنسان. وهذه هي سعادته. وهذه هي النفس المطمئنة التي نوديت فقيل لها: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر: ٢٧-٣٠].

خطاب الله عز وجل شكراً له

لك الحمد اللهم على الإلهام والإنعام والحكمة والجمال ونعمة العلم والنور. علمتنا وأنرت بصائرنا فنحن نعلن شكرنا ونثني عليك الثناء كله. أريتنا آياتك في الآفاق وفي أنفسنا. نظرنا في نفوسنا وفي الآفاق فألفينا:

أولاً: صوراً جميلة في الكواكب وفي الزروع والشجر والنهر، وفي المعادن والحيوان، وفي الإنسان وجمال وجهه في محاسن الخدين والعينين والأنف والفم.

ثانياً: أثرت في أنفسنا شهوات لا قوام لحياتنا إلا بها. وهل نعيش إلا بالطعام والشراب واللباس والمسكن. وهل نحافظ على هذه الهياكل الجسمية إلا بحافظ يحفظها وهي القوة الغضبية التي بها ندافع الأعداء من الخارج ونهذب أنفسنا من الداخل، ولا نفرط في حقوق الجسم والمحافظة عليه بإثارة الحمية لأجل حب البقاء.

ثالثاً: جعلت لنا عقلاً ينظم القوتين السابقتين فهو نبراسهما ومعلمهما ومهندسهما ومنظمهما.

ولما عزّ علينا فهم تلك الدقائق ومعرفة تلك القوى العاملة فينا، أريتنا ما في الآفاق فعرفنا الحقائق. أريتنا الماء وأريتنا الهواء ومنهما تثير الحرارة والبخار وتزجي الرياح، ويحمل الريح الماء على متنه ويسوقه إلى الأرض البعيدة مرغماً لسقي الأرض فيكون النبات والحيوان، فيكون الضوء مساعداً على تغذية النبات أولاً، وعلى هداية الحيوان ثانياً.

فهما عالمان: عالم حامل، وعالم محمول، أثارتهما الحرارة، وجاء دور الضوء فكان الغذاء لتمام الأشكال وللهداية للسبل.

فلما نظرنا في هذه الحرارة وفي هذا الضوء وجدناهما جاءا من عالم الأثير بسبب الشمس، وعالم الأثير وسط بين عالم المادة وعالم الأرواح. والضوء في هذا العالم الوسط يجري بسرعة هائلة بحيث يدور حول الأرض نحو ٧ مرات في ثانية واحدة. هذا هو العالم الوسط بين المادة وبين الروح الذي أثار الماء وأثار الهواء ونظم الغذاء والهداية في فجاج الأرض، والأرض لا قبل لها بالحرارة ولا قبل لها بالضوء.

فلننظر فيما هو أبعد مدى من ذلك فإننا نجد أمراً عجباً. نجد أولاً قوى تبحث على الغذاء. وأخرى تحافظ على هذه الهياكل داخلاً وخارجاً وهي الغضبية، وأخرى هادية مرشدة. وهذه تقابل الحرارة والضوء في عالم المادة، فمن أين أتت هذه القوى الثلاث؟ أمن المادة أتت؟ كلا. لأنها عجزت عن إحداث الحرارة والضوء وهما وسط بين الحسي والعقلي، أجاءت من عالم النور الآتي من

الكواكب وهو العالم المتوسط بين العالمين. كلا. فأين النور وأين العقل مثلاً الذي هو ألطف منه. إذن هذه القوى بريئة من المادة، وهكذا القوى المنظمة للعوالم الكونية والنباتية والحيوانية اللاتي تحدث التزويق والجمال.

فهذه كلها لن تكون إلا من عالم فوق عالم النور وهو عالم الأرواح، وهذا العالم فاض من الذات القدسية كما فاض النور من جرم الشمس. إذن كل جمال في الإنسان والعوالم حوله، وكل قوة فيه علت أو سفلت فإنها من عالم روحي متصل بالقدس الأعلى.

وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥]، فكل جمال في شجر أو زهر أو كوكب روحه فهو قبس من العالم القدسي، وهكذا قوانا الباطنية من عقلية وغذائية والقوى المحافظة على ذلك، فكلها نور معنوي وزع على منافعنا من ذلك الجمال الأقدس.

وهذه الأنوار الداخلة في أجسامنا الظاهرة في جمال ما حولنا، وفي وجوهنا، يشملها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[النور: ٣٥]. إذن يا رب أنت في علمك القديم علمت عجزنا عن أن ننظر أنوارك، فملأت أرضنا بأنوار جعلتها في مقابلة نورك، وكل نور منها مشكاة، فعواطفنا وعلومنا وجمالنا والقوى الداخلة فينا وبهجة القمر والنجوم والأزهار كل واحدة منها كأنها مشكاة من نورك، ولكن لم تبح لنا أن ننظر نورك نفسه لأننا لا نقدر عليه، غاية الأمر أننا نفكر أو ننظر جمال الشجر أو الزهر أو الوجوه الجميلة، أما وجهك فلا. أنت يا رب بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لأبصارنا، عجزت أبصارنا عن أن تنظر إليها، فهكذا عجزت عقولنا عن أن تراك، ففرحت بالمشكاة إذ لا تطيق أكثر منها، المشكاة في أرضنا مستمدة من الشمس، وعقولنا وجميع الجمال الداخل والخارج عندنا مستمدة من أنوارك الجميلة.

إن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى وهو في حال الاحتضار ذلك الجمال والكمال والحكم والحب العام والرحمة، وغاية الجمال الذي كل جمال في الأرض ما هو إلا مشكاة، فماذا قال؟ قال: «اللهم الرفيق الأعلى»، رآك بعين بصيرته، ولكننا الآن عرفنا ذلك بمجرد الفكر، ونحن الآن نطيق الفكر في هذا، ولكننا لا نطيق جمال «الرفيق الأعلى» ولا أنواره إلا إذا كملت نفوسنا، إن جمال عقولنا وكمال نفوسنا أشبه بنا فنحن نطيقه، ورسولك لما رآك وقدر أن يراك فخاطبك قائلاً: «اللهم الرفيق الأعلى»؛ لأنه رأى جمالاً نسبته إلى جمالنا كنسبة نور الشمس إلى نور السراج، فوصفك بالأعلى يعني ونحن رفقاء ولكننا أدنى، وإنما كنا أدنى لأن علمنا وجمالنا وحلمنا وجمال صناعنا ورحمتنا لعبادك ضئيلة جداً، فيرحم أحدنا طفلاً ولد له ومريضاً أشرف على الهلاك. ولكن لضيق الرحمة وضيق الحب لم نبذلهما إلا لعدد محصور، لأن رحمتنا محصورة وحبنا محصور على مقدار ضعف نفوسنا، لأن كلامنا مشكاة. فإذن كل منا رفيق أدنى. ولما رآك صلى الله عليه وسلم واطلع على رحمتك وجمالك وحبك لكل مخلوق وأنت منعم على الكل؛ ترك هؤلاء الرفقاء الضعاف واشتاق إلى الرفيق الأعلى. انتهى والحمد لله رب العالمين. كتب ليلة الخميس (٤) ديسمبر سنة ١٩٣٠م

وقبل الفراغ من هذا المقام يحسن بنا أن نختمه بما يناسب الآية التي نحن بصدد الكلام عليها، وذلك بزهرتان:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[فصلت: ٣٠]، وهي الحكمة العلمية.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت: ٣٠-٣٢]، وهي الحكمة العملية. فلأشرع في ذكرهما، فأقول مستعيناً بالله:

زهرتان في بستان الحكمة العلمية والعملية

الزهرة الأولى: في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[فصلت: ٣٠]، وهي الحكمة العلمية

جاء في جريدة الضياء بتاريخ يوم الأحد أول شعبان سنة ١٣٤٩هـ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠م تحت العنوان التالي ما نصه:

التوفيق بين العلم والدين

رأي العلامة سرجيمس جينس

إن عقولنا تنحيز للتفسير الآلي، ويرجع بعض السبب في ذلك إلى طريقة نشأتنا العلمية الأولى كما يرجع السبب فيه أيضاً إلى أننا ننظر كل يوم الأمور تسير آلياً ميكانيكياً، لذا كان التفسير الميكانيكي هو التفسير الأسهل الذي لا يحتاج إلى كثير عناء أو إلى مجهود فكري عنيف، وهو علاوة على ذلك تفسير طبيعي، ولكن إذا نظرنا إلى الحالة العامة نظرة دقيقة وتامة غير متأثرين بنوع تربيتنا العلمية وإلى شعورنا الشخصي؛ نرى أن المادة قد فشلت فشلاً مروعاً سواء أكان ذلك في العلم أم في الفلسفة، ويوجد الآن شبه إجماع بين العلماء أن العلم يتجه نحو الحقائق غير الآلية، وصار ينظر إلى العالم كأنه يمثل فكرة عظيمة بعد أن كان يعتبره آلة ضخمة.

وابتدأ العلماء يشعرون بأن المادة ليست غريبة عن العقل، ثم أخذوا يرحبون بالعقل ويعتبرونه منظماً للمادة، لا يقصد بذلك عقل الإنسان، ولكن يقصد العقل الذي منه نمت عقول الناس.

إن العلم الحديث يلزمنا أن نغير موقفنا الذي اتخذناه بدون طويل بحث أو روية، ذلك الموقف الذي كنا نجاهر فيه أن العالم مادي لا أثر للحياة فيه ولا علاقة له بالعقل، ذلك الموقف الذي كنا فيه نعتقد أن بين المادة والعقل عداوة قائمة، يجب أن نغير ذلك الموقف لأنه لا عداوة أو خلافاً بين المادة والعقل، بل هما يتفقان، وذلك لأن المادة وليدة العقل وهو سببها.

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير المادي للكون قد صار قديماً، وأن العلم قد ارتقى، فترك هذا التفسير أثراً بعد عين، ويشعر علماء النفس الآن أن في العالم حقائق روحية ونفسية لا يمكن إدراكها إلا إذا اعتقدوا بصحة الدين وضرورته.

انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة. تمت الزهرة الأولى.

الزهرة الثانية

جاء في كتاب إخوان الصفاء ما يأتي :

ذكر أن رجلاً من المترفين وأرباب النعم ممن قد بسط له دنياه ومكن فيها ؛ جعل أكثر جهده وكده طول عمره ليلاً ونهاراً في تنعيم بدنه ورفاهة جسمه ولذة عيشه وإصلاح شهواته ، حتى لم يكن له في طول نهاره شغل إلا دخول الحمام وحلق رأسه وتمريج بدنه ، أو تغيير لباسه أو تبخير ثيابه وبدنه واستنشاق طيبه ، أو تنقله من مجلس إلى مجلس في تجديد لذاته وإصلاح شهواته ، حتى لم يكن يأكل ولا يشرب إلا أطيب الطعام وألذ الشراب ، ولا يلبس إلا أنعم اللباس ، ولا يقعد إلا على أوطأ المراكب وألين الفرش ، وكان لا ينام إلا على سرير معلق في الهواء في وسط قبة له ، مخافة دبيب يعرضه أو غبار يصيبه ، فعاش على هذه الحال زمناً طويلاً حتى شهر في الناس بطيب عيشه ولذيذ شهواته ، وجعل الراغبون في شهوات الدنيا يتمنون حاله ويغبطونه فيما فيه ، ويتشبه به المترفون من أهل زمانه وأرباب النعم كل واحد بحسب إمكانه واتساع حاله ، حتى صار قدوة لطالبي اللذات في اتباع الشهوات ، وكان مع هذه الحال كلها لم يكن يعرف شيئاً من إصلاح نفسه ولا تحسين أخلاقه ، ولا تفقهاً في الدين ، ولا تزوداً لآخرته ، ولا تفكر في أمر معاده ، ولا رغبة في العلم ، ولا طلباً لأدب ، ولا فكرة في زوال الدنيا ، ولا ذكراً للموت ، بل كان مقبلاً على طلب شهواته ، محتقراً لأمور الناس ، مزرياً على من دونه ، معرضاً عن الفقراء ، مهاجراً لأهل العلم ، متهاوناً بأمر الدين . ثم أراد الله تعالى أن ينبهه من نوم غفلته ورقدة جهالته ، ويري للعباد قدرته ، ويجعله عبرة لغيره وعظة لمن سواه ، فبينما هو ليلة نائم على فراشه فوق سريره معانقاً لحبيبته ؛ وأبواب داره مغلقة وستوره مسبلة ؛ وحول سريره شموع تزهر وعلى أبواب داره خدمه وغلمانه مستيقظين ؛ إذ رأى فيما يرى النائم كأنه في برية قفرة وحده ، وهو عريان جائع عطشان وبدنه مسود وشعره طويل وجسده ملوث برجيع ما في جوفه ، وعلى ظهره ثقل ثقيل ، وإذا هو بأسودين منكر خلقتهما طويل قامتهما وعيونهما تبرق ، ومن مناخرهما يخرج الدخان ، ومن شدقيهما تلتهب النيران ، وبأيديهما حراب حداد ، وهما يقربان نحوه ليأخذاه ، فلما رآهما ولى هارباً من بين أيديهما وهما يتبعانه ، حتى إذا أمعن في هربه إذا هو بجبل شاهق فيه طريق ضيق وعر مسلكه ، سلكه بمشقة شديدة وعناء طويل ، حتى إذا انتهى إلى قلته هوى من الجانب الآخر في واد منكساً على رأسه ، حتى وقع في بئر يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس ، ولهب يشوي الوجوه ، والأسودان في أثره لا يفارقانه . فمن هول ما رأى وعظم ما عاين وشدة ما لقي صرخ في منامه واضطرب اضطراباً شديداً ووقع من سريره إلى الأرض ، وانتبه كل من كان في داره ومن حوله من جيرانه من شدة زعقته ، وطاش عقله وشخصت عيناه وارتعدت مفاصله وانغلق لسانه ، واجتمع حوله كل من كان في داره من خدمه وغلمانه وأقربائه يسألون ما أصابه ، فلم يطق جواباً بقية ليلته حتى أصبحوا ، وجمعت له المعزمون والراقون وظنوا أنه أصابه لمم من الجن أو سحر من الأعداء ووسواس من الشيطان . فقال لهم : ليس بي ما تظنون ولكن رأيت رؤيا هالتني وأفزعتني ، فجمعت له المعبرون وقصت عليهم رؤياه فقال بعضهم : أضغاث أحلام . وقال بعضهم : هذا من خلط سوداوي ومزاج غليظ . وقال آخر : لا بل

فكر ردي وتخيل فاسد. وقال آخر: لا بل هو من الجن. وجعلوا يرجمون الظنون حتى جنهم الليل، فجمع خدمه وغلمانه وأقرباءه في مجلس واحد حول سريره، ونام هو بينهم فوق فراشه، وجعلوا يقرؤون الرقي والعزائم والعوذ ويبخرون الدخن، حتى كان من ذلك الوقت من الليل، فإذا هو برؤياه ذلك بعينه، بل هو أعظم وأهول وأصرخ، ففرّ من فراشه وأفزع كل من كان حوله. ثم أدركوه وجعلوا يسألون عنه وهو مرتعد مرعوب لا ينام ولا ينامون توجعاً إلى الصباح، وتسامع الناس بخبره وجمعت له الأطباء، فوصفت له الحمية والاستفراغ والشربة، وظنوا أنه نافع من هذا العارض ففعل، وما نفع شيء. فلما كان من الأسبوع الداخل في مثل ذلك الوقت من الليل فإذا هو برؤيا بعينه، بل هو أعظم وأهول، فانتبه مرعوباً مرتعداً إلى الصباح ما نام. فلما كان من الغد جمعت له المنجمون والمعزمون والعرافون وسئلوا عن موجبات أحكام النجوم، فذكروا أن مثل هذا العرض إنّما يعرض للإنسان من أجل أن يكون في أصل مولده من استيلاء النحوس على درجة طالعه أو واحد الأوتاد في تحويل السنين والشهور. فقيل لهم: فما الدواء النافع فيه والمنجي له، فقالوا: نختار له يوماً يكون القمر متصلاً بالسعود وطالعاً جيداً يكون السعود في الأوتاد والنحوس سواقط عنها، ويتحول من ذلك الوقت من بلد إلى بلد أو من محلة إلى محلة أو من دار إلى دار، ففعل ذلك وما نفع الدواء له، فشاع حديثه في الناس وتسامعت به الأخبار في البلاد، وصار في موضع رحمة بعد أن كان بحال غبطة، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس خائفين أن يصيبهم مثل ما أصابه من البلوى والمحن، وجعل أهل المدينة ليس لهم حديث في مجالسهم ومحافلهم إلا حديثه ولا عظة إلا ما أصابه، فبينما يوماً جماعة من جيرانه قعود على الطريق في حديثه؛ إذ مرّ بهم رجل يعرف بالناسك، وكان من أهل العلم والدين والسر وقد رزق العلم والإيمان. فقيل له: كيف غمك على فلان جارك؟ قال: كغم أب مشفق طبيب على ولد عليل. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: لأن عندي تأويل رؤياه ودواء دائه. فقيل له: لما لا تقصده وتعرفه ما عندك؟ قال: لا يسمع قولي ولا يقبل نصيحتي. فقالوا: ولم ذاك؟ قال: لأن أزهد الناس في علم الرجل جيرانه، ولكن أخبركم أنا وعرفوه أنتم، ولا تذكروني عنده، فإني خائف ألا يقبل استصغاراً لما أقول أو يفعل من غير يقين فلا ينفعه. فقالوا: عرفنا تسمع ما تقول، فقال: أما رؤيته البرية القفرة فهو براءته من الدنيا وبراءتها منه يوم يموت، وأما فقره فهو فقره بعد الموت وشدة الحاجة في الآخرة إلى الزاد، وأما عريه فهو عري من الأعمال الصالحة التي لها ثواب الآخرة، وأما جوعه وعطشه فهو رغبته وحرصه في طلب شهوات الدنيا، وأما سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله لسوء أعماله، وأما طول شعره فهو شعور حزن طويل في الآخرة، وأما تلويث بدنه برجيع ما في جوفه فهو خوف واكتئاب يناله في الآخرة يتمنى الرجعة إلى الدنيا ولا سبيل له إلى ذلك. وأما الثقل الذي رأى على ظهره فهو ثقل أوزاره وسوء أعماله، وأما الشخصان المنكران فهو منكر أفعاله ونكير أخلاقه وسوء عاداته لا يفارقان نفسه حيث ما ذهبت يتبعانها، وأما الجبل الشاهق فهو جبلته وعادته التي هو عليها مشقة، والشاهق شقاء يناله بعد الموت إلا أن يتوب ويرجع إلى الله عن إثمه، وأما المسلك الوعر فهو طريق الآخرة التي لا بد له من سلوكها بنصب وعناء، وأما الوادي فهو وادي جهنم، والبئر المهوى هي الهاوية التي إليها

تصير نفوس الأشرار وأرواح الفجار. فقالوا: إن هو بادر وتدارك وتلافى قبل الموت فسيكون مصير نفسه إلى هناك بعد الموت، فإن الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه ويذكره بذنوبه ليتوب ويرجع عما هو فيه من الغفلة في أمر الآخرة والحرص على الدنيا. فقالوا له: فما دواؤه؟ قال: ينوي نية صادقة ويعزم عزماً صحيحاً ويرجع إلى الله ويتوب مما قد سلف، ويتصدق بشطر من فضول ماله على الفقراء والمساكين، ويلبس الخشن من الثياب ما يواري العورة، ويصوم في كل أسبوع يومين، ويمشي إلى المساجد خاضعاً، ويتفقه في الدين، ويستعمل القرابين، ويصلي في ظلمة الليل ويستغفر في الأسحار، ويسأل الله تعالى أن يكشف ما به، وأنه تعالى يفعل ذلك إن شاء. فقام القوم من ساعتهم ودخلوا عليه وعرفوه بما أصابه وبما هو خائف مترقب له، ثم أخبروه بما قال لهم الناسك، فقال لهم: من أين لكم هذا التأويل؟ ومن وصف لكم هذه الرؤيا؟ فقالوا: أخبرنا العالم في الدين الناصح الذي لا نشك فيما قاله، فقبل قولهم، وجمع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل الدين فأخبرهم بما قيل له، فقالوا: حقاً ما قيل وصواباً ما وصف، فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون وعن فقه الدين وعن طريق الآخرة وأمر المعاد وصفة الجنان وثواب الأخيار وأين يكون منقلب الأشرار، فوصفوا له ما هو مذكور في كتب الأنبياء عليهم السلام، فقبل ما قالوه، وفعل ما أمروه بين شك ويقين وخوف ورجاء، فلما كان في الأسبوع الآخر مثل ذلك اليوم صام نهاره وتصدق عند إفطاره وأكل يسيراً من الطعام وقام يصلي ليلته، فلما كان من ذلك الوقت وهو ساجد إذ غلبه النوم، فرأى في منامه كأنه في تلك البرية بعينها وقد اخضرت من العشب والكلأ وقد تفتحت زهر الرياحين وفاح نسيمها، فإذا هو على رأس قلة عليها عين من الماء الزلال، وكأنه قد اغتسل من مائها فتناثر عن بدنه ذلك الشعر والدرن وقد ألبس ثياباً جدداً تفوح منها رائحة الطيب، وإذا بشخصين قائمين أمامه كأنهما صورتان من النور تشف أبدانهما عليهما زي الجمال ومحاسن الكمال ورونق الشباب وهيبة الوقار، وهما مبتسمان في وجهه كالمستبشرين له يشيران إليه بالنظر إلى قدام، فتأمل إذا هو بفضاء فسيح يقصر دونه الطرف وبأنوار قد ملأت الآفاق من الضياء، وإذا في ذلك الفضاء رياض خضر كان بينها نسج الديباج من الزهور والنور والزعفران، وإذا في وسطها أنهار تجري على أرض بيضاء كان حصباءها الدر والياقوت والمرجان، وعلى حافات تلك الأنهار أشجار كأن أوراقها الحرير والسندس والأرجوان، وإذا هب نسيم تخشخشت أوراقها كأنها أصوات نغمات أوتار العيدان، وبين تلك الأوراق ألوان الثمار متفننة الأشكال والطعوم وإذا بين ذلك قصور شاهقة كأنها جبال من رخام أبوابها مفتحة، وصحون واسعة وإيوانات متقابلة فيها سرر موضوعة عليها فرش مرفوعة ونمارق مصفوفة، وبينها سادة كرام متكئين متقابلين عليهم زين الجمال ومحاسن الكمال وهيبة الوقار وبأيديهم التحف، يسعى بينهم ولدان وغلمان وجوار حسان أتراب مبرقعات بالمحاسن والجمال، فلما رأى تلك المحاسن قال لصاحبيه: ما هذه؟ قالا: هي الجنة دار السلام ومعدن الأرواح ومسكن نفوس الأخيار ومستقر الأبرار، فإن أنت دمت على ما أنت عليه إلى الموت فسيكون مصيرك إلى هناك بعد مفارقتك جسدك، فتجد لذة العيش وسرور النعيم صافياً بلا تنغيص ما بقي الدهر، فمن فرح ما سمع وسرور ما بشر استفزه ذلك فانتبه دهشاً متفكراً

يتمنى عسى أن ينام فيرى تلك الرؤيا ثانياً بعد أن كان كارهاً للنوم مخافة أن يرى رؤياه الأولى، فلما أصبح تصدق بجميع ماله وأعتق كل عبد له ولبس المسوح، وكان طول نهاره صائماً وسهر ليله قائماً مجانباً للناس لا يكلم أحد، بل يصلي نهاره باكياً حزيناً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، حتى فشا خبره في الناس وتسامعت به في المدينة والبلاد، فقصد الناس من الآفاق يسألونه رؤياه ويسمعون تأويله ويتعظون به، ثم صار بعد ذلك يتكلم على الناس في المجالس بالحكمة والموعظة ويضرب لهم الأمثال، ويدلهم على طريق الآخرة ويرغبهم في ثواب الجنة، ويزهدهم غرورها وأمانيها، ويحذرهم الاغترار بها، فقيل له: من أين لك هذه الحكمة والموعظة وأنت لم تكتب الحديث ولم تسمع الأخبار ولم تقرأ الكتب؟ قال: أجد قلبي كالمرآة يتراءى فيه حقائق الأشياء، وأجد لساني يجري على الصواب من غير تكلف مني، وأجد نفسي كالترجمان تسمع من وراء الحجاب وتعبر وتؤدي إلى أبناء جنسي مما تسمع بلا تصنع مني. فعلم عند ذلك أنه مؤيد بملك من الملائكة يلهمه بإذن الله جلّ ثناؤه.

ثم صار ذلك الرجل قدوة في الدين لأهل زمانه، فبينما هو يوماً في محفل والناس حوله يسألونه عن أمر الدين وهو يفتيهم والناس ما بين مستمع مصدق وشاك ومتعجب منه كيف كان بالأمس أرغب الناس في الدنيا وقدوة لطالبي الشهوات وكيف هو اليوم في أمر الدين لطالبي الآخرة، إذ وقف في المجلس رجل من أولئك الذين دخلوا عليه يعودونه، فرأى ذلك الناسك في مجلسه يسأله عن مسائل من أمر الدين، ويستوصف منه طريق الآخرة، فدنا منه وقال له شبه المتعجب: هذا صاحبك الذي فسرت منامه ووصفت دواءه، وأنت اليوم تسأله عن أمر الدين وطريق الآخرة؟ قال: نعم ولكن قد جاءه من العلم ما لم يأتني، وقد قبل نصيحتي أمس فنفعته اليوم، وأنا أقبل منه اليوم ما عسى أن ينفعني غداً، وكانت صفتي له أمس تعليماً بشرياً، وصفته اليوم تعليماً ملكياً.

ثم إن ذلك الرجل التائب بقي مدة من الزمان مجتهداً في عبادة الله على عادته حتى قرب أجله ووقت مفارقته، فرأى في منامه كأن روحه قد خرجت من جسده، وإذا هي على صورة شكل الجسد وهيئته سواء، غير أن هذا الشكل جسماني وتلك الصورة روحانية شفافة لا ينالها لمس ولا حس، وإذا هي قد ثبتت في الهواء حيث شاءت وكيف شاءت بلا كلفة ولا عناء، وهي تجد من ذاتها خفة وراحة وسرور وروحاً ولذة وفرحاً لا يوصف بمثلها حال الأجسام، ونظرت إلى جسدها إذا هو مطروح لا حراك به، فحنت إليه لطول الصحبة وإلف العادة.

فلما دنت منه وتأملته فإذا هو كأنه قد أتى عليه ثلاثة أيام بعد الموت، وهو منتفخ منتن الرائحة يسيل منه الدم والقيح والصديد، ويجري بين لحمه ودمه الديدان، ويخرج من فيه ومنخريه وأذنيه الديدان والقمل. فلما رأت ذلك الهائل اشمأزت منه وتأخرت عنه وأنفت من الدنو إليه، وجعلت تغبط حالها حين فارقته وخرجت منه ونجت من وسخه ودرنه ووحشته وعاره ووباله، ثم التفتت فإذا هي أبواب السماء قد فتحت، والمعراج قد امتد من السماء إلى الأرض، والملائكة نزلت وامتلأت الآفاق من النور والضياء، وسمعت منادياً ينادي: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر: ٢٧-٣٠]، فانتبه من نومه ذلك،

ثم أخبر بما رأى وأوصى وصيته، وما مكث إلا أياماً حتى توفي ومضى لسبيله. انتهى ما أردته من إخوان الصفاء، والحمد لله رب العالمين.

ويتبع هذا حكمتان:

الأولى: بعنوان حكم عامة، في موازنة عطف الأم على ولدها بنفع الحكيم لأمته.

الثانية: في السعادة المزيفة، وهاك نصهما:

حكم عامة

الأم	الحكيم
الأم: تغذي ولدها مع شفقة ومحبة بلبنها.	الحكيم: حكيم يغذي الأمة بعلمه مع شفقة ومحبة.
الأم: تسهر على ولدها وتكلؤه.	الحكيم: حكيم يسهر على الأمة ويكلؤها بعطفه.
الأم: لا تبالي بالمشاق في سبيل تربية ولدها.	الحكيم: لا يبالي بالمشاق في سبيل إسعاد أمته.
الأم: تبذل كل مالها وكل ما تقدر عليه وتصرف وقتها في إسعاد ابنها.	الحكيم: يبذل ماله وما يقدر عليه من عمل ووقت في إسعاد أمته.
الأم: تستلذ النصب والتعب في تربية ابنها.	الحكيم: يستلذ النصب والتعب في إسعاد أمته.
الأم: تحس بلذة تضاهي ما تراه من رقي ابنها.	الحكيم: يحس بلذة رقي الأمم بعلمه أعظم من لذة الأم.
الأم: نسبتها إلى لذتها كنسبة الجموع الكثيرة التي هداها إلى الولد الواحد الذي ربته الأم.	

السعادة المزيفة

(١) القائمون بأمر الأمم أغلبهم ذوو سعادات لفظية.

(٢) الملوك منهم والأمراء اكتفوا بالنساء وكثرة المال والحصول على الشهوات.

(٣) هؤلاء الحكام يثقون بما ظنوه سعادة، مع أن القوى الجسمية كلما ازدادت تعاطياً للشهوات ضعفت وقلت لذاتها ثم فقدتها.

(٤) فإذا ضعفت شهواتهم أخذوا يستعيضون عنها بالرتب والنياشين من الملوك، وما كان لرتبة ولا نيشان ولا ألقاب تعظيم أن تنيل القلب السعادة، أو تصرف الغم عن الفؤاد.

(٥) وإذا ملئت خزائنهم بالمال وقد ولى العمر وحالت الحال رجعوا إلى أنفسهم فوجدوها خاوية على عروشها فازدادوا انقباضاً وبئس المصير.

(٦) إذن مكافأة الجهلاء من نوع الإنسان أشبه بمكافأة الأطفال بالدمى واللعب والأثواب المزركشة، والوالدان يعلمان أن ذلك وقتي قليل القيمة. هكذا العناية الإلهية كافأت أطفال الرجال بما يشبه مكافأة الأطفال استصغاراً لعقولهم ورحمة بأممهم، فهم أشبه بفداء لأممهم يسهرون على راحة المجموع ويكافئون بما أكثره شؤم عليهم لأنهم لا يعقلون. اهـ.

واعلم أيها الذكي أن هذا المقام العام ملخص في تفسير البسملة في سورة « الدخان » وفي رسالة « مرآة الفلسفة » في سورة « محمد» صلى الله عليه وسلم عند الآية ١٩ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فانظره هناك إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[فصلت : ٣٠] الخ ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[فصلت : ٣٩]

وفي قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت : ٥٣]

في هذه اللطيفة فصلان :

الفصل الأول: في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾

جاء في مقال في جريدة الأهرام يوم السبت ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي ما نصه :

وحدة الحيوانات والنباتات

يعتقد أغلب الناس أن بين الحيوانات والنباتات تبايناً كلياً واختلافاً تاماً ، وأن كل فريق منهما مستقل عن الآخر . وقد كانوا يعلموننا في المدارس أن هناك عالم الحيوان وعالم النبات ، أو ما يعبر عنه الغربيون بمملكة الحيوان ومملكة النبات . ومما لا شك فيه أن من يلقي نظرة سطحية على الحيوانات والنباتات الراقية يجد أن بينها اختلافات ظاهرية . فالحيوان يتحرك ويتغذى ويتأثر . أما النبات فهو ثابت في مكانه ولا يظهر أنه يتحرك أو يتغذى أو يتأثر ، على أن من يمعن النظر ويحقق في البحث يتضح له أن هذه كلها اختلافات ظاهرية لا حقيقة لها . ذلك لأن كل مميزات الحيوانات مثل الحركة والتأثر والتغذي والتنفس والتولد توجد كلها في النباتات . وهي في الواقع تعتبر إلى حد ما مميزات جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات . فالحركة لا يختص بها الحيوان . فإن هناك حيوانات عديدة ثابتة منذ نشأتها إلى موتها ، مثل كثير من الحيوانات المسماة بالجوفاء كالمرجان . وكذلك الحيوانات التي تعيش في قاع البحار وتشبه في شكلها النباتات والأزهار . ومنها الحيوانات المسماة بالتونيسية أو القميصية السابقة للحيوانات الفقرية ، أو بالأحرى إحدى الحلقات المتوسطة بين الفقرية واللافقرية . فإنها تكون عند ولادتها متحركة مثل سائر الحيوانات . ولكن صغارها لا تلبث أن تثبت على صخر في البحر ، وتظل هكذا باقي مدة حياتها إلى أن تموت .

كما أن هناك من جهة أخرى نباتات متحركة مثل النباتات المفترسة ، فإن لها أعضاء خاصة تنقضّ على ما يقع عليها من الذباب والحشرات و الحيوانات الصغيرة الأخرى وتنطبق عليها وتفرز عليها عصيراً هضمياً مثل عصير الحيوانات فتهضم ما يقبل الهضم منها وتمتصه ، ومن النباتات المتحركة النبات المعروف للعامة باسم « المستحية » ، ومنها فصيلة كاملة من النباتات الطحلبية المائية المسماة « أوسيلير » ، فإنها في حركة اهتزاز مستمر مثل رقاص الساعة ، وأبلغ من هذا حركات بعض النبات الأولية ذات الخلية الواحدة ، فإن لكثير منها شعراً صغيراً عديداً ولها شعرة واحدة طويلة في مؤخرها مثل الذنب تستعين بها على العوم في الماء فتذهب وتجيء مسافات تذكر ، لا فرق بينها وبين

الحيوانات، وكذلك بذرة أو بويضات النباتات الطحلبية المائية، وبذرة صف «المـوس»، وصف النباتات ذات التولد الخفي. فإن تلك البذور تستعين بذنبها، أي بالشعرة التي في مؤخرها للتحرك في الماء، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يميز من أول وهلة بينها وبين الحيوانات الصغيرة التي من حجمها. ولهذا سميت بالبذرة الحيوانية.

هذا كله ظاهر. أما إذا حققنا النظر في الأمور فإنا نجد أن الحركة نتيجة لازمة للمادة الحية على الإطلاق سواء أكانت نباتية أم حيوانية. وتفصيلاً لهذا الإجمال، نقول: إن أنسجة جميع الحيوانات لا ترى إلا بالميكروسكوب، وشكل هذه الخلايا وتركيبها واحد في الحيوانات والنباتات، فالخلية مكونة من مادة زلالية أو بالأحرى من خليط من مواد زلالية مختلفة ومواد دهنية. ومواد سكرية أو نشوية. وقليل من بعض مواد معدنية. وفي وسط كل خلية نواة تركيبها واحد في الحيوانات والنباتات. وللخلية في معظم الأحيان غلاف خارجي من مادة زلالية أخرى مرنة عند الحيوانات، ومن مادة جامدة تسمى بالسيليلوز عند النباتات. وهي مادة القطن وورق الكتابة.

ومادة الخلايا التي يسمونها بروتوبلسما أو المادة الحية، خليط من المواد الزلالية والدهنية والسكرية، من أهم خواصها الحركة. أي أن أجزاءها في حركة مستمرة ما دامت حية. ولا شك في أن هذه الحركة نتيجة تفاعلات كيماوية دقيقة مترتبة على حريق المواد الغذائية التي تصل إلى الخلايا بعد الهضم والامتصاص، ومثل حركة المواد الحية حركة السوائل. وهي تغلي والآلات الميكانيكية بسبب حريق الفحم أو البنزين أو الزيت وغيرها. ولا فرق في ذلك بين الخلايا الحيوانية والنباتية. ولكن لما كانت أغشية الخلايا الحيوانية من مادة زلالية مرنة كما تقدم، كانت الحركة التي تبدأ في واحدة منها تنتقل إلى جاراتها وتأخذ في الامتداد فيتحرك المجموع، بعكس الخلايا النباتية فإن مادة كل خلية منها محبوسة داخل أغشية صلبة من السيليلوز. فالحركة التي تقوم في بعضها لا تستطيع الانتقال إلى ما جاورها من الخلايا والانضمام إليها. ولهذا كانت مواد كل خلية نباتية تتحرك في مكانها داخل غلافها ومجموع النبات ثابت.

والخلاصة أن الحركة من خواص جميع المواد الحية النباتية والحيوانية على السواء. وفي الحقيقة والواقع ليست الحركة وقفاً على الأحياء ولكنها تعمل في الجماد وجميع المواد المعدنية. وتعم كل ما في الكون من أكبر الأجرام الفلكية إلى أصغر ذرات المادة أو الجوهر الفرد. وما هو أصغر منها مما اكتشف أخيراً ونعني اليون أو الالكترون.

فإذا رفعنا نظرنا إلى السماء نجد أن جميع الكواكب والشموس والسيارات ـ بما فيها أرضنا ـ والأقمار وذوات الذنب في حركة مستمرة لا تعرف الكلل. وكل ما يحيط بنا على الأرض متحرك كذلك بلا انقطاع، من أمواج البحار ومياه الأنهر وهواء الجو والزوابع والزلازل وتساقط الأمطار والثلج والبرد ودوي الرعد وانقضاض الصواعق، وغير ذلك من العوامل الطبيعية التي دكت الجبال الشاهقة وغيرت من شكل الكرة الأرضية مرات عديدة في الأعصر الجيولوجية القديمة مدة ملايين من السنين الغابرة.

وكذلك الحال بالنسبة لجزئيات المادة وجواهرها الصغيرة وذرات هذه الجواهر، فإنها في حركة مستمرة تزداد بارتفاع الحرارة وتنقص بانخفاضها. وبالجملة فإن الحركة هي الناموس الأساسي الذي يدير الكون بأسره منذ الأزل وإلى الأبد.

وما يقال عن الحركة يقال عن التأثر، فإنه صفة لازمة للمواد الحية الحيوانية والنباتية على السواء. فإذا ما لمس الإنسان سلك رفيع مثلاً خلية من الخلايا الحيوانية والنباتية ـ وهي تحت الميكروسكوب ـ يراها تتأثر وتتحرك فتنكمش أو تمتد. وهذا الذي يحدث عرضاً بفعل الإنسان يحدث عادة وعلى الدوام بفعل المؤثرات الطبيعية والكيماوية التي تعمل في أجسام الحيوانات والنباتات أو في البيئة التي تحيط بها وتؤثر عليها.

ولا فرق في خاصة التأثر بين الحيوان والنبات، وكل ما في الأمر أن أغشية خلايا النباتات تحول دون انتقال التأثر من خلية إلى خلية نظراً إلى جمودة تلك الأغشية، فيظهر النبات في مجموعه كأنه لا يتأثر. والحقيقة أن مواد خلاياه تتأثر. ولكن يحجب هذا التأثر مادة السيليلوز الجامدة.

على أن التأثر ليس في الحقيقة من مميزات المواد الحية دون غيرها، بل يشترك فيه كثير من الجماد مثل المواد المفرقعة ومثل المواد الكيماوية غير الثابتة التي تتأثر بالنور كمواد التصوير الشمسي «الفوتوغرافيا» أو بالرطوبة أو بالحرارة أو بالكهرباء وغيرها. ومن الأمثلة على تأثر الجمادات أمر معروف في علم الصوت ـ جزء من علم الطبيعة ـ وهو أنه إذا دق إنسان دقة على وتر من آلة موسيقية وكانت في الغرفة آلة أخرى مثلها فإن الوتر الذي يقابل فيها الوتر الذي دق عليه بالآلة الأولى يهز من تلقاء نفسه اهتزازاً خفيفاً، ولكنه يظهر جلياً بواسطة الآلة المكبرة للصوت.

أما من جهة التغذية فمن المعلوم أن النباتات تتغذى، مثلها في ذلك مثل الحيوانات، فمادتها الخضراء «الكلوروفيل» تستعين بضوء الشمس لتحليل حمض الكربونيك «ثاني أوكسيد الكربون» المنتشر في الجو وتأخذ منه الكربون اللازم لغذائها وتمزجه بالماء، فتكون أولاً السكر والنشاء والسيليلوز «مادة القطن وورق الكتابة» ومادة الخشب وغيرها. ثم تكون أحماضاً عضوية تركب منها المواد الدهنية. وتمتص من الأرض الماء وبعض المواد المعدنية المشتملة على الآزوت مثل الآزوتات أو النترات وتمتزج هذه بالمواد السكرية والنشوية والأحماض العضوية فتكوّن المواد الزلالية وهي أهم غذاء لها وللحيوانات.

وبالجملة إن النباتات تتغذى كالحيوانات. وتتناول لغذائها نفس المواد التي تتغذى منها الحيوانات وهي المواد الزلالية والدهنية والسكرية فضلاً عن الماء وبعض الأملاح. والتغذي ليس قاصراً في الحقيقة على الأحياء من حيوان ونبات، بل يحدث لكثير من الجمادات، فبقعة الصدأ التي تبدو صغيرة على قطعة من المعدن ثم تكبر إلى أن تنتشر على سطح المعدن كله إنّما هي تتغذى في الواقع من بخار الماء والحامض الكربونيكي المنتشرين في الجو، ومن مادة المعدن القائمة هي عليه، فتنمو وتتسع كما ينمو ويكبر الجسم الحي، والبلورات الصغيرة المغطسة في ماء مشبع من محلول موادها تتغذى من المادة الذائبة في الماء فتنمو وتصبح بلورات كبيرة. والآلات الميكانيكية المتحركة تتغذى

بالفحم أو البنزين أو الزيت. وليست مواد الوقود إلا غذاء تلك الآلات الميكانيكية تحرق فيها القوة اللازمة لحركتها وقيامها بأعمالها.

ويلحق بالغذاء التنفس. وغير خاف على كل من درس علم الفسيولوجيا النباتية أن النباتات تتنفس مثل الحيوانات، ولها مسام صغيرة في أوراقها وغصونها يدخل منها الهواء ومعه الأوكسجين الذي هو العنصر الأساسي في التنفس أن الغرض من التنفس واحد في الحيوانات والنباتات، وهو إحراق أي تأكسد المواد الغذائية داخل الخلايا لتوليد القوة اللازمة للحياة، وقد عرّف علماء الفسيولوجيا الحياة بأنها حريق أي تأكسد مستمر. وما الأجسام الحية إلا آلات لتحوّل القوة الكيماوية الكامنة داخل مواد الغذاء بواسطة إحراقها إلى حرارة وحركة، حركة انتقال، وحركة إفراز، وحركة نمو، وحركة تولد وما إلى ذلك من القوى الحيوية. مثلها مثل الآلات الميكانيكية التي تتغذى بالفحم أو بالبنزين أو بالبترول.

وقد أثبت علماء الفسيولوجيا هذه الحقيقة بتجارب حاسمة حيث وضعوا حيوانات داخل كالوريمتر دقيق «آلة لقياس كمية الحرارة. وهي خلاف الترمومتر الذي لا يقيس إلا درجتها دون كميتها»، وكانوا يقيسون حرارة ما يتناوله الحيوان من الغذاء وما ينتجه جسمه من الحرارة؛ بعد خصم الكمية التي لم تهضم ولم تمتص من الغذاء، فوجدوا أن الكميتين متعادلتان. وقد طبق اثنان من العلماء الأمريكان هذه التجربة على الإنسان وهما أتوتر وبنيدكت، فصنعا كالوريمتر كبير حجمه كالغرفة المتوسطة، واتخذا كل الوسائل الدقيقة والاحتياطات الشديدة، وكانا يقيسان مقدار الهواء الداخل من جهة والخارج من جهة أخرى ودرجة حرارتهما وما يشتملان عليه من أوكسجين وحامض الركونيك. ويقيسان في كالوريمتر صغير على حدة ما تنتجه من الحرارة كمية الطعام الذي يتناوله الشخص الذي تعمل عليه هذه التجارب، وغير ذلك من الإجراءات. فكانت النتيجة تعادل كمية القوة التي تدخل جسم الإنسان في هيئة غذاء وكمية القوة التي تخرج منه في شكل حركة وحرارة. ومعنى هذا أنه لا توجد في الجسم إلا القوى الطبيعية ولا تعمل إلا القوى الطبيعية.

أما التلقيح والتولد والنمو والتطور وكافة مظاهر الحياة فلا حاجة للقول بأنها مشتركة بين الحيوانات والنباتات. ويطول بنا المقام لو أردنا أن نثبت أن هذه المظاهر كلها مع التفاوت في الجماد أيضاً.

ينتج مما تقدم أنه لا يوجد أي فارق جوهري بين الحيوانات والنباتات. وقد حار العلماء في إيجاد حد فاصل بينهما أو محك للتمييز بين بعض الأحياء السفلى الملتبس في أمرها وهل هي حيوانات أم نباتات، فلم يجدوا أمامهم سوى فاصل واحد يقرون بأنه سطحي ظاهري، وهو مادة السيليلوز المكونة منها أغشية الخلايا النباتية، فإن هذه المادة لا وجود لها في الحيوانات. ولكن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات في جميع أدوار حياتها، لأن هناك بعض نباتات سفلى من صف النباتات الفطرية من الفصيلة المسماة ميكزوميست تقضي حياتها كلها أو معظمها وخلاياها شائعة بلا أغشية تفصلها عن بعض. ولكن إذا ساءت الأحوال الجوية واشتد البرد وتهاطلت الأمطار أو الثلوج

تفرز هذه النباتات حولها أغشية سيليولوزية لتحبس نفسها داخلها فتتقي هكذا خطر تقلبات الجو. أما في الفصول المعتدلة فإنها تعيش خالية من هذه المادة. فهي تشبه من وجوه كثيرة ـ وهي على هذه الحالة ـ بعض الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة مثل الأميبا التي يسبب نوع منها مرض الدوسنطاريا.

ومن جهة أخرى في بعض الحيوانات مادة تقرب كثيراً كيماوياً من مادة السيليولوز، وهي الحيوانات التونيسية أو القميصية المتوسطة بين الحيوانات الفقرية وبين اللافقرية مما تقدم لنا الإشارة إليه. كما أنه في جميع الحيوانات مادة هي شقيقة السيليلوز من الوجهة الكيماوية، وأعني بها السكر، فكلتاهما مكونة من فحم وماء. ولذا أطلق على مجموع هذه الفصيلة الكيماوية اسم هيدرات الكربون.

وهناك فاصل فيسيولوجي بين الحيوان والنبات قد يكون أوجه من الفاصل المتقدم وهو كيفية التغذية. قلنا فيما تقدم: إنه لا بد لغذاء الحيوانات والنباتات من مواد زلالية ومواد دهنية ومواد سكرية. ولكن الفرق بين الحيوانات والنباتات هو أن الحيوانات تتناول هذه المواد مركبة جاهزة كما هي من أجسام النباتات أو الحيوانات الأخرى التي تأكلها، بعكس النباتات فإنها لا تجد أمامها هذه المواد الضرورية لغذائها كما تجدها الحيوانات ـ مع استثناء النباتات المفترسة ـ فتضطر أن تركبها على الوجه المتقدم بيانه قبل أن تتناولها.

وبالجملة فإن الحيوانات تتناول طعامها جاهزاً، أما النباتات فتكدّ وتشقى في تركيبه قبل أن تتغذى به. على أن هذا الفاصل غير شامل لجميع النباتات. فيوجد صف نباتات هي النباتات الفطرية التي لم تجد عليها الطبيعة بالمادة الخضراء «الكلوروفيل» فلا تستطيع أن تركب غذاءها بنفسها، لهذا هي تتصرف في الحياة كالحيوان، بمعنى أنها تتناول طعمها جاهزاً من حيوانات أو نباتات أخرى، ومن أجل هذا نجدها كلها طفيلية تعيش على غيرها من الحيوانات والنباتات الحية أو على أجسامها الميتة. وعلى هذا فتكون الفصيلة الفطرية الحلقة المتوسطة بين الحيوانات وبين النباتات. ولولا وجود السيليلوز فيها لجزم العلماء بأنها حيوانات، فهي نبات من جهة السيليلوز، وحيوان من جهة كيفية تغذيتها. وفي هذا برهان واضح على وحدة الحيوانات والنباتات وتسلسلها من أصل واحد وهو الجماد.

وقد جاءت المباحث والتجارب الجليلة التي قام بها العالم الهندي الكبير السربوز مؤيدة لهذه الحقيقة التي أصبحت الآن أساس العلوم الطبيعية. وقد كان لاختراعه للآلة التي تكبر حجم الخلية الحية عشرة آلاف مرة تأثير كبير ونتائج هائلة في العلم.

وعلماء أوروبا يتحدثون في جامعاتهم وفي مؤلفاتهم باكتشافاته ومباحثه الأخرى منذ أكثر من عشرين عاماً، ومع ذلك نرى قوماً هنا يحملون على هذا العالم الشرقي الجليل لأغراض يأباها العلم وشرف النفس.

نصيف المنقبادي المحامي

خريج كلية العلوم بجامعة باريس «السوربون»

ويلحق بهذا ما جاء في جريدة الأهرام أيضاً يوم الجمعة ٤ يولية سنة ١٩٣٠ وهذا نصه :

رأي في علاج الأزمة المالية

كاد ينقضي على إنشاء وزارة الزراعة عشرون عاماً . ومع ذلك لم تقم بشيء من المهمة التي ألقيت على عاتقها ، بينما نرى اختصاصات وزارات الزراعة في الدول الأخرى لا تقتصر على تبخير الأشجار وعمل الإحصاء السنوي لكمية المنتظر من محصول القطن . أو الإرشاد إلى إدخال تحسينات تافهة على الزراعات القائمة . أو مقاومة بعض الآفات مقاومة لا تجدي ولا تنفع . أو الحصول على بعض الأسمدة والبذور الخاصة بالنباتات التي تزرع عادة . لو أن مهمة وزارة الزراعة اقتصرت على ذلك لهان الأمر على الجمعيات الزراعية الأهلية . ولاكتفت الحكومات بمعاونتها دون إنشاء وزارة خاصة بالزراعة .

ولكن المهمة أجلّ وأسمى من ذلك . المهمة خاصة بإنماء الثروة الأهلية بإدخال زراعات جديدة تستثمر فيها رؤوس الأموال المتجمدة من الزائد عن النفقات الزراعية والنفقات المعاشية للفلاح . المهمة خاصة بإيجاد مشتل من صنع الأخصائيين ينمو ويكبر على توالي الأيام داخل معامل التحليل والابتكار والتطعيم لتزويد البلاد برأس مال جديد في كل عام ، لا أن يقتصر الأمر على إيفاد بعثات زراعية سنوية إلى مختلف البلاد ليعود أعضاؤها ويشغلوا الوظائف الكتابية أو وظائف التفتيش الرئيسية ، فتخمد فيهم الحمية وروح الابتكار ، ولا أن يكونوا في مكاتبهم وفوق كراسيهم كالدبلومات وشهادات الامتياز ، جملها الإطار الرائع ولا قيمة لها إلا في أعين حملتها . مع أن الواجب كان يقضي أن تكون قيمتهم في نظر الأمة وللأمة حتى تستطيع أن تقرر بحق أنها استثمرت ما أنفقته عليهم من أموال في تخصصهم وتعمقهم . ويستطيع الآباء أن يعلنوا مباهاتهم بثمرة كدّهم وتعبهم في سبيل تربية أبنائهم . وإلا فماذا أدخلت وزارة الزراعة المصرية على زراعاتنا من جديد يعاون في سبيل الاحتفاظ بثروة الأمة بعيداً عن تهديد الأزمات والأخطار التي تصيب محصولاً لا تعول إلا عليه ، لتقل لنا الوزارة ماذا صنع معمل زراعة المناطق الحارة حتى الآن ، وأي نتيجة لتجاريب أدت إلى إدخال عامل زراعي جديد في مصر ، مع أن زراعة المنطق الحارة قد درست في مصر قبل الآن درساً عميقاً أيام حكم ساكن الجنان إسماعيل باشا الخديوي الأسبق ، والمؤلفات والتقارير الزراعية عن نباتات المناطق الحارة في عهده تكاد تزيد عن الضروري . وما كنا في حاجة إلا إلى مراجعتها لنعلم أن الزراعات تدخل في مصر حتى تتعدد الحاصلات وتجتنب الأضرار الجسمية التي يلحقها القطن بثروتنا العامة بين آونة وأخرى ، وتكرهنا على البكاء والعويل ، ما دامت مصر في عهد إسماعيل هي مصر الآن جواً وتربة وماء مع مراعاة أن العمار قد ازداد والسكان قد تضاعفوا والأيدي العاملة قد ربت وطرق المواصلات قد تعددت والمسالك الزراعية نظمت والترع كثرت .

لقد تكلمنا فيما تقدم عن زراعة الكاوتش في مصر ، ورجونا من المصريين أن لا ينتظروا إلا نتيجة جهدهم وكدّهم في إدخال هذه الزراعة الغنية بحاصلاتها في مصر حتى ينقذوا أنفسهم بأيديهم من مخالب الإفلاس الذي يتهددهم دائماً أبداً بسبب تحكم مستهلكي القطن أو زيادة المحصول

الأمريكي الخ ، واليوم نقول كلمة أخرى عن زراعة المناطق الحارة الصناعية وما يجوز إدخاله في مصر بناء على آراء الأخصائيين ، ولما كنا قد بدأنا بزراعة الأشجار في سبيل إحياء عصر الغابات في مصر ؛ وجب علينا الاستمرار في هذا السبيل مقتصرين في بياننا على الجهات التي تستورد منها هذه النباتات ومنافعها .

شجرة البقرة : إن هذه الشجرة من « كراكاس » وساقها معتدل باسق . وطول أوراقها بين ٢٥ و٣٠ سنتيمتر في عرض عشرة سنتيمتر . وثمرتها كالبندقة الخضراء . وترجع شهرة هذه الشجرة إلى طبيعة ألبانها التي تحاكي من كافة النواحي لبن البقرة ، ولذلك فإن أهل « كراكاس » يتغذون منه . ويمكن الحصول عليه بحزّ ساق الشجرة في عدة نواحي . ولقد أثبت المسيو « ريفيرو » والمسيو « بوسينجو » أن صفات هذا العصير السكري كصفات لبن البقرة مع فارق بسيط هو أنه لزج ورائحته كرائحة البلسم ، أما خصائصه الكيميائية فإنها تختلف عن خصائص ألبان البقر ، إذ الأحماض لا تؤثر فيه أما « الاسبرتو » فإنه يؤثر فيه إلى درجة معينة حيث يجمد قليلاً إذا أضيف له قدر منه ، وإذا وضع في « حمام ماري » استخرج منه عطر كذلك الذي يستعمل في إيطاليا لتطييب القفازات . ولكنه مع ذلك يختلف عن سائر العصارات اللزجة لأنه لا يشمل أي كمية من الكاوتش ، وقد زرعت هذه الشجرة في بروكسل . ومن باب أولى أن تزرع في مصر لاستعمالها غذاء وواسطة لاستخراج عطرها . وتصديره وتصدير هذه الألبان في زجاجات خاصة .

ذات اليد : وهي شجرة يغطي قمم فروعها وبر أشقر اللون ، وتستعمل ثمراتها المحمرة في اسوداد لعلاج الصرع ، ويمكن استيراد هذه الشجرة من البرازيل ، كما يمكن استيرادها من أوروبا بأبخس الأثمان ، ومن السهل شتلها بواسطة الفسائل في فصل الربيع .

حشيشة الورق : وهي شجرة صغيرة من بلاد الصين ترتفع إلى خمسة أو ستة أمتار ، ويستخرج لباب ساقها ليصنع منه الورق الناعم في الصين التي تصدر في العام ورقاً بما قيمته ٦٤٩ , ٩٧٧ , ٣ هاي لوان تايل ، أي ريال ، ولكنه غير ثابت القيمة . ودائماً يتراوح بين ٦٦ في المائة من الدولار وبين دولار وثلث . ولقد أدخلت هذه الشجرة الجميلة ضمن الزراعات المصرية في سنة ١٨٦٨ ونجحت نجاحاً عظيماً ، ولكن لسوء الحظ لم تستخدم في الغرض الذي جلبت من أجله وهو استخراج لبابها لصناعة الورق الناعم ، مع أن زراعتها في مصر من السهولة بمكان ، إذ يكفي وضع عقل الفسائل في بطن الأرض وتغطيتها بقليل من التراب ، فلا يمضي وقت قليل حتى تنبت .

شجرة الحرير : وهي شجرة من نوع الأشجار العمالقة . وليس هذا التعبير لمجرد الخيال وإنّما هو الحقيقة ، فإن المسيو « برتران بوكانديه » قد حكى أنه رأى في كازامامنس مراكب طولها ١٥ متراً في عرض مترين ونصف ، تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار ، وتسع كل مركب من هذا النوع ثلاثين ثوراً وستة عشرة بحاراً للتجديف وثلاثة رجال للعزف على الموسيقى ، وفضلاً عن هذا فهي تحتوي على غرف ومطبخ وحمام الخ ، أما نوعها فهو من المراكب السريعة ذات الشراعين والمجاديف . وهذا ما يكون عندنا فكرة عن محيط ساق هذه الشجرة . غير أنها لا تعيش أكثر من قرن . ولذلك فإن

الأهالي يزرعون شجرة منها عند ميلاد كل ولد من أولادهم، فإذا ما بلغ الطفل السن التي تبيح له الاستقلال بمعيشته وجد في هذه الشجرة كل ما يلزمه لبناء منزله دون أن يمس باستمرار نمائها. وإذا ما بلغت هذه الشجرة سن الإنتاج أثمرت فاكهة يخرج منها وبر قطني حريري في كمية جسيمة تترامى على الأرض إلى مسافات بعيدة تراها وكأن السماء أمطرت لؤلؤاً وثلجاً. ويستخدم هذا الوبر في صنع الوسادات والكنبات وغيرها، ويمكن غزله لاستخدامه في صناعات مختلفة. ولقد أدخلت هذه الشجرة في مصر بواسطة الدكتور فيجاري بك، ويوجد منها نوع في قصر العيني. أما حشيشة الملوك الشوكية فإن ارتفاعها يصل إلى عشرة أمتار وساقها ضخم وشائك. وتزرع هذه الأشجار بصنفيها بذرة أو عقلة.

شجرة الدهن: وهي شجرة متوسطة الطول وتزرع في الأراضي الرطبة من الصين. ولها لوز تحوي كل واحدة منها ثلاث حبات، وأهميتها فيما يغطيها من طبقة دهنية بيضاء سميكة صلبة إلى حد ما، ويضيف الصينيون واليابانيون إلى هذه المادة قليلاً من شمع النحل وزيت الكتان لصنع الشمع الأبيض الذي يضيء مدة طويلة، ولاستخراج هذا الدهن يجب سحق البذرة وإبقاء مسحوقها في ماء على درجة الغليان حتى تطفو المادة الدهنية على وجه الماء فيسهل استخلاصها. ومن جهة أخرى، هم يستخرجون من هذه الحبوب نوعاً من الزيوت الصالحة للوقود، وقد وجدت شجرة من هذه الأشجار بمدرسة الطب، ولكننا لا ندري ماذا صنع بلوزها، كذلك زرع في حديقة الروضة شجرة من هذا الصنف، ولا ندري لماذا لا تزرع هذه الأشجار في مصر مع أن زراعتها سهلة سواء من ناحية البذرة أو العقلة.

شجرة البهار: هي شجرة من مدغشقر طويلة جميلة المنظر، وتستخدم أوراقها وجلدها كبهار ودواء، وهذه الشجرة تنمو في الحدائق المصرية. وتوضع أوراقها في الطعام خضراء. ولا بد لزراعتها في مصر من الحصول على بذرتها من مدينة مدغشقر أولاً فأولاً.

شجرة الثعابين: وهي شجرة صغيرة في البرازيل طولها يقرب من متر. وتستعمل جذورها دواء للشفاء من لسعات الثعابين. وهذه الشجرة تصلح في مصر فقط لأنها لا تزرع إلا في الطينة الصالحة للزراعة والمناطق التي جهزت بمعدّات الري وتزرع عقلاً.

شجرة الأراروت: وهي شجرة ذات جذور سكرية لها ساق طوله يقرب من متر ونصف متر. وجذوع هذه الشجرة غذاء قوي للأطفال على ما نعرفه جميعاً. وهي تزرع على الخصوص في جزيرة الأنتي وأمريكا الجنوبية. وهي صالحة للزراعة في التربة المصرية.

الكمثرى الأمريكاني، أو كمثرى المحامي: وهي شجرة تدر اللبن الذي يتجمد في صلابة القشدة ويستخدم في التأثير على القماش بإشارات لا تمحى، أما الفاكهة ذاتها فإنها غذاء جيد، وتدخل هي والأوراق في كثير من الأدوية، وهي تزرع بطريق البزور التي تجلب من البرازيل. ويمكن استخدام العقل ـ بضم العين وفتح القاف ـ في زرعها بعد أن تنبت وتشتد في مصر. انتهى ما أردته من الجريدة المذكورة.

بهجة العلم في قوله تعالى أيضاً:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]

يقول الله تعالى في أول هذه السورة: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [فصلت: ٣]، ويقول في سورة أخرى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]. إذن الإيقان بلقاء الله مرتب على تفصيل الآيات، فالآيات المفصلات في هذه العوالم هي التي تعطينا اليقين، واليقين هو الذي لا يعتريه شك، فهل لك أن أريك اليقين في هذه الآية بعينك حتى يتمكن من نفسك كنص الآية، وتعلم إلى أي مدى وصل هذا القرآن اليوم، وهل تفصيل الآيات مورث لليقين إلا ما قام عليه البرهان أو ثبت بالمشاهدة.

فهاك عجيبتين: إحداهما من علم الحيوان، والأخرى من علم الأرواح.

العجيبة الأولى التي هي من علم الحيوان

جاء في كتاب «بول بيرت» العضو بالأكاديمية العلمي وأستاذ السربون ووزير المعارف العامة بفرنسا المترجم بقلم زوجته الاسكتلندية إلى اللغة الإنجليزية ـ وقد نقلت عنه في هذا التفسير كثيراً ـ فقد جاء فيه في صحيفة ٧٩ و٨٠ تحت عنوان «أنفاسوريا» ما نصه:

إني سأريك نبأ عظيماً عن مخلوق مدهش غريب يختلف اختلافاً كثيراً عن سابقه، وأين يكون هذا الحيوان؟ إنه يكون فيما تعافه النفوس وتحتقره العيون مما يكون على جسم الحيوان الذي فسدت جثته بالتعفن والنبات الملقى المزدرى، وهذه المخلوقات أكثرها يسمى في علم النبات «أنفاسوريا»، وسترى صورته قريباً. ولكن هناك حيوانات ليست منه عجيبة الأشكال، ومع ذلك ليست قليلة الفائدة. انظر إلى هذه الزجاجة التي فيها الماء التي أحضرت فيها بعض الدريس ـ أي مثل البرسيم الجاف المعروف في بلادنا ـ أمسك الزجاجة واجعلها بينك وبين ضوء الشمس حتى ترى بوضوح وتفصيل كل ما تحويه، أنت ترى فيها أشياء صغيرة تتحرك في الماء. انظر شكل ٤٣ الآتي قريباً. إن المنظار الزجاجي يجعلك قادراً أن تتبين هذه المخلوقات بطريق أوضح. ولكن «المكرسكوب» يجب الاستعانة به لتكون الرؤية أكمل، إن هذه كأنها نقط غير متميزة صورها، وفي الحقيقة هي حيوانات تعيش، وهي آلاف مؤلفة، هاأنت ذا ترى في الزجاجة حيوانات صغيرات ذات صور مختلفات وأشكال متباينات بعضها قد صغر جداً، وليس يظهرها لعيوننا إلا الآلات الزجاجية المكبرة بمقدار عظيم جداً، وآلاف مؤلفة منها تعيش في قطرة ماء. وهنا أخذ يسأل التلاميذ قائلاً: من أين جاءت كل هذه الأشياء اللاتي أعشت أبصاركم؟ ثم أجاب قائلاً: إنها جاءت من العصف المأكول والتبن والدريس. ثم قال: كيف كان كل هذا؟ وأجاب بقوله: هذه المخلوقات جافة كأنها بيض فهي تعيش هكذا وهي بهيئة طحلب لا يشعر به فوق سقوف المنازل وهي جافة أثناء الصيف، فإذا نظرنا بالآلة المكبرة فإنها تظهر لنا بهيئة حبوب صغيرة من رمل أخضر، ولكن إذا أنزلنا عليها قطرة ماء وهي على هذه الحال فإننا نراها قد تحولت حالاً وامتد جسمها وأخذت تبحث عن رزقها وما به حياتها، فإذا

غاص ماؤها أو صار بخاراً رجعت خامدة لا حركة لها، جامدة لا حياة لها كما كانت من قبل متربصة هطول آخر من الماء ينزل عليها فتحيا به. هذه مخلوقات عجيبة! ألست ترى ذلك؟ وهذه تريك أن أعظم ما يسر النفوس وأبدع العجائب ليس خاصاً بالحيوانات الكبيرة. انظر شكل ٤٣ و٤٤.



(شكل ٤٣)

أنفاسوريا لا ترى بالعين المجردة وقد عاشت في قطرة من الماء الآسن



(شكل ٤٤)



حيوان البكتريا وهو لا يرى بالعين المجردة

العجيبة الثانية التي هي من علم الأرواح

نذكر في هذه العجيبة ما جاء في إحدى المجلات العلمية وهي مجلة «كل شيء» بعدد ٢٣٤ في يوم السبت (٣) مايو سنة ١٩٣٠ ما نصه:

توفيق دوس باشا يخاطب روح والده

زيارته لكلية علم الأرواح في لندن

لما سافر الوفد الحكومي المصري الرسمي إلى لندن برئاسة عدلي يكن باشا لمفاوضة الحكومة البريطانية في حل المسألة المصرية؛ رافق الوفد يومئذ سعادة الأستاذ الكبير توفيق دوس باشا بصفة مستشار قضائي، وسعادة شريف صبري بك، وحضرة الأستاذ عبد الملك حمزة بصفة سكرتيرين. وبعد وصول أعضاء الوفد إلى لندن بقليل أخبر الأستاذ عبد الملك حمزة صديقيه توفيق دوس باشا وشريف صبري بك أنه من المهتمين بدرس علم الأرواح، وأنه يود أن يدعوهما إلى زيارة «كلية علم الأرواح» التي تديرها المسز ستيد ابنة المستر وليم ستيد الصحافي الإنجليزي المشهور الذي غرق في الباخرة «تيتانك» في سنة ١٩١٢، فسألاه عن هذه الكلية وأغراضها فقال لهما: إنها معهد علمي يؤمه الأشخاص الذين يأنسون في أنفسهم قوة الوساطة، فيمتحن المعهد هذه القوة فيهم بين الأرواح التي في الآخرة وسكان هذا العالم، ثم إن كثيرين من العلماء الذين يشتغلون بعلم الأرواح يترددون على هذه الكلية لإجراء تجاربهم العلمية فيها، فهي ليست والحالة هذه داراً من دور النصب التي يدخلها بسطاء العقول ليدفعوا جنيهاً أو جنيهين مقابل مخاطبة الأرواح. وهنا ندع الكلام لتوفيق دوس باشا يصف لنا زيارته لتلك الكلية، قال:

ولما سمعت هذه المعلومات من الأستاذ عبد الملك حمزة تولدت فِيّ رغبة في زيارة كلية علم الأرواح لأميط اللثام عن حقيقة ما كنت أعتقده تدجيلاً، فرافقني حضرته إليها وصحبنا شريف صبري بك، ولما بلغناها قدمنا للمسز ستيد فطلبت منها أن تحيلنا إلى وسيط من القادرين على مخاطبة الأرواح، فعرّفتنا بشخص اسمه المستر بيتر، ولما اختلينا به طلب إليّ أن أضمر الشخص الذي أريد أن

يستحضر لي روحه بدون أن أسرّ إليه باسمه، فأضمرت والدي، فجلس الرجل على كرسي أمامنا وما هي إلا ثوان قليلة حتى أخذت عضلات وجهه وشرايين حلقه تنتفخ انتفاخاً أزعجني منظره، ثم لم يلبث أن نام نوماً عميقاً وأخذ يتكلم باللغة الإنجليزية وهي اللغة التي كان والدي يجهلها تماماً، فقال لي: أنا والدك. فقلت له: وما دليلك على ذلك؟ فقال: أنا أطول منك قليلاً. فقلت: هذا لا يكفي. فقال: وأنحف قليلاً. فقلت: وهذا لا يكفي أيضاً. فقال: ولي لحية خفيفة لعب الشيب بجزء منها. فقلت له: وكيف انتقلت إلى العالم الثاني؟ فقال: بعملية عملت لي هنا، وأشار إلى مكان الأمعاء والمثانة والكبد. فقلت له: هذا لا يكفي. فقال: عمل لي العملية طبيبان وفي أثناء انهماكهما بعملهما دخل عليهما طبيب ثالث وعاونهما. ولما انتهوا من مهمتهم قالوا لكم: إن العملية نجحت، ولكنني توفيت في اليوم التالي. فقلت: وهل تعلم لماذا نحن في لندن؟ فقال: لأجل مسألة كبيرة، وفتح ذراعيه على وسعهما. فقلت: وهل تنجح فيها؟ فقال: كلا، وبجانبي سيدة تزاحمني لكي تخاطبكم بدلاً عني. وهنا أخذ الوسيط يتكلم بلسان هذه السيدة، فوصفت نفسها وصفاً ينطبق تماماً على عمة زوجتي، فقلت: وهل لك أولاد؟ فقالت لي: ابن وابنة. فقلت: وهل هما بعيدان عنك؟ فقالت: بيني وبينهما بحر كبير. فقلت: وهل هما في مصر؟ فقالت: كلا.

قال لنا توفيق باشا: وإذا استبطنا هذا الجواب الأخير، أي: هل هما في مصر قالت كلا؛ فإن جميع الأجوبة السابقة والبيانات التي تضمنتها تطابق الواقع. وقد عزوت ذلك في بادئ الأمر إلى ما يسمونه علم قراءة الأفكار. وقلت في نفسي: إن هذا الوسيط له قوة قراءة أفكاري فيسترشد بها على الإجابة على أسئلتي، ولكن هذا الاعتقاد زال لما قال لي الوسيط: إن هناك سيدة تزاحم والدي لتتكلم معي. فإنني لم أكن أفكر قط في عمة زوجتي ساعتئذ لكي يقال إن الوسيط قرأ أفكاري في صددها أيضاً، ولذلك لا أعرف كيف أعلل هذا الحادث على الإطلاق.

ومضى توفيق باشا في حديثه معنا فقال: وقيل لي بعد ذلك: إن في الكلية وسطاء لهم قوة استحضار وجوه الأرواح بحيث يستطاع تصويرها بالفوتوغرافيا، فذهبت إلى الكلية في يوم آخر مع شريف صبري بك وعبد الملك حمزة بك، وأخذت معي زجاج التصوير «البلاك» منعاً لكل تلاعب، ولما قابلنا المسز ستيد قلت لها: إنني أريد تصوير وجه والدي، فقادتني إلى أحد الوسطاء القادرين على استحضار وجوه الأرواح، فدعانا إلى قاعة طليت جدرانها باللون الأبيض، وأجلسنا على ثلاثة كراسي متلاصقة، وأخذ يرتل بعض الصلوات والأناشيد الدينية، ثم فتح آلة التصوير وصور بها، ولما انتهى من عمله أخذت زجاج الصورة، وكان شريف بك قد وقع عليها بإمضائه لئلا تستبدل بلوحة غيرها، وعنيت بتحميضها في محل للتصوير بإشرافي، فإذا بالصورة التي ظهرت فيها تختلف عن ملامح والدي تماماً، فقصدت في الغد إلى المسز ستيد وقلت لها: إنكم تسخرون منا، فإن الرسم الذي ظهر في الصورة ليس رسم والدي مطلقاً. فقالت: قد يحدث ذلك أحياناً، ويكون سببه أن شخصاً أقوى من والدك على تصوير نفسه بواسطة الوسيط يزاحمه على الصورة، فينجم عن ذلك أن يظهر رسمه بدلاً من رسم والدك. فقلت لها: إنني سأعطيك الآن فرصة أخرى لإقامة الدليل على صحة

كلامك فهيا بنا إلى الوسيط . ولما اجتمعنا به قلت لهم : أغلقوا الباب ، فأغلقوه فناولتهم زجاج التصوير فوضعوه في الآلة أمامي ، فقلت للمسز ستيد عندئذ : إنني سأطلب من الوسيط رسم وجه والدك المستر ستيد ، وأظن أنه أقدر الأرواح على تصوير نفسه ، ولا يستطيع أحد أن يزاحمه على ذلك وقد أمضى حياته في درس علم الأرواح . فأخذ الوسيط يرتل وينشد الأناشيد الدينية ، وبعد قليل التقط الصورة ، ولما حمضها ظهر رسم المستر ستيد ، فعجزت في تعليل هذا الحادث .

فقلنا لتوفيق باشا : هل لاحظتم في أثناء التقاط الصورة أن هناك شبحاً غريباً ظهر في القاعة؟ فقال : لا مطلقاً . فقلنا : إذن كيف يظهر على زجاج التصوير رسم لا وجود لصاحبه في القاعة؟ فقال : سألتهم عن ذلك فكان جوابهم : إن عدسة آلة التصوير أقوى من العين جداً ، وإنها لذلك تستطيع رؤية شبح الروح الذي لا تراه العين العادية . فقلنا : وهل أنتم واثقون من أنه لم يقع تلاعب في زجاج التصوير؟ فقال : أنا واثق من ذلك ، ولا فائدة من أن تتعبوا أنفسكم بالأسئلة ، فقد اتخذت يومئذ جميع التدابير التي خطرت لي لمنع أي غش كان . فقلنا له : كيف تعللون ذلك؟ فقال : إنني لا أومن بعلم الأرواح ، ولكنني لا أجد تعليلاً لما رويته لكم . فقلنا : ألم تسألوا المسز ستيد عن التعليل؟ فقال : سألتها فكان جوابها : لو جاءك رجل من عشر سنوات فقط وقال لك : إنهم سيخترعون تليفوناً لاسلكياً ، أفلا كنت تقول عنه : إنه مصاب بمس في عقله؟ فلماذا لا يعقل أن تقتنع بعد سنوات بصحة علم الأرواح وحقيقته . وهنا دفع إلينا توفيق باشا بالصور التي صورت يومئذ بحضوره في كلية الأرواح ، فنشرنا اثنين منها مع هذا الحديث . وهاك صورتهما . انظر شكل ٤٥ و٤٦ .



(شكل ٤٥)

رأس المستر ستيد كما ظهر في الصورة التي صورت لروحه بحضور توفيق باشا دوس



(شكل ٤٦)

توفيق باشا دوس وإلى يساره شريف صبري بك وإلى يمينه عبد الملك حمزة بك وفوقهم الرأس الذي ظهر في الصورة عند استحضار روح والد توفيق باشا

ولما كتبت هاتين العجيبتين حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير. فقال: وما يفيدنا في هذه الآية من هاتين العجيبتين؟ أنت أوضحت لنا في العجيبة الأولى، كيف تكون الحيوانات الدقيقة معدودة بالآلاف في قطرة ماء، وأنها تموت إذا فارقها الماء وتحيا إذا وصل إليها، فالموت والحياة يتناوبانها، وقصصت علينا في الثانية نبأ رجل مصري في البلاد الإنجليزية خاطب والده الميت وإحدى قريباته، واحترس أشد الاحتراس في المحاورات وفي أخذ الصور وتصويرها. فأي علاقة لهذين بالآية؟ الله تعالى يقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت: ٣٩]. فقلت: إن هاتين العجيبتين مناسبتان للآية أشد المناسبة. لقد تجلى في العجيبة الأولى أن الحياة شاخصة أمامنا في كل ما يحيط بنا.

فهذه الأوراق والحطب والوقود وكل ما يحيط بنا تعلق به مواد لا نهاية لها. وهذه المواد الدقيقة تحيا إذا جاءها الماء وتفارق الحياة إذا تخلى عنها. إذن الموت والحياة في المواد المحيطة بنا كالنوم واليقظة، فموتها وحياتها أشبه شيء بنوم النحل والزنابير مدة الشتاء واستيقاظها في زمن الربيع، وهكذا نوم أمثال الحيات والثعابين شتاء واستيقاظها في زمن الربيع وبعض السمك في الطين إذا جف، وفي الثلج إذا تراكم عليها، ثم تقوم هذه إذا نزل الماء على الطين وذاب الثلج. ولقد تقدم في آخر سورة «الأعراف» أن بعض حبوب القمح تحتوي على أكثر من عشرة آلاف حيوان، فجفف هذه الحيوانات بعض العلماء وبعد التجفيف نداها بالماء فرجعت لها الحياة، بل تمادى العلامة «بيكر» فندّى القمح بالماء بعد ما جففه (٢٨) سنة فرجعت الحياة، وقد جزم العلماء بأن تلك الحياة جديدة. إذن الحياة والموت أمران عاديان حولنا وهذه الحيوانات التي لا نراها تموت ثم تبعث ثانياً، والحياة والموت عندها أمران عاديان. وبعبارة أخرى: إن الموت ليست له تلك القيمة والمخاوف التي جسمها الإنسان.

هذا ما نقرؤه في تلك الحيوانات المحيطة بنا الصغيرة، وهذه الحال بعينها هي حالنا، فإذا رأينا الحيوانات الضعيفة تحيا وتموت ولا حاجز بين الموت والحياة إلا شفاف رقيق، هكذا رأينا الأمر بالنسبة لأنفسنا نحن، يعيش الإنسان أمداً ما ويكون له أصدقاء وذرية، فيموت أو يموت أهله أو ذريته أو أصدقاؤه، فيخلع اليأس قلبه قائلاً: إني مفارقهم إلى الأبد.

فنسمع أولاً أرباب الديانات وكبار الفلاسفة يقولون. كلا. لا موت وإنما هو ثوب نزعتموه ولبستم ثوباً آخر، فيشك أكثر الناس ويقولون: كلا. لم نر شيئاً من ذلك، فاقتضت الحكمة أن تحضر الأرواح فتظهر، فيشكّ قوم أيضاً فيبحثون حتى يصل بعضهم إلى الحقيقة فيطمئن لها، ويبقى آخرون حتى يعرفوا أن نتيجة القارورة والماء الذي فيها في العجيبة الأولى وحضور الأرواح في العجيبة الثانية واحدة، ومعنى ذلك أن الإنسان لا يموت، لأن روحه المتصرفة في جسمه هي التي تبقى بعد الموت في جسم شفاف كجسمه الحالي، لأن هذه الأجسام التي نعيش بها أنوار متراكمة قد أظلمت بهذا التراكم فإذا تركنا هذه الظلمات رجعنا إلى أنوار أخف منها، ولكن على هيئة هذا الجسم، فصرنا في حالة إطلاق لا غير، غاية الأمر أن هذا الجسم الذي هو مدرستنا يكسبنا العمل به نتائج نراها في حياتنا في الجسم الآخر اللطيف.

وليست هذه الظاهرة التي قدمناها في العجيبة الثانية فريدة في بابها، فلها نظائر تعدّ بالآلاف المؤلفة، وكم في عالم الأرواح من عجائب، وأن هذه الروح التي حلت محل روح ذلك المصري وظهرت صورتها في الصورة روح من الأرواح المتأخرة، لأن هذا فعل صبياني لا أثر للعقل فيه، فقد ظهر عند علماء اليوم أن الأرواح السخيفة في هذه الحياة هي أنفسها سخيفة بعد الموت، ولها أربع درجات مشروحات في كتابي «الأرواح»، ولعلك ترى هذا المقام مشروحاً في آخر سورة «الإسراء»، فالروح السخيفة الطفلة في الدنيا هي نفسها السخيفة السمجة بعد الموت. وقد ثبت بظهور نفس صورة «ستيد» المتوفى ثبوتاً لا يشك فيه من صدّق المخبر به أن الأرواح تكون بهيئتها بعد الموت ويعرفها الناس في الدنيا. أي أن الأرواح بعد الموت بتلك الهيئة الدنيوية لا أقل ولا أكثر.

وبالاختصار إن العلم الآن قد قرب لنا مسافة الحياة بعد الموت لنفهم سر قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]، وذلك ليريح قلوبنا من مخاوف العدم المحض. فالحياة إذن مستمرة والسعادة بالأعمال الصالحة. كتب صباح يوم الخميس (٨) مايو سنة ١٩٣٠، وبهذا تم الفصل الأول من اللطيفة الخامسة.

إيضاح لما تقدم

ثم حضر عندي صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير. فقال: لقد شاقني حديثك في المخلوقات الخافية الدقيقة، وأبهجني ما شاهدته منها الآن في الرسم والشرح، فهل تشرح صدري بالإفاضة في هذا الموضوع فإنه جميل. فقلت: إن أكثر النبات هو ما لا نراه، وما نراه قليل بالنسبة لما لا نراه. فقال: فهل تريني بعض ما لا نراه بالعين المجردة؟ فقلت: انظر شكل ٤٧ وشكل ٤٨ وهذه صورتهما. فقال: ما هذا؟

قلت: هذا هو أصغر نبات وهو مركب من خلية واحدة.

فقال: ما معنى خلية؟.

قلت: الخلية لها:

(١) غشاء رقيق يحيط بها.

(٢) وفي داخلها مادة تسمى «البروتوبلازم».

(٣) وفي هذه الثانية نواة هي أصل الحياة.

(شكل ٤٧)

بكتريا كروية

بكتريا حلزونية

بكتريا عصوية

(شكل ٤٨)

فقال: هي إذن أشبه بالبيضة لها قشر ولها بياض ولها مح وهي المادة الصفراء، ومن هذه يكون الفرخ. قلت: والله لقد أصبت المحز ونطقت بالصواب، ما الخلية التي أمامك إلا بيضة، حسن جداً. فقال: إن هذه البيضات التي يسمونها خلايا التي هي أمامي الآن ومنها الكروية والحلزونية والعصوية هي أصغر الأحياء في العلم. قلت: كلا. فإن هناك ما هو أصغر منها ولم يدركه الناس. فقال: عجباً! فقلت: لا تعجب فإن المناظير المقربة لما رصدت الكواكب العظيمة، ورأت أن المسافات في البعد قد وصلت إلى مئات الملايين من السنين في بعد الكواكب عنا أخذوا يخترعون مناظير مقربة بحيث يكون

قطر عدسة المنظار (٢٠٠) بوصة، وسيتم قريباً، ومتى تم يجدون من الكواكب ما لا نحلم به الآن. فهاهم أولاء لم يصلوا لأقصى ما هو عظيم وبعيد كما لم يصلوا إلى أصغر ما هو قريب، وكلما عرفوا مخلوقاً منها بحثوا عما وراءه، وهذه الخلايا النباتية التي أمامك تصل في الصغر إلى حد واحد من الألف من المليمتر. وقد قلت لك إن هناك ما هو أدق من ذلك والمناظير المعظمة لم تستطع رؤيته. فقال: أنت قلت إنها نبات. فقلت: نعم. فقال: النبات يتنفس وينمو ويتغذى ويتوالد. فقلت: هذه تتغذى بالسوائل والغازات وتعيش في كل مكان، تعيش في الهواء وفي الماء وفي التراب، فهي مقيسة على العوالم التي حولنا والتي في الهواء تتنفس منه، والتي في غيره تستخرج منه ما تحتاجه، ومنها ما يتغذى بأجسام حية تسمى طفيلية، ومنها ما تعيش على الأجسام العضوية غير الحية فتسمى الرمية.

وأما التي تعيش على ما ليس مادة عضوية فإنها قليلة، وأما توالد هذه الأنواع فإنّما يكون بالانقسام متى وجدت أفراده ما يلائمها. فقال: يظهر لي أن النبات المعلوم لنا كالقمح والقطن أسرع نمواً من هذا. فقلت: كلا. فقد قال العلامة فيشر: إذا تكاثرت بيضة واحدة ـ أي: خلية واحدة في مكان ملائم ـ فإنها تنتج في مدة (٢٤) ساعة (٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٦٠٠,١)، ويبلغ زنة هذا نصف مليون رطل. فقال: يا عجباً! هذه الخلية التي أمامي لا تزيد عن واحد من الألف من المليمتر تتكاثر في ٢٤ ساعة فتصير نصف مليون رطل أعني خمسة آلاف قنطار. فقلت: نعم. فقال: إذن إذا كانت في الماء والهواء والتراب فمعنى هذا أن هذا الموت يحيط بنا من كل مكان. فقلت: نعم والحياة، ففي هذه المخلوقات منافع ومضار. فقال: هل هذه تتحمل الحر والبرد كالنباتات المعروفة. فقلت: إنها أقوى منها. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: إنها إذا كانت في حالة حياتها تتحمل البرودة تحت الصفر إلى الدرجة التي يصير فيها الهواء سائلاً وهي درجة (١٩٠) تحت الصفر، ومعنى هذا أننا كما نرى البخار إذا قلت حرارته صار ماء ودرجة حرارته فوق الصفر، هكذا إذا نزل الهواء تحت الصفر إلى درجات تبلغ (١٩٠) فإنه يصير سائلاً، فهذه الخلايا التي تعيش بيننا لا تموت في هذه الدرجة، ولكنها لا تتحمل الحرارة أكثر من (٥٥) درجة فوق الصفر، فهي إذن ذات قدرة عظيمة تفوق قوة النبات والحيوان المعروفين. فقال: أنت قلت إنها لا تموت في هذه الدرجة، فهل معنى هذا أنها تكون كالنباتات المعروفة ذات حياة. فقلت: نعم. فقال: ومتى تخمد تلك الحياة. فقلت: تخمد وتصير أشبه ببيضة الدجاجة إذا صادفت وسطاً لا يلائمها. فقال: فماذا يحصل؟ قلت: يحيط بها غلاف سميك يحفظها كقشر البيضة، وهناك تعيش سنين كما تقدم في المقال الأول موضحاً وتبقى الحياة كامنة، ومتى صادفت وسطاً مناسباً رجعت لها الحياة ورمت القشرة الحافظة وعاشت حالاً كما تقدم. فقال: ما صورتها؟ فقلت: هاهي ذه. انظر شكل ٤٩.

(شكل ٤٩)
تكوين الجراثيم في البكتيريا

فقال: هاهنا أريد أن تبين كيف تكون هذه نافعة؟ فقلت: لولاها لم نعش على الأرض. فقال: أوضح. فقلت: إن هذه يسمونها البكتريا، وهذه منها نوع يسمى «بكتريا التعفن»، وذلك أنها هي التي تحلل المواد المركبة المنبتة في الأرض

وترجعها إلى عناصرها الأولى، وبهذا يمكن النبات أن يمتص من الأرض غذاءه. فهذه الجنود المجندة هي التي تعين على نمو النبات. فهي أشبه بالطحانين والعجانين والخبازين لنوع الإنسان، عليهم تتوقف حياة كثير من الناس. فقال: والله إن هذا لعجب! فقلت: إن النبات كالقطن والقمح لا يستطيع أن يتعاطى عنصر الآزوت مثلاً وهو من أهم العناصر المكونة للنبات إلا بحالة خاصة، وهذه الحال الخاصة لا تحصل إلا بعمل هذه الخلايا في المواد العضوية المعقدة التركيب. إذن هذه نعمة من الله على الناس، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وكيف يشكرون وهم يجهلون. وبهذا ظهر السر في أن هذه النباتات في حال خمودها ـ كما في شكل ٤٩ ـ تقدر أن تتحمل الحرارة الشديدة وتأثير المواد السامة أكثر من التي هي غير خامدة بل حية، ويسمون الحية خضرية. والتي خمدت يسمونها بالجراثيم. فقال: إذن هذه النباتات التي لا ترى تقوم بتحليل العناصر، والنبات المعروفة عندنا تقوم بتركيبها. فقلت: لقد أحسنت، فلولا صحة التحليل وصدقه ما أمكن التركيب. فقال: وهل لها فعل غير هذا؟ قلت: كثير:

(١) بعض أنواعها يكون سبباً في الخل، ذلك كما قلنا إنه محيط بنا، فهو ينزل في نحو النبيذ والجعة فينمو ويتكاثر فيكون الخل.

(٢) ولا يمكن دبغ الجلود إلا بعد قيام نوع آخر منها بعملية خاصة فيها، وهذه الزبدة التي نأكلها لا يحسن طعمها ولا رائحتها إلا بعد أن يتخمر اللبن بنوع من هذه المخلوقات الخفية. وهكذا اللبن لن يكون «لبناً زبادياً» إلا بواسطة هذه المخلوقات. فهي التي تتكاثر فيه حتى يختمر. إذن هي تحضر لنا غذاءنا كما تحضر للنبات غذاءه.

فقال: إذن فاذكر لي ضررها؟ فقلت: هي تدخل أمراضاً كثيرة في الإنسان بطرق مختلفة، ويجب على الإنسان أن يتقيها، وأول من أوضحها الأستاذ باستور فمنها: (١) مرض التسمم. (٢) والطاعون. (٣) والتيفود. (٤) والتيفوس. (٥) والالتهاب الرئوي وهو السل.

ويدخل للإنسان بالأول من طريق الجرح في الجلد، وبالثاني من طريق البراغيث، وبالثالث من طريق القمل، وبالرابع من طريق الغذاء جارياً في القناة الهضمية، فيكون هنالك الإسهال الشديد والسل الرئوي والتيفود كما قدمنا. كل هذا سببه هذه الحيوانات. وبالخامس من طريق الرئتين.

وللوقاية من هذا تجب النظافة واستعمال المطهرات والمعقمات في الأول، والنظافة وإبادة الحشرات في الثاني والثالث، وإبادة الذباب واستعمال الماء النقي وتعقيم اللبن وحفظ الأغذية في أماكن نظيفة وهكذا في الرابع، وتجنب الأماكن التي فيها التراب، ومعالجة الزكام والبرد بسرعة، وتجنب البصق، والابتعاد عن المرضى، وتناول الطعام الجيد، والمحافظة على الصحة بوجه عام في الخامس.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد أحسنت وشرحت صدري، ولكن هل هذا نعمة؟ قلت: أجلّ نعمة. فهذا يعطي الناس دروس الجد والاجتهاد في الحياة. فإذا كان بعض هذه الجراثيم الخضر والحيوانات الدنيئة تقوم بتحليل المواد العنصرية ليعيش زرعنا ويدر ضرعنا؛ فهاهي ذه بعضها تقوم بتقويم العقول وتنمية الملكات وتهذيب الأخلاق، فهي التي تدعونا لتنظيف أمكنتنا وثيابنا وطعامنا

وشرابنا ونكون رجالاً نشيطين لا خاملين . إذن هذه جيوش مرسلة من الله لإطعامنا ولإحداث النشاط فينا بسبب مقاومتنا لها ، وما مثل هذه النباتات الذرية التي تحلل العناصر لتغذية النبات فنعيش بها ، والتي تحدث الأمراض من طريق الجلد والقناة الهضمية والرئة إلا كمثل النحل ودودة الحرير . وهكذا الحيات والعقارب ، فكما أن الحيات والعقارب والحشرات الأخرى تحثنا على تنظيف أفنيتنا ومنازلنا وثيابنا ، والنحل ودود القز تفيدنا غذاء وملبساً ، هكذا هذه النباتات فيها القسمان الضار والنافع ، فالضار يكون الاحتراس والابتكار والاختراع وتقدم الطب وإنشاء الكليات ومدارس الطب وارتقاء علوم كثيرة ، وبالنافع يكون نمو النبات ومنافع أخرى كصلاحية الزبدة والخل للتعاطي .



(شكل ٥٠) رسم العقد التي تشاهد على جذور النباتات البقلية

فقال : لقد استوفيت هذا المقام ، فأرجو أن تبين لي هل هذه الجراثيم والخلايا النباتية التي شرحتها الآن ذات ألوان كالنباتات المعروفة ؟ فقلت : هي ثلاثة أقسام : قسمان منها لا لون لهما ، والثالث له لون وهو الطحلب ، واللذان لا لون لهما أحدهما يسمى الفطر والثاني يسمى البكتريا ، فمثال البكتريا ما ترى في شكل ٥٠ الذي أمامك الآن .

هاأنت ذا شاهدت العقد المحيطة بهذه البكتريا العقدية ، أتدري من أين أتت هذه العقد ؟ أتت من تلك الجراثيم ، فإنها تعيش وتتكاثر فوق النبات وتتغذى بطعامين اثنين : طعام هو الكربون الذي في الشجرة ، وطعام هو الأزوت الذي هو أحد أجزاء الهواء ، فلا يزال يتكاثر حتى يموت بانتهاء آجاله ، ومن الذي يرث هذا الميت ؟ يرثه نفس هذا النبات الذي قبله في ضيافته فحلّ بساحته ، فماذا يجد النبات عند حصر التركة ؟ يجد أن الكربون الذي تمثل في جسم تلك النباتات الصغيرة موفراً بحاله ومعه أمر آخر وهو الأوزوت الذي حصله ذلك الضيف من الهواء ، وهو كان قبل ذلك محتاجاً إليه ليقوى به . إذن هذه النباتات نافعات للنبات من جهة ومن جهة أخرى تكسب الأرض خصوبة بإضافة أوزوت جديد إلى تربتها .

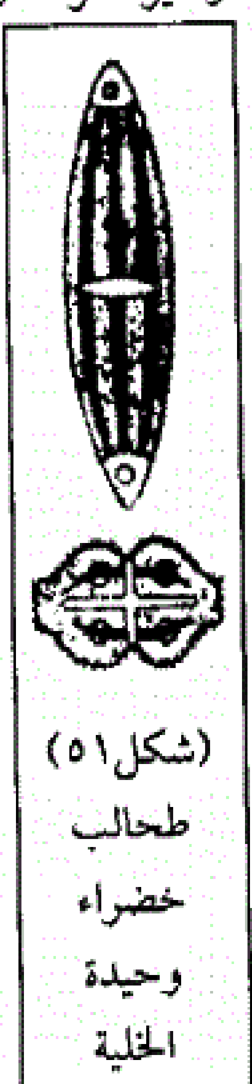
فلما سمع صاحبي ذلك . قال : أود أن توضح لي مسألة الطحلب . فقلت : سأريك الآن العجب العجاب في مسألة الطحلب . وذلك ما ستراه من الأشكال البديعة في الصفحات التالية . فهاك ما جاء في كتاب « علم النبات » وهذا نصه :

الطحالب

الطحالب نباتات ثالوسية مركبة من خلية واحدة أو من خلايا عدة ، وهي بسيطة التركيب لا تتميز فيها جذور أو سوق أو أوراق ، وتحتوي خلاياها على مادة الكلوروفيل ، وتعيش في الماء المالح أو العذب ، والقليل منها يعيش في التربة أو على جذوع الأشجار ، والطحالب أهم غذاء للأسماك ، ويستخرج من بعضها اليود والبوتاسا ، ولدراستها أهمية عظيمة من الوجهة العلمية إذ أنها في بساطة تركيبها وطرق معيشتها تساعد على تعرّف طرق معيشة النباتات المائية . ومن المتفق عليه أن الكائنات الحية نشأت في الماء .

والطحالب على أنواع تختلف في ألوانها وأحجامها :

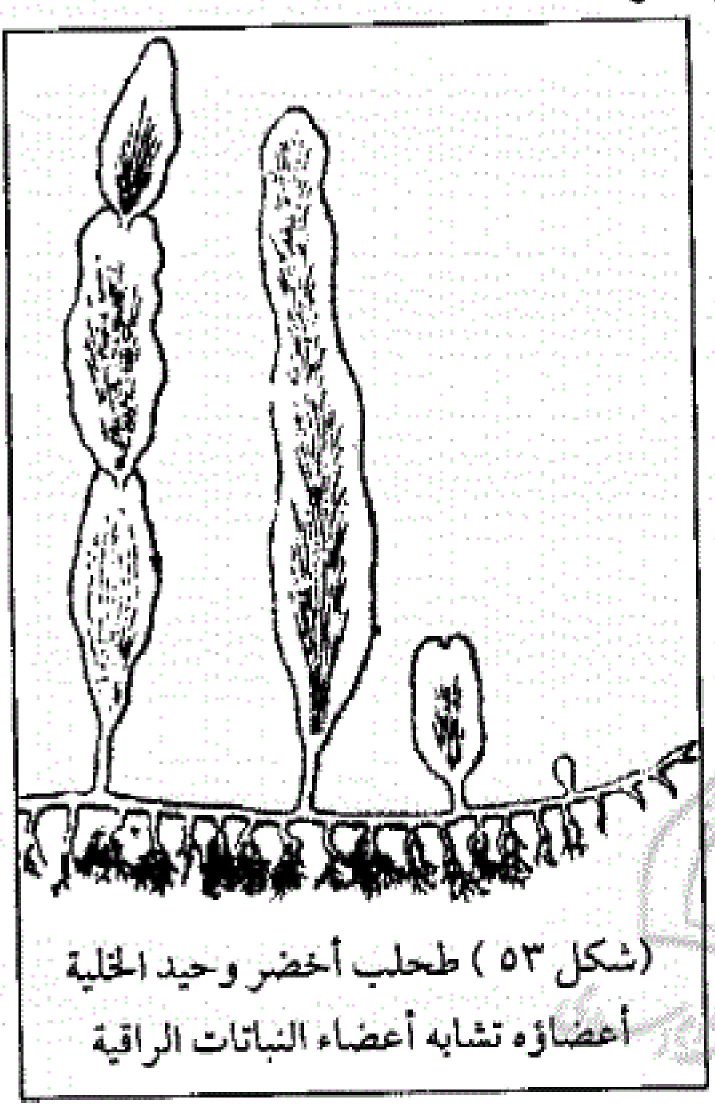
الطحالب الخضراء : تعيش طافية على سطح الماء أو مثبتة على الصخور الواقعة على الشواطئ معرضة للضوء . وهي في الغالب صغيرة الحجم . وحيدة الخلية . أو كثيرة الخلايا . مكوّنة خيوطاً متفرعة أو غير متفرعة أو مستعمرات . انظر شكل ٥١ و٥٢ و٥٣ و٥٤ .



(شكل ٥١) طحالب خضراء وحيدة الخلية



(شكل ٥٢) مستعمرة من الطحالب الخضراء

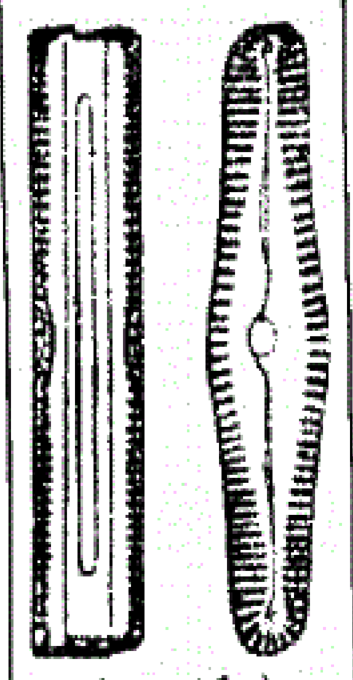


(شكل ٥٣) طحلب أخضر وحيد الخلية أعضاؤه تشابه أعضاء النباتات الراقية



(شكل ٥٤) طحالب زرقاء مخضرة

الطحالب البنية : تعيش على عمق يسير من سطح الماء . أو طافية عليه . ومن هذه أنواع مركبة من خلية واحدة يحيط بها هيكل سيليسي . انظر شكل ٥٥ . وعند موتها ترسب هياكلها وتتكون منها طبقات سيليسية . وفي الغالب تكون الطحالب البنية مثبتة على الصخور الموجودة على مستوى ماء الجزر فتتعرض للضوء مدة الجزر وتختفي قليلاً مدة المدّ . وهي تختلف في أحجامها من طحالب صغيرة إلى طحالب كبيرة الحجم .



(شكل ٥٥) طحالب بنية وحيدة الخلية «دياتومات»

الطحالب الحمراء : تعيش على أعماق كبيرة من سطح البحر . وأغلبها صغير الحجم خيطي التركيب . وكل الطحالب على ألوانها المختلفة تحتوي على مادة الكلوروفيل ، ولكنه يوجد في الطحالب البنية والحمراء فضلاً عن الكلوروفيل مواد ملونة تخفي لونه الأخضر .

ومن الطحالب ما يماثل النباتات الراقية في وجود مثبتات لها تشبه الجذور ، يعلوها جزء أسطواني يشبه الساق ويخرج منه ما يشبه الأوراق . وقد يبلغ الواحد منها أحياناً حجم شجرة كبيرة .

وتتكاثف بعض تلك الطحالب الكبيرة كالسرجاسوم (انظر شكل ٥٦) في مناطق معينة ، منها منطقة في المحيط الأطلسي تعرف ببحر سرجاسو . ولشدة تكاثفها وكبر حجمها تعد خطراً على الملاحة في هذه المنطقة . وبعض الطحالب الحمراء يفرز هيكلاً خارجياً من كربونات الكلسيوم يحيط به ويساعد على تكوين الشعب المرجانية . انظر شكل ٥٦) .



(شكل ٥٦ ـ السرجاسوم : أحد الطحالب البنية الكبيرة الحجم)

الفُطْر

الفطر تشبه الطحالب في بساطة تركيبها . غير أنها كالبكتريا خالية من الكلوروفيل . ولانعدام الكلوروفيل فيها تأثير كبير على طرق معيشتها . فهي غير قادرة على تمثيل الأغذية غير العضوية . ولذلك تحتاج إلى مواد عضوية مجهزة . وتنقسم الفطر بالنسبة لمصدر غذائها إلى قسمين :

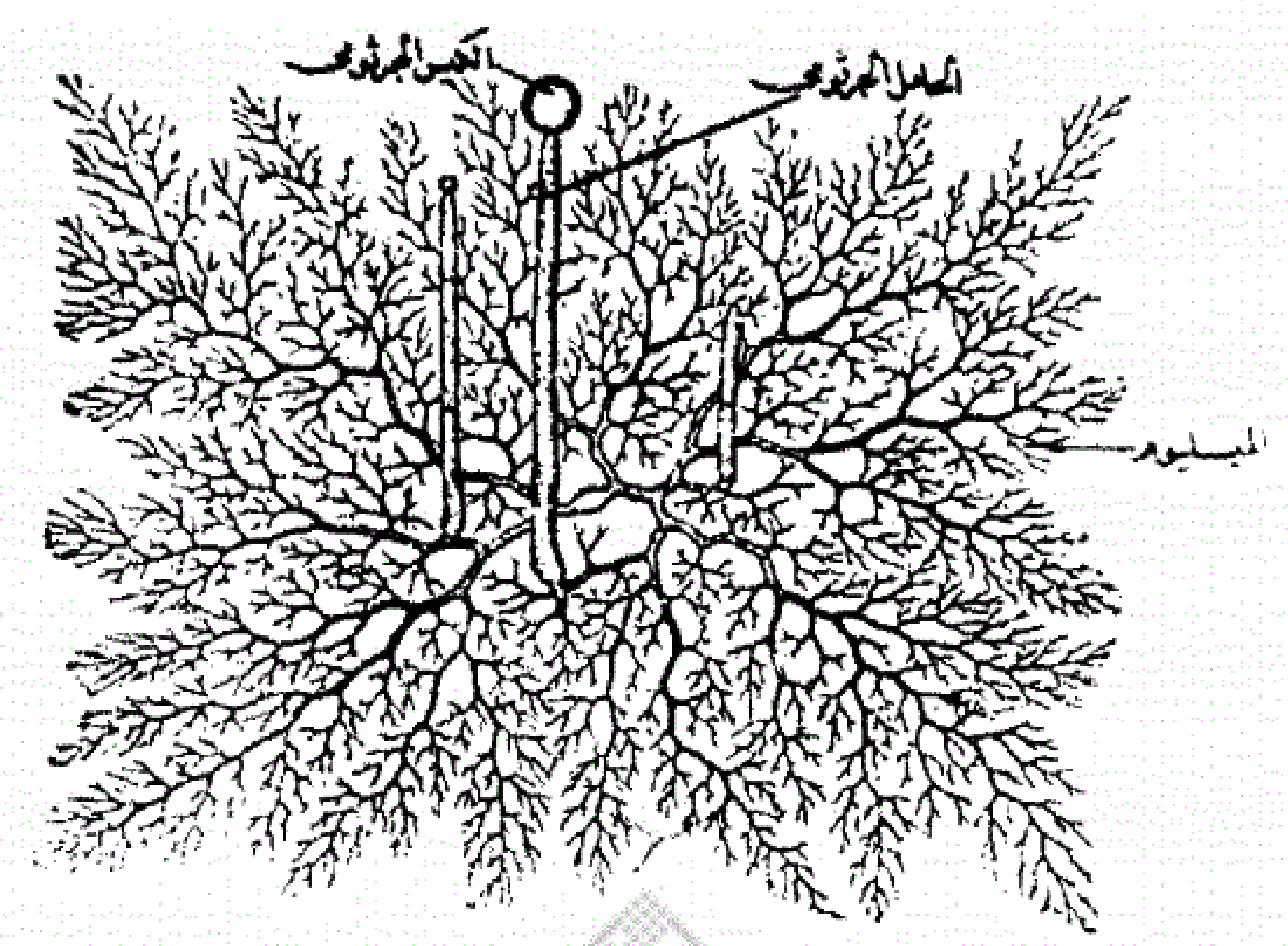
(١) فطر رمية : وهي التي تتناول غذاءها المجهز من المواد العضوية الميتة . ولهذه الفطر أهمية كبيرة في الطبيعة ، إذ أنها تساعد البكتريا على تحليل المواد العضوية الميتة وتحويلها إلى مركبات بسيطة . وبعضها يسبب فساد كثير من المواد الغذائية ، فتعفن الخبز والمربات ، وكثيراً ما يتسبب عن إصابة هذه المواد بأنواع مختلفة من الفطر .

(٢) فطر طفيلية : وهي التي تتناول غذاءها من « بروتوبلازم » الكائنات الحية مباشرة . ومنها ما يصيب النباتات فيسبب لها أمراضاً مختلفة قد ينجم عنها خسائر فادحة في المحاصيل الزراعية .

ومن الفطر ما يصيب الحيوانات والإنسان . فالقراع مثلاً يتسبب من إصابة جلد الرأس بنوع من الفطر الطفيلية . والفرق بين الفطر الرمية والفطر الطفيلية غير واضح في بعض الأحوال ، لأن بعض الطفيليات قد يستمر على التغذي من عائله بعد موت ذلك العائل ، كما أن بعض الفطر الرمية قد يتحول إلى طفيليات في ظروف خاصة .

تركيب الفُطْر

يتركب جسم النبات الفطري إما من خلية واحدة كالخميرة ، وإما من أنابيب رفيعة كثيرة التفرع تسمى كل منها « هيفا » ، ومجموعة هيفات الفطرة الواحدة تعرف بالميسليوم كما في شكل ٥٧ ، وقد تكون الهيفات مقسمة بحواجز عرضية (شكل ٥٨) أو غير مقسمة . (انظر شكل٥٧ في الصفحة التالية).

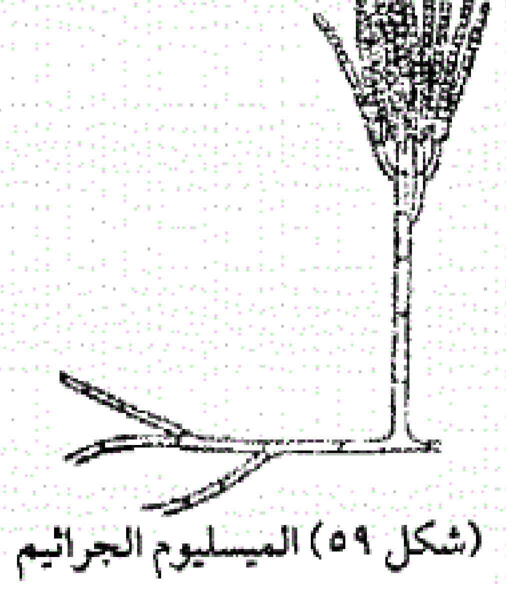


(شكل ٥٧) الكيس الجرثومي الحامل الجرثومي الميسليوم

وقد تتكاثف هيفات بعض الفطر وتتلاصق فتتكون منها كتلة تشبه أنسجة النباتات الراقية كما هو الحال في عيش الغراب. (انظر شكل ٥٨ و٥٩).



(شكل ٥٨ ـ عيش الغراب)
الميسليوم حامل الجراثيم



(شكل ٥٩) الميسليوم الجراثيم

جمال العلم في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ [فصلت: ٣٩]

مع قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ١٠]

سبحانك اللهم شملتنا بإحسانك. وبهرتنا بجمالك. ونحن إلى جمالك أشوق. وإلى علمك أكثر بهجة وأفرح قلوباً. سمعناك يا ربنا تقول: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠]، فأخذنا نستقرئ هذه الأقوات. فوجدناها عجباً! وجدنا أن أسبابها هي المشرقات العجيبات من الشموس والكواكب والأقمار. أدرنا الطرف إلى تلك المشرقات فألفيناها لا تفتأ تلقي الأشعة والأنوار على أرضنا الجميلة

البهجة الحسناء . ووجدنا أن حركات تلك المشرقات لها حساب لا خلل فيه ولا خطأ ولا خطل . ورأينا صيفاً وشتاء وربيعاً وخريفاً وليلاً ونهاراً كلهن بحساب . ثم إن الأنوار الواصلة إلى الأرض مختلفات ضعفاً وقوة باختلاف ذلك الحساب . وعلى مقتضاه وجدنا النبات في الأرض فقلنا لعل الحساب في تلك الكواكب وحدها . أما النبات فلا حساب فيه ، بل هو خارج بمقتضى المصادفة . ولكنا لما نظرنا في أمر النبات وأخذنا نستقرئ أنواعه وأجناسه وجدناه بحساب ، إذ رأيناه موضوعاً أيضاً بدقة لأنه مجعول لغذاء الحيوان والإنسان . والإنسان يحتاج في اليوم والليلة من الغذاء إلى مقدار أقله نحو نصف كيلو غرام وأكثره نحو كيلو غرام . وسيأتي تفصيل هذا المقام في أول سورة « الجاثية » فراجعه ، ولا تعوّل إلا على التفصيل هناك ، ولنعجل ببعضه هنا فنقول :

رأينا أن الإنسان يحتاج إلى نوعين من الطعام : نوع هو مواد عضوية مركبات من مواد نشوية ومواد دهنية ومواد زلالية « آزوتية » ، ونوع هو مواد غير عضوية كالأملاح المختلفة والماء . والغرام من المواد الدهنية يعطي الجسم حرارة تولد نشاطاً فيه وحركة . وتلك الحرارة لها وحدة يسمونها « كالوري » أو « سعر » ، ومجموع ما يحصل من غرام الدهن (٩) كالوري . وما يكون من غرام النشاء (٤) كالوري . وما يكون من غرام الزلال (٤) كالوري ، فإذا كان في الطعام (٣) كلوجرامات من كل واحد جرام كان فيه (١٧) كالوري « سعر » .

غذاؤنا لا بد فيه من مواد دهنية، وأخرى نشوية، وأخرى زلالية

فالدهنية كالزيوت ، والنشوية كالأرز ، والزلالية كالبيض واللحم وهكذا ، فهذا الذي نحتاج إليه في طعامنا ألفيناه في النبات وفي الحيوان ، ثم وجدنا نسبة مختلفة ، فتارة يكثر الزلال ، وتارة يكثر الدهن ، وتارة يكثر النشاء ، ولنا أحوال مختلفات من صحة ومرض وضعف وقوة ، وعلى مقتضاه تختلف أطعمتنا ، فتارة نكثر من النشاء . وتارة نكثر من الدهن . وتارة نكثر من الزلال . ثم إننا لما بحثنا النبات وجدنا هذه فيه بنسب مختلفة أيضاً ، فعرفنا أن هاهنا حساباً موضوعاً بدقة لنستعمل ما يوافقنا منه بعد التروّي والبحث والتنقيب . وهاك مثلاً لذلك :

المواد النشوية

رأينا المادة النشوية تكثر في الأرز والذرة والقمح والبزلة الناشفة والفول الناشف واللوبية الناشفة والعدس والبلح الناشف . فهذه الأنواع التسعة يكون النشاء فيها من نصفها إلى ثلاثة أرباعها . ونرى الكرنب والطماطم والسبانخ والخص وكشك الماز والخيار والشمام والبطيخ والبرتقال والليمون فيها أقل من عشرة في المائة مواد نشوية . ونرى الفول السوداني والتفاح والكمثرى والخوخ والتوت والعنب والموز والتين واللوز والبندق والجوز وأبو فروة وجوز الهند والفسدق والصنوبر . كل هذه فيها النشاء أكثر من عشرة في المائة .

المواد الدهنية

ونرى المواد الدهنية تكثر في اللوز والبندق والجوز والفسدق وجوز الهند والصنوبر ، فهي في هذه أكثر من النصف . ونرى الدهن في الديك الرومي والأوز والضاني والبقري والفول السوداني

والبيض أكثر من عشرة في المائة. ونراه في القمح والذرة واللبن والبطاطس والبطاطا واللوبية الخضراء وما أشبه ذلك قليلاً جداً.

المواد الزلالية «الآزوتية»

إننا نرى في المواد الزلالية في الديك الرومي والإوز والفراخ والضاني والبقري والصنوبر والفسدق والجوز والبندق واللوز والفول السوداني والعدس واللوبية الناشفة والفول الناشف والبزلة الناشفة في كل هؤلاء أكثر من عشرة في المائة. ونراها أقل من عشرة في المائة في البزلة المقشرة وفي الكرنب والطماطم وهكذا.

عجباً يا ربنا! وزنت سير النيرات. وأدهشتنا بعلم الفلك. ولكنك في خلق الحيوانات والنباتات وجدنا حسابك مركباً مضاعفاً. فإنك جعلت أجسامنا مركبة من مواد دهنية ومواد آزوتية ومواد نشوية. ونفس هذه المواد وجدناها بمقادير مختلفة. ثم سمعناك تقول في كتابك: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[فصلت: ١٠].

يا رب تباً للجهالة. تباً للجهال. يسمع المسلم: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[فصلت: ١٠]، فتمر عليه الكلمة غالباً كأن لم يسمعها. أواه لأمم الإسلام النائمة. أفلم يدبروا القول إذ جاءهم؟!.

إن هذه المآكل قد وزنتها الأمم حولنا ونظروا فيها نظراتهم. فهل يبقى المسلمون مكتوفي الأيدي. إن للمسلمين بعد انتشار هذا التفسير لجولة ودولة وصولة وإسعاداً لنوع الإنسان. هذه النباتات طلاسم وألغاز لا يحلها إلا علماء جميع النوع الإنساني لا بعضه. والمسلمون يبلغون نحو الخمس أو الربع من نوع الإنسان، فعليهم أن يقوموا بما عليهم حتى إذا درسوا ما أنتجته قرائح آبائهم، ثم ما أنتجته قرائح الأمم المتأخرة بعدهم، قاموا إذن بنصيبهم من البحث في الأغذية وأنواعها قياماً بحق قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾[فصلت: ١٠]، إذ وضعها بوضع مقدر، فكانت المواد النشوية والمواد الآزوتية والمواد الزلالية كل منها له نسب خاصة في المواد العضوية، وذلك لاختلاف الآكلين والأمزجة والأمكنة والأشخاص، وذلك يعوزه كثرة البحث والتنقيب حتى تكون هناك نتائج بها يخصص لكل قبيل ولكل امرئ ما يناسبه زماناً ومكاناً، هنالك تقل الأمراض وترقى العقول وتسعد الإنسانية. ولن يتم ذلك إلا إذا ساعد الغربي الشرقي، والشرقي الغربي، في درس هذه الدنيا ونظامها ورموزها.

خطاب المؤلف لربه

يا رب في القلوب حبك، وفي العقول شكرك، وعلى الألسنة ثناؤك، لا سعادة في الحياة إلا بالحب، ولا حب إلا بعد العلم. تحبك الدواب والأنعام لأنك تسدي إليها الغذاء، وتحبك العامة من نوع الإنسان لأنك تطعمهم من جوع وتغنيهم من فقر، وهذا حبّ كحب عبيد العصا يحسون بحب ساداتهم إذا رفعوا عنهم ضرب العصا، فهو حب على دفع الألم بعد حصوله، وهل اللذة إلا بعد الألم. ويحبك بعض آخر من العامة لأنك فوق ما غذيتهم بالطعام ملكتهم منه كثيراً، وأنعمت عليهم بالمال الوفير والخيرات والبركات وآتيتهم ملكاً في الدنيا. ويحبك الأطباء لأنهم اطلعوا على أسرار الأغذية وخواصها فشفيت بها مرضاهم. ويحبك الحكماء وحبهم لك أعلى من حب السابقين.

تذكرة

إذا أردت أن تعرف كيف ترتب غذاءك فاقرأ ما تقدم في آخر سورة « ص » عند قصة آدم عليه السلام، وفيها أيضاً في آخر سورة « طه »، وفي سورة « الشعراء عند الآية ٨٠ »: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، وفي سورة « الحجر »، وفي سورة « الأعراف الآية ٣١ » عند قوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ الخ، وفي سورة « البقرة عند الآية ٦١ »: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾. إنهم يحبونك لعلمك الذي ظهرت آثاره في نحو تقدير الأقوات، ولرحمتك التي تجلت في عنايتك باستيفاء أنواع أغذية الحيوان، ولجمالك الذي تجلت آثاره في صور النبات وأشكاله وبدائع الحيوان، ولحبك الذي أمدّ بعضه القلوب فأحبت الإحسان والجمال والكمال. إن سعادتنا بالحب. ولا كمال للحب إلا على مقدار العلم بالمحبوب. يصلي المسلم فيقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، ويسبح ويكبر. فبالتسبيح يتصور أن ذلك المحبوب أرفع من كل ما يعلمه. و بالتحميد يتذكر إحسانه وعلمه فيزداد حبه. و بالتكبير ينسى كل مخلوق ويفرح بذلك الوجود الأكمل، وهناك يفهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[الإنسان: ٢٠].

بازدياد العلم يزداد الحب. وبازدياد الحب تزداد السعادة. وأفضل سعادة الدنيا هو الحب. وأفضل سعادة الآخرة هو الحب.

نور على نور وضرب مثل بما نحن فيه
لما يلهب القلوب حباً ويملؤها جمالاً ويبهرها أنواراً

أريد أن أضرب مثلاً ببعض أنواع النبات ونظامها وموافقتها للجهاز الهضمي. يا سبحان الله! نرى الإنسان يعوزه في اليوم (١٨٠٠) سعر إذا كان في فراشه. وقد عرفنا ما هو السعر فيما تقدم قريباً أن الذي يحدثه في الجسم هو المادة الدهنية والنشوية والآزوتية. وهو يحتاج إلى (٤٠٠٠) سعر إن كان في شغل شاق، وإلى نحو (٣٠٠٠) إذا كان في شغل متوسط. ولقد عرفنا أن الغرام من المادة النشوية ومن المادة الزلالية يحدث (٤) سعر « كالوري »، ومن المادة الدهنية يحدث (٩) كالوري، فلننظر في الذرة والقمح والصنوبر والفول السوداني، فماذا نجد؟ نجد الجدول التالي:

الصنف	ماء	آزوتية زلالية	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصري
قمح	١٢,٨	١٠,٨	١,١	٧٤,٨	١٥٦٤
ذرة	٩,٣	٩.٩	٢,٨	٧٦,٣	١٥٤٧
صنوبر	٣,٤	١٤,٦	٦١,٩	١٧,٣	٣٠٤٠
فول سوداني	٩,٢	٢٥,٨	٣٨,٦	٢٤,٤	٢٤٣٤

إنّما اخترعت هذه الأغذية لأنها تعطينا ضروب التفاوت في مقدار السعر وفي المقادير الدهنية والآزوتية والنشوية، فقد ارتفع الفول السوداني في المادة الآزوتية، والصنوبر في الدهنية، والقمح والذرة في النشوية وارتفع الصنوبر في قيمة التغذية، ويليه الفول السوداني، وأقل منهما الذرة والقمح.

هذه صورة تظهر لنا مقادير الأغذية في النبات، إن كل نبات لا يخلو من هذه المواد، ففيها الماء، وفيها المواد الثلاثة، ولكن النسب مختلفات كما اختلف الناس أوطاناً وقوى وأجساماً وعادات، فاختلفت النباتات كما اختلفوا. وهنا مدهشات وعجائب! هو أمر الشمس وأمر جذور النباتات وأمر أوراقه، والجهاز الهضمي للإنسان مثلاً. أليس من العجب أن الشمس ترسل الأشعة فتساعد تلك المادة الملونة التي تقدم وصفها في سورة «يس عند الآية ٣٦»: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾، يا رب عجباً. انظر الموضوع هناك إذ ترى صور الورقات، ووصف الحجرات في كل ورقة، وأنها تكون مئات وألوفاً وملايين في الورقة الواحدة والمادة الملونة في تلك الحجرات يساعدها ضوء الشمس في اجتذاب الغذاء من الهواء، ولولا هذا لم يكن نبات.

وهكذا نرى جذور الأشجار والزروع ذات مسام شعرية تختلف فتحاتها اختلافاً على مقتضى اختلاف النبات، بحيث تكون الفتحات الشعرية لكل نبات صالحة لاجتذاب وقبول المواد التي يتمثل بها النبات، وفتحات هذه الأنابيب هي مفاتيح سر النبات، فتكون في الصنوبر غيرها في الفول السوداني غيرها في الذرة والقمح، بحيث لو اختلت أو اضطربت فدخلت مواد تزيد في المادة الدهنية أو النشوية أو الآزوتية عما هو مقرر لكل منها لم يكن في الأرض فول سوداني ولا ذرة ولا قمح ولا صنوبر، فنظام هذا العالم نظام أدبي عجيب، لو اختلت الأوراق في حجراتها أو الجذور في فتحاتها فدخلت ذرات لا توافق حساب المواد المقررة للنبات لم يكن ذلك النبات وفسد هيكله، ولم يعش حيوان ولا إنسان. قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]. والأمر الأعجب الجهاز الهضمي. (انظر شكل ٦٠).

(شكل ٦٠) رسم الجهاز الهضمي

تعجب لهذا الجهاز. انظر كيف نظمت مصانعه على مقتضى نظام النبات. ومعنى هذا أنه جاء مطابقاً للمواد الداخلة في النبات، فكما نرى في كل نبات:

(١) مادة نشوية: وتغلب في الحبوب كالقمح والشعير والأرز، وفي الخضراوات كالبطاطس والبطاطا واللفت والجزر والبنجر، وفي البقول كالفول والعدس واللوبية والبزلة الجافة.

(٢) ومادة زلالية آزوتية: وتغلب في البقول واللحوم.

(٣) ومادة دهنية: وتغلب في الزيوت والسمن والزبدة ودهن الحيوان والطيور.

هكذا نرى في هذا الجهاز المرسوم في الصحيفة السابقة:

أولاً: (١) مصانع الفم: وهي ٦ ينابيع تهضم بعض المواد النشوية. (٢) وما بقي من النشاء بلا هضم يهضمه البنكرياس بخميرة خاصة به، ويزيد هذه المادة هضماً (٣) عصارة الأمعاء الدقاق.

ثانياً: المواد الدهنية: وهي تهضم بعصير يخرج من مصنعين: أحدهما البنكرياس، وثانيهما ما يفرزه الكبد من الصفراء.

ثالثاً: المواد الآزوتية: وهي تهضم بالعصير المعدي والبنكرياس.

الهواضم	المواد		
(١) لعاب الفم وهو ست ينابيع.	النشاء	...	...
(٢) العصير المعدي.	...	...	الآزوتية
(٣) الصفراء.	...	الدهنية	...
(٤) البنكرياس.	النشاء	الدهنية	الآزوتية
(٥) عصير الأمعاء الدقاق.	النشاء	...	...

فإذا نحن جاوزنا لعاب الفم ألفينا عجباً! ألفينا البنكرياس يهضم الأنواع الثلاثة بأنواع من الهواضم مختلفات، وألفينا العصير المعدي والصفراء والأمعاء قد وزعت عليها أنواع الأغذية الثلاثة توزيعاً عادلاً فساعد كل مصنع في هضم مادة من المواد، إذن لكل مادة نوعان من الهواضم إذا استثنينا لعاب الفم للمواد النشوية.

هاهنا ننظر في ضوء الشمس، وفي حجرات الأوراق، وفي فتحات الأنابيب الشعرية، فنجدها قد حسبت حساباً متقناً حتى حصلنا المواد الغذائية، ثم نبحث في الجهاز الهضمي فنجد المصانع فيه موزعات على هذه المواد التي عملت فيها عوامل الأضواء والأوراق وفتحات الجذور الشعرية.

نظام الأمم الأرضية
والشوق إلى مبدع النظام

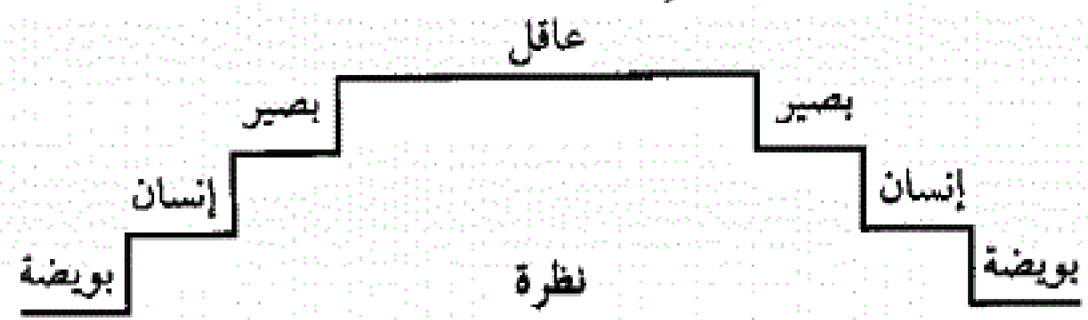
فيا ليت شعري يا معاشر بني آدم، أغفلتم عن هذا النظام، ألم تعلموا أن هذا مثل فصله الله للناس بنفس نظام مآكلنا وقال لكم: لو لم يكن هناك البنكرياس مع العصير المعدي، ولو لم يكن البنكرياس مع الصفراء، ولم يكن البنكرياس مع عصير الأمعاء، لم تهضم المواد الآزوتية ولا المواد الدهنية ولا المواد النشوية. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

فهذا هو التفصيل، وهذا هو التدبير، وبهذين يكون الإيقان، واليقين هو العلم الذي لا يدخله الشك. لو أن مصنعاً من هذه المصانع الهواضم للمواد لم يكن في الجهاز الهضمي لاختل نظام الهضم. ألم يعلم هذا النوع الإنساني أن الأرض جميعها أشبه بالجهاز الهضمي، وأن عقول بني آدم أشبه بهذه المصانع الهواضم لهذه المواد، وأن اختلال عقول أمة أو ضعف قوتها يحرم المجموع الإنساني مما تنتجه تلك العقول، كما يحرم الإنسان من هذا الانتفاع بنشاء ويدهن ويزلال لم يجد ما يهضمه. أي فرق أيها الناس بين القوى الهاضمات المواد والأغذية المختلفة وبين العقول المختلفات الموزعات على الناس أليس هذا النظام الجسمي العجيب مشاكلاً كل المشاكلة للنظام العام. اللهم إني أكتب هذا القول في كتابك وأخاطب عبادك جميعاً في الأرض، وأقول: ما دامت هذه الأرض فيها أمة واحدة لم يستخرج ما عندها من القوى العقلية وما في أرضها من القوى المادية؛ فأهل هذه الأرض جميعاً معذبون على مقدار ما نقصهم من فوائد تلك العقول كما تنقص سعادة الإنسان الواحد بما نقصه من القوى الهواضم لمواد طعامه، وهذا القول أنا به موقن.

عروج النفس إلى العالم الأعلى

لقد قدمت في غير ما موضع من هذا التفسير لا سيما في آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[فصلت: ٣٠] الخ في هذه السورة أن المادة عجزت عن إمداد عوالمها بالحرارة والضوء، فهي عن إمدادها بالتصوير والإدراك والعقول والغرائز والقوى أشد عجزاً، وأقول الآن: إن العلم اليوم في العالم الإنساني أثبت أنه لا وجود للمادة، لأنها عبارة عن حركات تنوعت، فإن كانت من ٤٠٠ مليون مليون في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها فذلك هو الضوء، وإن كانت نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهي العناصر ومركباتها، فليحذف النوع الإنساني من صحائفه ذكر الفلاسفة الماديين، فإذا لم تكن مادة فكيف يكون لها فلاسفة؟ ولكن الناس يذكرونهم وهم غافلون عن رقي العلم اليوم.

فلم يبق إلا أن هناك علماً ورحمة وجمالاً وحباً استمد منه الناس علمهم ورحماتهم وحبهم وصورت العوالم بالصور الجميلة التي لا تقدر عليها المادة الموهومة، فهاهنا نتيجتان: نتيجة سياسية، وهي أن الأمم الأرضية لا تزال مضطربة معذبة حتى يستقر قرارها بنظام يشمل جميع نوع الإنسان فيكونون كجهاز هضمي واحد يقوم بجميع ما في الأرض من الأعمال. ونتيجة علمية، وهي أن أسعد حياة للإنسان أن يدرك هذه الحقائق بعقله من غير تقليد، وهناك يرى أن عقله والرحمة التي عنده، والجمال المبدع في العوالم حولنا، والحب المنبث في العوالم، كل هذه آثار لعلم ولرحمة ولجمال ولحب واسع، فمتى أحس بذلك دخل في عداد السعداء في هذه الحياة، ويكون ممن قيل فيهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٣]



وسيأتي تفصيل هذا المقام في تفسير البسملة في سورة « الدخان »، وسترى هناك كيف خيلت لي درجات رقي الإنسان أولاً في بطن أمه، وثانياً في درجات إحساسه، ثم في عقله، وهناك ترى رسماً أظهر من هذا الرسم، إذ يكون بويضة في الرحم فيرتقي إلى أن يصير ذبابة وقرداً وإنساناً، ثم بعد الوضع يلمس ويذوق ويشم ويسمع ويبصر ثم يعقل. وهناك وصلت في الخيال إلى الذروة العليا، وعلوت إلى ذلك المستوى الرفيع، وغادرت عالم المحسوسات ودخلت عالم المعقولات، غدوت ولي نظرتان: نظرة إلى أعلى، ونظرة إلى أسفل.

وبعبارة أخرى: نظرة إلى عالم العقل والروح والحب والجمال، ونظرة إلى عالم المادة كالأرض ومن عليها وأشجارها وزروعها وأحجارها ورمالها وجبالها وبحارها، هنالك تبينت لي الحقائق، وابتهجت نفسي بالمعارف، وأخذت أوازن ما بين هذين المنظرين وبين الصلاة في الإسلام، فتارة كنت أحصر الفكر في العالم اللطيف الذي أسكرتني غشيته وأبهجتني حكمته، وأسعدتني بهجته، فأعرف إذ ذاك كيف يكون الحمد على النعم والشكر عليها والرحمة العامة ومبدأ الهداية إلى الصراط المستقيم، وتارة أنظر إلى العالم الأرضي أسفل هذا المعراج، فأفهم لماذا يسلم المسلم على الأنبياء وعلى الصالحين وعلى نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى نفسه تارة، ويصلي على نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله تارة أخرى.

وبعبارة أخرى: إن النظرة الأولى لعالم الأرواح والجمال والعقل منبع للنظرة الثانية وأصل لها، فالأنبياء هم الذين يفشون السلام في الأرض مما اقتبسوه من ذلك العالم، فالفاتحة أقرب إلى عالم الجمال والعلم وما معهما، والتشهد في الصلاة مفرّع عليها، فإذا كان هؤلاء الأنبياء هم مبدأ السلام في الأرض اقتبسوه من عالم العلم والجمال، فالمسلم يسلم عليهم ليقلدهم بسبب كثرة استحضارهم في نفسه، فيصبح ذلك ملكة راسخة في نفسه فيفشي السلام في الأمم كما أفشوه، ويستعمل أهم الطرق لذلك، ويبتدئ بتحية الله عز وجل، وهذا سر السلام على كثير من الأنبياء في سورة « الصافات »، وانتهت السورة بتسبيح رب العزة والسلام على المرسلين وإعلان الحمد لله، لأن هذا الحمد الذي تشمله الفاتحة المبني على العلم والرحمة الخ مبناه وأصله سبب في أن الأنبياء أفشوا السلام في الأرض ومن هذا يفهم المسلمون سر قوله صلى الله عليه وسلم: « أفشوا السلام »، وسر تسليم المؤمن على أخيه كلما قابله.

انتهى مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠، والحمد لله رب العالمين.

بهجة الحكمة وجمال العلم في قوله تعالى أيضاً:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩]

أنا الساعة أظن أني نجحت في مشاركتك أيها الذكي في فهم مقادير النبات ونسبتها إلى جهازنا الهضمي وإلى الشمس والضوء والأنابيب الشعرية وفتحاتها المختلفات، فحق لي أن أريك الآن جدول الأطعمة من كتاب « الغذاء في الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر. فقد جاء فيه تحت العنوان التالي ما نصه:

تحليل الغذاء كيميائياً

إن معظم المواد التي يتغذى بها الإنسان إما أن تكون عضوية أو غير عضوية. فغير العضوية هي عبارة عن مختلف الأملاح التي يأكلها الإنسان في غذائه ومشربه. أما المواد العضوية فهي غالباً مركبة من مادة نشوية ودهنية وزلالية «آزوتية». هذا وسترى في الجدول الآتي قائمة فيها تحاليل معظم مأكولاتنا في المائة مع ذكر قيمتها الغذائية للجسم في الرطل المصري الواحد. انظر هذا الجدول:

الصنف	ماء	آزوتية (زلالية)	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصري بالسعر
قمح	١٢,٨	١٠,٨	١,١	٧٤,٨	١٥٦٤
أرز	١٢,٤	٧,٤	٠,٤	٧٩,٤	١٥٤٠
الذرة	٩,٣	٩,٩	٢,٨	٧٦,٣	١٥٤٧
لبن	٨٧,٠	٣,٣	٤,٤	٥,٠	٣٢٥
بيض	٧٣,٣	١٤,٨	١٠,٥	٠٠	٦٨٥
بطاطس	٦٢,٦	١,٨	٠,١	١٤,٧	٢٩٧
بطاطا	٥٥,٢	١,٤	٠,٦	٢١,٩	٤٥٠
لوبية خضراء	٨٩,٣	٢,٣	٠,٣	٤,٧	١٣٦
بزلة بقرونها	٨١,٨	٣,٤	٠,٤	١٣,٧	٣٢٠
بزلة مقشرة	٧٤,٦	٧,٧	٠,٥	١٦,٩	٤٦٧
بزلة في العلب	٨٥,٣	٣,٦	٠,٢	٩,٨	٢٤٥
بزلة ناشفة	٩,٥	٢٤,٦	١,٠	٦٢,٠	١٥٧٨
فول ناشف	١٠,٤	١٨,١	١,٥	٦٥,٥	١٥٨٩
لوبية ناشفة	١٢,٦	٢٢,٥	١,٨	٥٩,٦	١٥٢٧
عدس	٨,٤	٢٥,٧	١,٠	٥٩,٢	١٥٣٧
فول سوداني	٩,٢	٢٥,٨	٣٨,٦	٢٤,٤	٢٤٤٣
كرنب	٨٩,٦	١,٨٠	٠,٤٠	٥,٨	١٥٠
كرنب مطبوخ	٩٧,٤	٠,٦٠	٠,١٠	٠,٤	١٥٠
طماطم	٩١,٩	١,٣٠	٠,٢٠	٥,٠	١٢٠
طماطم مطبوخة	٩٤.٥	١,٠٠	٠,٢٠	٠,١	١٢٠
سبانخ	٩٠,٦	٢,٥	٠,٥٠	٣,٨	١٣٢
خس	٩٤,١	١,٤٠	٠,٤٠	٢,٦	١٨٩
كشك الماز	٩١,٧	٢,٢٠	٠,٢٠	٢,٩	٩٨

الصنف	ماء	آزوتية (زلالية)	دهنية	نشوية	القيمة الغذائية للرطل المصري بالسعر
خيار	٩٥,٩	٠,٨٠	٠,١٠	٢,١	٥٨
تفاح	٨٢,٥	٠,٤٠	٠.٥	١٢,٥	٢٥٠
كمثرى	٨٣,٩٠	٠,٤٠	٠,٦	١١,٥	٢٣٨
خوخ	٨٨,٨٠	٠,٥٠	٠,٢	١٣,٤	٢٥٧
توت	٨٤,٧٠	١,٣٠	٥,٧	١٥,٤	٥٢٤
عنب	٧٩,٠	١,٠٠	١,٠٠	١٥,٥	٣٣٣
شمام	٨٩,٨٠	٠,٧٠	٣,٠٠	٧,٦	٢٦٦
بطيخ	٩٢,٩٠	٠,٣٠	٠,١	٦,٥	١٢٤
موز	٧٤,٠	١,٥٠	٠,٧	٢٢,٩	٤٦٢
برتقال	٨٦,٧٠	٠,٩٠	٠,٦	٨.٧	١٩٥
ليمون	٨,٩	١,٠٠	٠,٩	٨,٣	٢٠٠
بلح ناشف	٢,٠٨	٤,٤٠	٢,١	٦٥.٧	١٣٢٨
تين	٧,٩١	١,٥٠	٠.٩	١٨,٨	٣٩٥
زبيب	١,٤٠	٢,٥٠	٤,٧	٧٤,٧	١٥٥٨
لوز	٤,٨	٢١,٠	٥٤,٩٠	١٧,٣	٢٨٧٣
بندق	٣,٧	١٥,٦	٦٥,٣٠	١٣,٠	٣١١٦
جوز	٢,٨	١٦,٨	٦٤.٤٠	١٤,٨	٣١٣٢
أبو فروة	٤٥,٠	٦,٢	٥,٤٠	٤٢,١	١٠٧٤
جوز الهند	١٤,١	٥,٧	٥٠.٦٠	٢٧,٩	٢٦١٩
فسدق	٤,٢	٢٢,٦	٥٤,٥٠	١٥,٦	٢٨٥٦
صنوبر	٣,٤	١٤,٦	٦١,٩	١٧,٣	٣٠٤٠
بقري بيت الكلاوي	٥٢,٥	١٦,١	١٧,٥	٠٠	٩٨٥
بقري فخذة	٦٧,٠	١٩,٠	١٢,٨	٠٠	٨٤٨
بتلو فخذة	٦٠,١	١٥,٥	٧.٩	٠٠	٥٩٠
ضاني فخذة	٥١,٢	١٥,١	١٤,٧	٠٠	٨٥٥
ضاني كستليتة	٤٢,٠	١٣,٥	٢٨,٣	٠٠	١٣٧٠
فراخ	٤٣.٧	١٢,٨	١,٤	٠٠	٢٨٣
إوز	٣٨,٥	١٣,٤	٢٩,٨	٠٠	١٤٢٩
ديك رومي	٤٢,٤	١٦,١	١٨,٤	٠٠	١٠٢٠

قسمة علم النبات بيننا وبين الأطباء

يقول عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وإبنا بالملوك مصفدينا

ويقول عنترة العبسي:

لي النفوس وللطير اللحوم وللـ ـوحش العظام والخيالة السلب

يقول: إني عظيم القدر شريف المنزلة، لا أجعل نفسي وقفاً على الأمور المادية، وإذا قنعت الطيور بلحم من أجندل لهم في الميدان، وقنعت الوحوش بالعظام، ورجالي بما على القتول من دروع وملابس، فإني أكبر نفساً وأعز شرفاً، فكفاني أني أنا القاتل. فهؤلاء مقاصدهم مادية، فأما أنا فمآربي أشرف قدراً وهو أني قاهر الأقران موصوف بالشجاعة والعلو والقهر. وبعبارة أخرى: لذاتي روحية ولذات هؤلاء حسية، واللذة الروحية أعلى مرتبة وأشرف غاية وأكمل سعادة.

وإذا رأينا هذا الشاعر في البادية يفخر باللذة الروحية ولا معارض له مع أنها لم تمتز عن لذة النمر، ذلك لأنه قد يقتل الحيوان لمجرد القتل لا لسد جوعه، ولولا استلذاذه بالقتل ما فتك لغير داعية الجوع، فهذه إذن لذة سبعية لا لذة عقلية شريفة. أفلا يحق لنا أن نقول للأطباء: أيها الأطباء لكم المرضى فافرحوا بشفائهم إذا عرفتم هذه المقادير. ولكم الأصحاء فعلموهم مقدار الأطعمة ليحترسوا من الوقوع في المرض. أيها الأطباء هذا هو النبات وهذه مقاديره، وهذا علم الطب بقسميه: علم حفظ الصحة، وعلم مداواة المرضى، فقوموا بهما واشفوا المرضى من عللهم وأمراضهم، ونسأل الله نجاحكم.

ولكننا نحن نريد مقاماً أعلى لهذه الإنسانية بعد أن تكونوا أنتم قمتم بصحة أجسامهم وحفظ صحتهم ليفهموا كلامنا، لأن المريض قلما يفهم ما نقوله، وهناك حقول مختلفات في الدماغ تنمو فيها أنواع العلوم الرياضية والطبيعية و التاريخية والأدبية والسياسية وهكذا كما دل عليه الكشف الحديث، ذلك أن في الدماغ محال مخصصات لكل علم قامت عليه الأدلة التشريحية بحيث تنمو تلافيف خاصة باستعمال علوم معلومة، وبإهمال تلك العلوم لا يكون لهذه المحال في الدماغ نموّ. فإذا كان الجهاز الهضمي قد اقتسم المواد النشوية والدهنية والآزوتية، وهكذا نجد المخ اقتسم المواد العلمية من رياضية وطبيعية وأدبية وهكذا. وكما وجدنا أن للأغذية مبدأ وهي الشمس أشرف الموجودات المحسوسات، هكذا نجد لأغذية العقل المتصرف في الدماغ الذي هو أشرف من الجهاز الهضمي مبدءاً وهو أشرف الموجودات الغائبة عن الحس، وهو الذات القدسية، ومنه انبعث العلم في نفوس هي وسائط توصل لنا الإدراك والفهم والعلم على وزن توسط النبات بيننا وبين ضوء الشمس وحرارتها. وإذا كانت كل حاسة من حواسنا الظاهرة متصلة بعالم يماثلها، فلتكن عقولنا متصلات بعوالم عقلية هي مستمدة من الله عز وجل.

إن هذا البرهان يقيني كالبرهان الذي تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [الآية: ٣٠] الخ في هذه السورة.

هذا زمان ظهور الحقائق

هاهي ذه براهين أرسطاطاليس وسقراط وأفلاطون ومن بعدهم من الأمم إلى وقتنا الحاضر قد شرحتها لك واضحة فيما تقدم وأبنت طرقها. ولقد اختلفوا لخفاء تلك البراهين على الذات القدسية أن الله عز وجل لم يشأ أن يظهر الحقائق للأمم مرة واحدة. إن الله نظر إلى الأمم كلها نظره إلى نفس واحدة. وهذه النفس الواحدة أخذ يعلمها بالتدريج والطفرة محال فألهم سقراط ما عرفته هناك. وألهم أفلاطون تدوينه. وأوعز إلى أرسطاطاليس أن يرد البرهان. وكان ذلك سبباً في ظهور فرق متشاكسات من أبيقوريين ورواقيين قبل الميلاد وإلى الأفلاطونية الحديثة. ثم إلى فرق متعددة في الإسلام وفي أوروبا. ولكن اليوم إذ ظهر سر النيات وانتشر واستعدت قلوب الأمم للعلم. ظهرت البراهين الآن في هذا الكتاب جلية واضحة بحيث يسهل على المتوسطين فهمها، وسيقل الاختلاف فيما كتبناه في هذا المقام وأوضحناه في هذه السورة.

ولقد جاء في كتاب «المذهب الروحاني» لمؤلفه عبد الله أباحي أحد الروحانيين الشرقيين في صحيفة ١٤١ أسئلة تناسب المقام. وهاك نصها:

(س) هل يمكن للطبيب أن يستحضر المرضى الذين ماتوا على يده، ويستوضح منهم بعض الدلائل يزداد بها خبرة ومعرفة؟.

(جـ) قد يصح ذلك وينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها بشرط أن ينكب على درسه هذا بالاستقامة وصفاء، لا بنية حشد المال وكسب المعارف من دون جدّ ولا عناء.

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح في المباحث والاكتشافات العلمية؟.

(جـ) إن العلم هو صنع العقل، ولا يكتسب إلا بالعمل، وبالعمل وحده يتقدم المرء في طريقه، أيّ فضل يبقى للإنسان إذا أمكنه أن يعرف كل شيء باستنباء الأرواح؟ ألا يصبح الغبي الجاهل بهذه الطريقة عالماً؟ ثم إن لكل شيء وقتاً معيناً يأتي في حينه، أي عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله، وأما بتلك الطريقة فيقلب الإنسان نظام الأشياء، إذ يقطف الثمرة قبل نضجها

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع عوناً من الأرواح في مباحثه؟.

(جـ) إن العون لا ينقصه عندما يكون أوان الاختراع قد دنا، فتوافيه وقتئذ الأرواح وتلقي إليه بعض الإلهامات الفكرية فيتقرها هو، ويشتغل بها إلى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود، فيكون معظم الفضل راجعاً له، فإياكم إذن والزيغ عن محجة الروحانية والتطرف إلى أمر لا يلحقكم منه إلا الخداع والسخرية. اهـ.

أقول: فبناء عليه نقول إن هذه البراهين التي جاءت في هذا التفسير قد استعدت لها الأذهان. ألا ترى أن طائفة الماديين اليوم لا وجود لهم، لأن المادة لا وجود لها عند علماء القرن العشرين، وإذا سمعت عنهم كالذي نقلناه فيما تقدم فإنما هو أمر تاريخي لا غير، لأنك علمت أن علماء عصرنا أجمعوا أنه لا مادة، فالمادة كلمة تطلق على كل ما نحس به وليس هو بمادة، بل هو حركات في أمر خيالي سموه «أثيراً» وهذه الحركات باختلافها ظهرت لنا أنوار وحرارة ومغناطيس وعقاقير ومركبات

أخرى وعناصر بسيطة، وإذا سقطت المادة بإجماع العلماء في عصرنا فقد سقط معها المذهب المادي، اللهم إلا عند المدرسين بالمدارس النظامية في الشرق الأدنى كالعراق ومصر وسوريا وما أشبه ذلك، لأن هؤلاء يكررون على مسمع تلاميذهم ما قرؤوه في كتب منقولة عن علماء القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، أما قراء هذا التفسير فإنهم علموا أن النوع الإنساني كانت معارفه مبعثرة قبل النبوة.

فلما أشرقت النبوة المحمدية قال الله على لسانه صلى الله عليه وسلم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ ﴾[فصلت: ٥٣] الخ، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]. فهم سيقولون: عرفنا يا رب ووصلنا إليك بعقولنا وآمنا ببشارتك، يا ربنا قبلنا البشارة التي بشرتنا بها. إذن لتكن أعمالنا يا ربنا من الآن موصولة برحمتك، مستمدة من نور علمك، موقنين بأنا معك وأننا سنكون خير أمة أخرجت للناس. ومن الذين يوقنون بربهم وتكون أعمالهم في الحياة أعمال قوم كأنهم في حضرة ربهم. فإذا رأوا النمل والنحل وحشرات الأرضة كل من أفراد هذه الممالك تعمل وهي فرحة بأنها أرضت الملكة الجالسة على عرش الملك المرسومة في السور المتقدمة. فهكذا نحن قراء هذا التفسير ومن نحا نحوهم نعمل، وقد أيقنا إيقاناً أشبه بالعيان بأن الله مع كل نفس منا ومطلع على أعمالنا، فنحن جزاؤنا في نفس عملنا لأننا نعمل بمحبة وإخلاص. وإذا وجدنا الصبي مخلصاً في عمله لأبيه، فرحاً بأن أباه راض عنه. فهكذا نحن أصبحنا موقنين بأننا نعمل والله راض عن أعمالنا، ونحن نحس في أنفسنا بسعادة وانشراح صدر صادرين من صانع العالم المطلع على سرائرنا وتلاحظه عقولنا كما تلاحظ الشمس وضوءها عيوننا، فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور.

الناس وإن كانوا أحراراً فهم إما هائمون بالجمال إن كانوا سعداء، وإما مستعبدون بالشهوات إن كانوا أشقياء. قال ابن الفارض:

أنت القتيل بأيّ من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

اللهم إنك أريتنا الجمال في زروعك وشجرك وزهرك وقمرك ونجمك وشمسك. اللهم إنك ملأت قلوبنا جمالاً وأبهجتنا بصنعك ومنحت بصائرنا التمتع بالجمال في هذه الحياة، وكشفت الغشاوة وأحطتنا بالأنوار، ورأيناك ألهمت الشيخ الدباغ فيما نقله عنه الشيخ أحمد بن المبارك إذ يقول: إن فتح الحواس الظاهرة عبارة عن لذة تجعل في الحواس الظاهرة، وذلك بفتح العروق بما أدركته الحواس، وبهذه اللذة يكمل البسط، ففي البصر لذة يحصل الميل إلى الصور الحسنة، وعن ذلك ينشأ العشق والانقطاع الباطني للمنظور، وفي السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنغمات المستقيمة، وقد ينشأ عن ذلك اضطراب واهتزاز في الذات وهكذا سائر الحواس، ففي كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الإدراك، والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذي هو من البسط وبين كمالها أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق، فإن فتح العروق زائد على الإدراك الذي هو في كمال الحواس وبذلك الفتح الحاصل في العروق والتكيف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع إلى المدرك. فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة إلى ما يراه، وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع بخلاف مطلق الإدراك،

فإنه لا يحصل معه هذا الانقطاع. فكم امرئ يرى أموراً حسنة ولا يتأثر بها. وكم من آخر يسمع أصواتاً حسنة ولا تقع منه على بال. وبهذا الفتح والتكيف يحصل كمال البسط. انتهى كلامه بالحرف.

هذا كلام ذلك الأمي وهو الشيخ الدباغ، ذلك الذي لم يتعلم أتى لنا بسر، وهذا السر يحيط بنا ولكننا لا نفطن له. هذا السر هو أن جمال هذه الدنيا وشموسها ونباتها مباح للناس. نحن جميعاً نراه فمنا من هو مغمور بالمحاسن فرح بها سعيد مبتهج. وهذا الابتهاج وهذا السرور أمر آخر وراء مطلق الإدراك. نحن ننظر، نحن نسمع، نحن نتعلم. نحن نقرأ العلوم الرياضية. نحن نقرأ العلوم الطبيعية.

ولكن النظر والسمع والقراءة والفهم والتعقل وحوز العلوم والفوز بالامتحان والتفوق على الأقران في العلم. هذا كله شيء. وذوق المسموع والمبصر والمعلوم الرياضي والطبيعي والإلهي والفرح بها والاستلذاذ والابتهاج بها شيء آخر، فأول الرجلين فهو الذي لا يحس قلبه بجمال مدركاته الحسية والعقلية تجده دائماً يبحث عن حبيب يبهجه ويفرح به، فلا يجد له مناصاً من حبيب يأسر فؤاده مادام ذلك المدرك ليس حبيباً له ولا معشوقاً ولا هو هائم به. وإذا كانت المدركات العلمية بقسميها ليست محبوبة له ولا جميلة، فهو لا محالة يختار ضدها وهي الشهوات، فيبحث عن الجميل للشهوة الحسية وعن المال للاستمتاع الجسمي، والفخر الظاهري، وعن السلطة التي بها يرهب الناس.

وبالجملة إن المحبوب إذ ذاك شهوة البطن والفرج وشهوة الغلبة والصيت والولد والمال. وهذا كله أمر آخر غير الجمال. إذن صدق قول ابن الفارض: إننا قتلى من نحبه.

فإن أحببنا الجمال انقطعنا إليه وكفانا. وإن لم نحب الجمال أحببنا الشهوات، وعلى هذا الثاني أكثر هذا النوع الإنساني، وعلى المبدأ الأول القليل أو النادر منهم، وهؤلاء هم أشرافه وساداته وعظماؤه وحكماؤه.

فلننظر في حال المسلمين اليوم، وفي عالم النبات الذي كلامنا فيه. النبات بتحليله أرانا أنه جميل ومحكم، مشوّق لتلك الذات القدسية، هام بها عند رؤيته قوم وكفاهم حبه والغرام به يبهجهم أنى ساروا ويكونون في الحياة سعادة لأممهم. ولكن أكثر الناس في الإسلام كان هذا النبات سبباً لاستعبادهم وشقائهم مثل سائر عرض الحياة الدنيا، فإذا كان الأولون قتلى الجمال، صرعى الحب والغرام، يهيمون بالذات القدسية الرفيعة العلية، مغرمين بتعليم الأمم وإرشادها، قد أعدّوا أنفسهم خلفاء الله في أرضه، قوّامين على عباده، يبشرونهم بالخير وينذرونهم بالشر، فإن الآخرين وقد حرموا من الاستلذاذ بذلك الجمال يقعون لا محالة في الهيام بظواهر الشهوات فيكونون عبيداً لها، ومن استعبدته الشهوات استعبده الناس.

مثلاً نحن في مصر نزرع القطن ولكننا قوم محرومون من النبوغ في الصناعات وكثرتها، فنحن نبيع القطن بأبخس الأثمان، ويصنع في أوروبا ونشتريه ملابس بعشرات بل بمئات أضعاف ما بعناه به، وقد رجع إلينا ملوناً بألوان زاهية فرحنا بها. إن بلادنا المصرية المسكينة هائمة بملابس الفرنجة وتقليدهم في كل شيء، وخزينة الحكومة مفتحة الأبواب للعاملين فيها، فهؤلاء يأخذون ثلثها بصفة مرتبات لهم ويصرفونها في الملابس والمآكل والخمر واللهو واللعب، وهكذا نساؤهم ورجال ونساء ذوي القصور

والضيعات والعقارات الواسعة، فهؤلاء وهؤلاء لما حرموا الاستلذاذ بالحكمة والعلم لم يجدوا لهم مناصاً من غشيان أبواب الفجور والتباهي بالثياب الملونة المصبوغة بألوان من القطران المستخرج من الفحم، كما تقدم تفصيله في أول سورة «سبأ»، وأنا أكتب هذا أشاهد أكثر قومي ومن على شاكلتهم مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار، تراه بصيرتي.

سبحانك اللهم وبحمدك. أنت محسن رحيم جميل حكيم. حبست أرواحنا في هذه الأرض لأنها ليست أهلاً لمكان أرقى. وحبستنا في لذاتنا وشهواتنا. وكلما ازددنا شهوة أثقلت الأغلال على أعناقنا. ذلك بما كسبت أيدينا. أفليس الناس اليوم مبعدين من الأغلال. اللهم لا، وأيّ غلّ أشدّ وطأة من غلّ الأخلاق والآراء والعادات. تعس الإنسان ما أجهله.

يأتي التجار من أوروبا بالملابس المصبوغة والثياب الملونة والخمر القاتلة والشهوات الفاتنة، فنكب عليها، ولا نقوم نحن بعمل ما ولا صناعة ما، ورجالنا ونساؤنا ووجهاؤنا مقتنعون بأن ذلك هو الرقي، فتذهب الثروة للأجانب، وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الشعب ويمنعونه من الرقي ومن العلم ومن الاستعداد الحربي. فإذا عجز الناس عن فك أغلالهم في الدنيا فهم عن فكها في الآخرة أعجز. ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٢].

هذا ما خطر لي وأنا أصلي الصبح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ وأنا أقرأ هذه الآية: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[إبراهيم: ٤٩-٥١] فإني أثناء القراءة كنت أشاهد بالبصيرة أن هذا منطبق انطباقاً تاماً على حال كثير من أمم الشرق الأدنى، ومنهم كثير من أهل بلادي.

اللهم إني أشاهد الأغلال من الآن موضوعة في أعناقنا في أرضك، ومن أشدّها الملابس المصنوعات المزخرفة التي قتلت المسلمين لجهلهم وقلة الدعاة والوعاظ فيهم وكثرة جهلهم، حتى إن القطن الذي نزرعه نحن في مصر ينسج فيصير أغلالاً لنا واستعباداً، والاستعباد اليوم راجع للتجارة. إن التجارة اليوم هي الأغلال في الأعناق وهي السبيل التام لذلك. فأخرج المسلمين من مصر وغيرها من هذه المآزق. إنك أنت الرؤوف الرحيم.

انتهى صباح يوم الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠، وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من اللطيفة الخامسة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩]، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني من اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]

في هذا الفصل ثلاث مباحث:

(١) في المخاطبة على بعد عشرة آلاف ميل.

(٢) في الصلة بين علماء الشرق والغرب.

(٣) في أحوال نفس المؤلف.

المبحث الأول

جاء في إحدى المجلات العلمية تحت العنوان التالي ما نصه:

بين القطب الجنوبي ونيويورك

في غرفة في الدور الثالث في إحدى ناطحات السحاب النيويوركية القائمة في قلب المدينة عند ميدان التيمس، جلس شاب على أذنيه سماعتان سوداوان. وعلى وجهه أمائر تدل على أنه سمع شيئاً مع أن السكون سائد في الغرفة حتى تكاد تسمع دقات القلب. ولا شيء أمامه إلا صندوق أسود قائم على طاولة. وإذا يده تمتد إلى قضيب نحاسي في نهايته عقدة سوداء، فيلمسها لمساً لطيفاً فيلمع النور في غرفة مظلمة في الدور السابع عشر من ناطحة السحاب ذاتها، ويسطع من صف من المصابيح من غير أن يحدث انفجار كهربائي أو أي صوت آخر. ليس في الغرفة أحد. فإذا انقطع لمعان المصابيح اتشحت الغرفة بسواد حالك.

أنصت الرجل الذي في الدور الثالث قليلاً، ثم أخذ قلماً بيده وكتب العبارة التالية: اصغ إلى الطيارة «النجوم والخطوط» في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً. ولمعت المصابيح ثانية ناقلة إلى مصدر الرسالة السابقة جواب الشاب: إنني حاضر.

في القارة المتجمدة الجنوبية على بعد عشرة آلاف ميل من نيويورك ــ من الغرفتين اللتين يقيم فيهما الشاب وتلمع المصابيح ـ مقر البعثة التي أعدها الأميرال الأميركي لزيارة المناطق المتجمدة الجنوبية والوصول إلى القطب الجنوبي عن طريق الجو. إنه يعدّ طيارته الآن، أي حين وردت الرسالة إلى العامل اللاسلكي في نيويورك قاصداً أن يحلق بها فوق مفاوز الجليد بغرض الوصول إلى القطب الجنوبي.

الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة عشرة! ونيويورك نائمة، ولكن العامل اللاسلكي الفتى مستيقظ مقيم في غرفته منتظر أنباء الأميرال برد وطيارته.

الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة عشرة. لقد انحنى الفتى والتقط قلمه وكتب: الطيارة على وشك الارتفاع عن سطح الجليد. انتظر. ويلمس مفتاحاً آخر فيدوي في أذنيه ــ وهو في نيويورك ــ صوت محركات الطيارة وهي تستعد للتحليق في الجو فوق مفاوز القطب الجنوبي.

وتحلق الطيارة فينتقل الاتصال اللاسلكي من محادثة تدور بين المحطة اللاسلكية في مقر بعثة برد وبين العامل اللاسلكي المذكور، إلى محادثة تدور بين العامل اللاسلكي في الطيارة المحلقة في الجو ثلاثة آلاف قدم فوق مفاوز الجليد والعامل اللاسلكي المذكور التابع لجريدة نيويورك تيمس. هذه هي أول مرة في التاريخ تمكن فيها رجل محلق بطيارة أن يخاطب صديقاً له على بعد عشرة آلاف ميل كأنه يخاطبه على بضعة أقدام من مكتبه أو صالونه. إن صوت العامل اللاسلكي في طيارة برد كان ينتقل أمواجاً لاسلكية فوق مفاوز الجليد القطبي وجانب من المحيط الباسفيكي ثم فوق أميركا الجنوبية وخط الاستواء إلى أميركا الشمالية والولايات المتحدة، من عواصف القطب الثلجية إلى صيف أميركا الجنوبية إلى قيظ خط الاستواء إلى نيويورك المغطاة بالثلج. كل هذا كان يتم في غفلة عين أو أسرع، أي بسرعة ١٨٦ ألف ميل في الساعة.

وارتفع ستار الليل وأخذ الفجر ينبلج وأخذت الإشارات اللاسلكية في المحادثات المذكورة تضعف رويداً رويداً، ولكنها تتراوح بين الضعف والقوة حتى بادت تماماً عند شروق الشمس، وهكذا ضرب النور ستاراً بين ممثلي الرواية القطبية وسائر العالم. وصدرت صحف المساء ـ بعد الظهر ـ وعلى صفحاتها الأولى عنوان بحروف ضخمة سوداء مؤداها: إن كلمة واحدة لم تسمع من الرواد الشجعان في أثناء عشر ساعات. فاضطرب الجمهور وقلق، مع أن رجال اللاسلكي يعلمون أن الصمت ليس دليل الفاجعة، ولكنه ناشئ عن تعذر التخاطب في أثناء النهار بالأمواج القصيرة. وظل الجمهور مضطرباً قلقاً حتى وافت الساعة الرابعة مساء، فأخذ ستار الليل ينسدل وأخذت الإشارات اللاسلكية تزداد وضوحاً كلما زاد انسدال الستار. وما أقبلت الساعة الخامسة حتى كان العامل اللاسلكي النيويوركي يتلقى نبأ من الجنوب يفيد أن برد وصحبه حلقوا بطيارتهم فوق القطب الجنوبي وحاموا حوله، وأن برد أول رجل بلغ القطب الشمالي عن طريق الجو، وهو كذلك أول رجل بلغ القطب الجنوبي عن طريق الجو. فيبعث العامل بالنبأ إلى محرر نيويورك تيمس. وهذا يستعمله ليحرز لجريدته فوزاً صحافياً عظيماً. انتهى ما أردته من مجلة المقتطف.

المبحث الثاني

بين الشرق والغرب حول زيارة تاغور لإنجلترا

جاء في جريدة الأهرام في يوم ٢٢ مايو سنة ١٩٣٠ ما نصه: لندن في ٢٠ مايو، لمراسل الأهرام الخاص، أثارت زيارة رابندرات طاغور، شاعر الهند وفيلسوفها الكبير اهتماماً كبيراً في إنجلترا، لأنه مضى وقت ليس بالقصير على زيارته الأخيرة لهذه البلاد، ولأن لمؤلفاته مقاماً كبيراً بين رجال الإنجليز. وقد ألقى تاغور مساء أمس المحاضرة الأولى من محاضراته الثلاث في قاعة المحاضرات بجامعة إكسفورد التي ازدحمت حتى الأبواب، بينما لم يستطع الكثيرون الدخول بالمرة.

ومن الملاحظات التي تسترعي الاهتمام أن الفيلسوف الهندي يقابل بمظاهر الترحيب أينما حل على الرغم من الحالة في الهند والأنباء التي ترد كل يوم عن انتشار الاضطرابات والقلاقل فيها. وكما أن دوائر الأندية الرياضية ترحب بدوليب سنهجن بطل الكركيت الهندي، وتطلب أن يكون واحداً من الأحد عشر الذين سيمثلون إنجلترا في المباريات التي ستجري مع أستراليا، كذلك ترى رجال الأدب والعلماء يتهافتون على سماع طاغور ويقدمون فروض التجلة والاحترام الواجبة لهذا العبقري العظيم.

وربما كان الكثيرون على رأي جريدة المانشستر جارديان فيما قالته اليوم وهو: إن خير سفير للهند ليس المهاتماغاندي وإنّما هو طاغور الشاعر والمفكر، فمن الصعب معاملة غاندي سياسياً لأن السياسة من أعمال الرجال العاديين، أما غاندي فقديس، والقديسون رجال شواذ، أما طاغور ففي وسعنا أن نتفاهم معه لأنه ليس قديساً بل شاعراً ومفكراً، فهو من هذه الوجهة يستطيع أن يفهمنا ويعطف على أفكارنا نحن الرجال العاديين، وإذا قرأنا مؤلفاته أو سمعنا أقواله رأينا أن الهندي العادي لا يختلف عن الأوروبي العادي، وإن النزاع الأبدي بين الشرق والغرب ليس قضاء الطبيعة المحتم. انتهى من جريدة الأهرام. تم المبحث الثاني.

المبحث الثالث

آيات الله في صحة جسمي بسبب تدبير الأغذية

في هذا اليوم (١٥) مايو سنة ١٩٢٩ صباحاً نظرت في عضدي وفي جنبيّ وفي صدري فرأيت أمراً عجباً! وهذا العجب لا تعرفه أيها الذكي إلا بمقدمة، فهاهي ذه:

لقد كانت أيام حياتي سلسلة تجارب في الطعام والشراب، ولقد تركت اللحم منذ نحو (٨) سنين، ولما تركته وجدت تحسناً مطرداً في جسمي، ولكني وجدت هناك أمراً عجباً! وجدت أن في عضدي وفي جنبيّ وفي صدري بقعاً جلدية مخالفة للجلد في اللون، وهذه تارة تظهر وتارة تختفي، وقد كانت كذلك قبل ترك اللحم ولكن لما تركته زاد ظهورها وتارة تختفي، فأذهلني هذا المنظر، وقابلت الأطباء فوجدت أقوالهم لا تشفي من علة، ولا تروي من غلة، فقال قائل منهم: «خذ هذه الأعشاب واشرب منقوعها كل يوم»، فلم يفد. وقال آخر: «كل الزيت الطيب وادهن به». وأخيراً فحصني طبيب أعلم ممن قبله. فقال: «هذا داء ليس معدياً، وليس له دواء، وهذه البقع إنّما تظهر في الأعضاء التي لا تظهر للشمس، وأكثر ظهوره في زمن الصيف، وسببه نقص في التغذية». وبعد ذلك عملت تجارب كثيرة فلم تفد. ثم إني لم أعرف ما سبب نقص التغذية المذكور إلى أن اطلعت على الكتب الطبية الحديثة. ورأيت في كتاب الأستاذ ويلكوكس ما يفيد أن الناس يأكلون الخبز من دقيق القمح الذي نخلوه. وأن ترك النخالة نقص في التغذية. وأن الدم مركب من (١٦) عنصراً. وهذه العناصر كلها ثابتة في البرّ. وإذا ترك الناس النخالة ونحوها فمعناه أنهم تركوا عناصر من دمائهم. إذن الناس بنبذ النخالة والمادة الأخرى المسماة سِنّا ـ بتشديد النون ـ من القمح إنّما ينبذون قوى أبدانهم وصحة أجسامهم وسعادتهم.

فلما قرأت هذا وأيقنت أنه مبني على العلم عرفت جهل هذا الإنسان وغفلته، وأن عقول الناس في ناحية وأعمالهم في ناحية، فلم أتردد في العمل بالعلم كما تقدم في سورة «طه» وفي سورة «الحجر» فهذا المقام مستوفي هناك. هنالك أكلت الخبز الذي يصنع من دقيق البر كاملاً غير منقوص. وهاهي ذه سنة مرت على تلك الحال. هذه هي المقدمة.

فلما أقبل الحر هذا العام نظرت في جسمي وأعضائه المغطاة، فرأيت أمراً عجباً! رأيت البقع الملونة التي كنت أراها كل سنة لم تظهر. فقلت: يا سبحان الله هاهو ذا الحر أقبل، وتلك البقع التي عوّدتني الزيارة كل سنة بالظهور على جسمي في العضد وفي الظهر وفي الصدر وفي الجنبين لم تزرني هذه السنة بعد أن أقبل الحر، ولقد كان من شأنها أن تقبل إذا أقبل فصل الربيع والصيف وبعض الخريف، فهاهي ذه لم تحل بساحات جسمي ولم يكن لقدومها علامات ولا مقدمات، ذلك أني كما قدمت الآن أخذت آكل الفواكه والخبز المذكور وزيت الزيتون والتمر غالباً، وهذه الأغذية مستوفية ما يجب لجسم الإنسان فليس يعوزها مواد أخرى، فالبرتقال الذي آكله ومعه بعض الطماطم في بعض الأيام فيه مادة الفيتامين من درجة عالية، وهكذا الخبز المذكور فيه جميع مواد التغذية. هاأنا ذا تركت اللحم والخضراوات هذه السنة واللبن واقتصرت على الفواكه والحبوب فصح الجسم وصح التفكير

بحسب ما أعرفه وما أحس به من نفسي الآن. وهاهنا أقول: يا سبحان الله! أريتنا يا الله آياتك في أنفسنا وفي الآفاق، ذلك أن هذا الجسم الذي سكنته نفسي مكوّن من مواد مخلوقة في أرضنا، وهذه المواد لها حساب، وجهلنا بما نقبل منها وما نترك هو الذي جعلنا مرضى الأجسام تارة والعقول أخرى.

سبحانك اللهم. أنت حكيم وقد ملأت أرضك بالحكمة، وعلى مقدار نقصنا في فهم مصنوعاتك تنقص صحتنا وعقولنا ومدنيتنا. هذا المثال الصغير مثال جسمي مع العوالم الأرضية المحيطة بنا يبين لنا أحوال هذا الإنسان. يظهر لي أننا لو عرفنا الحقائق حق المعرفة لكنا أمماً راقية سعيدة سعادة تامة في الأرض. تبين لي أن نقص سعادتنا في الأرض مبني على نقص معرفتنا وعلومنا. تبين لي أن أمم الأرض لم يظهر فيهم حكماء وعلماء يظهرون جميع الحقائق، ولو أن الأرض برز فيها أناس على هذا النمط لأصبحوا جميعاً سعداء. فأول الشقاء وآخره الجهل، وأول السعادة وآخرها العلم، فبكاء الباكيات على الميت، وحزن الحزين على الفقر والذل وما أشبه ذلك، كل ذلك للجهل الذي غطى على العقول.

يظهر لي أن هذه الإنسانية يوماً ما ينبغ فيها نابغون يظهرون ما كمن في هذه الدنيا، ومتى ظهر ذلك سعد الناس في هذه الحياة نفسها، وأكبر الحزن يكون للموت أو للمرض أو للفقر أو للذل، وكل ذلك مبناه الجهل بهذا الوجود، فلو عرف الناس ناموس الموت وأيقنوا بأن الميت انتقل إلى عالم أعلى، وهكذا لو أنهم عرفوا الأسرار المخبوءة في الأغذية والأدوية والفواكه والملابس ودرسوها حق دراستها وعرفوا ما في الطبيعة من عجائب واستعملوها لقل المرض والفقر وبطل الاستعمار وصار الناس أصدقاء.

لا تعجب أيها الذكي من أن أقرن حال جسمي وصحته بحال الأمم والأفراد وأوصابهم وأحوالهم، فإنه لا فرق بين الأمرين. نحن نعيش في عوالم نجهلها وعلى مقدار جهلنا نحس بالآلام. إذن نقصنا مبناه جهلنا لا أقل ولا أكثر، ودليلي على ذلك ما عرفته في نفسي، فإني لما أكلت المواد التي استوفت شرائط غذاء الجسم زالت البقع من جلدي، ولما كنت آكل بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير كانت هذه البقع تظهر تارة وتختبئ أخرى. ولا فرق بين جسمي وجسم العالم الإنساني كله، فهو لما فيه من جهل يحارب بعضه بعضاً غباوة وجهلاً بحال الوجود وحال الإنسانية. ومتى ظهر فيه حكماء وأعلموه بأن المعاونة العامة خير وأبقى وأن يكون كل امرئ في عمل خاص ينفع المجموع الإنساني؛ فإن هذا النوع الإنساني يصبح سعيداً، ومتى حلت السعادة في أهل الأرض لم يحسوا بحزن لأنهم يكونون قد عرفوا ما هو الموت، وتقل الأمراض والعداوات بينهم لأنهم قسموا الأعمال في الأرض على مواهبهم التي خلقت في أجسامهم وعقولهم. هنالك يعلم أهل الأرض قاطبة أن المصائب التي تحل بالأمم وبالجماعات أشبه بالبقع التي كانت تظهر على جسمي، وأن قيام كل فرد من أفراد الأمم بعمل نافع قائم مقام أخذي لجميع عناصر التغذية بطريق العلم. فهاهنا أمران ثانيهما مركب على أولهما في جسمي، وفي الأمم، فإذا قامت الأمم كلها في الأرض كل منها بعملها الخاص لها ولجميع أفرادها فإن المجموع الإنساني يصبح سعيداً، كما أن جسمي لما أعطيته الأغذية الكافية لتغذيته ذهبت

عنه تلك البقع التي تظهر على ما هو مستور منه ، وإذا قصرت الأمم في ذلك أو بعضها فإن المجموع الإنساني تظهر فيه نقائص على مقدار التقصير ، كما أن جسمي أصابته البقع لما كنت أجهل أصول التغذية . إن الأمم اليوم والأفراد سيان يتبعون شهواتهم وعاداتهم ، فالناس يأكلون ويشربون مقلدين لآبائهم أو متبعين حواسهم ، هكذا دولهم في سياستها يتبعون التاريخ حذو القذة بالقذة ، والتاريخ مملوء بالكيد والخبث والمكر .

فليكن في الأرض حكماء ، وليكن فيها نظم سياسية أرقى مما كان قبلاً ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] . فجسمي الذي حلت نفسي فيه ما هو إلا ذرات مجتمعات من الآفاق ، وله ارتباط وثيق بهذه الآفاق ، فإن جمعت ذرات جيدة باختياري وعقلي كان جسماً نافعاً حسناً ، وإن جمعتها بهيئة غير حسنة ولا مرتبة ولا منظمة ضعف الجسم وتبعه العقل ، والسياسة العامة في الأمة كالسياسة الخاصة في الجسم . يؤخذ من هذا كله أننا جئنا هذه الأرض لأمر واحد وهو العلم ، فلا حرب ولا مرض ولا فقر ولا لذة ولا ألم إلا لأجل حثنا على العلم ، وعلى مقدار علمنا تكون أرواحنا في درجات لها بعد مغادرة هذه الدار . انتهى الكلام على المبحث الثالث ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة:في قوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]

إيضاح بعض كلام الشيخ الدباغ في مسألة الجنة والنار والتوحيد

هنا سألني صديقي العالم فقال : يقول الشيخ الدباغ : إن على وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل ، فمنها ما به تعرف الوحدانية ، ومنها ما به يعرف وجود الجنة ، ومنها ما به يعرف وجود النار ، وكل ذلك بلا إقامة أدلة على ذلك . فأنا أرجو أن تشرح لي هذا المقام . فقلت : يا سبحان الله أوَتظن أنني في مقام الشيخ الدباغ حتى أطلع على ما يعرفه ! نحن قوم كلفنا بالنظر والبحث العقلي . فقال : ولكن أرجو أن أسمع منك ما تتوجه نفسك إليه في هذا المقام ، ولست أطلب منك ما هو فوق متناول عقولنا ، لأني أعلم أنك تخاطب العقلاء عموماً لا أهل الكشف وحدهم ، ثم إن أهل الكشف وإن كثروا في الإسلام فإنهم لم يحدثوا في الأمم الإسلامية رقياً عاماً ، فعلومهم خاصة بطائفتهم . فقلت : أما إذا أردت هذا فإني أقول ما يفتح الله به الآن . فقال : أيّ العجائب تعرفنا التوحيد بلا إقامة دليل؟ فقلت : جميع العجائب التي وردت في هذا التفسير وأمثاله تعرفنا الله بلا إقامة دليل . فقال : عجب هذا! إن نفس العجائب أدلة أو مقدمات لأدلة . فقلت : إنه يريد أن بعض العجائب حين نشاهدها تكاد تخترق القلوب ويحصل للنفس انفعال برؤيتها ، وتنتقل النفس من هذا المخلوق إلى خالقه وهذا هو مقصوده فيما أظن أنا . فقال : ما مثال ذلك؟ فقلت : مثاله أعين الذباب وأعين النمل . هذه حشرات صغيرة يزدريها الإنسان وهي تعيش على ما تعافه النفس من القاذورات والعفونات والفضلات ، وعلى ما هو منبوذ من الحبوب وفضلات الخبز والقطع المنثورات في الأرض ، وقد جعلت أشبه بالكناسين والزبالين لأنها تنظف الأرض من عفوناتها ومن بقايا فضلاتها وتحيله إلى

أجسامها، ومع هذا كله نراها قد أعطيت عيون كثيرة، فللنملة فوق (٤٠٠) عين، كل عين مستقلة عن الأخرى، وللذبابة نحو أربعة آلاف عين كل عين مستقلة عن الأخرى. ومعنى هذا أن للنملة خمسة عيون ثلاثة منها مفردات موضوعات على هيئة مثلث، واثنتان منها موضوعتان في مقدمة الوجه بهيئة أعيننا نحن، وفي كل واحدة منهما نحو مائتي عين، ومثل ما قلنا في النملة نقول في الذبابة، ولكن نذكر أربعة آلاف عين فيها بدل (٤٠٠) عين. فقال: هذا عجب! وهل العقل يتصور ذلك؟ فقلت: إذن أنت لم تقرأ ما تقدم في سورة «النمل»، وأن هناك رسالة سميتها «عين النملة» وفيها هذا المقام موضح. فقال: ورأيت بنفسك عين النملة، إنها مركبة من مائتي عين، والعينان معاً فيهما نحو (٤٠٠). فقلت: إي وربي رأيتها بعيني رأسي، أراها لي صديقي شوقي بك بكير في منزله بمدينة حلوان تحت المنظار المعظم، وهو من كبار علماء التاريخ الطبيعي، وصلتي به أنه كان قبل ذلك تلميذي بالمدرسة الخديوية. فإذا رأى العاقل ما رأيت أنا في النمل أو في النحل أو في الذباب فإنه لا يسعه إلا أن يتذكر الخالق عند النظر إلى هذا الجمال في المخلوق. فقال: أريد أن أسأل سؤالاً آخر. فقلت: سل ما بدا لك. فقال: لِمَ جعل الله هذه العجائب التي فوق طوق البشر في أحقر حيوان؟ فقلت: ذلك هو مقصود الشيخ الدباغ. قال: وكيف ذلك؟ فقلت: إن الإبداع والإغراب إذا ظهر في جميل بهيّ الطلعة حسن الشكل مرغوب فيه لم تكن له روعته في الحقير المنبوذ. النفس الإنسانية يدهشها أن ترى في الحقير المنبوذ حكماً لا حد لها، بل ترى أعظم جمال وأجلّ حكمة في الحقير. ترى أربعة آلاف عين، وكل عين لها طبقات ورطوبات وألوان في داخلها وعجائب ونظم مدهشة، وإذا فقئت إحداها لم تعطل البقية كما هو واضح هناك. فهذه عند العقلاء أشبه بمن كان يحفر في منزله فعثر على كنز فجأة، فهذه المفاجأة في الكنز يقابلها المفاجأة في أمر عجائب الحشرات مثلاً. فكما أن الفقير إذا عثر على كنز دهش وحصلت له حال غريبة وانفعال، هكذا العاقل إذا اطلع على هذه العجائب في أحقر المخلوقات فإنه يجد في نفسه حالاً عجيبة تذكره بالصانع من غير استدلال بدليل، وذوو العقول الصافية في نوع الإنسان لا يسعهم تلقاء هذه العجائب المدهشة في الأمور الحقيرة التي ليست محلًّا للجمال بحسب العادة إلا التعجب، وهذه الحال لا يحلم بها ذلك الذي قرأ علم المنطق وعرف الأشكال وقرأ علم التوحيد المعروف، وأخذ يقرأ تلك البراهين فيدخل في ساحات وأحوال عويصة، ويتسرب الشك إلى قلبه من حيث لا يشعر لا سيما إذا قرأ أدلة الحدوث والقدم التي نقلت عن اليونان. وقد تبين فيما نقلته عن علماء الفرنجة في نفس هذا التفسير أن أكابر فلاسفة اليونان كانوا يقولون أيام سقراط: إن العالم حادث، بطريقة مشوقة تقدمت في هذا التفسير، فبعض ما جاء في كتب علماء التوحيد والفلاسفة مربك للعقول مهوش للأذهان نقلوه عن علماء الإسكندرية أيام دولة الرومان بمصر وهؤلاء كانوا مقلدين. أما طيماوس الحكيم الذي كان أيام سقراط فقد شرح هذا المقام، ونقلت بعضه في مواضع فارجع إلى بعضه في سورة «الروم» وغيرها. فقال: الآن فهمت كيف كانت تلك العجائب مذكرة بالله. فكيف تكون تلك العجائب مذكرة بالجنة والنار وبها يعرف الإنسان أن هناك بعد الموت جنة وناراً مع أن الجنة والنار من السمعيات.

وإذا كان العقل لا يصل إلى السمعيات فكيف توصل إليها مناظر العجائب . فقلت : ما الجنة ولا النار إلا داران ممتازتان . فإحداهما فيها كل محبوب . وثانيتهما فيها كل مكروه . ونحن في هذه الأرض لا نعرف المحبوب إلا ما وافق حواسنا الخمس من صور جميلة ونغمات لذيذة وروائح طيبة وطعوم لذيذة وملموسات موافقة كأن تكون ناعمة مثلاً . ذلك للبصر والسمع والشم والذوق واللمس وهكذا إذا تخيلنا تلك الصور ، ولكن حضورها في الخيال أقل لذة من حضورها في الحس . وهكذا المعاني الشريفة الموافقة لعقولنا من العلوم البهجة وانكشاف الحقائق بالبراهين واقتناع النفس بالمعلومات . فهذه بهجتنا . فلكل قوة فينا بهجة تناسبها . فالمعقولات بهجة للعقل . والمحسوسات بهجة للحس . والصور الخيالية بهجة لخيالنا . فهذه المذكورات هي مجامع ما نحبه في هذه الدنيا . والذي نكرهه يقابل ذلك ، فكل قبيح صورته مشوّه خلقته أو غير طيب الرائحة أو غير متزن النغمات أو غير لذيذ الطعم أو غير ناعم مثلاً ؛ نكرهه كما نكره تصوره في خيالنا . وهكذا خلوّ عقولنا من العلوم وجهلها وغباوتها وعدم معرفتها حقائق الأشياء وتخبطها في المعارف تخبطاً يزري بها . كل ذلك مكروه عندنا . إذن الجنة دار تجمع ما نحب ، وجهنم دار تجمع ما نكره ، ولكن الحياة الدنيا فيها ما نحب وما نكره معاً ، فيها امتزج المحبوب بالمكروه . وأصحاب العقول النيرة إذا طافوا في هذه الأرض ودرسوا هذه العجائب يدهشون من نحو ما سأذكره ، ويحصل لهم علم من غير كدّ ولا نصب بالجنة والنار . فقال : هذا هو الذي سألتك عنه وكيف ذلك ، فقلت : لنرجع إلى مثال الذباب والنمل مع جميع الحشرات ، ألست ترى أن الذباب والحشرات خلقت لتنظيف الجو كما تقدم ، لأنها هي وأمثال الناموس والخنافس وغيرها تغتذي بالمواد الفاسدة التي لو بقيت لهلك الإنسان والحيوان . فقال : بلى . فقلت : ألست ترى أن الأغذية على قسمين : قسم هو طعام شريف مثل الحبوب واللحوم والحشائش وأمثالها ، وهذه يأكلها الإنسان وذوات الأربع من نحو الأنعام والسباع . قال : بلى . قلت : وقسم هو قاذورات تغتذي بها الحشرات كما أوضحته الآن . قال : بلى . قلت : ألست ترى أن ما هو قاذورات على قسمين : قسم هو بقايا الرمم الملقاة في الفلوات عقب الغزوات والحروب والإهلاك والتدمير وافتراس الحيوان في البراري والقفار . وقسم ليس كذلك بل هو عفونات وقاذورات ليست ناشئة من افتراس الحيوانات المعروفة ولا من قتال الإنسان . قال : بلى . قلت : لننظر في أمر هذا الإنسان الذي يسمع بالجنة والنار ، فإننا نجد له عقلاً ، وهذا العقل لا تخلو حاله من حالين لا ثالث لهما ، فهو إما أن يتحلى بالحكمة وإدراك الحقائق ، وإما أن تكون سلوته بالغيبة والنميمة والشماتة وتتبع العورات والفتك بالأعداء ومسابقة الأقران وحوز الصيت والمال والملك وما أشبه ذلك .

فإذا أغرم العقل بالحكمة وإدراك الحقائق فإن غذاءه أشبه بالغذاء الشريف في المحسوسات كالفاكهة والحب والخضراوات من كل ما هو غذاء للحيوانات المعروفة والإنسان . فأما إذا كانت لذاته خاصة بتفوقه على الأقران أو شماتة الأعداء أو انتقامه منهم ، فهذا الغذاء العقلي يشبه غذاء الحيات بالضفادع وغذاء الصقور والنسور والشواهين والكلاب بالرمم الملقاة في الفلاة ، وتكون منزلة هذه العقول لا تزيد في معقولها على منزلة الصقور والكلاب في تعاطي رممها ، وإذا كانت لذات العقول لا

تغادر حوز العقار وبناء الدور وشراء الحقول وحوز المال والدرهم والدينار، فهي في درجة الذباب في أكل القاذورات والعفونات.

وبهذا الإيضاح صارت الدرجة الثانية درجتين: درجة القوة الغضبية، ودرجة القوة الشهوية. هذه هي الدرجات الثلاث للعقول في هذه الأرض. فهي إما عقول تحب الحقائق، وإما عقول يغلب عليها الفخار والانتصار، وإما عقول لا تفرح إلا بالمال والشهوات الحيوانية في مقابلة الأغذية الثلاثة المتقدمة لذوات الأربع ولنحو الطيور الكواسر ولنحو الذباب. ولن يخلو عقل على هذه الأرض من هذه الخصال الثلاث.

اجلس مع من تشاء وحادثه فإنه يهش ويطرب لما يناسبه من حكمة، أو من ذكر الحرب والضرب أو من ذكر لذات الأجسام الحيوانية. فإذا سمعت الرجل فخوراً برفع القضايا والانتصار أمام القضاة فهو من الفريق الثاني، أو بحوز المكاسب والمال فهو من الفريق الثالث، أو بالعلم والحكمة فهو من الفريق الأول. هذا هو نوع الإنسان أوله وآخره، عقولهم جميعاً موزعة على المعقولات الثلاثة كما وزعت أنواع الحيوان على أنواع الأغذية. فقال: أحسنت، لقد فهمت هذه الثلاثة، وقد كانت في أول مقالك لي غامضة عليّ، ولكن الآن وضحت لي وضوحاً تاماً مع ملاحظة أن ذكر الحيوانات وأغذيتها في هذا المقام مجرد تنظير لتقريب الفهم، ولكن إلى الآن لم نصل إلى الحقيقة التي سألتك عنها، وهي أن النظر في هذه العجائب يكون معرّفاً بالجنة والنار. فقلت: كل ما ذكرته الآن مقدمة لذلك، ولولا مبادرتك لي بالاستحسان لأتيت بالنتيجة. فهأنا ذا الآن أقول:

لو أنك أخذت الجمل ووضعت أمامه لحما أفيأكله؟ قال: لا. قلت: فلو أنك أتيت بأسد ووضعت أمامه حشائش أفتراه يأكلها؟ قال: لا. قلت: فإذا وضعنا الذباب في مكان نظيف لا رطوبات فيه أيعيش؟ قال: كلا. قلت: إذن ما تستنتج من هذا؟ قال: أستنتج نتيجة واحدة وهي معنى هذا المثل: «إن الطيور على أشكالها تقع»، ومعنى هذه الآية: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾[الإسراء: ٨٤]. وبصريح العبارة: كل حيوان لا يغادر عادته في طعامه. فقلت: حسن. وهكذا في العقول بطريق قياس التمثيل، فلا عقل يستلذ إلا بما عرفه، كما لا حيوان يستلذ إلا بما ألفه. قال: حسن جدا. قلت: إذا عرفت هذا فانظر في هذا الإنسان إذا فارقت روحه جسده وبقي العقل وحده في الجسم الأثيري بعد الموت، فأي معان تحل فيه؟ فقال: طبعا المعاني التي غلبت عليه في الحياة. قلت: وهذه غذاء عقلي له كما أن للأجسام غذاء ماديا. قال: نعم. قلت: فإذا كان الشرير في الحياة لا يتنعم تنعما عقليا إلا بمزاولة الشر ثم مات؛ فإن هذا الخلق يلازمه ويريد أن يفتك بمن اعتاد الفتك بهم أو يقاضيهم، فلا يجد منهم أحدا فيكون ذلك عذابا له، وإذا وضع مع أقرانه وعاش معهم في عالم الأرواح فإنه يفعل معهم ما كانوا يفعلونه في الدنيا لأنهم لا يعرفون غير ذلك، وإذا كنا نجد اللصوص وقطاع الطرق لا يفرحون إلا بإخوانهم؛ ولا يألفون مجالس العلماء والحكماء؛ فهكذا تكون أرواحهم بعد الموت لا تألف إلا أبناء جنسها، لأنها اعتادت الإجرام وهم مجرمون، وهي بهم فرحة، وهناك تكون مسرات وقتية بعدها آلام وهكذا. قال: حقا لا يكون غير ذلك. قلت: وإذا رأينا الذباب لا يفرح إلا بالقاذورات فهكذا فليكن

أولئك الذين انغمسوا بالمادة وحرمت عقولهم من الأدب والكمال، لا يلذ لهم إلا مثل ما كانوا فيه في الدنيا، فهم لذلك يعيشون مع أمثالهم وأصحابهم ويفرح بعضهم ببعض وقتاً ويلعن بعضهم بعضاً في وقت آخر كما كان شأنهم في الدنيا. فقال: حقاً لأن الطباع لا تتغير. فقلت: إذن بهذا القول اتضحت الحقائق، وأن الدنيا دار امتزج فيها المحبوب بالمكروه، والآخرة دار امتاز فيها المحبوب من المكروه، وهناك يكون الناس في مراتبهم، وكل طائفة لا تعاشر إلا أقرانها، ومن كانت أخلاقهم وعقولهم كاملة في الدنيا يكونون في لذة ذات نظام وسعادة، ومن تغلبت عليهم شهواتهم الحيوانية أو قواهم الغضبية، فهم في الدرك الأسفل كل على مقتضى خلقه وطبعه. وبعبارة أخرى توضح هذا المقام: إن العجائب المشاهدة في هذه الحيوانات أرتنا تفاوت الأغذية بتفاوت أنواع الحيوان ونظيره العقول، فكل عقل له غذاء يناسبه، فإن كانت صور الغذاء العقلي شريفة فبها وإلا فهي خسيسة ويوضع في مرتبته هناك.

وكما أننا نرى في الحياة الجرذان والحشرات ذليلة؛ هكذا نرى بعد الموت النفوس التي تشابهها ذليلة، ولو قيل لامرئ في الدنيا أيهما خير لك أتموت أم تصبح فأراً، فإنه لا يتردد في أن يقول العدم خير من الوجود إذا كان على هذا المثال، ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم: ٢٣]. إذن درجات النفوس بعد الموت ظاهرة واضحة في الحيوانات المشاهدة، وهذه العقول قد تربت في هذه الأجسام وصارت درجاتها مختلفة اختلاف هذه الحيوانات، فمن عقولهم في تنزّلها تشبه الحشرات تعيش معاً في المكان المسمى بجهنم، ومثلها النفوس التي أشبهت الصقور، ولكن إذا كان هذان القسمان قد هذبا وألقى العقل عليهما والدين نصائح؛ فإنهما يكونان في الجنة بشروط خاصة.

وبالجملة فإن أحوال أهل الجنة لها نظير في العالم المشاهد، وهذه المعاني التي ذكرتها الآن مع طولها تمر ببعض العقول في وقت قصير جداً، ومن النفوس الصافية ما تخطر لها هذه الخواطر حالاً، ولكن عدم مزاولة العلوم واللغات يقعدها عن التعبير. هذا ما أمكنني أن أجيبك به الآن. فقال: لقد فهمت حق الفهم وأنا لك شاكر، ولكن هل من فوائد تترتب على ما تقدم في أحوالنا المدنية؟ فقلت: إذا تفضلت بإيضاح السؤال أمكنني الإجابة. فقال: لقد ذكرت أن أمثال الذباب تعيش على العفونات والرطوبات، وجعلت هذه مثالاً للنفوس الشهوية، وذكرت أمثال الصقور والشواهين وجعلتها مثالاً للنفوس الغضبية.

ولقد انتهينا من تفسير كلام الشيخ الدباغ وأن هذه تذكرة لأحوال النفوس بعد الموت، فهل من سبيل إلى الانتفاع بهذه العلوم اللطيفة في مصر والشام والعراق وبلاد السودان وأفريقيا. فقلت: حسن ما تقول، نعم انظر إلى الأمم المستعمرة تدخل بلاد الشرق وتعطيهم من العلوم قشورها ومن الصناعات أضعفها وتمنع عنهم نور العلم وتعدّهم أشبه بالحيوانات الذليلة، فهي تسهل إدخال المشروبات الروحية من الخمر والمخدرات، وتسهل لهم أحوال البطالة والكسل، بما شجع أرباب المحال التي تستهوي العقول، فيجلس الشبان أكثر النهار بلا عمل فيها، وتوعز بالذين يأتون بالصور المتحركة «السينما» أن تكون كلها أو جلّها حافلة بالشهوات والمخازي وكل ما يسقط النفوس في المهاوي، فهذه المناظر

وتلك المشارب جعلتها الأمم المستعمرة شبكات لاصطياد العقول القوية ، بها يصطادونها فلا تقدر بعد ذلك على الخلاص ، وهذا هو الذي يبقي الاستعمار ، وهكذا يذيعون الروايات المملوءة بما يحط قيمة النفوس الإنسانية ، فتتحول العقول في تلك البلاد إلى حال تشبه حال العجماوات . ولكن الأمم الحرة لا تدخل شريطاً للسينما إلا إذا وجدته مهذباً للأخلاق رافعاً للنفوس معلماً للأمة ما تعيش به ، كالفلاحة والصناعات المختلفات ، فبدل أن تكون السينما والروايات لتشويق النفوس إلى كل ما يهدم الإنسانية ؛ تكون لإعلاء شأنها ورفع قدرها وتعليمها الصناعات وشوقها إلى المعاني والمعالي ، فالروايات والسينما وأمثالها إما مهيئات نفوس الناس إلى منزلة من منازل الجنة ، وإما إلى حفرة من حفر النار . والسبب في ذلك هم المستعمرون من الفرنجة الذين هم خلفاء المسيح الدجال ، لأنهم يظهرون أنهم مصلحون وهم يفسدون . هذا هو الذي كنت تريد أيها الذكي .

فقال : نعم ؛ هو والله جزاك الله خيراً . قلت : هل بقي لك سؤال؟ فقال : سؤال واحد هو أنه ظهر لي أن قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت : ٥٣] ؛ ظاهر أكثر ظهور في علوم عصرنا الحاضر . فقلت : حقاً ، فإن مشاهدة أعين الذبابة وأعين النملة مثلاً ونحو ذلك من العجائب المذكورة في هذا التفسير تدهش العقول ، وهو هو من مصداق أنه يرينا ، فهاهنا رأينا ذلك بالبصر بالمنظار المعظم والكشف المتتابع ، وذلك لم يكن فيما مضى . وإذا كان البرهان مبنياً على المشاهدة كان إلى اليقين أقرب . وإذا كان الله شهيداً على كل شيء والملائكة يشهدون العوالم ، فهاهم العلماء في زماننا يشهدون في عالم الحس عجائب الصنع ، وهذا قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران : ١٨] فهل بقي لك سؤال أيها الصديق؟ فقال : إن أذنت لي . فقلت : سل ما تريد . فقال : لقد ذكرت أن الدنيا امتزج فيها الخير والشر . أليس كمال الشيء أن يكون تاماً لا ناقصاً ، والوجود لا يكون تاماً إلا إذا كان فيه الأمران معاً ، فإنك أثبت في هذا التفسير أن الرحمة لا تتم إلا بوجود الضدين معاً ، والضدان هما الآن في الدنيا ، إذ الخير والشر امتزجا فيها . فقلت : إن العقول الشريفة في أرضنا جلّ اهتمامها بالبحث والنظر ، وأفعال الله في كل وجود كاملة ، وعقولنا اليوم تعيش في وسط الكمال والجمال ، غاية الأمر أن أكثرها لا يكشف له عن ذلك الجمال لغلبة المادة عليه . فإذا خلصت الروح من المادة ظهر لها الجمال ، فتكون أشبه بالمحبوس لم ير في السجن إلا صورة ضئيلة مما في الخارج ، فإذا خرج منه كان في حالة أشرف وأجمل . وإذا شبهناه بالجنين حين خرج من بطن أمه صحّ التشبيه . فقال : قد اكتفيت ولم يبق في نفسي شيء . فقلت : الحمد لله رب العالمين . وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة في قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت : ٥٣] الخ . كتب في صباح يوم الاثنين ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء التاسع عشر من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء العشرون

وأوله تفسير سورة « الشورى »

التقاريظ

لما كان هذا التفسير قد قرظه كثير من علماء الشرق والغرب وأطنبوا في مدحه رأينا أن ننشرها تباعاً تتميماً للفائدة .

التقريظ الأول

جاء في جريدة المقطم يوم ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هجرية تحت العنوان التالي ما نصه :

كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم

تأليف الأستاذ الفيلسوف حكيم الإسلام الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس سابقاً بدار العلوم والجامعة المصرية

إذا كنا بحاجة إلى كتب مفيدة نافعة تناسب حالات العصر وتتسق وما نحن عليه من اختراعات واستكشافات وظهور ما في الطبيعة من مكنونات ؛ فإن حاجتنا أعظم إلى تفسير كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، لما في ذلك من تثقيف العقول وتفجير ينابيع الرحمة في قلوب الخلق .

ولقد طالعنا كتب التفسير فلم نوفق إلى تفسير يشفي العلة وينقع الغلة حتى صادفنا «الجواهر» وهو تفسير للقرآن الكريم وضعه الأستاذ الجوهري ، فإذا به يمتاز على غيره من التفاسير بكثير من المزايا . منها أن عباراته سهلة مشوقة لا يملها المطالع . وأنه جمع فأوعى فكأنه دائرة معارف جامعة . وفيه أكثر من مائة مسألة من مسائل العلم الحديث تضمنها القرآن وسبق إليها وهي معجزة النبوة . وأنه ألمّ بقصص الأنبياء فأظهر أن المقصود منها نتائجها والاتعاظ بها . وأنه نظر إلى المسلمين نظرة حكيم وحضهم على الإكباب على العلوم العصرية والأخذ منها بقسط وفير . وأنه لم ينسج على منوال أولئك الذين يبذلون جهدهم في الجدل اللفظي وشرح الكلمات شرحاً مملًا . وأنه راعى تطبيق الآيات على خلاصة الفلسفة العصرية والعلوم الحديثة وما تضمنت من الرياضيات والفلكيات والمعدنيات والنباتات والحيوانيات . وإنما سبيله في التفسير أن يبدأ السورة بحصر مقاصدها ثم بيانها إجمالاً ، ثم يأخذ في تلخيص تلك المقاصد إجمالاً ، حتى إن المطلع بهذا يدرك ملخص السورة .

ثم هو من بعد ذلك يشرع في تفسير تلك المقاصد مبتدئاً بكتابة المقصد من القرآن بخط مشكّل ليقرأها المطلع قبل تفسيرها ، ثم يفسر ما في المقصد من ألفاظ ، ثم يعقب على ذلك بما في الآيات من أحكام شرعية عامة وما تضمنت من العلوم جميعها ، فنعم العمل وحبذا الهمم .

التقريظ الثاني

جاء في مجلة « المرشد » وهي مجلة علمية أدبية دينية تصدر بمدينة بغداد ، بتاريخ (١) محرم سنة ١٣٤٦ هجرية تحت العنوان التالي ما نصه :

تفسير الجواهر

لا ينكر ما لعلماء المسلمين اليوم من النزعة إلى تفسير القرآن وإظهاره بشكل يلائم روح العصر الحاضر ، وما لهم من الرغبة في استكشاف ما أقره العلم ووصل إليه من آي القرآن المجيد ، كما لا تنكر

حاجة المسلمين الشديدة إلى ذلك. ولقد سبق للأستاذ الشيخ محمد عبده أن فسر القرآن تفسيراً كان في بابه فاتحة دور جديد في التفسير، ولما لم يكن وافياً بالمقصد تماماً ولم يستوف الأجزاء والسور القرآنية مقتصراً في أكثر أبحاثه على السياسة ومعارضة الوثنيات المتغلغلة في طوائف المسلمين بحسب ما اعتقد مما جعل النفوس تشرئب إلى وجود كتب تفاسير أخرى تلائم العصر الجديد وعلومه بصورة أوسع.

ولقد قام العلامة الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري الأستاذ بالجامعة المصرية بمهمة تفسير القرآن فجاء بتفسيره المسمى «الجواهر»، فكان آية من آيات العصر لأنه أفاض في ذكر المخترعات والمكتشفات الحديثة واجتهد في ذكر الأحاديث الناطقة بها والآيات الدالة عليها سواء في مباحث السياسة والعمران أو في مباحث العلم والفن. وقد امتاز مع ذلك كله بأسلوب أخلاقي أدبي نفيس ينفع جداً وعاظ المسلمين وخطباءهم.

وقد أثبت هذا التفسير ما قاله سماحة العلامة الأستاذ السيد هبة الدين الشهرستاني الأفخم في مؤلفه الأستاذ الجوهري إنه رازي عصره، وغزالي مصره. وقال أيضاً: وهذا التفسير على ما هو عليه من الامتياز قد جاء بطبع متقن وعلى ورق صقيل. فحريّ بأن لا تخلو منه مكتبات رجال العلم والفضل فإنه كاف عن اقتناء مئات من الكتب الممتازة.

التقريظ الثالث

جاء في مجلة «المرشد» أيضاً في غرة شهر رمضان سنة ١٣٤٦ هجرية تحت العنوان التالي ما نصه:

كتاب تفسير الجواهر

الجزء ١ ـ ٥

إن للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري أيادي بيضاء على الأمة الإسلامية بما قام به نحوها من الخدمات العظيمة التي لم يحرز قصب السبق في مضمارها سواه، فهذه تآليفه الكثيرة في شتى العلوم والفنون، وكلها شاهدة على فضله وجلال قدره وطول باعه، وهي إما تخدم الأمة الإسلامية مباشرة أو بواسطة. وإن النزعة التي كانت تخالج ضمائر علماء المسلمين وتغلغلت فيها في تفسير القرآن الحكيم على نمط يلائم روح العصر الحاضرة ويخلو من شوائب الدس والخرافات التي ليست من الدين الإسلامي في شيء. ولقد وفق إليها العلامة «طنطاوي»، فتفسيره هو التفسير الوحيد الذي جاء على هذا النمط، وهو الذي يطلعنا على أسرار الشريعة الإسلامية وحقائقها الناصعة وما خفي قبلاً على المفسرين.

التقريظ الرابع

جاء من صاحب الفضيلة مفتي إيران في ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتي: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه السالكين على منواله وسلم.

إنه من عبد الله مفتي الديار الإيرانية السيد أبي القاسم الكاشاني عفا الله عنه. إلى روضة العلم التي أربعت أزهارها، وشجرة الفضل التي أينعت أثمارها، الفاضل النحرير، والكامل العديم النظير،

من إذا قيس عليه قس لفصاحته كان ازدراء به، وإن شبه بأدبه أدب سحبان كان تنقيصاً في أدبه، الإمام الأعظم، والهمام الأقوم، حضرة الأستاذ الحاوي، أعزّ المفاخر الشيخ الجوهري الطنطاوي، لا زال كوكب فضله مشرقاً وشجر نبله مورقاً.

وبعد: فمن فضله علينا، وإحسانه الأسنى إلينا، أن سرّح أنظارنا في تصنيفاتكم الشريفة. ونوّر أبصارنا بتأليفاتكم المنيفة، التي هي للعيون جلاء ونور، وللقلوب بهجة وسرور، فوجدتها بعد ما انتقدتها، والحق يقال عديمة المثال، ولا سيما التفسير الذي هو فقيد النظير، فكم بدت به نجوم يجتلى زهرها، وزهت فيه نجوم يجتنى زهرها، يقتبس منها ما يرام من الأنوار، ويقتطف منها ما يشاء من الأنوار، كأنه مسك به الأرجاء تمسكت، وروح به الأرواح تمسكت، يلوح منه شعاع يجمع كل شعاع دائم، لك فضل استباق الغاية في تفسيرك البديع الجليل الغاية.

فسرت وحي الله في حسن النسق ... فراق لفظه ومعناه ورق
أطربت في تفسيرك المثاني ... من لم يكن يطرب بالمثاني
راق بيانه وما أرقه ... إذ احتوى من البيان حقه
سحر حلال حلّ في البيان ... فأبهرت آياته بياني
فما فؤاد واع إلا اعتلقا ... بها إذ الناطق فيها نطقا
يتلو لها القرّاء سورة الفلق ... حفظاً لما حازته من حسن النسق
بديع تفسير به المعاني ... رائقة فائقة البيان
لا بدع في مبدعه ولا عجب ... فإنه رب الكمال والأدب
سما المعارف العليم الحاوي ... صحاح جوهر الهدى الطنطاوي
شمس سماء الفضل والفقاهة ... وبدر أفق النبل والنباهة
العلم الفرد الذي به اجتمع ... شمل العلوم وسناؤها اتسع
منار مجتلى الرشاد والعلم ... ومفرد الفضائل الغر العلم
علت مزاياه عدّاً ... وأنها هيهات أن تعدّا
في وصفها الرائق ما أقول ... فجمل الوصف له فصول
أقصرت عنه لقصور في القلم ... عن وصف تفسير حوى جمّ الحكم
فالمدح كل المدح إبدا العجز ... عن أن ينال بالأقل المجزي
دمت مناراً للورى ومجتلى ... نور الهدى لمن سناؤه اجتلى

وفي الختام نهدي جزيل السلام

السيد أبي القاسم الكاشاني

خادم الشرع الشريف ومفتي الديار الإيرانية عفي عنه

(٨) ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هجرية.

التقريظ الخامس

جاء في مجلة المجمع العلمي الشهرية التي تصدر في دمشق في الجزء الخامس والسادس من المجلد العاشر بتاريخ ١ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية ما يأتي :

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

أهدانا السيد مصطفى البابي الحلبي صاحب المطبعة المشهورة بمصر الأجزاء التي صدرت اليوم من التفسير النفيس المسمى بـ « الجواهر » ، وهي ستة عشر جزءاً تأليف العلامة الأستاذ طنطاوي جوهري ، وقد قضى الأستاذ سنين طويلة في تحبير هذا التفسير ولما يتم . ولقد بلغ فيه سورة « فاطر » .

ومن تصفحه أدرك سعة علم الأستاذ كما أدرك مبلغ العناء الذي كابده في وضع هذا التفسير والعناية التي بذلها في جمع مواده ، وتنسيق مباحثه . وأول ما يخطر للناظر فيه أنه لا ينظر في تفسير القرآن ، وإنما هو ينظر في دائرة معارف على القرآن تضمنت شرحاً لآياته ثم تاريخاً وأدباً وفلسفة وسياسة واجتماعاً وزجراً ووعظاً وتنبيهاً وتحذيراً ، حتى إنه لم يخل من ذكر نظرية « انيشتين » والاستشهاد بها على ما هو بصدده من تفسير الوحي الإلهي .

وكثيراً ما يقع نظرك على بحث في ثنايا الكتاب فتعجب لذكر مثله في تفسير القرآن حتى تراجع صفحات كثيرة سبقت ، فيتبين لك إذ ذاك وجه المناسبة ولو ضئيلة بين هذا البحث وبين الآية المفسرة . افتح مثلاً الجزء العاشر ص ٢٧٨ يقع نظرك على مسائل تحت أرقام متسلسلة ، ثم تقرأ تحت الرقم الأول ما نصه : الشعوب التي هي جديرة بالاستقلال التام . ويجب أن تتمتع به في الحال . وبينها الصين ومصر وسورية والعراق . فلا تكاد تصدق أنك تقرأ تفسيراً للقرآن ، فترجع أدراجك إلى ما سبق من المباحث مبحثاً مبحثاً ، فتجد نفسك في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ ﴾[الأنبياء : ٩١] ، ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ﴾[الأنبياء : ٩١] ، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ ﴾[الأنبياء : ٩٢] ، ﴿ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾[الأنبياء : ٩٣] .

فتفسير الجواهر لم يؤلف للطالب العجول . ولا للضجر الملول . وإنما ألف للزميت الوقور . الجليد الصبور .

ونرجو أن يكثر أمثال هؤلاء بين أبنائنا . وإنا لنشكر للمؤلف الفاضل خدمته كما نشكر للطابع الناشر هديته جزاهما الله عن أمتهما خير الجزاء .

فهرس الجزء التاسع عشر من كتاب
تفسير الجواهر